تاريخ السلاجقة في بلاد الشام

٤٧١ - ٥١١ هـ / ١٠٧٨ - ١١١٧م

تأليف
الدكتور محمد سهيل طقّوش
أستاذ التاريخ الإسلامي في جامعة الإمام الأوزاعي
كلية الدراسات الإسلامية

دار النفائس

تاريخ السلاجقة في بلاد الشام

تأليف:د.محمد سهيل طقوش

الطبعة الثالثة: ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩م

ISBN: 978-9953-18-044-1

نشر | Publisher



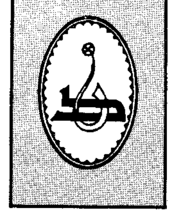
دار النفائس
للطباعة والنشر والتوزيع
شارع فردان - بناية الصباح
وصفي الدين - ص.ب 5152 - 14
الرمز البريدي: 2020 - 1105
فاكس: 009611861367
هاتف: 803152 - 009611810194
بيروت - لبنان

DAR AN-NAFAES
Printing-Publishing-distribution
Verdun Str - Safiedine bldg.
P.o.Box 14-5152
Zip code 1105-2020
Fax: 009611 861367
Tel: 00961 1 803152 - 810194.
Beirut - Lebanon

Email: alnafaes@yahoo.com

Email: alnafaes@alnafaes.com

Web Site: WWW.alnafaes.com



تاريخ السلاجقة

في بلاد الشام

٤٧١ ـ ٥١١ هـ/١٠٧٨ ـ ١١١٧م

بسم الله الرحمن الرحيم

صورة الغلاف

منارة جآم ، أفغانستان ١١١٦ - ١٢٠٢ م
داخل وعاء سلجوقي ، ايران القرن الثاني عشر
تمثال يمثل نموذجاً من الفن السلجوقي ، القرن الثاني عشر

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين محمد بن عبد الله خاتم النبيين وعلى آله وصحبه أجمعين ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين، وبعد:

تتناول هذه الدراسة تاريخ السلاجقة في بلاد الشام من جانبه السياسي، ويمتد في المدى الزمني أربعين سنة تقريباً بين سنتي (٤٧١ ـ ٥١١هـ/ ١٠٧٨ ـ ١١١٧م)، حفلت الأحداث خلالها بالتقلبات الكثيرة والسريعة، السياسية منها والعسكرية، وأثَّرت بشكل مباشر على تاريخ المشرق الإسلامي. وشهدت المدة الزمنية قبل ذلك انسياح الأتراك إلى غربي آسيا وتدخلهم في صميم الحياة الاجتماعية والسياسية والعسكرية في بلاد الشام.

يُعدُّ الأتراك من الشعوب ذات التاريخ القديم، إذ بدأ دورهم في القرن الثالث قبل الميلاد، وقامت صلات بينهم وبين العرب قبل الإسلام، إذ كان الفريقان يعملان جنوداً في الجيوش الفارسية والبيزنطية. وعرف العرب والأتراك بعضهم بعضاً عن كثب خلال الفتوح الإسلامية لبلاد ما وراء النهر، حيث أسلم قسم منهم، ثم بدأ استخدام العنصر التركي في الجيوش الإسلامية والدوائر الحكومية وقصور الخلافة، في العصر الأموي، ولكن على نطاق ضيِّق، ولم يكن لهم أي تأثير سياسي في المجتمع الإسلامي آنذاك. وبدأ هذا الاستخدام يتوسع في العصر العباسي الأول، فدخلوا في صميم الحياة الإسلامية بمقدار ما سمح لهم الخلفاء، وأخذ عددهم يزداد، وراحوا يظهرون على مسرح الأحداث في بغداد ظهوراً واضحاً منذ عهد المأمون الذي استخدمهم في الجيش ليحقق نوعاً من التوازن بين العنصرين العربي والفارسي.

وتلقف المعتصم هذه العصبية الجديدة النامية لاستغلال مواهبها العسكرية للحفاظ على دولته والإبقاء على خلافته في ظل الصراع العربي ـ الفارسي، فاستخدم

الأتراك في الجيش على نطاق واسع، وجعلهم تحت إمرة قادة منهم، ومكَّنهم في الأرض وجعل لهم مركزاً في مجال السياسة.

وخطا الأتراك خطوة أخرى في العصر العباسي الثاني، فأخذوا يتدخلون في اختيار وتولية الخلفاء وعزلهم، وتمكّنوا من إقامة دول انفصالية على حساب الخلافة نذكر منها الدولتين الطولونية والأخشيدية في مصر.

وشكَّل العصر العباسي الثالث رد فعل مناهض للنفوذ التركي، ومثَّل حركة فارسية شيعية زيدية من خلال البويهيين، لكن الحضور التركي استمر قوياً في المشرق الإسلامي حيث قامت الإمارة القراخانية والإمارة الغزنوية إلى جانب إمارات فارسية مثل الإمارة السامانية.

وظهر الأتراك السلاجقة على المسرح السياسي في أواخر القرن الرابع الهجري/ الثاني عشر الميلادي، في بلاد ما وراء النهر بعد أن نزحوا من موطنهم الأصلي في جوف آسيا، وكانوا قد اعتنقوا الإسلام على المذهب السني، فانخرطوا في لعبة التنافس على النفوذ مع القوى المحلية، ونجحوا في القضاء على النفوذ الغزنوي في خراسان، وأسسوا دولة سلجوقية تركية فيها متخذين من مدينة نيسابور عاصمة لهم، واعترفت الخلافة العباسية بشرعية وجودهم.

وبدا للسلاجقة أن يتمدَّدوا نحو الغرب، لإنقاذ الخلافة العباسية من سيطرة البويهيين، فدخلوا بغداد وقضوا على هؤلاء، وحلوا محلهم في احتضان الخلافة من واقع سيطرتهم على مقدراتها، ووجدوا أنفسهم على حدود الدولة البيزنطية في الشمال والشمال الشرقي، وعلى حدود بلاد الشام.

كانت هذه البلاد آنذاك مقسمة بين عدة قوى. ففي الشمال شكَّل العرب دولة في حلب وجوارها، وسيطر الفاطميون في الوسط وفي الجنوب، فكانت دمشق وبعض أجزاء فلسطين ومدن الساحل تحت سيطرتهم.

وورث السلاجقة الصراع القديم بين السنة والشيعة من واقع مساندة الخلافة العباسية ضد الفاطميين، وقرروا طردهم من بلاد الشام والقضاء عليهم في مصر، وإعادة هذا البلد إلى فطرة الخلافة العباسية.

وكانت بلاد الشام قد شهدت نزوح جماعات تركية مختلفة، بزعامة أفراد يعملون لحسابهم الخاص ضمن إطار سلجوقي عام، ممهدين الطريق لسيطرة السلاجقة، فسيطر القائد التركي أتسز بن أوق الخوارزمي على دمشق وبيت المقدس.

شجَّعت هذه النجاحات التركية الفردية السلطان ملكشاه السلجوقي على

الدخول في لعبة التنافس والسيطرة، فعيَّن أخاه تاج الدولة تُتُش والياً على بلاد الشام وما يفتحه من بلاد، وأمره بضم هذا البلد إلى الأملاك السلجوقية والقضاء على الفاطميين في مصر.

جاء تُتُش إلى بلاد الشام في عام (٤٧٠هـ/ ١٠٧٧ ـ ١٠٧٨م) حاملاً معه المشروع السلجوقي، فانتزع دمشق من يد أتسز وأسس لنفسه ولأسرته سلطنة سلجوقية عُرفت في التاريخ باسم سلطنة سلاجقة الشام، وذلك في عام (٤٧١هـ/ ١٠٧٨م)، ثم ضمَّ حلب قبل أن يلقى حتفه في صراعه مع ابن أخيه السلطان بركياروق بن ملكشاه في عام (٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م).

تقاسم تركة تُتُش ولداه رضوان ودقاق في ظل صراع على السلطة، كان يغذيه الأمراء النافذون للحفاظ على امتيازاتهم، مما أدى إلى انقسام بلاد الشام بين الأخوين، فحكم الأول بلاد الشام الشمالية متخذاً من مدينة حلب عاصمة له، وحكم الثاني بلاد الشام الوسطى وبعض أجزاء من الجنوب، متخذاً من دمشق عاصمة له، واتسمت العلاقات بينهما بالعدائية، حيث حاول كل واحد منهما أن يضمَّ أملاك الآخر وتوحيد بلاد الشام تحت سلطانه.

ووصلت في غضون ذلك الحملة الصليبية الأولى، ووجد الصليبيون في بلاد الشام قوى مفكَّكة تمزقها الصراعات مما مهد الطريق أمامهم لاحتلال أنطاكية وتأسيس إمارة في ربوعها، قبل أن يتابعوا زحفهم نحو بيت المقدس دون أن يصادفوا مقاومة تذكر. وسقطت المدينة في أيديهم وأسسوا إمارة بيت المقدس، تحت سمع وبصر القوى الإسلامية، واتسمت العلاقات السلجوقية ـ الصليبية بالعدائية غالباً.

استمر الانقسام والتمزق السياسي سائداً في بلاد الشام بعد وفاة الأخوين دقاق ورضوان في عامي (٤٩٧هـ/ ١١٠٤م) و(٥٠٧هـ/ ١١١٣م)، وكأن القوى الإسلامية المحلية لم تتَّعظ بما حل بها على أيدي الصليبيين. ففي الجنوب سيطر طغتكين، أتابك دقاق، على مقدرات الأمور في دمشق وأسس لنفسه ولأسرته إمارة فيها عُرفت في التاريخ باسم الإمارة البورية، وفي الشمال، تنازعت عدة قوى للسيطرة على حلب، وسقطت أخيراً في يد عماد الدين زنكي مؤسس الأتابكية الزنكية.

والحقيقة أن موضوع تاريخ السلاجقة في بلاد الشام لم يحظ بعناية المؤرخين المحدثين، ولم تنل هذه الدولة حظَّها من البحث المتخصِّص، ثم إن الدراسات القليلة التي عالجت تاريخ هذه المرحلة الزمنية اقتصرت على جانب معين من خلال

التأريخ لمدينة حلب، بالإضافة إلى ما ورد عرضاً في كتب التاريخ التي تعالج تاريخ الحروب الصليبية.

ولما كانت المكتبة العربية بحاجة إلى دراسة علمية متخصِّصة تعالج تاريخ السلاجقة في بلاد الشام، حاولنا الكتابة في هذا الموضوع لنعطي صورة شاملة بحيث تنجلي للقارئ مرحلة مهمة من مراحل تاريخنا الإسلامي.

استندتُ في هذه الدراسة إلى مصادر هامة ومتنوعة لمؤرخين عاصروا الأحداث واشتركوا فيها، فكتبوا ما شاهدوه، بالإضافة إلى مؤرخين متأخرين اختصوا بتاريخ المنطقة وأضافوا إلى الأحداث روايات أخرى.

وآمل بما اعتمدت عليه أن يجلي الحقيقة التاريخية، كما آمل بأن تكون هذه الدراسة المتواضعة قد استوفت الحد الأدنى من شروط البحث العلمي، وقدَّمت ما هو حيوي ونافع لأجيالنا الطالعة.

أما تشكيلات الموضوعات التي يراها القارئ بعناوينها الكبيرة فقد قسَّمتها إلى عشرة فصول.

عرضتُ في **الفصل الأول** أصل الأتراك، وتناولت علاقتهم المبكرة بالمسلمين بدءاً من العصر الراشدي حتى العصور العباسية.

وعالجتُ في **الفصل الثاني** الأوضاع السياسية في المشرق العربي قبيل قدوم السلاجقة، من واقع التطرق إلى أوضاع العراق السياسية، ثم أوضاع بلاد الشام السياسية والنشاط التركي المبكر في بلاد الشام، بالإضافة إلى القوى السياسية التي كانت موجودة في هذه البلاد.

وشمل **الفصل الثالث** موضوع ظهور السلاجقة على المسرح السياسي، ونشاطهم السياسي والعسكري، ونجاحهم في تأسيس سلطنة سلجوقية تركية في خراسان، ثم تمدُّدهم نحو العراق وسيطرتهم على هذا البلد.

وتناولتُ في **الفصل الرابع** الغزو التركي لبلاد الشام، فتعقَّبت الموجات التركية التي طرقت أبواب هذه البلاد، كان آخرها الموجة السلجوقية.

وتضمن **الفصل الخامس** سجلاً لكيفية الاستقرار السلجوقي في بلاد الشام، وقيام سلطنة السلاجقة في بلاد الشام على يد تُتُش.

وعالجت في **الفصل السادس** تاريخ بلاد الشام تحت الحكم السلجوقي، وتطرقت إلى الصراع بين تُتُش وآق سُنقر حاكم حلب، ثم توحيد بلاد الشام على يد الأول بعد أن تغلَّب على الثاني وقتله.

وشمل **الفصل السابع** تاريخاً للأوضاع الداخلية في بلاد الشام في عهد ابني تُتُش رضوان ودقاق، وقد غلب عليه طابع الصراع السياسي والعسكري من أجل توحيد بلاد الشام والانفراد بحكمها.

وتطرقتُ في **الفصل الثامن** إلى تأريخ الأوضاع السياسية في حلب بعد وفاة رضوان، من خلال صراع الأمراء المحليين والأمراء المجاورين من أجل السيطرة على حلب وحتى السقوط بيد عماد الدين زنكي.

وعالجتُ في **الفصل التاسع** العلاقات السلجوقية ـ الصليبية بعد وصول الحملة الصليبية الأولى إلى بلاد الشام، واختص هذا الفصل بالمواجهات العسكرية في شمالي بلاد الشام.

وتابعت في **الفصل العاشر** تأريخ العلاقات السلجوقية ـ الصليبية، واختص هذا الفصل بالمواجهات العسكرية في جنوبي بلاد الشام.

وأنا على ثقة بأن القارئ سيجد في هذه الدراسة متعة وفائدة كما سيلمس فيها موضوعية في معالجة الأحداث.

والله أسأل أن يجعلها خالصة لوجهه الكريم، وأن ينفع بها القارئ العربي والمسلم، إنه سميع مجيب.

د. محمد سهيل طقوش

الفَصْلُ الأولُ

الأتراك

أصلهم ـ علاقتهم المبكرة بالمسلمين

أصل الأتراك

يكاد يجمع المؤرخون على أن أصل الأتراك يعود إلى يافث بن نوح. يقول الطبري: «إن سام بن نوح أبو العرب وفارس والروم، وإن حام أبو السودان، وأن يافث أبو الأتراك ويأجوج ومأجوج»[1]. ويتفق المسعودي مع الطبري في ذلك[2]. ويذكر ابن خلدون: «اتفق النسابون، ونقله المفسرون على أن ولد نوح الذين تفرعت الأمم منهم، ثلاثة: سام وحام ويافث، وقد وقع ذكرهم في التوراة، وأن يافث أكبرهم وحام الأصغر وسام الأوسط، وإن من ولد يافث، الترك والصين والصقالبة، ويأجوج ومأجوج، باتفاق النسابين»[3].

ويبدو أن الكتّاب المسلمين أعطوا الأتراك نسباً يتفق مع فكرتهم الإسلامية في تقسيم الشعوب، فقالوا إنهم من أبناء يافث بن نوح. والحقيقة أن هذا التوجه التفسيري لأصل الأتراك، بعيد عن تاريخ الإسلام والعرب، وهو مستقى من الينابيع التوراتية، تلقَّفه بعض اليهود وأدخلوه في الكتب التاريخية، مثل كعب الأحبار، ووهب بن منبِّه وغيرهما، لكن مما لا شك فيه بأن الأتراك نشأوا كأي أمة بدوية، لهم ميزتهم الطبيعية والقومية التي اشتهروا بها في موطنهم الأصلي في آسيا الوسطى، وشغلوا المنطقة الواقعة بين التيبت والصين في الشرق، وجاوروا الجنس الآسيوي القديم ـ السيبيري ـ في الشمال، والشعوب الفلاندية الأوغرية في الغرب. وهذه المنطقة هي على شكل شبه منحرف تحدها من الجنوب جبال الهملايا، ومن

(١) تاريخ الرسل والملوك: جـ ١ ص ٢٠٦.

(٢) أخبار الزمان ومن أباده الحدثان: ص ٧٥.

(٣) تاريخ ابن خلدون: جـ ٢ ص ٦ ـ ٧.

الجنوب الغربي هضبة البامير، ومن الغرب جبال ألتاي وبابلونوي وستانوفوي، ومن الشرق جبال كنجان وكوكونور، وتبلغ مساحة الأراضي المحصورة بين هذه الحدود حوالي ستة ملايين كيلومتراً مربعاً، فيها الجبال والهضاب والمنخفضات.

نشأ الأتراك، إذن، من جماعة عرقية ولغوية لعلها كانت تضم في العصور الأولى المغول والتانغوت أيضاً، حتى إذا دخلوا الطور التاريخي كانت قد تمَّت لهم خصائص عرقية متميزة دعاها علماء الأجناس البشرية بالخصائص الطورانية.

ويبدو من خلال ذلك، أن موطن الأتراك يشمل المناطق الواقعة بين نهري جيحون وسيحون أو الإقليم المسمى في المصطلح الإسلامي باسم بلاد ما وراء النهر[١] وقد أطلقه المسلمون على المنطقة المتحضرة الواقعة بين النهرين المذكورين. ولم تكن هذه المنطقة، وفقاً لمفهوم الجغرافيين المسلمين، تدخل ضمن تركستان، لأن هذا الاسم كان يُقصد به بلاد الترك بعامة، أي الأصقاع المترامية الأطراف الممتدة بين بلاد الإسلام وأمبراطورية الصين، والتي كان يقطنها الرحل من الأتراك والمغول[٢].

انتشرت الديانة الشامانية[٣] بين الأتراك ويعتقد أتباعها بوجود إلهين، إله للسماء وإله للأرض، كما عرفوا البوذية التي تسربت إليهم من الهند، والزرادشتية والمانوية، وقد دخلتا عليهم من فارس، والنصرانية النسطورية التي حملها إليهم المبشرون[٤]. ونلمس في عقائدهم آثار طوطمية، فقد تسمَّوا بأسماء حيوانات مثل أرسلان ويعني أسد، كما أطلقوا اسم اثني عشر نوعاً من الحيوانات على اثني عشر سنة، وأن لكل سنة حكمة يتفاءلون بها تتعلق غالباً بالناحية الاقتصادية، وهذه صفة اختصت بها القبائل البدوية الرعوية، والغالب عليهم مذهب الزندقة على مذهب ماني[٥].

اتصف العنصر التركي بصفات البدو، متأثراً بالبيئة التي عاش فيها، مثل الشجاعة والغلظة والشراسة والذود عن الأسرة والمجاهدة للخصم، والحماية

(١) اشهر مدن ما وراء النهر هي: بخارى، سمرقند، كش، نخشب، بيكند، الصغانيان، فرغانة، الصغد، الشاش، أشروسنة، خجندة وغيرها.

(٢) بارتولد: تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي ص ١٤٥.

(٣) الشامان: كاهن ومنجم وطبيب وساحر له القدرة على القيام ببعض الخوارق، وتنتقل معه إلى القبر.

(٤) المصري، حسين مجيب: صلات العرب والفرس والترك ص ٢٨٣.

(٥) ابن الفقيه: كتاب البلدان: ص ٦٣٥.

للرهط والعشيرة، والغيرة، والصبر وغيرها من الصفات البدوية. ووصف الجاحظ الأتراك فقال: «الترك أصحاب عمد وسكان فياف وأرباب مواشٍ، وهم أعراب العجم كما أن هذيلاً أكراد العرب، فحين لم تشغلهم الصناعات والتجارات والطب والفلاحة، والهندسة ولا غرس ولا بنيان ولا شق أنهار ولا جباية غلّات، ولم يكن همهم غير الغزو والغارة والصيد وركوب الخيل ومقارعة الأبطال، وطلب الغنائم، وتدويخ البلدان... وصار ذلك هو صناعتهم وتجارتهم ولذتهم وفخرهم وحديثهم وسمرهم»[1]. وقال ابن الفقيه: «منهم بادية يحلون ويرتحلون وينتجعون الغيث ويتبعون الكلأ، كما تفعل البوادي في بلد الإسلام، وهم لا يدينون لملك ولا يعطون طاعة لأحد، يغير بعضهم على بعض فيسبون الحرم والذراري...»[2].

بدأ ظهور الأتراك على المسرح السياسي في القرن الثالث قبل الميلاد، وقامت صلات غير مباشرة بينهم وبين العرب في العصر الميلادي وقبل ظهور الإسلام، إذ كان العنصران يعملان في الجيوش الفارسية والبيزنطية. فعندما استولى الفرس على اليمن في عام ٥٧٩م في عهد هرمز بن كسرى أنوشروان (٥٧٨ ـ ٥٩٠م) كان الأتراك في عداد جيشهم، والمعروف أن والدة هرمز تركية[3]. واشترك العنصران التركي والعربي في الحرب الأهلية التي جرت بين بهرام جوبين وكسرى أبرويز (٥٩٠ ـ ٦٢٨م) فقد حارب الأتراك إلى جانب الأول، في حين ساند العرب الثاني[4].

وبرز الدور التركي على المسرح السياسي واضحاً منذ القرن السادس الميلادي، حين راحوا يضغطون على مناطق الحدود الفارسية حول بحري الخزر ـ قزوين ـ والأسود. وشعرت السلطات الفارسية بهذا الضغط التركي، فقاومته بإقامة الأسوار والقلاع والحصون إلى الشرق من بحر الخزر وبخاصة لحماية مدينة جرجان[5]، لكن هذه الإجراءات لم تحل دون تدفق الأتراك وغزوهم للمناطق الغربية.

وفي منتصف القرن السادس الميلادي استطاع خانات الأتراك توحيد آسيا

---

(١) رسائل الجاحظ: جـ ١ ص ٧٠ ـ ٧٢.

(٢) كتاب البلدان: ص ٦٤٣.

(٣) الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير: تاريخ الرسل والملوك: جـ ٢ ص ١٧٢.

(٤) انظر فيما يتعلق بهذه الحرب الأهلية: الشاهنامة للفردوسي: جـ ٢ ص ٢١٣ ـ ٢٢٩.

(٥) جرجان: مدينة مشهورة عظيمة بين طبرستان وخراسان. الحموي شهاب الدين ياقوت: معجم البلدان جـ ٢ ص ١١٩.

الوسطى تحت سلطانهم وشكَّلوا دولة اتحادية، فتغلبوا على الهياطلة[1] وغيرهم من العناصر الطورانية، بل إنهم أملوا في القضاء على الدولة الساسانية بالتعاون مع الأمبراطورية البيزنطية، ولكن ضعف هؤلاء حال دون تنفيذ ذلك[2].

ولم تلبث دولة الأتراك أن انقسمت في القرن الثامن الميلادي إلى مملكتين شرقية وغربية، وقد مرَّتا بمراحل القوة والضعف استفاد منها الصينيون والمسلمون.

اهتم المؤرخون والأدباء المسلمون بالحديث عن العنصر التركي منذ بداية القرن الثالث الهجري، ويحدد الجاحظ قبائل الأتراك المشهورة عند العرب وهم الغز[3] والقرغز والخزر والخرلوخ والبجناكية وغيرهم[4]، في حين يذكر ابن الفقيه أجناس الترك على الشكل التالي:

الخرلخ: وهم ما يكون إلى ناحية سمرقند، وهم عتاق الترك.

الغز والتغزغز.

الكيماك: وهم الملوك، وهم أوغل في بلادهم وأعزهم عند جميع الترك البشناكية والشرية.

والتغزغز عرب الترك، وهم أصحاب عمد يحلون ويرحلون.

البذكشية: أصحاب بناء وقرى[5].

ويذكر القلقشندي: «هم الأمة المشهورة، وهم من بني ترك بن كومر بن يافث

---

(١) الهياطلة: هيطل اسم لبلاد ما وراء النهر، وهي بخارى وسمرقند وخجندة، وما بين ذلك وخلاله. سمي بهيطل بن عالم بن سام بن نوح... وسار إليها في ولده من بابل عند تبلبل الألسن فاستوطنها وعمرها وسميت باسمه. الحموي: جـ ٥ ص ٤٢٢. ابن الفقيه: ص ٦٠١. ويُذكر في هذا الصدد أن قبائل الهون البدوية الضاربة على نهر الفولغا، تعرَّضوا لضغط قبائل بدوية أخرى، فنزح قسم منهم إلى واحات سمرقند والصغد، وتحضَّروا على مر الزمان وهم الذين سموا بالهون البيض، وقد حاربهم الساسانيون وسموهم الهياطلة.

(٢) بارتولد: ص ٣٠٥.

(٣) وردت الإشارة إليهم في نقوش أورخون في القرن الثامن الميلادي باسم التغزغز، أي القبائل العشرة، كما ورد أيضاً ذكر الأوغوز، طوقوز، أي القبائل التسع. والأوغوز في اللغة العربية الغز، على أن هذا اللفظ جرى إطلاقه فيما يبدو على القبيلة الكبيرة التي وحَّدت في القرن السادس الميلادي جميع القبائل في أمبراطورية واحدة امتدت من الصين إلى البحر الأسود.
العريني، السيد الباز: المغول ص ٣ ـ ٣١.

(٤) كتابجي، زكريا: الترك في مؤلفات الجاحظ ص ٣٠.

(٥) كتاب البلدان: ص ٦٣٤.

ابن نوح عليه السلام، ويدخل في جنسهم القفجاق ـ الخفشاخ ـ والطغزغز، وهم التتر، والخطا والخرلخية والخزر، وهم الغز الذين كان منهم ملوك السلاجقة، والهياطلة وهم الصغد(١).

فتح بلاد الأتراك

في العصر الراشدي

ابتدأت العلاقات المباشرة بين المسلمين والأتراك منذ الفتوح الإسلامية للمشرق في عهد عمر بن الخطاب. والمعروف أن النبي محمد ﷺ وجَّه رسائل إلى كسرى والنجاشي وهرقل والمقوقس يدعوهم فيها إلى الإسلام، كذلك يُذكر أنه كان من بين أصحابه سلمان الفارسي وبلال الحبشي وصهيب الرومي. ولم يذكر المؤرخون أنه وجَّه رسائل إلى ملوك وأمراء الأتراك على الرغم من عمومية الرسالة المحمدية، كما لا يُذكر أنه كان أحد من الأتراك من بين أصحابه، ولعل السبب في ذلك أن الأتراك كانوا بعيدين جداً عن مركز الدعوة الإسلامية في الحجاز حيث نلاحظ أن النبي وجَّه رسائله إلى الملوك والأمراء المجاورين، كما أن العرب لم يكن لهم إلمام باللسان التركي بوجه عام، يضاف إلى ذلك أن الأتراك لم يكونوا تحت سلطة ملك واحد يمكن مخاطبته إنما كانوا مجرد قبائل بدوية تنتجع الماء والكلأ، ليست لها حضارة أو ثقافة بارزة مما يُلفت الأنظار(٢).

وبعد أن فتح المسلمون بلاد فارس وضمُّوها إلى الأملاك الإسلامية أضحوا وجهاً لوجه مع العناصر التي تسكن بلاد ما وراء النهر ومعظمها عناصر تركية، ووجدوا أنفسهم أمام عدد كبير من الإمارات التركية الصغيرة التي كانت في حال عداء مع بعضها البعض، لعل أهمها:

- طخارستان، وتقع على ضفتي نهر جيحون وعاصمتها مدينة بلخ(٣).
- الختل(٤)، قصبتها هُلْبُك، وهي أول إمارة وراء نهر جيحون.
- الصغانيان، وقصبتها الصغانيان.

---

(١) صبح الأعشى في صناعة الإنشا: جـ ١ ص ٤٢٠ ـ ٤٢١.

(٢) الليميلم، عبد العزيز محمد: نفوذ الأتراك في الخلافة العباسية جـ ١ ص ١٨٠ ـ ١٨١.

(٣) بلخ: مدينة مشهورة بخراسان. الحموي: جـ ١ ص ٤٧٩.

(٤) الختل: كورة واسعة كثيرة المدن، تقع خلف نهر جيحون وهي على تخوم السند. المصدر نفسه: جـ ٢ ص ٣٤٦.

- خوارزم[1] وقصبتها الجرجانية.

كان الوضع السياسي لهذه الإمارات مزعزعاً بفعل النزاعات الدائمة التي كانت تنشب بينها، مما شكل خطراً على المسلمين الذين تاخمت حدود بلادهم في خراسان[2] حدود هذه الإمارات، مما جعلهم يفكرون في وضع حد لحالة الفوضى في هذه البلاد بضمِّها إلى الدولة الإسلامية، ونشر الإسلام في ربوعها، وإخضاعها للنظام قبل أن يستفحل خطرها، مع الإشارة إلى أن هذه الإمارات، على الرغم من تناحرها، كانت تتحد كلما شعرت بوجود خطر خارجي يهددها.

أما من الناحية الاجتماعية، فقد فرضت البيئة على سكانها نوعاً من الحياة شبيهاً بحياة الصحراء. ونتيجة لتطورهم الاجتماعي، أسسوا مدن ذات أنظمة شبيهة بأنظمة دول المدينة، وكانت على شيء من الحضارة والاستقرار، وكان من العسير على سكان السهوب التسرب إليها وإقامة صلات وثيقة معها، وعلى ذلك لقد كانت هناك علاقات تجارية بين العالم الإسلامي والأتراك قبل تحولهم إلى الإسلام بفضل التجار ورجال الدين من المتصوفة[3]، ونتيجة لهذه العلاقات، فقد توفَّر للمسلمين بعض المعلومات عن قبائل الأتراك وممالكهم وعاداتهم.

حاول المسلمون، في بادئ الأمر، دعوة الأتراك إلى الإسلام، ولكن الذين استجابوا كانوا فئة قليلة، وأصرَّت الغالبية على الاحتفاظ بوثنيتها، بل انها جاهرت المسلمين بالعداء، فقام هؤلاء بعدة هجمات على بلاد ما وراء النهر في العهد الراشدي.

ويبدو أن عمر بن الخطاب كان حذراً بشأن عبور المسلمين لنهر جيحون، ونهاهم عن ذلك، ولما بلغه غلبة الأحنف بن قيس على المرْوَيْن[4] وبلخ كتب إليه

---

(١) خوارزم: كورة كبيرة واسعة تقع على نهر جيحون ممتدة العمارة على عمل بلاد الروم وسجستان وكازرون، لا تنقطع المنازل والبساتين، كثيرة المعاصر والمزارع والشجر والفواكه والخيرات، وفيها بحيرة تحمل الاسم نفسه. المقدسي، أبو عبد الله محمد المعروف بالبشاري: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص ٢٢٧ ـ ٢٢٩.

(٢) خراسان: بلاد واسعة، أول حدودها ما يلي العراق أزاذ دار قصبة جوين وبيهق، وآخر حدودها مما يلي الهند طخارستان وغزنة وسجستان وكرمان وليس ذلك منها إنما هو أطراف حدودها، وتشتمل على أمهات البلاد منها نيسابور وهراة ومرو وبلخ وطالقان ونسا وأبيورد وسرخس. الحموي: ج ٢ ص ٣٥٠.

(٣) ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار وممالك الأمصار ص ٣٩.

(٤) المروين: مرو الروذ ومرو الشاهجان.

«أما بعد، فلا تجوزن النهر واقتصر على ما دونه، وقد عرفتم بأي شيء دخلتم على خراسان، فداوموا على الذي دخلتم به خراسان يدم لكم النصر، وإياكم أن تعبروا فتفضُّوا»[١].

أما في عهد عثمان بن عفان، فقد توجَّه الأحنف بن قيس إلى طخارستان، وفتح الطالقان[٢]، وسار إلى بلخ فصالحه أهلها، ثم زحف إلى خوارزم وعبر نهر جيحون، فصالحه سكان بلاد ما وراء النهر[٣].

ويورد البلاذري روايات عديدة حول عبور المسلمين النهر، منها: «أن عبد الله بن عامر عبر النهر وأحرم لله شكراً»[٤]، «إن الحكم بن عمرو الغفاري هو أول من صلَّى من وراء النهر»[٥].

غير أن المسلمين لم يُحقِّقوا أي انتصار جدِّي يسمح لهم بفتح المدن والاستقرار فيها. ثم توقَّفت حركة الفتوح في أعقاب مقتل عثمان بن عفان في عام (٣٥هـ/ ٦٥٦م) بسبب الاضطرابات الداخلية التي شهدتها الخلافة الراشدة.

في العصر الأموي

تقدم لنا الروايات التاريخية صورة واضحة تساعد على استيعاب روح ذلك العصر، ولا تترك مجالاً للشك في أن الهدف الرئيسي للفتوح إنما كان نشر الدين الإسلامي، ووضع حد للنزاعات الداخلية الدائمة بين الإمارات التركية، أما الحصول على الغنائم فكان نتيجة طبيعية للانتصارات.

ابتدأت الغزوات الأولى على شكل غارات صيفية، حيث كان المسلمون يعودون لتمضية فصل الشتاء في خراسان. ولعل سَلْم بن زياد الذي ولّاه يزيد بن معاوية، هو أول من أمضى فصل الشتاء على الجانب الآخر من النهر[٦]. ويذكر البلاذري أن أهل خوارزم صالحوه على أربعمائة ألف وحملوها إليه، وقطع النهر ومعه امرأته أم محمد بنت عبد الله بن عثمان بن أبي العاص الثقفي، وكانت أول عربية عبر بها النهر[٧].

---

(١) الطبري: ج ٤ ص ١٦٨.

(٢) الطالقان: أكبر مدينة في طخارستان، وهي مدينة في مستوى الأرض، وبينها وبين الجبل غلوة سهم، ولها نهر كبير وبساتين. الحموي: ج ٤ ص ٦.

(٣) البلاذري، الإمام أبو الحسن: فتوح البلدان: ص ٣٩٧ ـ ٣٩٨.

(٤) المصدر نفسه: ص ٣٩٨.

(٥) المصدر نفسه: ص ٤٠٠.

(٦) بارتولد: ص ٣٠١.

(٧) فتوح البلدان: ص ٤٠٣.

وغادر سلم بن زياد مقر قيادته في خراسان في أعقاب الاضطرابات التي حصلت عقب وفاة يزيد بن معاوية في عام (٦٤هـ/ ٦٨٣م) والتي انتهت بسيطرة القيسيين بزعامة عبد الله بن خازم الذي استمر حاكماً على خراسان حتى عام (٧٢هـ/ ٦٩١م) حيث قُتل بأمر الخليفة عبد الملك بن مروان لرفضه مبايعته[١].

وكان عبد الله بن خازم قد أرسل ابنه موسى إلى بلاد ما وراء النهر ففتح تِرمِذ[٢]، وانتصر على تحالف ضمَّ الأتراك والفرس والهياطلة، وأجبر أخشيد[٣] الصغد، وهو طرخان، على التقهقر[٤].

وفي خضمِّ النزاعات الداخلية بين الولاة، دخل موسى في نزاع مع ثابت بن قحطبة الخزاعي الذي كان يتمتع بشعبية كبيرة. واستطاع القائد عثمان بن مسعود، بتكليف من الوالي المفضل بن المهلب، من انتزاع مدينة تِرمِذ من يد موسى في عام (٨٥هـ/ ٧٠٤م) بمساعدة أخشيد الصغد وملك الختل، وقتله[٥].

وهكذا كانت التحالفات مع الأتراك، الذين بدأوا يتدخلون في الشؤون الداخلية لأطراف النزاع، تتغيَّر وتتبدَّل وفقاً لتطور الظروف السياسية في ظل صراع الأمراء المسلمين.

وبدأ الأتراك، منذ ذلك الوقت، يتسربون إلى صميم المجتمع الإسلامي. فنرى الكثير منهم يعملون في قصور الخلفاء، يقومون بأعمال الحراسة والحفاظ على سلامة الخلفاء الشخصية، بل كان هؤلاء يستعينون بهم لإخماد الفتن. فقد استخدم عبد الملك بن مروان طائفة من الجند الأتراك الفرغانية لقتال الحارث بن عبد الرحمن بن سعيد الدمشقي الذي ادعى النبوة وتحصَّن في بيت المقدس[٦].

وكان قتيبة بن مسلم الباهلي، الذي عيَّنه الحجاج بن يوسف الثقفي والياً على خراسان في عام (٨٥هـ/ ٧٠٤م)، أول من ثبَّت دعائم الحكم الإسلامي في بلاد ما

---

(١) ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن... الشيباني المعروف بالجزري: الكامل في التاريخ جـ ٢ ص ٣٩٥ ـ ٣٩٦.

(٢) تِرمِذ: مدينة مشهورة من أمهات المدن، راكبة على نهر جيحون من جانبه الشرقي، متصلة العمل بالصغانيان. الحموي: جـ ٢ ص ٢٦.

(٣) الأخشيد: لقب لملوك فرغانة من الأتراك.

(٤) ابن الأثير: جـ ٢ ص ٥٢٢ ـ ٥٢٧. وطرخان أو طرخون لقب نجده بين الخزر مثلما نجده بين الشعوب التركية، ولعله يفيد في ربطهم مع الأتراك الغربيين. وقيل إن معناه الأصلي هو «أبناء الحداد».

(٥) المصدر نفسه.

(٦) ابن كثير، الحافظ: البداية والنهاية جـ ٩ ص ٢٧ ـ ٢٨.

وراء النهر، إذ استغل النزاعات الداخلية، بين الأتراك، والتفكك السياسي في مجتمعهم، وتمكَّن بعد سلسلة من الحملات العسكرية الناجحة من إنزال العقاب بجميع الذين انتفضوا على الحكم الإسلامي في عهد الحروب الأهلية[١] وأعاد فتح إقليم طخارستان[٢]، واصطدم، بنيزك، وهو أحد أمراء هذا الإقليم، وأخضعه ثم قبض عليه وقتله[٣]، وفتح بخارى وبيكند وسمرقند ومرو وخوارزم والشاش وفرغانة وكاشغر، وكلها في بلاد ما وراء النهر باستثناء مرو، ووصل في تقدمه إلى حدود الصين. وحينما نتتبَّع فتوح قتيبة بن مسلم نجد أنه حينما فتح سمرقند طلب من أهلها أن يمدوه بثلاثين ألف رجل، وكذلك حين فتح بخارى سبى منها خمسين ألف رجل، ولا شك بأنه استخدم الكثيرين من هؤلاء في جيشه.

ويبدو أن قتيبة، على الرغم من الانتصارات التي حقَّقها، لم يتمتع بولاء أفراد جيشه، ولما حاول الخروج على طاعة سليمان بن عبد الملك (٩٦ ـ ٩٩هـ/ ٧١٥ ـ ٧١٧م)، الذي خلف أخاه الوليد، انفضوا من حوله، ودفع حياته ثمناً لذلك[٤].

ولم يلبث المسلمون أن فقدوا سيطرتهم على مدن حوض نهر سيحون بدءاً من العام التالي لمصرع قتيبة، وعاد أمير فرغانة إلى سدة الحكم في عام (١٠٣هـ/ ٧٢١م) في حين ظلت الأنحاء الجنوبية الغربية من بلاد ما وراء النهر بأيدي هؤلاء حيث تمركزت فيها حاميات عسكرية إسلامية، واجهت مقاومة ضارية من جانب السكان المحليين.

وحدث في عام (٩٧هـ/ ٧١٦م) أن أسس كورصول، زعيم التُركش[٥]، مملكة قوية ظلت قائمة حتى عام (١٢١هـ/ ٧٣٩م) حيث قضى عليها أسد بن عبد الله القسري، الوالي الأموي، وانتهى أثرهم كفئة حاكمة في ذلك القرن.

---

(١) الطبري: جـ ٦ ص ٤٢٤ ـ ٤٢٥.

(٢) يبدو أن أوضاع المسلمين لم تستقر في هذا الإقليم طوال السنين منذ أن فتحه الأحنف ابن قيس في خلافة عثمان بن عفان، فاضطر قتيبة إلى إعادة فتحه قبل أن يمضي في فتوحه في الشرق.

(٣) الطبري: جـ ٦ ص ٤٥٨.

(٤) المصدر نفسه: ص ٥٠٧ ـ ٥١٦. والمعروف أن سياسة سليمان بن عبد الملك كانت مغايرة لسياسة أسلافه، وبخاصة أبيه عبد الملك وواليه الحجاج بن يوسف الثقفي، وأن تبديل الحكام جاء متوافقاً مع تغيير النهج السياسي للدولة بفعل تبدل الظروف السياسية بعد أن تحقَّق الأمن والاستقرار في كافة أرجاء الدولة الأموية.

(٥) التُركش: أشهر قبائل الأتراك الغربيين. تلقب أمراؤهم بالخانيين في الأعوام الأخيرة من القرن السابع الميلادي.

والواقع أن كورصول نجح في أن يضع يده على هذه المنطقة من آسيا الوسطى، واصطدم بالمسلمين في بلاد ما وراء النهر، إذ رأى في بسط سيطرته عليها أمراً بالغ الأهمية للوقوف في وجههم، كما ساعد الدهاقنة الثائرين ضد المسلمين[1].

ويمكن إرجاع أسباب التطورات السلبية المتتالية التي قام بها السكان المحليون الأتراك ضد الحكم الإسلامي، إلى طبيعة هذا الحكم في عهد الأمويين. إذ أن هؤلاء لم يكونوا قد خططوا لسياسة تستند على أسس متينة، وانصرفوا إلى الجهاد وفتح أكبر مساحة ممكنة من أراضي العدو، ثم إن تصرُّف الولاة اللامسؤول أحياناً تجاه السكان، مثل فرض الجزية على الذين دخلوا في الإسلام، ورفع معدلات الضرائب، والتعسف في الجباية، دفع السكان المحليين إلى التذمر والثورة على النظام. وفي مطلق الأحوال، لم يرتفع الولاة إلى مستوى الأحداث مما أدَّى إلى استبدالهم بآخرين في تسارع مستمر.

وقد شعر عمر بن عبد العزيز (٩٩ ـ ١٠١هـ/ ٧١٧ ـ ٧٢٠م) عندما تولى الخلافة بسوء الأوضاع الإدارية والاقتصادية في البلاد المفتوحة، واستوعب المشكلات التي أفرزتها الفتوح، فلم يرضَ عن الأسلوب الذي أدار بموجبه عمال بني أمية الشؤون العامة، ورأى أنهم تجاوزوا الحد في القسوة، فاختار أفضل وأصلح الرجال وولَّاهم الأعمال، وحرص على إزالة ظاهرة أخذ الجزية من الذين دخلوا حديثاً في الإسلام بهدف تحقيق المساواة بين المسلمين، بغض النظر عن عناصرهم وطبقاتهم، والوصول إلى تهيئة الأجواء المناسبة لانتشار الإسلام وتثبيته بين شعوب البلاد المفتوحة، وإقامة مجتمع متحرر من العقد الاجتماعية والحساسيات القومية والقبلية، وقد نجح أحد ولاته، وهو عبد الله بن معمر اليشكري، في التوغل بعيداً في النواحي الشمالية الشرقية لبلاد ما وراء النهر، وتجهَّز لغزو الأراضي التابعة للأمبراطورية الصينية، غير أن الأتراك استطاعوا وقف زحفه واضطر إلى دفع الفدية للنجاة بنفسه[2]. وبفعل سياسته القائمة على القوة التي تتعارض مع توجهات الخليفة، فقد عزله عمر بن عبد العزيز وولى مكانه عبد الرحمن بن نعيم الغامدي[3]. واندلعت في عهده ثورة الصغد بمعاونة الأتراك، واستمرت مشتعلة حتى ولاية خلفه

---

(١) بارتولد: ص ٣٠٦. لعل الطابع المميز لمجتمع بلاد ما وراء النهر قبل الفتح الإسلامي تمثل بسيطرة طبقة ملّاك الأراضي المعروفين بالدهاقنة، وكانت مكانة هؤلاء تفوق بكثير مكانة بقية سكان القرية، وكان لكل قرية دهقانها.

(٢) البلاذري: ص ٤١٥.

(٣) المصدر نفسه.

سعيد بن عبد العزيز في عام (١٠٢هـ/ ٧٢١م) في خلافة يزيد الثاني بن عبد الملك (١٠١ ـ ١٠٥هـ/ ٧٢٠ ـ ٧٢٤م)[١]. ويبدو أن سياسته اللينة تجاه أهل خراسان، وعدم جدِّيته في قتال الأتراك أثار حفيظة العرب، فعزله الخليفة من منصبه في عام (١٠٣هـ/ ٧٢٢م) وولى مكانه سعيد بن عمرو الحرشي[٢].

وشهدت جبهة المشرق اضطرابات خطيرة في عهد الخليفة هشام بن عبد الملك (١٠٥ ـ ١٢٥هـ/ ٧٢٤ ـ ٧٤٣م) أدَّت إلى تقلُّص الممتلكات الإسلامية في بعض المناطق، وذلك بفعل التحول عن سياسة عمر بن عبد العزيز القاضية بوقف الجباية من المتحولين حديثاً إلى الإسلام. وتعاون هؤلاء مع الأتراك الوثنيين، واصطدموا بالمسلمين عند آمل[٣]، لكن لم يحسم أي طرف الوضع لصالحه. ثم دخل الطرفان في مفاوضات أسفرت عن اتفاق يقضي بانسحاب المسلمين من بعض بلاد ما وراء النهر بما فيها بخارى، ولم يبق بيد المسلمين سوى سمرقند[٣].

وبفعل تراجع المسلمين، واضطراب الوضع في خراسان، عزل الخليفة هشام ابن عبد الملك، أشرس بن عبد الله السلمي عن ولاية خراسان وولى مكانه الجنيد ابن عبد الرحمن المري وذلك في عام (١١٢هـ/ ٧٣٠م)[٤].

ويبدو أنه لم تكن لدى هذا الوالي خبرة سابقة في قتال الأتراك على هذه الحدود الجبلية الوعرة، وارتكب أخطاءً تكتيكية أثناء اصطدامه بهم كانت نتيجتها أن أوقع بالمسلمين في مآزق عسكرية لم يخرجوا منها إلا بشق النفس، على الرغم من أنه استعاد بخارى وبعض المناطق التي انسحب منها المسلمون في عهد سلفه، فعزله الخليفة في عام (١١٦هـ/ ٧٣٤م) وولى مكانه عاصم بن عبد الله الهلالي[٥].

ونشطت في هذه الأثناء الحركة العباسية في المشرق حيث تركَّز دعاتها هناك. وبفعل تململ القبائل العربية في خراسان من الحكم الأموي، عمد الخليفة إلى إحداث تنظيمات إدارية جديدة، منها أنه أسقط العرب الذين أحجموا عن الاشتراك في الفتوح، من الديوان، واكتفى بتجنيد خمسة عشر ألف مقاتل فقط، وسمح للقبائل الموالية للنظام السكن داخل مرو، وهي مركز الولاية، في حين نقل القبائل المعارضة إلى أماكن جديدة خارج المدينة، فثار هؤلاء ضد هذه السياسة في عام (١١٦هـ/

---

(١) البلاذري: ص ٤١٦.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) الطبري: جـ ٧ ص ٥٦ ـ ٦٦. بارتولد: ص ٣٠٩ ـ ٣١٠.
(٤) البلاذري: ص ٤١٨.
(٥) المصدر نفسه.

٧٣٤م) بقيادة الحارث بن سريح، وتحالف مع خاقان الأتراك كما انضم إليه الهياطلة، وقد جمعت الأطراف مصلحة مشتركة هي العداء لبني أمية، وهاجمت قوى التحالف مدينة مرو.

ويبدو أن التفاف القبائل العربية المتمردة حول الحارث كان مرحلياً، وقد تأثر بوجود الأتراك والهياطلة الأعداء في صفوفه، مما دفعهم إلى الانسحاب والعودة إلى صفوف الوالي. وانضم الموالي إلى صفوف الجيش الأموي تحسباً من خطر غزو الهياطلة لبلادهم، ثم انفرط عقد التحالف بانسحاب الهياطلة، وتراجع خاقان الأتراك[١].

والراجح أن عاصماً أدرك، بعد تجربته القصيرة في خراسان، أن لآل البيت نفوذاً واسعاً فيها، وأنها لا تصلح إلا إذا ضُمَّت إلى العراق القريب في مركز القيادة السياسية، فكتب بذلك إلى هشام الذي اقتنع بوجهة نظره، فعزله عن خراسان وضمَّها إلى خالد بن عبد الله القسري واليه على العراق، فولى هذا الأخير أخاه أسداً ولاية خراسان[٢].

تابع أسد سياسة أسلافه في محاربة الأتراك في بلاد ما وراء النهر وانتصر عليهم وأرغمهم على التقهقر. والملفت أنه لأول مرة، منذ عهد طويل، عبر جيش من الأتراك نهر جيحون إلى ضفته اليسرى، غير أن خاقان الأتراك قُتل آنذاك على يد أمير التُركش المدعو كورصول، فأدى ذلك إلى سقوط دولة الأتراك الغربية[٣]، على يد أسد الذي أعاد السيادة الإسلامية إلى حوض نهر سيحون، وحلَّ مشكلة الخراج المتفاقمة، فحوَّل الجزية من المسلمين وحمَّلها غير المسلمين ممن لم يكن يؤدونها، وأزال شكاوى مسلمي مرو من جور النظام الضريبي المفروض عليهم واستخدم الأتراك في جيشه. فحينما غزا بلاد ما وراء النهر في عام (١٢١هـ/ ٧٣٩م) سار إلى بلاد الشاش بجيش كثيف بلغ عدده عشرين ألفاً من أهل بخارى وسمرقند وكش ونسف[٤]. وعلى الرغم من ذلك فقد فشل نصر بن سيار الوالي الأموي في إعادة الوفاق بين الفئات المتخاصمة، وكانت رياح الثورة العباسية قد اشتد أوارها بزعامة أبي مسلم الخراساني الذي أنهى دور الدولة الأموية في بلاد ما وراء النهر.

يكمن فضل الأمويين في تثبيت أقدام المسلمين في بلاد ما وراء النهر بعد فتحها وانتصارهم على الأتراك الوثنيين، كما نشروا الإسلام في ربوع هذه البلاد،

---

(١) الطبري: جـ ٧ ص ٩٦ ـ ١٠٤، حيث تفاصيل وافية.

(٢) المصدر نفسه: ص ٩٩. (٣) بارتولد: ص ٣٠٠.

(٤) الطبري: جـ ٧ ص ١٧٤. ونسف: مدينة كبيرة كثيرة الأهل والرستاق بين جيحون وسمرقند. الحموي: جـ ٤ ص ٤٦٢، وجـ ٥ ص ٢٨٥.

ودخل الكثير من سكانها في دين الله أفواجاً. وبدأ في أواخر العهد الأموي ازدياد تأثير العنصر التركي في العالم الإسلامي وبخاصة بعد أن أسلم فريق من الخزر وأتراك الصول المقيمين في جرجان[١].

في العصر العباسي

قام الأتراك بدور بارز في مساندة الدعوة العباسية، وانضموا إلى أبي مسلم الخراساني وأيدوا حركته، ويبدو أن لذلك علاقة بمدى نفورهم من الأمويين وبخاصة من عاملهم على خراسان، نصر بن سيار، المعروف بشدة وطأته عليهم، شأنهم في ذلك شأن الفرس.

وفي الوقت الذي تعرَّضت فيه الدولة الإسلامية لاضطرابات داخلية، بفعل الصراع بين الأمويين والعباسيين، تعرَّضت بلاد ما وراء النهر لخطر كبير من جانب الصينيين. إذ لم تقم في براري تركستان دولة قوية بعد سقوط دولة الأتراك الغربية في عام (٣٩هـ/ ٦٥٩م) التي سحقتها القوات الصينية، فاستغل الصينيون هذا الفراغ العسكري وراحوا يتدخلون في شؤون الإمارات التركية الصغيرة، التي قامت حول المدن الكبيرة، لبسط سلطانهم على بلاد ما وراء النهر، التي اعتاد حكامها السابقون أن يرسلوا بسفارات إلى الصين منذ عهود بعيدة، وأن يقبلوا ألقاباً تشريفية من حكومتها[٢].

ففي عام (١٣٢هـ/ ٧٥٠م) استولى جيش صيني على سوياب وخرَّبها، واستغلَّ الصينيون في العام التالي وقوع نزاع بين أخشيد فرغانة وأمير الشاش، واستنجاد الأول بهم، فهرعوا يبسطون سيطرتهم على المنطقة، وظهروا أمام فرغانة، وهاجموا مدينة الشاش، وحاصروا أميرها الذي استسلم لهم، ثم قتلوه لعدم وفائه بشروط التبعية[٣].

خلف حاكم الشاش ابنه، الذي أثارته هذه الأحداث، فطلب مساعدة زياد بن صالح، وكان هذا قد فرغ لتوه من إخماد ثورة شريك بن شيخ المهري في بخارى، فلبى نداء المساعدة، واصطدم بالصينيين في (شهر ذي الحجة ١٣٣هـ/ تموز ٧٥١) على نهر طراز[٤] وانتصر عليهم[٥].

---

(١) الحموي: جـ ١ ص ٣٥٥ ـ ٣٥٦. (٢) بارتولد: ص ٣١٥ ـ ٣١٦.

(٣) ابن الأثير: جـ ٥ ص ٤٠.

(٤) طراز: بلد قريب من أسبيجاب من ثغور الترك. الحموي: جـ ٤ ص ٢٧.

(٥) ابن الأثير: جـ ٥ ص ٤٠.

ثم حدث أن تعرَّضت الصين لاضطرابات داخلية، ونشبت فيها حرب أهلية بفعل الصراع على العرش، مما صرف الصينيين عن التدخل في شؤون بلاد ما وراء النهر، وتعدُّ معركة طراز نهاية التدخل الصيني في هذه المنقطة.

استمرت الاضطرابات مشتعلة في خراسان في العصر العباسي الأول (١٣٢ ـ ٢٣٢هـ/ ٧٥٠ ـ ٨٤٧م) بين السلطة المركزية في بغداد وأنصار أبي مسلم الخراساني، وقد أثَّرت على الأوضاع في بلاد ما وراء النهر. واضطر الولاة العباسيون الذين تقلَّدوا الأمور في خراسان حتى قيام الدولة الطاهرية في عام (٢٠٥هـ/ ٨٢٠م) إلى بذل جهود مضنية لإخمادها، نذكر منها ثورة المقنع (١٥٩ ـ ١٦١هـ/ ٧٧٦ ـ ٧٧٨م) في عهد الخليفة المهدي (١٥٨ ـ ١٦٩هـ/ ٧٧٥ ـ ٧٨٥م) وقد خرج في ناحية مرو فتبعه خلق كثير، بخاصة في بخارى والصغد، وانتشر أتباعه في نواحي كش ونسف، وطلب المقنع المساعدة من الأتراك، وتمكَّن الوالي العباسي سعيد الحرشي من هزيمته والقضاء عليه[1].

وشهد المشرق الإسلامي، إلى جانب الحركات الفارسية المناهضة، ثورات قام بها العرب المعادين للعباسيين وبخاصة العلويين، كما طمع بعض الولاة بالاستقلال بما تحت أيديهم. فقد خرج رافع بن الليث بن نصر بن سيار على الحكومة المركزية في عهد الخليفة هارون الرشيد (١٧٠ ـ ١٩٣هـ/ ٧٨٦ ـ ٨٠٩م) وتبعه خلق كثير من سكان خراسان وبلاد ما وراء النهر، وكتب إليه أهل نسف بأن يوجه إليهم من يعينهم على الوالي العباسي، فوجه إليهم صاحب الشاش في أتراكه، وقائداً من قادته، وسانده أهل فرغانة وخجندة وأشروسنة والصغانيان وبخارى وخوارزم والختل، بل إن الطغزغز والقارلوق والتيبت أرسلوا إليه بإمدادهم[2] فاضطر هارون الرشيد إلى الخروج بنفسه إلى خراسان لوضع حد للاضطرابات فيها، إلا أن المنية وافته وهو في الطريق[3]. ونجح الخليفة المأمون بن هارون الرشيد (١٩٨ ـ ٢١٨هـ/ ٨١٣ ـ ٨٣٣م) في إخماد ثورته، بعد أن تخلَّى الأتراك عنه، فوهن أمره وطلب الأمان من المأمون، فعفا عنه.

وهكذا بدأ الأتراك يتدخلون في شؤون المسلمين الداخلية من واقع استعانة

---

(١) الطبري: جـ ٨ ص ١٣٥.

(٢) اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح: تاريخ اليعقوبي جـ ٢ ص ٣٨٦. الطبري: المصدر نفسه ص ٣١٥ ـ ٣٢٠، ٣٢٣.

(٣) الطبري: المصدر نفسه ص ٣٤٣ ـ ٣٤٤.

الأمراء الثائرين على السلطان بهم، غير أن العباسيين لم تواجههم قوات كثيفة كتلك التي واجهت الأمويين من قبل.

وقامت في بلاد ما وراء النهر، في أعقاب سقوط دولة التُركش وهزيمة الصينيين، مملكتان تركيتان:

الأولى: في منطقة يدي صو[1] والأجزاء الشرقية من نهر سيحون، على أيدي القارلوق الذين سيطروا على سوياب عاصمة التُركش.

الثانية: في المجرى الأدنى لنهر سيحون، وهي مملكة الغز الذين ينتمون إلى الأتراك الغربيين، وكان هؤلاء يغيرون على المناطق الإسلامية المجاورة بفعل قرب مناطقهم من الحدود الإسلامية. ولحماية المنطقة من تعدياتهم، شيَّد المسلمون الحصون وحفروا الخنادق حول المدن الكبيرة مثل بخارى والشاش[2].

وبرز التدخل التركي في شؤون الخلافة العباسية واضحاً في عهد المعتصم (٢١٨ - ٢٢٧هـ/ ٨٣٣ - ٨٤١م) الذي بويع في ظل ظروف من الصراع العنيف بين العرب من ناحية والفرس الذين حظوا بعطف المأمون خلال السنوات الأولى من خلافته، من ناحية أخرى، واختلال في التوازن بين العناصر التي تكوَّنت منها الدولة العباسية.

فقد ساءت العلاقات بين العباسيين والخراسانيين منذ أن انتقل المأمون من مرو، وظهر أثر ذلك واضحاً في القضاء على بني سهل الفرس، وقيام الحركات المناهضة للدولة ذات الخلفيات الفارسية، واستحال بالتالي التوفيق بين تطلعات الخراسانيين ومصالح العباسيين.

وبدأت ثقة المعتصم بالفرس تضعف في الوقت الذي فَقَدَ ثقته بالعرب نظراً لكثرة تقلبهم، واضطرابهم، وقيامهم ضد الخلفاء، بالإضافة إلى أن هؤلاء فقدوا كثيراً من مقومات قوتهم السياسية والعسكرية، حتى أضحوا أقل خطورة، وأضعف شأناً.

حملت هذه المعطيات المعتصم على أن يوكل أمر سلامته الشخصية إلى فرقة من العنصر التركي، فجمع منهم زهاء ثمانية آلاف أو ثمانية عشر ألف مملوك. وقد توافقت طباعه النفسية وصفاته الجسدية، من حيث القوة والشجاعة ومتانة الجسم، مع صفات أخواله الأتراك[3] كأمة بربرية محاربة شديدة البأس. واضحى لهذا العنصر

---

(١) يدي صو: الأنهار السبعة.

(٢) بارتولد: ص ٣٢٢ - ٣٢٣.

(٣) كانت أم المعتصم ماردة من مولدات الكوفة، وكانت أمها صغدية.

أثر كبير في الحياة السياسية والاجتماعية على الرغم من أن الأتراك لم يكونوا أهل حضارة، كما أضحى الحرس التركي يمثل إحدى دعائم الخلافة خلال أيام حكمه.

والواقع أن المعتصم تلقَّف هذه العصبية الجديدة النامية لاستغلال مواهبها العسكرية للحفاظ على دولته والإبقاء على خلافته في ظل الصراع العربي ـ الفارسي، فاستخدم الأتراك في الجيش على نطاق واسع، وجعلهم تحت إمرة قادة منهم مسدداً بذلك ضربة عنيفة للقادة والجند العرب، ولسياسة أبي جعفر المنصور (١٣٦ ـ ١٥٨هـ/ ٧٥٤ ـ ٧٧٥م) التقليدية التي كانت تستهدف حفظ التوازن في الجيش بين الفِرَق العربية والفِرَق الأعجمية[١].

ومكَّن المعتصم الأتراك في الأرض، فقرَّبهم إليه وخصَّهم بالنفوذ، وقلَّدهم قيادة الجيوش، وجعل لهم مركزاً في مجال العمل السياسي، وأسكنهم مدينة سامراء التي بناها خصيصاً لهم، فشغلوا حيزاً كبيراً في المجال السياسي في العصر العباسي الثاني (٢٣٢ ـ ٣٣٤هـ/ ٨٤٧ ـ ٩٤٦م)، وربما كان لنشوء الدول الانفصالية في هذا العصر المذكور إحدى النتائج لسياسة المعتصم.

وراح الأتراك، مع مرور الوقت، يتجهون إلى تكوين كيان خاص بهم سواء في كنف الخلافة أو منفصلاً عنها، وذلك حين أسند الخلفاء إليهم أعمال الولايات الإسلامية، كما طمع بعضهم في الاستئثار بشؤون الحكم في العاصمة حين أدركوا أن الخلافة لا يمكنها الاستغناء عن خدماتهم.

نتيجة لهذا التوسع في الصلاحيات، هيمن الأتراك على مقدرات الخلافة، وأحكموا سيطرتهم الفعلية على كافة أقاليمها، ثم خطوا خطوة أخرى حين اعتقدوا أنه لا بد من السيطرة على شخص الخليفة حتى يستمر سلطانهم بوصفه مصدر هذا السلطان، فأحاطوا به يراقبون تحركاته ويشاركون في المناقشات السياسية.

ثم أخذ الأتراك يتدخلون في اختيار وعزل الخلفاء، وكان الواثق (٢٢٧ ـ ٢٣٢هـ/ ٨٤١ ـ ٨٤٧م) هو آخر الخلفاء الذين تمت توليتهم وفقاً للتقليد الذي كان متبعاً من قبل.

لم يخضع الخلفاء للنفوذ التركي بسهولة، بل قاوموه مقاومة شديدة، وحاولوا التخلص من صانعي الخلفاء، لكن لم يكن لديهم القوة الكافية لمجابهة هذا النفوذ الطاغي.

---

(١) الدوري، عبد العزيز: العصر العباسي الأول ص ١٧٧ ـ ١٧٨.

ونتيجة لانتقال الخلافة العباسية من المركزية إلى اللامركزية في الحكم، ابتداء من العصر العباسي الثاني، قامت دول انفصالية مستقلة استقلالاً تاماً أو جزئياً مع الاعتراف بسلطان الخلافة الروحي.

والواقع أن رقعة الدولة اتسعت، بدءاً من القرن الثاني الهجري، اتساعاً كبيراً حتى تعذرت إدارتها من مركز الخلافة، وذلك بفعل عدم ملاءمة تطور وسائل النقل مع هذا الاتساع من جهة، ونتيجة لنمو الشعور العنصري من جهة أخرى، فلجأت إلى اتباع سياسة مضادة ترتكز على التجزئة، وقد سنَّها هارون الرشيد من قبل[1].

نتج عن هذه التجزئة ظاهرتان متعارضتان، ظاهرة تسعى إلى تركيز السلطة والإبقاء على الوحدة، وظاهرة تعمل على الانفصال الإقليمي مستغلة أوضاع الشعوب الاجتماعية والاقتصادية المتدهورة، لتحقيق انفصالها، وانتهى الأمر إلى انتصار النزعة الانفصالية التي مهَّدت لقيام الدول الانفصالية.

وكان لأسلوب الحكم في الولايات النائية دور في تغليب نزعة الانفصال. فقد عمد خلفاء بني العباس، وبخاصة في عهد تصاعد نفوذ الأتراك، إلى تعيين بعض قادتهم حكاماً على الأقاليم، وأهملوا، في الوقت نفسه، مراقبتهم ومحاسبتهم. وبحكم الأوضاع الفوضوية السائدة في الإدارة المركزية، عمد هؤلاء إلى تعيين نواب عنهم لإدارة الأقاليم باسمهم، فيما حافظوا على وجودهم في العاصمة، يشاركون في رسم السياسة العليا في الدولة، ويشتركون في المؤامرات، وينعمون بحياة القصور. يضاف إلى ذلك، فقد حملت دولة الخلافة العباسية أثناء قيامها بذور هذا الانفصال حين تطلعت الشعوب غير العربية للحصول على مبدأ المساواة التامة مع العرب وفقاً لأحكام الشريعة الإسلامية بعد أن حُرِمت منه في عهود سابقة، وعملت الخلافة العباسية على تنفيذ هذا المطلب، مما أدى إلى تقوية الروح الانفصالية لدى هذه الشعوب، ودفعها إلى إقامة دول انفصالية عنصرية، لكنها حافظت في الوقت نفسه على الولاء لمنصب الخلافة، واعترفت بسلطان الخليفة الروحي. وعليه، فإن مطالبة هذه الشعوب بتطبيق مبدأ المساواة، كان يخفي وراءه هدفاً سياسياً.

استوعبت الخلافة من جانبها هذه الظاهرة، فحرصت على التوفيق بين نزعات

---

(١) قسَّم هارون الرشيد دولته الواسعة بين أولاده الثلاثة. فاختار ابنه الأمين ولياً للعهد، وبايع لابنه المأمون بولاية العهد بعد أخيه وولّاه خراسان وما يتصل بها من همذان إلى آخر المشرق، ثم بايع لابنه القاسم الملقب بالمؤتمن وولّاه إقليم الجزيرة الفراتية والثغور والعواصم. انظر الطبري: ج٨ ص ٢٤٠ ـ ٢٤١، ٢٦٩، ٢٧٥، ٤٧٦.

الشعوب ومطالبها السياسية والاقتصادية وبين مبدأ الوحدة، لكنها عجزت عن تحقيق التوازن بين القوة المركزية في بغداد وبين القوى اللامركزية النامية في الأقاليم مما أدى إلى قيام الدول الانفصالية التي تركزت في المشرق والمغرب.

استخدام الأتراك في أجهزة الدولة الإسلامية

كان الأمويون أول من استقدم الأتراك من بلادهم بعد اعتناقهم الإسلام، واستخدموهم في الجيوش وأجهزة الدولة. فقد نقل عبيد الله بن زياد ألفين من سبي بخارى إلى البصرة وأسكنهم في مكان يُقال له البخارية وهي سكة بالبصرة، كلهم يجيد الرمي بالنشاب[١]، وانضم الكثير من الجنود الأتراك إلى جيوش المسلمين أثناء الفتوح، كما استعان بهم القادة العرب. فقد شكَّل سعيد بن عثمان، والي معاوية على خراسان، جيشاً من سكان بلاد ما وراء النهر من الأتراك[٢].

واستخدم الأمويون الكثير من الجواري والغلمان الأتراك للعمل في قصور الخلفاء، ونجد بعض الجواري محظيات لدى الخلفاء. من ذلك أن يزيد بن الوليد ابن عبد الملك كانت أمه محظية لدى الوليد، «فقد اصاب قتيبة بالصغد جارية، فقال: أترون ابن هذه يكون هجيناً؟ فقالوا: نعم يكون هجيناً من قبل أبيه، فبعث بها إلى الحجاج، ثم بعث بها الحجاج إلى الوليد، فولدت له يزيد بن الوليد»[٣].

وبعد استقرار الدولة العباسية في عهد أبي جعفر المنصور برز عدد من الشخصيات التركية الذين كان عددهم يزداد شيئاً فشيئاً بتوافدهم على دار الخلافة، واستخدمهم الخلفاء العباسيون في العصر العباسي الأول في قصورهم وائتمنوهم على أسرارهم، وأسندوا إليهم أمر سلامتهم الشخصية.

كان أبو جعفر المنصور أول خليفة عباسي اتخذ الأتراك، فقرَّب حماداً التركي ووثق به وجعله من خاصته وأمناء سره، وبلغت ثقته به حداً أنه كان لا يأمن أحداً على أسرار سجلات الدولة غيره، وكان يصرُّ المفتاح في كم قميصه، فإذا غاب حماد أو خرج كان الذي يليه سلمة الخادم[٤].

وتبوأ مبارك التركي منصباً رفيعاً في قيادة الجيش، وقام بدور بارز في القضاء على ثورة الحسين بن علي في معركة فخ[٥] في عام (١٦٩هـ/ ٧٨٦م)، وبنى حصناً

---

(١) الحموي: جـ١ ص ٣٥٥ ـ ٣٥٦.
(٢) اللميلم: جـ١ ص ٢٠٠.
(٣) الطبري: جـ٦ ص ٤٧٦.
(٤) الطبري: جـ٨ ص ١٠٣.
(٥) فخ: إحدى ضواحي مكة.

بقزوين سمي باسمه، وأسكنه بقوم من مواليه وبني جلدته[١].

ونفر أبو جعفر المنصور من استخدام العرب في قصوره، ولم يرض بأن يعمل في خدمة قصره أو حرمه أحد من العرب[٢]، وفضَّل عليهم عناصر أخرى كالأتراك مثلاً، وهو أول من ولَّاهم الحجابة، أنه اختار حماداً التركي حاجباً له بعد أن توطدت دعائم الدولة[٣]، كما ولّاه السواد، وأمره أن ينزل الأنبار ولا يدع أحداً من أهل الذمة يكتب لأحد من العمال على المسلمين إلا قطع يده، فأخذ حماد ماهويه الواسطي، جد سليمان بن وهب، فقطع يده[٤].

واستخدم المهدي عدداً من الأتراك في قصوره مثل شاكر التركي، وهو أحد قادة الجيش في فارس، وفرج الخادم الذي برز في عهد هارون الرشيد فيما بعد، ويحيى بن داوود الخرسي الذي ولّاه إمارة مصر في عام (١٦٢هـ/ ٧٧٨م)[٥]. وأدّى الجند الأتراك في عهده دوراً بارزاً في محاربة الخوارج عندما ثاروا بقيادة عبد السلام اليشكري في عام (١٦٠هـ/ ٧٧٦م) في باجرما[٦].

ودخل الكثير من ملوك الأتراك في طاعة العباسيين منذ عهد الخليفة المهدي، مثل ملوك كابل وطبرستان والصغد وطخارستان والخرلخية وسجستان وغيرهم، ولا شك بأن هؤلاء كانوا يرسلون بعضاً من أتباعهم ليعملوا في خدمة الدولة العباسية.

وبرز في عهد الهادي (١٦٩ ـ ١٧٠هـ/ ٧٨٥ ـ ٧٨٦م) مبارك التركي وحماد التركي. وتوسَّع هارون الرشيد في استخدام الأتراك في قصوره ودوائره وجيشه، فكان أبو سليم فرج الخادم التركي أحد قادة جيشه، وقد طلب منه الخليفة تعمير مدينة طرسوس وإكمال بنائها وذلك في عام (١٧٠هـ/ ٧٨٦م)[٧]، ومسرور الخادم الذي يُعدُّ بحق من أقرب الناس إلى هارون الرشيد الذي وثق به ثقة تفوق الوصف، فقد أسند إليه مهمة التخلص من أبرز شخصية برمكية في دار الخلافة العباسية، وأقربها إلى نفس الخليفة، وهو جعفر بن يحيى بن خالد البرمكي، فنفَّذ مسرور

---

(١) الحموي: جـ ٥ ص ٥١. (٢) الطبري: جـ ٨ ص ٩٩.

(٣) اللميلم: جـ ١ ص ٢٠٤ ـ ٢٠٥.

(٤) الجهشياري، محمد بن عبدوس: كتاب الوزراء والكتّاب ص ١٣٤.

(٥) المصدر نفسه: ص ١٥١. الطبري: جـ ٨ ص ١٤٣.

(٦) العصفري: خليفة بن خياط: تاريخ خليفة بن خياط ص ٢٩٢. وباجرما: قَرية من أعمال البليخ قرب الرقة من أرض الجزيرة. الحموي: جـ ١ ص ٣١٣.

(٧) الطبري: جـ ٨ ص ٢٣٤. وطرسوس: مدينة بثغور الشام بين أنطاكية وحلب وبلاد الروم. الحموي: جـ ٤ ص ٢٨.

المهمة بدقة. كما أسند إليه أعمال البريد والإخبار، بعد أن نكّب بالبرامكة، فكان يتقلّد البريد والخرائط، ويخلفه عليه ثابت الخادم[١]. ونذكر فرج الرخجي كأحد القادة الأتراك البارزين في عهد هارون الرشيد وقد قلّده الأهواز[٢]. كما كان للأتراك دور فعّال في القضاء على ثورة الوليد بن طريف الشاري، وقد قتله يولبا التركي الذي كان في عداد الجيش بقيادة يزيد بن مزيد الشيباني[٣]، بالإضافة إلى القضاء على الصعاليك الذين قاموا بتخريب سيسر، حيث أمر الرشيد بترميمها وتحصينها ورتّب فيها ألف رجل من الصغد[٤].

وضمّت حاشية هارون الرشيد بعض الأتراك، واستخدم الجواري من فرغانة، وأشروسنة وغيرهما، وأضحى بعضهن محظيات مثل ماردة بنت شبيب، أم المعتصم، التي تُعدُّ من أحظى النساء لدى هارون الرشيد وهي تركية[٥].

وتوسع المأمون في استخدام الأتراك في قصوره وجيوشه، واستقدمهم من بلاد ما وراء النهر بعد أن دخلوا في الإسلام، وازدحمت وفودهم على بابه، وكان يبالغ في إكرام من يرد بابه من ملوك الأتراك[٦]. ووصل بعض هؤلاء الأتراك إلى مناصب قيادية، نذكر منهم طولون والد أحمد، وقد أسس أحمد هذا دولة لأسرته في مصر هي الدولة الطولونية. وكان طولون من جملة من أرسلهم ابن أسد الصمامي، أحد عمال المأمون على خراسان، وهو من قبيلة التغزغز التركية[٧]. وترقى طولون في المناصب الإدارية حتى كان موضع ثقة المأمون لأمانته وإخلاصه، فجعله رئيس حرسه ولقّبه بـ أمير الستر[٨]. وكاوس، وقد عيّنه المأمون والياً على أشروسنة، وابنه الأفشين حيدر الذي يُعدُّ من كبار قادة المأمون، وأحد الذين قدّموا خدمات جليلة للدولة بما قاموا به من قمع العديد من الثورات.

وصل الأتراك إلى دار الخلافة في بغداد بإحدى الطرق الآتية:

- الأسر في الحروب.

---

(١) الجهشياري: ص ٢٦٥.

(٢) المصدر نفسه. والأهواز: كان اسمها في أيام الفرس خوزستان وهي سبع كور بين البصرة وفارس. الحموي: جـ ١ ص ٢٨٤ ـ ٢٨٦.

(٣) الطبري: جـ ٨ ص ٢٥٦.

(٤) اللميلم: جـ ١ ص ٢٠٨. وسيسر بلد متاخم لهمذان وهو بين همذان وأذربيجان. الحموي: جـ ٣ ص ٢٩٧.

(٥) ابن الأثير: جـ ٦ ص ٧٦.

(٦) البلاذري: ص ٤١٨ ـ ٤٢٠.

(٧) بارتولد: تاريخ الأتراك في آسيا الوسطى ص ٥١.

(٨) كتابجي: ص ١١٤.

- الشراء.

- الهدايا التي كان يرسلها ولاة الأقاليم في بلاد ما وراء النهر على شكل رقيق إلى الخليفة.

- الهجرة باتجاه الغرب نحو الأراضي الإسلامية.

- الدعوة والتجنيد، فكان المأمون يرسل الدعاة إلى بلاد الأتراك يدعونهم إلى الإسلام ويرغبونهم فيه[1]، وكان يكتب إلى عماله على خراسان بغزو من لم يكن على الطاعة والإسلام من أهل ما وراء النهر، وحثَّ المأمون أخاه المعتصم على استخدام الأتراك في جيشه وجلبهم[2].

---

(١) البلاذري: ص ٤١٨.

(٢) البلخي، أبو زيد أحمد بن سهل: كتاب البدء والتاريخ جـ ٢ ص ٢٩٧.



الفصل الثاني

الأوضاع السياسية في المشرق العربي قبيل قدوم السلاجقة

تمهيد

ثمة حقيقة ظاهرة برزت في أوائل القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، هي أن المجتمع الإسلامي، قبل التسرب السلجوقي إلى بلاد الشام، كان يسوده جو من التعقيد الذي اكتنف وضعه السياسي والاقتصادي والديني. فقد حكمت هذه البلاد قوى مختلفة متناقضة فيما بينها، وكثيراً ما كان الصراع المسلح سمة ذلك التناقض من أجل البقاء أو السيطرة، وتفشَّت فيه ظاهرة توزع الولاءات السياسية بين الخلافة العباسية في بغداد التي تمثل روح المذهب السني والدولة الفاطمية في القاهرة المدافعة عن المذهب الشيعي الإسماعيلي، لكن أوضاعهما الداخلية كانت مرتبكة، وكانت كل قوة تحمل عوامل ضعفها في نفسها بفعل ما كان يدور بينها وبين القوى الأخرى من نزاعات، مما جعل بلاد الشام، وهي المجال الحيوي للصراع المذهبي، نظراً لأهميتها السياسية والدينية والاقتصادية، موزعة بين عدد من الإمارات الصغيرة المستقلة أو شبه المستقلة. وكانت مشاعر الشك والحقد المتبادلة بين هذه الكيانات السياسية الصغيرة واضحة في العداء السياسي الذي سبَّب تنافرها، وحال دون توحيدها، كما أن التنازع الأسري الداخلي أضعفها وحال دون امتدادها الزمني، وعجزت عن صدِّ السلاجقة المتدفقين إلى بلاد الشام وإقليم الجزيرة. ولما كانت لهذه القوى علاقة مباشرة بدراستنا، فمن المفيد أن نلم إلمامة وجيزة بأوضاعها السياسية عشية التسرب السلجوقي.

أوضاع العراق السياسية

تأسيس الدولة البويهية

شكَّل العصر العباسي الثالث (٣٣٤ ـ ٤٤٧هـ/ ٩٤٦ ـ ١٠٥٥م) رد فعل مناهض

للنفوذ التركي، حيث تمكَّن الأتراك من السيطرة على مقدرات الخلافة العباسية في العصر العباسي الثاني، ومثَّل حركة فارسية شيعية زيدية[1]، لإعادة النفوذ الذي تراجع خلال القرن الثالث الهجري.

ظهر بنو بويه على مسرح الأحداث في أوائل القرن الرابع الهجري[2]، وأسسوا دولاً انفصالية في فارس والأهواز وكرمان[3] والري[4] وأصفهان[5] وهمذان[6]، وبسطوا هيمنة فعلية على العراق، فشاركوا الخلافة العباسية في حكمه، وعظم نفوذ هذه الأسرة حتى سمي باسمها أحد عصور الخلافة العباسية.

هاجرت هذه الأسرة من الشمال، من بلاد الديلم، المنطقة المجاورة لبحر قزوين، واشتهرت على يد الأخ الأكبر من الإخوة البويهيين الثلاثة، وهو علي بن شجاع بن بويه الذي ولّاه مرداويج الزياري[7] بلاد الكرج[8].

ويبدو أن علياً كانت تراوده نزعات تتعدَّى الاستقلالية إلى التوسع على حساب جيرانه، بالإضافة إلى الطموح السياسي الذي تحقَّق له سريعاً حيث ما لبث أن أصبح صاحب شوكة في هذه النواحي، وانتزع معظم بلاد إيران واتخذ مدينة شيراز قاعدة لحكمه[9].

---

(١) مع الإشارة إلى أن البويهيين ليسوا من أصل فارسي، وهم يمثلون العنصر الديلمي الذي كان يسكن في جنوبي بحر قزوين، ولعلهم مزيج من الإيرانيين والأتراك وشعوب أخرى. وتشكل منطقتهم القسم الجبلي من جيلان التي تحدها ولاية قزوين من الجنوب ومنطقة جالوس من الشرق.

(٢) انظر فيما يتعلق بظروف ظهور الأسرة البويهية: مسكويه، أبو علي أحمد بن محمد: تجارب الأمم ج ١ ص ٢٧٥ ـ ٢٧٩.

(٣) كرمان: ولاية مشهورة وناحية كبيرة معمورة ذات بلاد وقرى ومدن واسعة بين فارس ومكران وسجستان وخراسان. الحموي: ج ٤ ص ٤٥٤.

(٤) الري: مدينة مشهورة من أمهات البلاد وأعلام المدن، كثيرة الفواكه والخيرات، وهي محط الحاج على طريق السابلة وقصبة بلاد الجبال، بينها وبين نيسابور مائة وستون فرسخاً وإلى قزوين سبعة وعشرون فرسخاً، وهي طهران الحالية. المصدر نفسه، ج ٣ ص ١١٦.

(٥) أصفهان أو أصبهان: مدينة عظيمة مشهورة من أعلام المدن وأعيانها، وهي من نواحي الجبل. المصدر نفسه: ج ١ ص ٢٠٦ ـ ٢٠٧.

(٦) همذان: مدينة بالجبال من بلاد إيران.

(٧) مرداويج الزياري، مؤسس الدولة الزيارية الانفصالية في طبرستان في عام ٣١٦هـ.

(٨) الكرج: مدينة بين همذان وأصفهان في منتصف الطريق. الحموي: ج ٤ ص ٤٤٦. وانظر مسكويه: ج ١ ص ٢٧.

(٩) ابن الأثير: ج ٧ ص ١٤ ـ ١٦. وشيراز: قصبة بلاد فارس بينها وبين نيسابور مائتان وعشرون فرسخاً. الحموي: ج ٣ ص ٣٨٠.

كان علي يضم هذه البلاد باسم الخلافة العباسية ظاهراً، لكن في باطن الأمر كان يهدف إلى إقامة دولة خاصة به مستغلاً ضعف الخلافة السياسي والعسكري، وعجزها عن التدخل في هذه المناطق لترتيب أوضاعها(1)، ثم أرسل إلى الخليفة الراضي (٣٢٢ ـ ٣٢٩هـ/ ٩٣٤ ـ ٩٤٠م) يطلب منه الاعتراف بسلطانه(2)، وهذا طبيعي، فإنه كان عليه أن يأمن جانب الخلافة لأنه سيطر على إحدى ولاياتها على الرغم من إرادتها، فأراد أن يكسب حكمه صفة شرعية، وقد تَمَّ له ما أراد(3).

ويبدو أن الظروف السياسية كانت تعمل لمصلحة البويهيين. ففي عام (٣٢٣هـ/ ٩٣٥م) قُتل مرداويج، فاستفاد علي من هذه الفرصة وسيطر على بلاد الجبال(4) التي كانت تحت حكم وشمكير شقيق مرداويج، وأرسل أخاه حسن إلى عراق العجم، فسيطر على أصفهان والري وهمذان والكرج وبقية بلاد العراق العجمي، واتخذ أبا الفضل بن العميد وزيراً له(5).

تطلع علي بن بويه بعد ذلك إلى تأمين حدود الأقاليم التي استولى عليها، وتطلَّبت سياسته الاستيلاء على كرمان والأهواز قبل الدخول إلى العراق الذي كان محط أنظاره، لأن هذين الإقليمين يشكلان ممراً طبيعياً لأي غزو محتمل لإقليم فارس، إن من ناحية الشرق أو من ناحية الشمال، لذلك أرسل أخاه أحمد على رأس قوة عسكرية فاستولى على كرمان في عام (٣٢٤هـ/ ٩٣٦م) بعد معركة القنطرة(6)، واضافها إلى أملاك آل بويه ثم سيطر على الأهواز(7).

لم تقف الخلافة العباسية مكتوفة اليدين تجاه هذه التطورات السياسية والعسكرية، لذلك انتهزت فرصة الصراع البويهي ـ الزياري وحاولت استعادة الأهواز، فأرسلت قوات بقيادة بجكم لاستردادها وطرد البويهيين منها، إلا أن هذا القائد اضطر إلى التراجع تحت ضغط الأحداث العسكرية(8).

---

(١) إقبال: ص ٤٠.
(٢) ابن الأثير: جـ ٧ ص ١٥ ـ ١٦.
(٣) المصدر نفسه.
(٤) الجبال: هي عراق العجم، وهي ما بين أصبهان إلى زنجان وقزوين وهمذان والدينور وقرقيسين والري وما بين ذلك من البلاد. الحموي جـ ٢ ص ٩٩.
(٥) ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان جـ ٢ ص ١١٨.
(٦) ابن الأثير: جـ ٧ ص ٥٤ ـ ٥٥.
(٧) المصدر نفسه: ص ٦٧ ـ ٦٨.
(٨) المصدر نفسه: ص ٦٨ ـ ٦٩.

التمدد البويهي باتجاه العراق

نتيجة لهذه التطورات، تَمَّ لبني بويه توسيع قاعدتهم بما يتلاءم مع تطلعاتهم التوسعية، وأضحى نزولهم من الأهواز إلى العراق أمراً ميسوراً، فراحوا يراقبون الأحداث في عاصمة الخلافة، حتى تسنح لهم الفرصة لدخولها[1].

كانت الأوضاع في العراق مضطربة، بفعل اشتداد الخلافات بين ابن رائق والي البصرة وأمير الأمراء، من جهة، وبين أبي عبد الله البريدي والي الأهواز السابق والفار من وجه قوات الخلافة، من جهة ثانية، وقد التجأ هذا الأخير إلى علي بن بويه وأطمعه في دخول العراق. ومن جهة أخرى كانت الخلافة واقعة تحت نفوذ الأتراك، وظهر عجزها في إقرار الأمور في العراق، فشعر الناس بهذا الفراغ السياسي، وبفشل أمراء الأمراء، كما اختلَّت المالية العامة للدولة، وفرغت خزائن الخلافة، ووقع الخلفاء في ضائقة مالية شديدة.

نتيجة لذلك، تطلع الناس إلى هذه القوة الجديدة التي ظهرت بالقرب منهم لتنشلهم من الفوضى، كما تطلع بعض القادة المغلوب على أمرهم إلى قوة البويهيين النامية، آملين بأن يحصلوا بواسطتها على الامتيازات التي حُرموا منها أو أُبعدوا عنها. وأخيراً مال الخليفة المتقي (٣٢٩ ـ ٣٣٣هـ/ ٩٤٠ ـ ٩٤٤م) إلى طلب المساعدة من البويهيين لوضع حد للنزاعات الداخلية بين الأمراء، فدعا أحمد بن بويه وطلب منه دخول بغداد، فسار إليها في عام (٣٣٢هـ/ ٩٤٤م) ودخلها في عام (٣٣٤هـ/ ٩٤٥م) بعد أن خرج الأتراك منها، واستقبله الخليفة المستكفي (٣٣٣ ـ ٣٣٤هـ/ ٩٤٤ ـ ٩٤٦م) واحتفى به وخلع عليه وعينه أميراً للأمراء، ولقَّبه معز الدولة، ولقَّب أخاه علياً عماد الدولة، كما لقَّب أخاه حسن ركن الدولة[2].

وهكذا أسس البويهيون إمارات وراثية في فارس والعراق والأهواز وكرمان والري وهمذان وأصفهان دامت حتى عام (٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م). وقد أدّى نظام الوراثة هذا إلى إيجاد نوع من الاستقرار السياسي في دولة الخلافة العباسية، سيطر البويهيون أثناءها على مقاليد الأمور، وتصرفوا بشكل مطلق، لكن شاب هذا الاستقرار بعض الاضطرابات الناتجة عن النزاعات المذهبية بفعل تشيع الأسرة البويهية.

علاقة الخلافة العباسية بالبويهيين

كان من المتوقع أن يعيد البويهيون الاستقرار والوحدة إلى أقاليم الخلافة بفرض

---

(١) محمود، حسن أحمد؛ والشريف، أحمد إبراهيم: العالم الإسلامي في العصر العباسي ص ٥١٢.

(٢) ابن الأثير: جـ ٧ ص ١٥٧ ـ ١٥٨.

سيطرتهم عليها، وكبح جماح جندهم، وإفساح المجال أمام الخلافة كي تضطلع بمسؤولياتها، وتجنُّب إثارة الفتن المذهبية، إلا أن ذلك لم يتحقق لأنهم دخلوا بغداد وهم يحملون روح العداء للخلفاء العباسيين المخالفين لهم في المذهب. وقد فكَّر معز الدولة، بعد دخوله بغداد، وسيطرته على تقاليد الأمور فيها، في إلغاء الخلافة العباسية وإقامة خلافة شيعية على أنقاضها وتنصيب أحد الزعماء الشيعة الزيدية، وكان بإمكانه تحقيق ذلك، إلا أنه أحجم بعد نصيحة مستشاريه، لأن مثل هذا التغيير كان سيعرض العالم الإسلامي لهزات عنيفة بالإضافة إلى زعزعة الحكم البويهي[1].

ويذكر كثير من المؤرخين أن بني بويه أذلُّوا الخلفاء العباسيين وسلبوهم سلطاتهم، ولم يتورعوا عن التعدي على أشخاصهم، أحياناً، وأن الخلافة فقدت هيبتها، وضعف شأنها في عهدهم، وأضحى الخليفة ألعوبة في أيديهم يمثل رمزاً دينياً، ليس له من السلطة سوى الاسم فقط، أما السلطة الفعلية في الدولة فكانت في يد الأمير البويهي[2].

والحقيقة أن بني بويه لم يكونوا السبب المباشر لضعف الخلافة العباسية، إذ أنهم ورثوا وضعاً قائماً بدأ قبل عهدهم، فَقَدَ الخليفة خلاله كل اختصاصاته كمصدر أول للسلطة في الدولة. ومن جهة أخرى، فقد فوَّض الخليفة إلى الأمير البويهي إدارة الدولة بصفة رسمية مما أضفى الشرعية على تصرفاتهم وأعمالهم.

تمتع الأمراء البويهيون ببعض الامتيازات التي دلَّت على قوتهم، وتميزهم عمن سبقهم من الأمراء والقادة منها:

ـ لقد جرت العادة عند تعيين الخليفة لأمير ما، أن يحضر ذلك الأمير إلى مجلس الخليفة فيطوِّقه، ويُسوِّره، ويُقلِّده سيفاً، ويعقد له لواء مطعَّماً بالفضة ويكتب له عهداً بالإمارة أو الولاية، إلا أنه حدث تغيير في هذه العادة في العهد البويهي، فكان الأمير البويهي يحضر إلى دار الإمارة بصحبة الجند والأشراف والقضاة والأعيان، فيقلِّده الخليفة ويعقد له لوائين بيده، أحدهما مفضَّض على رسم الأمراء والآخر مذهَّب على رسم ولاة العهود، ويلقبه بألقاب سلطانية، وتُقرأ العهود بحضرته. والمعروف أن العهود كانت تُدفع إلى الولاة بحضرة الخلفاء، فإذا أخذه الرجل منهم قال له: «هذا عهدي إليك فاعمل به»[3].

---

(١) ابن الأثير: جـ ٧ ص ١٦٠.   (٢) محمود الشريف: ص ٥٢٤.

(٣) ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم جـ ٧ ص ٨٧. السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر: تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين ص ٣١٣ ـ ٣١٤.

ـ اكتسب البويهيون ميزة أخرى، وهي ضرب الطبول أمام دورهم إيذاناً بدخول وقت الصلاة، وكانت هذه العادة من أهم مظاهر السيادة العباسية لم يشاركهم فيها أحد، وأضحت هذه الميزة بعد ذلك حقاً من حقوق الأمراء البويهيين[١].

ـ جرت العادة بأن يُخطب للخلفاء ولأمراء الأمراء معهم على جميع المنابر في الولايات باستثناء بغداد حيث كان يُخطب للخليفة وحده، لكن في عام (٣٦٨هـ/ ٩٧٨م) أمر الخليفة الطائع (٣٦٣ ـ ٣٨١هـ/ ٩٧٤ ـ ٩٩١م) بأن يخطب لعضد الدولة على منابر بغداد بعد الخطبة للخليفة، أما كتابة اسم أمير الأمراء البويهي على السكة، فقد كان أمراً جرت به السُّنَّة من قبل[٢].

أوضاع بلاد الشام السياسية

التقسيم السياسي لبلاد الشام

الشام بلاد واسعة، تمتد من الفرات إلى العريش المتاخم للديار المصرية. وأما عرضها فمن جبلي طيء من نحو القبلة إلى بحر الروم ـ المتوسط ـ وبها أمهات المدن، منبج وحلب وحماة وحمص ودمشق والبيت المقدس والمعرة، وفي الساحل أنطاكية وطرابلس وعكا وصور وعسقلان ونحو ذلك[٣].

قسَّم المسلمون هذه البلاد بعد فتحها خمسة أجناد[٤] أو مناطق عسكرية هي: جند قنسرين[٥] وجند دمشق وجند الأردن وجند فلسطين وجند حمص[٦]. ثم تغيرت هذه التقسيمات الإدارية العسكرية في العهود اللاحقة بعد عصر الفتوح لتستقر، في بداية العهد الأموي وبعد معركة مرج راهط، من الناحية النظرية على الأقل، على قسمين هما: شمالي بلاد الشام وجنوبي بلاد الشام. ويُذكر في هذا المقام أنه منذ القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، كان اسم الشام يُطلق أحياناً على القسم الجنوبي، والشام الأعلى على القسم الشمالي[٧].

وانقسمت بلاد الشام الجنوبية بدورها إلى قسمين: قسم فلسطيني ومركزه

---

(١) ابن الجوزي: المصدر نفسه ص ٩٢، وجـ ٨ ص ٣٠.
(٢) المصدر نفسه: جـ ٨ ص ٣٠.
(٣) ابن حوقل: ص ١٥٣ ـ ١٥٤.
(٤) الجند يعادل المدينة وجمعها أجناد.
(٥) قنسرين: مدينة بالشام بينها وبين حلب مرحلة من جهة حمص بقرب العواصم. الحموي جـ ٤ ص ٤٠٤.
(٦) المصدر نفسه: ص ٣١١ـ ٣١٢.
(٧) زكار، سهيل: مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية ص ٦٦ ـ ٦٨.

الرملة[1] حيث النفوذ لقبيلة طيء العربية التي تزعمها بنو الجراح، وقسم دمشقي تسيطر عليه قبيلة كلب، وفيه قبائل بني عقيل التي استقدمها الأخشيد، فملكوا حوران[2] والبثنية[3]، وكانت دمشق كبرى مدن هذا القسم، وتُعد مدينة حلب مركزاً للقسم الشمالي وقام فيه عدد من الإمارات المستقلة.

التقسيم الجغرافي لإقليم الجزيرة

قسَّم الجغرافيون العرب بلاد ما بين النهرين، الفرات ودجلة، إلى إقليمين: الأسفل الجنوبي والأعلى الشمالي، وسموا الإقليم الأعلى بالجزيرة لأن أعالي دجلة والفرات تتخلل سهوله. وقُسِّمَ هذا الإقليم بدوره إلى ثلاث ديارات هي: ديار ربيعة، وهي أولى الإقليم من جهة العراق، وديار مضر، وديار بكر، وذلك نسبة إلى القبائل العربية، ربيعة ومضر وبكر، التي نزلت في هذا المكان قبل الإسلام.

كانت الموصل قصبة ديار ربيعة وتقع على الضفة الغربية لنهر دجلة، وسميت بالموصل لأن العرب وصلوا بها عماراتهم ومصَّروها، أو لأنها وصلت الجزيرة والعراق، أو لأنها وصلت نهري دجلة والفرات، حيث تألف منهما مجرى واحد كبير. ومن أهم مدن ديار ربيعة: الحديثة، تل يعفر، سنجار، بلد، نصيبين، دارا، رأس العين، كفرتوثا وغيرها، وناحيتها جزيرة ابن عمر.

أما قصبة ديار بكر فهي آمد في أعالي دجلة، وأشهر مدنها: ميافارقين، حصن كيفا، تل فافان وغيرها.

ومن أكبر المدن الفراتية: الرحبة، قرقيسياء، عانة، الحديثة وغيرها. أما قصبة مدن الخابور فهي عرابان. وقد عيَّنت الفواصل المائية حدود هذه الأقسام الثلاثة.

فقد كانت ديار بكر، وهي سقي دجلة من منبعه إلى منعطفه العظيم في الجنوب، أسفل تل فافان، وكانت ديار مضر إلى الجنوب الغربي وهي الأراضي المحاذية للفرات من سميساط[4] حتى يغادر سلاسل الجبال منحدراً إلى عانة مع

---

(1) الرملة: مدينة عظيمة بفلسطين وكانت قصبتها. الحموي: جـ ٣ ص ٦٩.

(2) حوران: كورة واسعة من أعمال دمشق من جهة القبلة، ذات قرى كثيرة ومزارع وحرار. الحموي: جـ ٢ ص ٣١٧.

(3) البثنية: من أعمال دمشق. المصدر نفسه: جـ ١ ص ٣٣٨.

(4) سميساط: مدينة على شاطئ الفرات في طرف بلاد الروم على غربي الفرات، ولها قلعة في شق منها يسكنها الأرمن. الحموي: جـ ٣ ص ٢٥٨.

السهول التي يسقيها نهر البليخ، رافد الفرات الآتي من حران[1].

أما ديار ربيعة، فتقع شرقي ديار مضر، وتتألف من الأراضي شرقي نهر الخابور المنحدر من رأس العين والأراضي الواقعة شرقي نهر الهرماس[2].

النشاط التركي المبكر في بلاد الشام

ازداد دور الأتراك في الدولة الإسلامية، منذ عهد المعتصم، وهو أول من ولَّاهم على بلاد الشام ومصر. فعيَّن أشناس التركي والياً على هذين البلدين بالإضافة إلى إقليم الجزيرة[3] في عام (٢٢٥هـ/ ٨٤٠م)، وعيَّن الخليفة الواثق إيتاخ التركي في عامي (٢٣٤ ـ ٢٣٥هـ/ ٨٤٨ ـ ٨٤٩م)، وتولى الفتح بن خاقان حكم بلاد الشام ومصر في عهد المتوكل (٢٣٢ ـ ٢٤٧هـ/ ٨٤٧ ـ ٨٦١م)، كما تولَّى أخوه مزاحم بن خاقان حكم هذه البلاد في عام (٢٥٣هـ/ ٨٧٦م)، ثم تولى أحمد بن مزاحم حكم بلاد الشام، وخلفه أرخز بن ألغ طرخان في (شهر ربيع الأول ٢٥٤هـ/ شهر نيسان ٨٦٨م)، ثم ولي بلاد الشام ومصر بايكباك في شهر (رمضان/ أيلول)، ولكنه لم يذهب إليها وأناب عنه ابن زوجته أحمد بن طولون الذي أسس الدولة الطولونية (٢٥٤ ـ ٢٩٢هـ/ ٨٦٨ ـ ٩٠٥م)[4]، وهي أول دولة تركية تقوم في ربوع بلاد الشام ومصر. إذ عندما استقر في مصر تطلع إلى ضمِّ بلاد الشام إلى دولته بفعل أهميتها السياسية والعسكرية والاقتصادية. وكان الخليفة المعتمد (٢٥٦ ـ ٢٧٩هـ/ ٨٧٠ ـ ٨٩٢م) قد عيَّن أماجور التركي والياً على بلاد الشام بعد أن قضى على حركة عيسى ابن الشيخ[5]، وقد خشي هذا من طموح أحمد بن طولون ورغبته في التوسع على حسابه، فحاول إقصاءه عن بلاد الشام والثغور الشامية، بل كان ينوي ضمَّ مصر نفسها.

ولعل المشكلة الكبيرة التي واجهت أحمد بن طولون، وكادت تقضي على منجزاته وآماله، علاقته بأبي أحمد الموفق الذي سيطر على الشؤون العامة في دار الخلافة، وقاد حركة إصلاحية بهدف النهوض بالسلطة المركزية وتقوية قبضتها على ولاياتها، ومن بينها بلاد الشام ومصر، لذلك سعى جاداً للقضاء على الدولة

---

(١) حرَّان: مدينة عظيمة مشهورة من جزيرة أقور وهي قصبة ديار مضر، بينها وبين الرها يوم، وبين الرقة يومان، وهي على طريق الموصل والشام والروم. المصدر نفسه: جـ ٢ ص ٢٣٥.

(٢) الهرماس: نهر نصيبين، مخرجه من عين بينها وبين نصيبين ستة فراسخ. المصدر نفسه: جـ ٥ ص ٣٩٩.

(٣) ابن العديم، الصاحب كمال الدين عمر...: زبدة الحلب من تاريخ حلب، جـ ١ ص ٧٧.

(٤) ابن الأثير: جـ ٦ ص ٢٥٠.

(٥) الطبري: جـ ٩ ص ٤٧٤ ـ ٤٧٥.

الطولونية التي انفصلت عن الإدارة المركزية، واستقلت بحكم مصر وتطلعت نحو بلاد الشام، وظهر التنافر واضحاً بين الطرفين، وقد تصرف الموفق على محورين:

الأول: أنه حاول عزل أحمد بن طولون عن ولاية مصر بواسطة أماجور حاكم بلاد الشام ثم بواسطة موسى بن بغا، إلا أنه فشل في ذلك[١].

الثاني: أنه حاول إبعاد أحمد بن طولون عن منطقة الثغور الشامية، فاتهم الطولونيين بالتقصير في حماية المنطقة من هجمات الأعداء، واستقر الأمر على تعيين ولاة من خارج البيت الطولوني، لكن الأمر لم يستتب بسبب تسلط الأتراك وعجزهم عن تهدئة الوضع، مما دفع الخليفة إلى إعادة تسليم المنطقة لابن طولون[٢].

وهكذا أضحى أحمد بن طولون من أهم العاملين في رسم السياسة في بلاد الشام، وحصل من الخليفة، بفضل علاقته الحسنة به، وفي غمرة الصراع مع الموفق، على تقليد له لبلاد الشام بالإضافة إلى ثغورها[٣].

توفي أماجور صاحب دمشق في عام (٢٦٤هـ/ ٨٧٧م) وولي مكانه ابنه، مما دفع أحمد بن طولون إلى بدء رحلته إلى المنطقة لاستلامها، فكتب إلى ابن أماجور يذكر له أن الخليفة أقطعه الشام والثغور، فأجابه بالسمع والطاعة. وسار أحمد واستخلف ابنه العباس بمصر، فلقيه ابن أماجور في الرملة، فأقرَّه عليها، وسار إلى دمشق فملكها وأقرَّ قادة أماجور على إقطاعاتهم، وسار إلى حمص فملكها، وكذلك حماة وحلب وأنطاكية والمصيصة[٤] وأذنة[٥] وطرطوس والرقة[٦] التي جعلها مقراً لحكمه ليكون قريباً من بغداد، حتى أضحت مناطق نفوذه تجاور تماماً حدود العراق[٧]، ثم تقدم نحو الحجاز واصطدم بقوات الموفق في مكة[٨].

وهكذا أعطى أحمد بن طولون لنفسه سلطات واسعة تُمثِّل واقع العصر، وتُعبِّر

---

(١) اليعقوبي: جـ ٢ ص ٤٧٤ ـ ٤٧٥. ابن الأثير: جـ ٦ ص ٣٤٤.

(٢) البلوي، أبو محمد عبد الله بن محمد: سيرة أحمد بن طولون ص ٥٧.

(٣) ابن الأثير: جـ ٦ ص ٣٤٧.

(٤) المصيصة: مدينة على شاطئ نهر جيحان من ثغور الشام بين أنطاكية وبلاد الروم تقارب طرسوس. الحموي: جـ ٥ ص ١٤٤ ـ ١٤٥.

(٥) أذنة: بلد من الثغور قرب المصيصة مشهور. المصدر نفسه: جـ ١ ص ١٣٢ ـ ١٣٣.

(٦) الرقة: مدينة مشهورة على الفرات، بينها وبين حران ثلاثة أيام، معدودة في بلاد الجزيرة. المصدر نفسه: جـ ٣ ص ٥٨ ـ ٥٩.

(٧) ابن الأثير: جـ ٦ ص ٣٥٣ ـ ٣٥٤.

(٨) المصدر نفسه: ص ٤١٦.

عن مدى التسلط التركي بما يتلاءم مع قوتهم العسكرية. وقد أدَّى دخول الطرفين في دوامة النزاع إلى إضعاف كل من العراق ومصر، فظهر عجزهما عن مواجهة المستجدات الأخرى على الساحتين الداخلية والخارجية.

لم يركن الموفق إلى الهدوء، وظل يعاند أحمد بن طولون ويضايقه، متبعاً هذه المرة أسلوباً جديداً في التعامل، يرتكز على إثارة الفتن داخل الأجهزة الطولونية، وقد قطع شوطاً بعيداً في هذا المجال مما أقلق أحمد بن طولون.

فقد تمرد عليه ابنه العباس في عام (٢٦٥هـ/ ٨٧٨م)[١]، كما خرج عليه في عام (٢٦٨هـ/ ٨٨١م) غلامه لؤلؤ الحاكم على حمص وحلب وقنسرين وديار مضر والثغور الشامية[٢]، كما ثار عليه بازمار في طرسوس[٣].

وبناء على ذلك قرَّر أحمد بن طولون أن يخرج من مصر ويتوجَّه إلى بلاد الشام لإعادة الأمور إلى نصابها، ودخل في الوقت نفسه في مفاوضات مع الموفق لإحلال السلام بينهما، لكن المنية عاجلت أحمد بن طولون في (١٠ ذي القعدة ٢٧٠هـ/ ١٠ أيار ٨٨٤م)[٤]، وخلفه ابنه خمارويه[٥]، وقد ورث مهمة الدفاع عن الدولة التي أسسها والده في مصر والاحتفاظ ببلاد الشام في ظل استمرار عداء الخلافة للطولونيين، وطمع الأمراء الأتراك المتنافسين في حكم مصر وبلاد الشام.

كان أول عمل قام به خمارويه هو تنظيم شؤون بلاد الشام بسبب أهميتها في دعم سلطته في مصر، فأسند قيادة أهم مدنها لأفضل قادته، كما ترك معظم جيشه في منطقة حلب، وأرسل قوة عسكرية رابطت في شيزر[٦]، وكتب إلى الخليفة العباسي لكي يُقرَّه على ما بيده من المناطق مقابل الدعاء والطاعة، إلا أن الموفق رفض طلبه مما كان سبباً لاستمرار النزاع والصدام بين الجانبين[٧]. ونجح الموفق في تأليب القوى وتجميعها في حلف ضمَّ خصوم الطولونيين وبعض قادتهم الذين انقلبوا

---

(١) الطبري: جـ ٩ ص ٥٤٥. (٢) ابن الأثير: جـ ٦ ص ٣٩٩.

(٣) شيشن، رمضان: دور الأتراك في الشام قبل السلاجقة، المؤتمر الدولي الخامس لتاريخ بلاد الشام ص ٥٦٤.

(٤) البلوي: ص ٣٠٥. الكندي، أبو عمر محمد بن يوسف: كتاب الولاة والقضاة ص ١٨٠. ابن الأثير: جـ ٦ ص ٤٢٧.

(٥) ابن الأثير: المصدر نفسه ص ٤٢٨.

(٦) ابن الأثير: جـ ٦ ص ٤٢٨. ابن العديم: جـ ١ ص ٨٠. وشيزر: قلعة تشتمل على كورة بالشام قرب المعرة، بينها وبين حماة يوم. الحموي: جـ ٣ ص ٣٨٣.

(٧) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون: جـ ٣ ص ٦٩٩.

عليهم، كان من بينهم إسحاق بن كنداج حاكم الموصل والجزيرة، وقد طمع هو وابن أبي الساج في امتلاك بلاد الشام، ثم دعم هذا الحلف بجيش عباسي بقيادة ابنه أبي العباس، ودفع الجميع باتجاه بلاد الشام[١].

حقَّقت قوى التحالف انتصارات سريعة أمام تراجع الطولونيين في الرقة والعواصم ودخلت أنطاكية وحلب، واستولى إسحاق بن كنداج على دمشق وهزم جيش خمارويه عند مدينة شيزر[٢].

نتيجة هذا النجاح العسكري، خرج خمارويه بنفسه لوقف تقدم قوى التحالف، والتقى بأبي العباس على نهر أبي فطرس في جنوبي فلسطين في مكان يُعرف بالطواحين، وذلك في عام (٢٧١هـ/ ٨٨٥م)، هُزم فيها خمارويه وفرَّ إلى مصر، إلا أن ثبات قائده سعد الأيسر أعطاه فرصة أخرى للنصر، حيث كرَّ على القوات المتحالفة وتغلَّب عليها، وفرَّ أبو العباس وقُتل قادته[٣]، واستقر الأمر مجدداً للطولونيين في بلاد الشام. وواصل خمارويه توسعه في الجزيرة والموصل حتى أعاد حدود الدولة إلى ما كانت عليه في أيام والده، من برقة إلى الفرات، ومن آسيا الصغرى حتى بلاد النوبة، وشملت سلطته منطقة أرمينية[٤]. وأضحت الدولة الطولونية قوة تملأ مكانها بجدارة، وتمَّت الخطبة في الديار الشامية والجزرية باسم خمارويه في عام (٢٧٥هـ/ ٨٨٨م)، وعاد بازمار إلى طاعة الطولونيين، وخطب باسم خمارويه في عام (٢٧٧هـ/ ٨٩٠م)[٥].

على الرغم من الانتصارات التي حقَّقها خمارويه فقد مال إلى السلام، وبادر إلى طلب الصلح مفتتحاً بذلك مرحلة جديدة في تاريخ العلاقات بين الطولونيين والخلافة العباسية. ومن جهته شعر الموفق بضرورة إحلال السلام والوفاق بني الطرفين. ومنح الخليفة خمارويه حكم مصر وبلاد الشام الوراثي له ولأولاده من بعده مدة ثلاثين عاماً، على أن يتوقف عن لعن الموفق على المنابر، وأن يدعو له مع الخليفة[٦].

توفي خمارويه في عام (٢٨٢هـ/ ٨٩٦م) مقتولاً على يد بعض غلمانه في دمشق، وكان جف بن طغج الأخشيد معه[٧]، فاضطربت بوفاته الدولة الطولونية،

---

(١) ابن الأثير: جـ٦ ص ٤٢٨. (٢) المصدر نفسه: ص ٤٢٨ ـ ٤٢٩.

(٣) الطبري: جـ ١٠ ص ٨. ابن الأثير: المصدر نفسه ص ٤٣٣ ـ ٤٣٤.

(٤) محمود، حسن أحمد: حضارة مصر في العصر الطولوني ص ١١٥.

(٥) ابن الأثير: جـ٦ ص ٤٥٦.

(٦) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: جـ٣ ص ٥٠ ـ ٥١.

(٧) المصدر نفسه: ص ٨٨ ـ ٨٩.

واستمرت بالانحدار طيلة السنوات العشر الأخيرة من عمرها، وذلك بسبب تدخل الجند، وتنافس الأمراء الطولونيين فيما بينهم. إذ لم يكد ينهض خلفه أبو العساكر جيش بأعباء الحكم حتى خلعه طغج بن جف والي طرسوس، وأقام مقامه أخاه هارون وذلك قبل أن تنقضي تسعة أشهر على ولايته، وتبين بعد ذلك أن هذا الأخير لم يكن يصلح للحكم[١].

وفي عام (٢٨٥هـ/ ٨٩٨م) نرى الأمور في بلاد الشام غير منتظمة، لكن والي دمشق طغج بن جف الذي عيَّنه جيش بن خمارويه يخرج من هذه الأزمة منتصراً ويحتفظ بمكانته، وراح يرسم سياسة استقلالية لنفسه في بلاد الشام.

وظهرت في ذلك الوقت قوتان هددتا مصر من الشرق والغرب، إحداهما القوة القرمطية التي شرعت جيوشها تعيث فساداً في بلاد الشام حتى استولت على جنوبه، والأخرى هي قوة الفاطميين المنطلقين من المغرب.

ولم يكن هارون وواليه على دمشق قادرين على مقاومة هاتين القوتين، وأضحى من المؤكد أن الطولونيين فقدوا عنصر القوة الذي كان يتمتع به أحمد وابنه خمارويه، وأصبحوا ألعوبة في أيدي الجند، ولم يبق من مبرر لبقاء دولتهم.

تنبَّهت الخلافة العباسية إلى ضعف الطولونيين، مما دفعها إلى تجديد رغبتها في إعادة بلاد الشام ومصر إلى سلطانها المباشر، فنجح الخليفة المعتضد (٢٧٩ ـ ٢٨٩هـ/ ٨٩٢ ـ ٩٠٢م) في انتزاع منطقة الثغور وبلاد الشام من الحكم الطولوني[٢]. وهاجم الخليفة المكتفي (٢٨٩ ـ ٢٩٥هـ/ ٩٠٢ ـ ٩٠٨م) مصر في عام (٢٩٢هـ/ ٩٠٥م)، ولم تقوَ القوات الطولونية على الصمود أمام الجيش العباسي الذي دخل مدينة القطائع ودمَّرها، باستثناء الجامع، منهياً بذلك الحكم الطولوني، وعاد هذا البلد إلى حكم الخلافة المباشر[٣].

عمدت الخلافة العباسية إلى إبعاد أنصار الطولونيين عن بلاد الشام بهدف تثبيت أقدامها في هذا البلد، فعزلت طغج بن جف عن ولاية دمشق وعيَّنته والياً على قنسرين، وجعلت بدراً الحمامي، غلام ابن طولون، والياً على دمشق[٤]. وفي عام

---

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: جـ ٣ ص ٨٨ ـ ٨٩.

(٢) انظر فيما يتعلق بالأحداث في مناطق الثغور وأثرها على الحكم الطولوني: زيود، محمد أحمد: العلاقات بين الشام ومصر في العهدين الطولوني والأخشيدي: ص ١٤٠ ـ ١٤٦.

(٣) المرجع نفسه: ص ١٤٦ ـ ١٥٢. ابن الأثير: جـ ٦ ص ٥٤٣ ـ ٥٤٤.

(٤) الكندي: ص ١٩١. المرجع نفسه: ص ١٧٠.

(٢٩٣هـ/ ٩٠٦م) عُيِّن أحمد بن كيغلغ والياً على دمشق، وامتدت ولايته إلى مصر في عام (٣٢٤هـ/ ٩٣٥م)[١]، ومع ذلك فقد ظل الوضع السياسي مضطرباً ومعقداً نتيجة لضعف السلطة المركزية العباسية التي سيطر عليها القادة الأتراك والغلمان والنساء، فعجزت عن السيطرة على الأوضاع وتخبطت في مسيرتها، فأكثرت من العزل والتعيين، وضربت القوى بعضها ببعض ودعمت التجزئة والانفصال.

وشهدت هذه المرحلة نشاطاً قرمطياً وفاطمياً واسعاً، وتحرُّك الأعراب في كل مكان من أرض بلاد الشام، وفتناً طائفية وضغطاً بيزنطياً على مناطق الثغور، فانعدم الأمن، وساءت أوضاع البلاد الاقتصادية، وفُتح الطريق أمام كل طامع ليحقق أحلامه الخاصة مستفيداً من الظروف.

تطلب هذا الوضع المتدهور وجود حاكم قوي يملأ الفراغ، ويتصدَّى لهذه الأخطار، ويجعل من مصر دولة حاجزة أمام الزحف الفاطمي باتجاه الشرق، ويؤمن الاستقرار في بلاد الشام، فولَّى الخليفة الراضي محمد بن طغج بن جف على مصر في عام (٣٢٣هـ/ ٩٣٥م)، وعلى بلاد الشام في عام (٣٢٧هـ/ ٩٣٩م) ولقَّبه الأخشيد[٢]، وبذلك تمَّ قيام الدولة الأخشيدية في مصر وبلاد الشام.

وفي غمرة الصراع بين الأمراء، من أجل الحصول على منصب أمير الأمراء[٣]، تولى بجكم هذا المنصب في عام (٣٢٦هـ/ ٩٣٨م) بعد أن تغلَّب على ابن رائق الذي تطلع إلى ولايتي مصر وبلاد الشام ليعوِّض بهما عن خسارته، وتمكَّن من الحصول على تقليد من الخليفة الراضي على حلب وأعمالها[٤].

وما إن تسلَّم ابن رائق منصبه الجديد حتى طمع في بلاد الشام كلها وراح يتدخل في أمور الأخشيديين. وعلى الرغم من أن الأخشيد أبدى قلقه من ذلك، إلا أنه سلك معه مسلكاً حسناً، وحاول استرضاءه.

ويبدو أن ابن رائق لم يُخف نواياه التوسعية، فتقدم باتجاه بلاد الشام الجنوبي واستولى على حمص ودمشق، ثم سار إلى الرملة فالعريش في محاولة لدخول

---

(١) ابن الأثير: جـ ٦ ص ٥٤٩. جـ ٧ ص ٦٥.

(٢) الكندي: ص ٢١٥ ـ ٢١٧. ابن تغري بردي: جـ ٣ ص ٢٥١.

(٣) انظر فيما يتعلق بهذا المنصب كتابنا تاريخ الدولة العباسية ص ١٦٨ ـ ١٧٢.

(٤) ابن العديم: جـ ١ ص ٩٩.

مصر، وهناك اصطدم بالقوات الأخشيدية بقيادة أبي نصر بن طغج في اللجون[١] في (٤ ذي الحجة ٣٢٦هـ/ ٣ تشرين الأول ٩٣٨م)، لكنه هُزم وتمكَّن من النجاة[٢].

أراد الأخشيد، على الرغم من انتصاره، تغليب المصلحة العامة للمسلمين على مصلحته الخاصة، مقدِّراً ظروف الخلافة العباسية المتدهورة، والتهديد المستمر لدولته من جانب الدولة الفاطمية. ومن جهته أدرك ابن رائق أن الموقف يقضي بالعودة إلى العقل والدخول في الصلح.

وفعلاً عُقد الصلح بين الجانبين، وقد تضمن أن يترك الأخشيد لابن رائق الأراضي الشامية الواقعة شمال الرملة، وتعهَّد بأن يدفع له مبلغ مائة وأربعين ألف دينار سنوياً عن الرملة[٣].

وبعد عامين من إبرام المعاهدة، قُتل ابن رائق في عام (٣٣٠هـ/ ٩٤٢م) على يد ناصر الدولة الحمداني[٤]، فانتهز الأخشيد هذه الفرصة وسيطر على بلاد الشام، دون مقاومة تُذكر، وتقدم شمالاً حتى جاور الدولة الحمدانية، كما دخلت مكة والمدينة تحت سلطانه، فأضحى من أكبر القوى في العالم الإسلامي، واضطر الخليفة المتقي إلى الاعتراف بوراثية ولايته على مصر، وأقرَّه على بلاد الشام[٥].

أدى تجاور الدولتين الأخشيدية والحمدانية الطامعة في بلاد الشام إلى احتدام النزاع بينهما، فقاد سيف الدولة حملة عسكرية وسيطر على حلب ودمشق في عام (٣٣٣هـ/ ٩٤٥م)، وأخذ يستعد لغزو مصر، مما دفع الأخشيد إلى الخروج بنفسه إلى بلاد الشام لوقف التقدم الحمداني[٦].

ونتيجة للاشتباك الذي حصل بين الطرفين في قِنسرين، هُزم سيف الدولة، ودخل الأخشيد حلب واستردَّ دمشق، لكنه آثر مجدداً تغليب المصلحة العامة للمسلمين على مصلحته الشخصية، فعقد صلحاً مع سيف الدولة تنازل له بموجبه عن حلب وشمالي الشام[٧].

ويبدو أن الأخشيد أدرك ضرورة وجود قوة إسلامية في شمالي بلاد الشام،

---

(١) اللجون: بلد بالأردن، بينه وبين طبرية عشرون ميلاً، وإلى الرملة مدينة فلسطين أربعون ميلاً. الحموي: جـ ٥ ص ١٣.

(٢) ابن الأثير: جـ ٧ ص ٨٦.

(٣) ابن تغري بردي: جـ ٣ ص ٢٥٣.

(٤) مسكويه، أبو علي أحمد بن محمد: تجارب الأمم: جـ ٢ ص ٢٧ ـ ٢٨.

(٥) ابن الأثير: جـ ٧ ص ١٠٣ ـ ١٠٤.

(٦) المصدر نفسه: ص ١٥٣ ـ ١٥٤.

(٧) المصدر نفسه: ص ١٥٤.

كقوة الحمدانيين، للتصدي لغارات البيزنطيين على المناطق الإسلامية، بالإضافة إلى أن الأخشيديين في مصر كانوا يقعون تحت ضغط خارجي كبير من جهة الفاطميين، كما أخذوا يواجهون بعض الحركات الاضطرابية مثل حركة غلبون في منطقة الأشمونين[1]. ومن ناحية أخرى، فإن الخلافة العباسية لم تكن صادقة النية معه، فكانت ترسل الولاة إلى بلاد الشام لتهدِّد النفوذ الأخشيدي فيها، لذلك جنح إلى الصلح.

توفي الأخشيد في عام (٣٣٤هـ/ ٩٤٥م)[2]، وكان قد أوصى بالملك من بعده لولديه الصغيرين أنوجور وعلي، على أن يتولى كافور الأخشيدي الوصاية عليهما. وفعلاً حكم كافور مصر اثنين وعشرين عاماً كوصي، حتى إذا توفي كل من أنوجور وعلي في عامي (٣٤٩هـ/ ٩٦٠م) و(٣٥٥هـ/ ٩٦٦م)، استبدَّ بالحكم، واعترفت الخلافة العباسية به حاكماً على مصر[3].

استطاع كافور خلال مدة وصايته أن يحافظ على تماسك الدولة، وأن يدافع عنها ضد خطر الحمدانيين في الشمال، والقرامطة الذين أغاروا على جنوبي بلاد الشام، وأمراء النوبة في الجنوب، كما تصدَّى للزحف الفاطمي باتجاه مصر.

ثم حدث أن اضطربت الأوضاع في مصر بعد وفاة كافور في عام (٣٥٧هـ/ ٩٦٨م) بفعل صغر سن حفيده وخلفه أبي الفوارس أحمد مما جعل الحكم الأخشيدي في حكم الزائل، واقتضت الضرورة وجود قوة تملأ الفراغ الذي تركته الدولة الأخشيدية، ومن ثم كان دخول الفاطميين إلى كل من مصر وبلاد الشام الذي شكَّل مرحلة جديدة لكلا البلدين.

القوى السياسية في بلاد الشام

الوضع السكاني

لعله من المفيد، لاستيعاب وقائع وأبعاد التوغل التركي في بلاد الشام في أواسط القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، أن نتطرق إلى الأوضاع السكانية والدينية والاقتصادية لهذه البلاد خلال تلك المدة.

ففيما يتعلق بالوضع السكاني، فقد تضمنت الخارطة السكانية لبلاد الشام

---

(١) الكندي: ص ٢٢١. والأشمونين: مدينة قديمة عامرة آهلة، وهي قصبة كورة من كور الصعيد الأدنى غربي النيل ذات بساتين ونخل كثير. الحموي: جـ ١ ص ٢٠٠.

(٢) ابن الأثير: جـ ٧ ص ١٦٣ ـ ١٦٤.

(٣) ابن الأثير: جـ ٧ ص ٢٣١.

خليطاً من السريان والعرب والأكراد وأقوام أخرى كالبيزنطيين، وقد طرأ عليها تعديل جذري بدخول العنصر العربي الجديد على شكل قبائل سكنت في المناطق الحدودية بين الجزيرة العربية وبلاد الشام قبل أن تتمدَّد باتجاه الشمال، وقد حملت معها بذور الصراع القديم بينها فيما عُرِف لدى النسابين باسم قيسية ويمنية، وما صار ينقسم إليه الأصل العربي كله بين شماليين وجنوبيين، ونسل عدنان وقحطان، وعلى الرغم من تداخل التجمعات السكانية لهذه القبائل في جنوبي بلاد الشام وأواسطه، إلا أنه أضحى واضحاً فيما بعد[١].

وازداد هذا الانقسام وضوحاً بعد أن التحمت هاتان العصبيتان في (شهر ذي القعدة عام ٦٤هـ/ شهر حزيران عام ٦٨٤م) في معركة مرج راهط بنواحي دمشق، والتي أسفرت عن انتصار واضح لليمنيين، وقُتل زعيم القيسيين الضحاك بن قيس في المعركة مع عدد كبير من أشراف الشام[٢]، وأضحى الحد الفاصل بين المجموعتين يمر في نقطة وهمية تقع جنوب حمص عند الرستن على العاصي، وعُدَّ كل تحرك قبلي من جانب أي من العصبيتين يتعدى هذا الخط الوهمي عملاً عدائياً، وإن بقي التداخل مع ذلك قائماً.

وتقاسمت القبائل القيسية شمالي بلاد الشام حتى الجزيرة الفراتية، فكانت ديار مضر وديار ربيعة وديار بكر. وقد اختلطت القبائل الوافدة بعد الفتوح الإسلامية بالقبائل التي هاجرت قبل هذه الفتوح كتغلب وبكر. كما وفدت جموع قيسية أخرى كان منها بنو قشير ونمير وعقيل وكلاب نزلوا في وادي المياه من ديار ربيعة في الشمال الغربي من سنجار، فأزاحوا من كان يسكنها من قبائل ربيعة ومضر «عن بعض ديارهم، بل جلِّها وملكوا غير بلد وإقليم منها، كحران وجسر منبج والخابور والخانوقة وعرابان وقرقيسيا، والرحبة في أيديهم يتحكَّمون في خفائرها ومرافقها»[٣].

الوضع الديني

أما الوضع الديني لهذه الجماعات السكانية، فقد كانت في غالبيتها تدين بالدين الإسلامي على المذهب السني باستثناء مجموعات صغيرة غسانية وتنوخية

(١) مصطفى، شاكر: في التاريخ الشامي: جـ ٢ ص ٨٢ ـ ٨٣.
(٢) الطبري: جـ ٥ ص ٥٣٧ ـ ٥٤٣.
(٣) ابن حوقل النصيبي: صورة الأرض ص ٢٠٥.

وتغلبية، وكان فيهم «أهل جماعة وسنة، وأهل طبرية ونصف نابلس وقدس وأكثر عمَّان شيعة، ولا ماء فيه لمعتزلي إنما هم خفية»[١]. كما وُجد بعض الشيعة في منطقة السلمية من أعمال حماة حيث خطا المذهب الفاطمي خطواته الأولى. وكان في منطقة حلب تشيُّع بفعل التأثير الفاطمي. وقد ساعد استيلاء الفاطميين على ساحل بلاد الشام إلى انتشار المذهب الإسماعيلي الفاطمي في المدن الساحلية مثل طرابلس وصور، وفي الشمال في منبج، كما انتشر المذهب الدرزي بعد عام (٤٠٨هـ/١٠١٧م) ووصل إلى جبل السماق عند حلب[٢].

وانتشر بعض الذميين في المدن والقرى الجبلية على شكل مجموعات دينية نصرانية بعضها أرثوذكسي وبعضها الآخر ماروني، ومنها على المذهب اليعقوبي السرياني، وتركَّز اليهود في نابلس وطبرية وبيت المقدس ودمشق، لكن بأعداد محدودة[٣].

الوضع الاقتصادي

كانت الزراعة والإنتاج الحيواني عماد الحياة الاقتصادية في بلاد الشام. ويذكر ابن حوقل: «بالجزيرة براري وقفار وسباخ بعيدة الأقطار تُنتجع لامتيار الملح والأشنان والقلى، وكان يسكنها قبائل من ربيعة ومضر: أهل خيل وغنم وإبل قليلة، وأكثرهم متصلون بالقرى وبأهلها، فهم بادية حاضرة...»[٤].

لم يكن الإنتاج الزراعي على قدر واحد عبر السنين، بل كانت الزراعة تتقلَّص وتنكمش أحياناً بفعل أربعة عوامل[٥] هي:

١ ـ غارات البدو على المناطق الحضرية

اتصف البدو، على مر العهود، بأنهم أصحاب غزو بهدف الحصول على مقومات الحياة من غذاء وماء التي تشكل عامل دفع لهؤلاء للإغارة على المناطق الحضرية، وقلما تمر سنة دون أن نقرأ في بطون المصادر: «وَنهبت النواحي»، «انتشرب البادية في البلاد وقطعوا الطرقات»، «وانتشار الأعراب في البلاد ونهبها».

يصف ابن الأثير حال بلاد الشام بعد وفاة أنوشتكين الدزبري، نائب المستنصر بالله الفاطمي صاحب مصر فيقول: «فلما توفي فسد أمر بلاد الشام، وانتشرت الأمور

(١) المقدسي، المعروف بالبشاري: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص ١٥٣.

(٢) ابن العديم: جـ١ ص ٢١١.

(٣) مصطفى: ص ٨٤.

(٤) صورة الأرض: ص ٢٠٥.

(٥) مصطفى: ص ٨٥ ـ ٨٨.

بها، وزال النظام، وطمعت العرب، وخرجوا في نواحيه...»[1]. ويذكر في حوادث عام ٤٤٨هـ: «في هذه السنة انقطعت الطرق عن العراق لخوف النهب، فقلَّت الأسعار، وكثر الغلاء، وتعذَّرت الأقوات وغيرها من كل شيء، وأكل الناس الميتة ولحقهم وباء عظيم...»[2].

وتُعدُّ الخصومات السياسية الداخلية عاملاً آخر يدفع البدو إلى الغزو والسلب والنهب من خلال استعانة القوى السياسية المحلية بهؤلاء، فتشجعهم على النهب والتدمير وقطع الشجر وحرق غلال الخصم، ولعل في نزاعات بني مرداس الداخلية في شمالي بلاد الشام، والصراع بين أهل دمشق والسلطة الفاطمية، وحروب بني الجراح في فلسطين وطبرية، بالإضافة إلى تصرف الجند المرتزقة من الأتراك والمغاربة، خير دليل على ذلك.

٢ ـ الحروب مع البيزنطيين

شهدت الدوائر البيزنطية، ما بين نهاية القرن الرابع الهجري وبداية القرن الخامس الهجري، يقظة سياسية وعسكرية وصلت صداها إلى المشرق الإسلامي في عهد الأمبراطور زمسكيس. وبعد التدمير الذي جرى في أيام الحمدانيين، استمر البيزنطيون في هجماتهم على الأراضي الإسلامية وبخاصة في شمالي وأواسط بلاد الشام.

واستناداً إلى ما ذكره ابن حوقل، فقد قتل البيزنطيون في إحدى هجماتهم على حلب بعد عام ٣٧٠هـ «من أهل سوادها ما في إعادته على وجهه إرماض لمن سمعه ووهن على الإسلام وأهله»[3]، (وقنسرين) «فاكتسحها الروم فكأنها لم تكن إلا بقايا دِمَن فديتها من دِمَن»[4]، (وآمد) «كان لها ضياع ورساتيق وقصور ومزارع برسمها هلكت بضعفهم واقتدار العدو عليهم وقلة المغيث والناصر...»[5]، (وحمص) «... ودخلها الروم وقتنا هذا فأتوا على سوادها وأخربوها... وقد زاد اختلالها بعد دخول الروم إليها وانصراف سلطانها عنها... وما أظن الروم تركت بها رمقاً لما بعد»[6].

٣ ـ ظلم الولاة

هذه عادة جرى عليها الولاة والحكام بشكل عام، وتتمثل بجمع الأموال بحق

---

(١) الكامل في التاريخ: جـ٨ ص ٢٩.
(٢) المصدر نفسه: ص ١٤٤.
(٣) صورة الأرض: ص ١٦٣.
(٤) المصدر نفسه: ص ١٦٤.
(٥) المصدر نفسه: ص ٢٠١.
(٦) المصدر نفسه.

وبغير حق، وفرض الضرائب الجائرة، وتنفيذ المصادرات، ولنا في أعمال بني عقيل وبني مروان وبني نيسان في الجزيرة وبني مرداس في حلب، وحكام دمشق الفاطميين، شواهد واضحة.

من ذلك أن أمير الجيوش الدزبري الختلي، الذي ولي دمشق بين عامي (٤١٩ـ ٤٣٦هـ/ ١٠٢٨ ـ ١٠٤٤م)، كان حسن السياسة وجميل العشرة، ذاع ذكره وحسن صيته وكثر شكره[١]، خلف في قلعة حلب بعد وفاته ثروة تقدر بأكثر من مليون دينار[٢].

وفي عهد ولاية معلى بن حيدرة بن منزو، الذي استولى على الحكم في دمشق بالقهر والغلبة في عام (٤٦١هـ/ ١٠٦٩م)، فقد تعرَّض الناس للمضايقة، وقد بالغ هذا الوالي في «المصادرات حينئذ وارتكب من الظلم ومصادرة المستورين الأخيار ما هو مشهور ومن العبث والجور ما هو شائع بين الأنام مذكور، ولم يلق أهل البلد من التعجرف والظلم، والعسف بعد جيش بن الصمصامة في ولايته[٣]، ما لقوه من ظلمه، وسوء فعله وقاسوه من اعتدائه ولؤم أصله، ولم تزل هذه أفعاله إلى أن خربت أعمالها، وجلا عنها أهلها، وهان عليهم مفارقة أملاكهم، وسُلُوُّهم عن أوطانهم بما عانوه من ظلمه، ولابسوه من تعديه وغشمه، وخلت الأماكن من قاطنيها، والغوطة من فلاحيها...»[٤].

٤ ـ الكوارث الطبيعية

منها الزلازل المدمرة التي كانت تضرب بلاد الشام على مراحل زمنية متقاربة أو متباعدة. ففي عام (٤٢٠هـ/ ١٠٢٩م) حدثت زلزلة «خرَّبت ما يزيد على نصف دمشق، وهلك تحت الردم خلق كثير»[٥]. وفي عام (٤٢٥هـ/ ١٠٣٤م) ضرب زلزال شديد مصر وبلاد الشام وتركز في الرملة التي غادرها أهلها لعدة أيام، وانهدم منها نحو ثلثها وهلك تحت الهدم خلق كثير[٦]. «وهبط نصف بالس[٧] وابتلعت عدة قرى في سوريا مع أهاليها، وهدمت أساسات كنيسة أورشليم ومأذنة العرب في

---

(١) ابن القلانسي: ص ١١٧.
(٢) المصدر نفسه: ص ١٢٧.
(٣) جيش بن الصمصامة: قائد فاطمي ولي دمشق في عام ٣٦٣هـ.
(٤) ابن القلانسي: ص ١٦١.
(٥) الدواداري: الدرة المضيئة: جـ ٦ ص ٣٢٦.
(٦) ابن الأثير: جـ ٧ ص ٧٦٥. ابن العبري: ص ٨٥.
(٧) بالس: بلدة بالشام، بين حلب والرقة. الحموي: جـ ١ ص ٣٢٨.

عسقلان، ورأس مأذنة غزة ونصف عكا»[1]. وضرب بلاد الشام في عام (٤٥٥هـ/ ١٠٦٣م) زلزال قوي خرَّب الكثير من المدن والقرى وانهدم سور طرابلس[2]. وحدث يوم الثلاثاء (١٠ جمادى الأولى عام ٤٦٠هـ/ ١٧ آذار ١٠٦٨م) زلزال مدمر تركَّز في فلسطين حيث «هدمت أكثر دور الرملة وسورها، وتضعضع جامعها، ومات أكثر أهلها تحت الردم... وهلك في بانياس[2] تحت الردم نحو مائة نفس وكذلك في بيت المقدس»[3].

ومنها العواصف الشديدة المخربة. ففي (شهر رجب عام ٤٦٠هـ/ شهر أيار عام ١٠٦٨م) سُمع «رعدة هائلة ما سمع بأعظم منها ولا بأهول من صوتها، فغشي على جماعة من الرجال والنسوان والصبية، وطلع في أثرها سحاب هائل ووقع منه برد شديد الوقع أهلك كثيراً من الشجر، وجاء معه سيل عظيم في بلد الشام قلع ما مر به من الشجر والصخر، وحكي أن ارتفاعه بوادي بني عُلَيْم، بنواحي حلب، نحواً من ثلاثين ذراعاً...»[4]. ويذكر المقريزي أن الرملة خربت فيه خراباً لم تعمر بعده[5]. ويروي ابن الأثير أنه هلك من أهل الرملة «خمسة وعشرون ألفاً، وانشقت الصخرة بالبيت المقدس، وعادت بإذن الله تعالى، وعاد البحر من الساحل مسيرة يوم، فنزل الناس إلى أرضه يلتقطون منه، فرجع الماء عليهم فأهلك منهم خلقاً كثيراً»[6].

ومنها القحط والمجاعة والأوبئة التي غالباً ما تأتي معاً. ففي عام (٤٢٣هـ/ ١٠٣٢م) كان «غلاء شديد واستسقى الناس فلم يسقوا، وتبعه وباء عظيم، وكان عاماً في جميع البلاد بالعراق والموصل والشام وبلد الجبل وخراسان وغزنة والهند وغير ذلك. وكثر الموت، فدفن في أصبهان في عدة أيام أربعون ألف ميت، وكثر الجدري في الناس، فأحصي في الموصل أنه مات به أربعة آلاف صبي، ولم تخل دار من مصيبة لعموم المصائب وكثرة الموت، وممن جدر القائم بأمر الله، وسلم»[7].

تكررت هذه الظاهرة في عام (٤٤٨هـ/ ١٠٥٦م) «ببغداد والشام ومصر وسائر الدنيا حتى كان الناس يأكلون الميتة،... وكان مع الغلاء وباء عظيم لم يُسمع بمثله

---

(١) ابن العبري: ص ٨٥.

(٢) ابن الأثير: جـ ٨ ص ١٨٧. أبو الفدا: جـ ١ ص ٥٤١.

(٣) ابن القلانسي: ص ١٥٩.

(٤) ابن القلانسي: المصدر نفسه.

(٥) اتعاظ الحنفا: جـ ٢ ص ٢٧٧.

(٦) الكامل في التاريخ: جـ ٨ ص ٢١٤.

(٧) ابن الأثير: جـ ٧ ص ٧٥٤. ابن العبري: ص ٨٥.

حتى كان يموت ببغداد كل يوم ما يزيد على خمسين ألف نفس»[١]. ويذكر ابن الأثير أنه في «هذه السنة انقطعت الطرق عن العراق لخوف النهب، فغلت الأسعار، وكثر الغلاء، وتعذرت الأقوات وغيرها من كل شيء، وأكل الناس الميتة، ولحقهم وباء عظيم، فكثر الموت حتى دفن الموتى بغير غسل ولا تكفين، فبيع رطل لحم بقيراط، وأربع دجاجات بدينار، ورطلا شراب بدينار وسفرجلة بدينار ورمانة بدينار وكل شيء كذلك»[٢].

وتكررت هذه الظاهرة المرعبة في عام (٤٥٩هـ/١٠٦٧م) حيث وقع الوباء العظيم في حلب «حتى أنه مات في شهر رجب من هذه السنة زهاء أربعة آلاف فضلاً عن سائر الشهور»[٣]. وتجدَّدت في عام (٤٦٩هـ/١٠٧٦م) في الجزيرة والعراق وبلاد الشام، فكان «وباء عظيم وموت كثير حتى بقي من الغلات ليس لها من يعملها لكثرة الموت في الناس»[٤]. ومات أكثر سكان دمشق، ولم يبق فيها سوى ثلاثة آلاف إنسان من أصل خمسمائة ألف أفناهم الفقر والغلاء والجلاء.

الدولة الفاطمية[٥]

أرسل ابن حوشب النمار داعي الإسماعيليين[٦] في اليمن أبا عبد الله الشيعي إلى بلاد المغرب في عام (٢٨٨هـ/٩٠١م) لنشر الدعوة الإسماعيلية في تلك البلاد بعد وفاة داعيي الإسماعيلية فيها وهما الحلواني وأبو سفيان. ونجح أبو عبد الله هذا في استقطاب جماعة من حجاج كتامة المغاربة، فصحبهم إلى بلاد المغرب حيث بثَّ دعوته بين الناس، وقوي أمره بما التفَّ حوله من الأتباع، واستولى على القيروان[٧] وأزال دولة الأغالبة.

واستدعى أبو عبد الله الشيعي، عبيد الله الذي آلت إليه أسرار الدعوة، وكان في

---

(١) الدواداري: جـ ٦ ص ٣٦٩.
(٢) ابن الأثير: جـ ٨ ص ١٤٤.
(٣) ابن العديم: جـ ١ ص ٢٥٥.
(٤) ابن الأثير: جـ ٨ ص ٢٦٢.
(٥) نسب الفاطميون أنفسهم إلى علي بن أبي طالب وفاطمة بنت النبي محمد ﷺ.
(٦) ظهرت الدعوة الإسماعيلية في أواخر عهد دولة الخلافة الأموية عندما انضم عدد كبير من الزيدية إلى طائفة الإمامية من أنصار جعفر الصادق. وبعد وفاته، انقسمت الشيعة الإمامية إلى قسمين بفعل اختلاف الرأي حول كيفية تحديد الحق الوراثي لاختيار الإمام، وهما الإمامية الموسوية، وقد أطلق عليها فيما بعد «الإثنا عشرية». اعتقد أتباعها بإمامة موسى الكاظم بن جعفر الصادق، وهو عندهم الإمام السابع، والإمامية الإسماعيلية الذين قالوا بإمامة إسماعيل بن جعفر الصادق، وهو أكبر أولاد أبيه، ومع أن وفاته حصلت في حياة أبيه، فقد حوَّل أتباعه الإمامة إلى ابنه محمد المستور وهو عندهم الإمام السابع، ومن ثَمَّ أُطلق على هذه الطائفة اسم السبعية أو الإسماعيلية لتمييزهم عن الإثني عشرية.
(٧) القيروان مدينة عظيمة بأفريقية بناها عقبة بن نافع في عام (٥٠هـ/ ٦٧٠م). الحموي: جـ ٤ ص ٤٢٠.

سلمية، للحضور إلى أفريقية، لتسلم الأمر. رحَّب عبيد الله بالدعوة، فغادر سلمية وتوجه إلى بلاد المغرب، ووصل إليها في عام (٢٩٦هـ/ ٩٠٩م) حيث بويع له بالخلافة وتلقب بـ «المهدي أمير المؤمنين»، واضعاً بذلك الأساس الذي قامت عليه الدولة الفاطمية.

أدرك الفاطميون، بعد مائة سنة تقريباً، أن بلاد المغرب لا تصلح لأن تكون مركزاً لدولتهم بسبب ضعف مواردها الاقتصادية، فضلاً عن كثرة الاضطرابات فيها ضد الوجود الفاطمي، لذلك اتجهت أنظارهم إلى مصر الغنية بمواردها، بالإضافة إلى موقعها الهام بفعل قربها من بلاد الشام مما يجعلها صالحة لإقامة دولة مستقلة تنافس دولة الخلافة العباسية على زعامة العالم الإسلامي، ومن ثم القضاء عليها وهو الهدف الأسمى للفاطميين.

كانت الأوضاع السياسية والعسكرية آنذاك مواتية، فالدولة الأخشيدية تمر في مراحل شيخوختها بعد وفاة كافور الأخشيدي في عام (٣٥٧هـ/ ٩٦٨م) وعدم وجود شخصية قوية تستطيع ملء الفراغ الذي تركه، وعمَّها الاضطراب بفعل صغر سن حفيده وخليفته أبي الفوارس أحمد، فاستغل المعز لدين الله الفاطمي (٣٤١ ـ ٣٦٥هـ/ ٩٥٢ ـ ٩٧٥م)، هذه الأوضاع السيئة، فأرسل قائده جوهر الصقلي، إلى مصر واستولى عليها في عام (٣٥٨هـ/ ٩٦٩م)[١].

شكَّلت الدولة الفاطمية تحدياً للزعامة الدينية السنية في بغداد، وحتى تؤكد زعامتها على العالم الإسلامي، ورغبة في تأمين حدود مصر من ناحية الشمال الشرقي؛ تحتَّم على الفاطميين، بعد أن انتهوا من الاستيلاء على مصر واستقروا فيها، أن يولوا وجههم شطر المشرق الإسلامي، نحو بلاد الشام، وجعلوا هذا الأمر هدفهم الرئيسي.

كانت الفرصة مهيأة لهم، إذ أن الأخشيديين في بلاد الشام كانوا ما يزالون يعانون من هزيمة لحقت بهم أمام البيزنطيين والقرامطة في عام (٣٥٧هـ/ ٩٦٨م)، ولهذا أسرع القائد جوهر الصقلي إلى إرسال قوة عسكرية بقيادة جعفر بن فلاح الكتامي، اصطدمت بقوات أخشيدية بقيادة الحسن بن عبيد الله بن طغج في الرملة بفلسطين وهزمتها في شهر (ربيع الآخر ٣٥٩هـ/ شباط ٩٧٠م). ووقع ابن طغج في الأسر مع بعض قادته[٢].

---

(١) ابن تغري بردي: جـ ٤ ص ١٨، ٢٤ ـ ٢٥.

(٢) الأنطاكي: تاريخ الأنطاكي ص ١٤٣. ابن الأثير: جـ ٧ ص ٢٨١. المقريزي: جـ ١ ص ١٢٢ ـ ١٢٣.

أتاح انتصار الرملة لجعفر بن فلاح أن يتوغل في عمق الأراضي الفلسطينية، وذلك في شهر (رجب/ أيار)، فسار إلى طبرية واستولى عليها دون مقاومة[1]، وواصل زحفه باتجاه دمشق، واستولى في طريقه على حوران والبثنية، وفيها بنو عقيل الموالين للأخشيديين وقبائل فزارة ومرة، فاستقطب هاتين القبيلتين وحارب بني عقيل وانتصر عليهم، وتعقَّبت عساكره فلول المنهزمين إلى حمص، ثم عادوا إلى غوطة دمشق، فضايقوا السكان وصادروا أموالهم، ونزلوا بظاهر دمشق[2]، وبدت سيطرة الفاطميين واضحة على جنوبي بلاد الشام.

أدى هذا الانتشار الفاطمي إلى حدوث فوضى في دمشق وبخاصة بعد فرار الوالي شمولا والتجائه إلى جعفر بن فلاح. وكان سكان دمشق يكرهون البربر ويكنُّون العداء للفاطميين، إلا أنهم خشوا بأس القائد الفاطمي، فحاولوا التفاهم معه وطلب الأمان والموادعة، فأساء الجنود الكتاميون معاملتهم، واضطروا إلى اللجوء إلى المقاومة. وصمد سكان دمشق بضعة أيام أمام الحصار الذي فرضه القائد الفاطمي قبل أن يُهزموا يوم عيد الأضحى (١٠ ذي الحجة/ ١٤ تشرين الأول)، واستسلموا له، ودخل جعفر بن فلاح المدينة يوم الجمعة (١٦ ذي الحجة/ ٢٠ تشرين الأول)[3].

واستولى الفاطميون على مدن الساحل الجنوبي لبلاد الشام مثل طرابلس وصور وصيدا وعكا، غير أن حكمهم في بلاد الشام تعرَّض لخضات سياسية وعسكرية. إذ أن السكان لم يتقبَّلوا الحكم الفاطمي المتشيع، كما أن البلاد تعرضت لغارات البيزنطيين. وإذا كانت السيطرة الفاطمية على الجنوب واضحة، إلا أنهم أخفقوا في بسط نفوذهم بشكل دائم على الشمال، فقد واجهوا عدة صعاب لم يستطيعوا تجاوزها لعل أهمها:

- بُعد شمالي بلاد الشام عن مصر.
- ضعف الإمكانات والموارد العسكرية للدولة الفاطمية.
- قوة الدولة البيزنطية المجاورة لبلاد شمالي الشام. والمعروف أن البيزنطيين لم يقبلوا بوجود دولة قوية كالدولة الفاطمية على حدودهم الجنوبية، وقضت

---

(١) ابن الأثير: جـ ٧ ص ٢٨١. المقريزي: جـ ١ ص ١٢٤ ـ ١٢٥.

(٢) المقريزي: المصدر نفسه ص ١٢٣.

(٣) ابن الأثير: جـ ٧ ص ٢٨١ ـ ٢٨٢. المقريزي: جـ ١ ص ١٢٤ ـ ١٢٥.

سياستهم بمساندة الإمارات الصغيرة المنتشرة في المناطق الحدودية لتشكل حاجزاً بينهم وبين الفاطميين.

ـ مقاومة سكان بلاد الشام الشمالية للحكم الفاطمي على الرغم من أن غالبيتهم كانت تدين بالتشيع. فقد رفضوا وجود الفاطميين في بلادهم بسبب السياسة المالية والاقتصادية المتعسفة للحكام والولاة الفاطميين الذين اعتمدوا على العناصر البربرية المغربية الذين جلبوهم معهم من شمال أفريقية.

وفي النصف الثاني من القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، تراجعت قوة الفاطميين، وبدأ نفوذهم بالانحسار عن بلاد الشام، وكانت فرصة لقيام الإمارات المستقلة.

الإمارة المرداسية

شهد شمالي بلاد الشام، في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، حدثين متعارضين. فقد شهد، من جهة، ذروة نشاط العشائر الكلابية النازحة من شبه الجزيرة العربية، وشهد، من جهة أخرى، هجرة القبائل التركمانية الغزية التي قضت على النفوذ العربي.

بدأت الإمارة المرداسية حياتها السياسية في الرحبة مع صالح بن مرداس، وهو من فرع ربيعة، فاستولى عليها في عام (٣٩٩هـ/ ١٠٠٩م) وكانت تحت حكم ابن محكان، وهو أحد سكانها، وربما شغل وظيفة رئيس المدينة، وبعد أن ثبَّت حكمه فيها، اعترف بسيادة الفاطميين. والمعروف أن بعض عشائر الكلابيين كانت تدين بالمذهب الشيعي الإثني عشري، فتورط من أجل ذلك في صراع طويل مع منصور ابن لؤلؤ السيفي المتسلط على حكم حلب[1].

وهاجم صالح بن مرداس مدينة حلب في (٢ ذي القعدة ٤٠٢هـ/ ٢٧ أيار ١٠١٢م) على رأس قوة عسكرية تقدر بخمسمائة مقاتل، في محاولة لاقتحامها. ويبدو أن منصوراً عجز عن مقاومته، فاستعمل أسلوب الدهاء السياسي للقضاء عليه وعلى أتباعه، فتظاهر بقبول التحالف معه ودعاه وأتباعه إلى مائدة داخل المدينة،

---

(١) توفي أبو الفضائل سعيد الدولة الحمداني في (١٠ صفر ٣٩٢هـ/ ٢ كانون الثاني ١٠٠٢م). وشكَّل هذا الحدث بداية النهاية للحكم الحمداني في حلب، لأن حاجبه لؤلؤ السيفي استولى على مقاليد الحكم باسم ولديه الصغيرين أبي الحسن علي وأبي المعالي شريف، وأرسل لؤلؤ بعد ذلك الطفلين إلى مصر وتفرد بحكم حلب، وتوفي في عام (٣٩٩هـ/ ١٠٠٩م) وخلفه ابنه منصور. انظر: ابن العديم: جـ ١ ص ١٧٤ ـ ١٧٦.

وعندما لبَّى المرداسيون الدعوة أغلق الأبواب وراءهم وأعمل السيف فيهم، فقتل عدداً كبيراً منهم وأسر من نجا من الموت حيث وضع الأغلال في أيديهم وأرجلهم وسجنهم في القلعة، وكان صالح بن مرداس من بين السجناء[١].

ثم حدث أن فرَّ صالح بن مرداس من السجن، فأعاد تجميع صفوف قواته وحاول أن يتوسع على حساب الفاطميين في أواسط بلاد الشام. وحتى يقوِّي موقفه تحالف مع المفرج بن دغفل الطائي وسنان بن عليان الكلبي، واتفق الأطراف الثلاثة على محاربة الفاطميين وإخراجهم من بلاد الشام وتقسيمها فيما بينهم، ومن أجل ذلك راحوا يهاجمون مناطق السيطرة الفاطمية، فانتزعوا معظم أعمال دمشق وحلب منهم واقتسموها فيما بينهم. فكان جنوبي بلاد الشام تحت سيطرة بني كلاب حتى عام (٤٠٤هـ/ ١٠١٣م) في حين استعاد الفاطميون مدينة الرملة والأراضي التي خضعت لهم بعد وفاة المفرج بن دغفل. أما شمالي بلاد الشام فكان تحت سيطرة صالح ابن مرداس، وكانت دمشق ومنطقتها داراً لقبيلة كلب، غير أن حساناً بن المفرج استعاد الرملة من الفاطميين في عام (٤١٥هـ/ ١٠٢٤م)، حيث انتزعها من يد نصر بن نزال[٢]..

وهكذا خرج معظم بلاد الشام من دائرة النفوذ الفاطمي، ولم يبق بأيديهم سوى صور التي كان يتولاها ناصر الدولة بن حمدان. لكن الظاهر الفاطمي (٤٢١ ـ ٤٢٧هـ/ ١٠٣٠ ـ ١٠٣٥م) الذي واجه الوضع المضطرب، نهض لاستعادة ما خسره الفاطميون من مدن وحصون في بلاد الشام، إذ خشي أن يستغل البيزنطيون ضعف النفوذ الفاطمي فيستولوا على الثغور الساحلية، فسيَّر المراكب إلى صور وطرابلس وغيرهما[٣].

وفي عام (٤١٥هـ/ ١٠٢٤م) وصل إلى طرابلس سديد الملك أبو الحارث ثعبان ابن محمد الكتامي، وانتقل منها إلى حلب، وتولى حكمها نيابة عن الظاهر الفاطمي. وفي عام (٤٢٠هـ/ ١٠٢٩م) أرسل هذا الأخير حملة برية إلى بلاد الشام بقيادة أنوشتكين الدزبري والي بعلبك السابق، فاصطدم بحسان بن المفرج في الأقحوانة في وادي الأردن[٤] وقضى عليه، ولقي صالح بن مرداس مصرعه في المعركة، وكان حليفاً لحسان بن المفرج، وكان معه ابنه نصر الذي نجا من المعركة، فعاد إلى حلب

---

(١) ابن الأثير: جـ ٧ ص ٥٧٦ ـ ٥٧٧. ابن العديم: جـ ١ ص ١٨٠.
(٢) الأنطاكي: ص ٣٩٠. ابن الأثير: المصدر نفسه: ص ٥٧٩ ـ ٥٨٠.
(٣) المسبحي: أخبار مصر ص ١٧٠. المقريزي: جـ ٢ ص ١٥٥.
(٤) الأقحوانة: على شاطئ طبرية قرب عقبة أفيق. الحموي: جـ ١ ص ٢٣٤.

وملكها وتلقب بلقب شبل الدولة، لكن الحملة الفاطمية تابعت تقدمها باتجاه الشمال، فاستردت حمص وبعلبك وحصن عكار وصيدا وحلب بعد ذلك[١]. وهكذا لم يقض مصرع مؤسس الإمارة على وجودها الذي استمر قائماً في حلب.

ظل نصر بن صالح حاكماً على حلب حتى عام (٤٢٩هـ/ ١٠٣٨م) حيث قُتل في الصراع مع الدزبري عند حماة. ودخل القائد الفاطمي، على أثر انتصاره، مدينة حلب وملكها وظل حاكماً عليها حتى وفاته في عام (٤٣٣هـ/ ١٠٤٢م)[٢]. وعندما علم ثمال بن صالح، وكان في الرحبة، بموت الدزبري، هاجم حلب وتسلمها من أهلها واستولى على القلعة في شهر (صفر ٤٣٦هـ/ أيلول ١٠٤٤م)، وبقي فيها حتى عام (٤٤٨هـ/ ١٠٥٦م) عندما تنازل عنها للفاطميين الذين ولوا عليها أبا علي بن ملهم[٣]، وذلك تحت ضغط الزحف السلجوقي.

لم يستقر الوضع الداخلي في حلب للفاطميين، فقد نازعهم الأحداث الذين استدعوا محمود ابن نصر، ليسلموه حكم المدينة. وجرى قتال مع الفاطميين بقيادة ناصر الدولة بن حمدان، أسفر عن انتصار محمود بن نصر الذي دخل حلب وتسلم قلعتها في (١٠ شعبان ٤٥٢هـ/ ٨ أيلول ١٠٦٠م)[٤].

استاءت الدولة الفاطمية من خروج حلب عن سيطرتها، فأثارت الخلافات الأسرية داخل المرداسيين، وأدّى الصراع الأسري إلى إضعافهم حيث راح كل أمير يبحث عمن يساعده ضد الأمير الآخر. فاستعان عطية بن صالح بالتركمان الغز ضد ابن أخيه محمود بن نصر، وكان هؤلاء قد دخلوا المنطقة عن طريق أرمينية والثغور، وانتشروا في ربوعها، ودار صراع طويل بينهم وبين المرداسيين تمخض عن نتيجتين:

الأولى: ضعف قبيلة كلاب وتراجع نفوذها في شمالي بلاد الشام.

الثانية: تسلم التركمان الغز زمام المبادرة، فتكاثروا في المنطقة وفرضوا سيطرتهم عليها. وسقطت الدولة المرداسية في عهد سابق بن محمود في عام (٤٧٣هـ/ ١٠٨٠م)[٥].

---

(١) ابن العديم: جـ ١ ص ٢٠٠ ـ ٢٠١، ٢٠٤ ـ ٢٠٥. وحصن عكار هو حصن الأكراد على الجبل الذي يقابل حمص من جهة الغرب. الحموي: جـ ٢ ص ٢٦٤.

(٢) المصدر نفسه: ص ٢١٥ ـ ٢٢١.

(٣) المصدر نفسه: ص ٢٢٢ ـ ٢٢٣، ٢٣٢ ـ ٢٣٣.

(٤) ابن الأثير: جـ ٨ ص ١٦٩. ابن العديم: جـ ١ ص ٢٣٨.

(٥) ابن العديم: المصدر نفسه ص ٣٠٢ ـ ٣٠٣.

كانت علاقة المرداسيين بالفاطميين سيئة بشكل عام، على الرغم من أن المرداسيين اعترفوا اسمياً بسلطان القاهرة، ولم يكن لهم أي علاقة بالخلافة العباسية حتى ما قبل عام (٤٦٢هـ/ ١٠٧٠م). وكان التوجه الفاطمي، إقامة نوع من دولة تخوم تكون حاجزة بينهم وبين البيزنطيين من جهة وبينهم وبين المناطق التي تسيطر عليها الخلافة العباسية والدولة البويهية من جهة أخرى، بالإضافة إلى الوقوف في وجه الإمارة المروانية الكردية في الجزيرة والدولة البدوية التي أقامها بنو عقيل في نصيبين ثم الموصل منذ عام (٣٧٩هـ/ ٩٨٩م)، وفي الوقت نفسه كانت علاقتهم بالدولة البيزنطية جيدة، وغالباً ما وضعوا أنفسهم في تصرف البيزنطيين ودفعوا لهم الجزية.

الإمارة العقيلية

عندما ضعفت الدولة الحمدانية بعد عام (٣٦٩هـ/ ٩٧٩م) ورثتها إمارتان، واحدة عربية في الموصل عُرفت باسم الإمارة العقيلية[١]، وأخرى كردية في الشمال هي الإمارة المروانية. اسس الإمارة الأولى المقلد بن مسيب في عام (٣٨٦هـ/ ٩٩٦م) بعد أن انتزع الموصل من البويهيين[٢]، وظل يحكم الإمارة حتى اغتيل في الأنبار في عام (٣٩١هـ/ ١٠٠١م) على يد غلمانه من الترك[٣]. قضى المقلد معظم حياته السياسية في صراع مع أخويه علي والحسن، وتولى حماية غربي الفرات من أرض العراق، وكان له نائب ببغداد، وحارب علياً بن مزيد الأسدي، وملك دقوقا[٤].

عندما قُتل المقلد بن المسيب كان ابنه الأكبر قرواش غائباً، فاستدعاه النائب عبد الله بن إبراهيم بن شهرويه لتسلم الحكم. تعرَّض قرواش خلال أيام حكمه لضغط الديلم والغز، كما دخل في صراع مع الأمراء المجاورين بهدف التوسع. وفي عام (٤٤٢هـ/ ١٠٥٠م) قبض أبو كامل بركة بن المقلد على أخيه قرواش وحجر عليه ومنعه من التصرف على اختياره، وتسلم الحكم[٥].

حكم بركة مدة سنة تقريباً ثم توفي في تكريت[٦]، فاختار بنو عقيل علم الدين أبا المعالي قريش بن بدران بن المقلد خلفاً له، وتغلَّب على عمه قرواش الذي نازعه

---

(١) ينتمي العقيليون إلى قبائل عامر بن صعصعة.

(٢) ابن الأثير: جـ ٧ ص ٤٨٣ ـ ٤٨٥.

(٣) المصدر نفسه: ص ٥١٩.

(٤) ابن الأثير: جـ ٧ ص ٤٩٣ ـ ٤٩٤. ودقوقا: مدينة بين إربل وبغداد. الحموي: جـ ٢ ص ٤٥٩.

(٥) ابن الأثير: المصدر نفسه: جـ ٨ ص ٨٤ ـ ٨٥.

(٦) تكريت: بلدة مشهورة بين بغداد والموصل، وهي إلى بغداد أقرب. الحموي: جـ ٢ ص ٣٨.

على الإمارة[1]. حكم قريش بن بدران حتى عام (٤٥٣هـ/ ١٠٦١م) وخلفه ابنه مسلم، الذي يُعدُّ أعظم شخصيات الأسرة العقيلية. وسَّع إمارته وضمَّ حلب إليها، وقُتل في صراعه مع سليمان بن قُتلُمش سلطان سلاجقة الروم في عام (٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م) كما سنرى.

خلف مسلم بن قريش أخوه إبراهيم، ولم يطل حكمه وقُتل في الصراع مع السلاجقة. توزعت أراضي الإمارة بعد وفاته بين ولدي أخيه محمد وعلي. وظل الوضع على هذا الشكل حتى أزال السلاجقة الحكم العقيلي من الموصل في عام (٤٨٩هـ/ ١٠٩٦م).

الإمارة المروانية

سكن المروانيون المناطق الواقعة شمال الموصل، وهم من أصل كردي. وبحكم مجاورتهم الأراضي البيزنطية، كانوا يغيرون على أملاك البيزنطيين. واستغل باذ، وهو أحد زعماء بني مروان، ضعف الدولة الحمدانية، والسلطة البويهية بعد وفاة عضد الدولة البويهي في عام (٣٧٢هـ/ ٩٨٢م)، وأقام لنفسه إمارة في ديار بكر، واستولى على أهم مدنها مثل آمد ونصيبين وميافارقين، كما سيطر على الموصل، وتطلع إلى الزحف على بغداد لإخراج البويهيين منها، إلا أنه قُتل خلال الصراع مع بقايا الحمدانيين والعقيليين في عام (٣٨٠هـ/ ٩٩٠م)[2]، وخلفه ابن أخته أبو علي الحسن بن مروان الذي ظل في الحكم حتى مقتله هو الآخر في عام (٣٨٧هـ/ ٩٩٧م) في مدينة آمد[3]. وفي عهده توطَّد حكم المروانيين في ديار بكر، وخلفه أخوه سعيد الذي عرف بممهد الدولة، وحكم حتى قُتل في عام (٤٠٢هـ/ ١٠١١م)[4]، وخلفه أخوه أحمد الذي عُرف بنصر الدولة، ويُعدُّ من أشهر حكام الأسرة المروانية، حيث استطاع أن يرفع من مكانة الإمارة، وبسط نفوذه على بعض أراضي القبجاق، كما استغل موقع ديار بكر المهم فتحكَّم بطرق المواصلات التجارية بين العراق والمشرق الإسلامي من جهة، وبلاد الشام وآسيا الصغرى من جهة أخرى، كما تمكَّن ببراعته السياسية من المحافظة على إمارته في ظل قوى معادية قوية، وسعى إلى التوسع، وكانت علاقته جيدة مع الخلافة العباسية في بغداد، وكذلك مع البيزنطيين.

---

(١) ابن الأثير: جـ ٨ ص ٩٨.
(٢) ابن الأثير: جـ ٧ ص ٤٣٤ ـ ٤٣٥.
(٣) المصدر نفسه: ص ٤٣٧.
(٤) المصدر نفسه.

أما علاقة المروانيين بالعقيليين فلم تكن جيدة بشكل عام، ومع ذلك فقد تجنَّب نصر الدولة الاصطدام المباشر مع بني عقيل في الموصل، فتنازل لهم في عام (٤٢١هـ/ ١٠٣٠م) عن مدينة نصيبين، ودفع لهم الجزية مدة من الزمن. أما علاقته بالقوى البدوية الأخرى في الجزيرة، مثل قشير أصحاب قلعة جعبر[١]، ونمير أصحاب حران، فاتصفت بالجيدة.

ونجح نصر الدولة خلال حياته السياسية في تخفيف آثار هجرة التركمان والغز على بلاده، فراسل طغرلبك واعترف له بالسيادة وأقام الخطبة باسمه. وكانت آمد وميافارقين وحصن كيفا أشهر مدن الإمارة، وازدهرت في عهده ازدهاراً كبيراً. وتُعد وفاته في عام (٤٥٣هـ/ ١٠٦١م) بداية النهاية لهذه الأسرة حيث جرى اقتسام أراضي الإمارة بين أولاده. وبدأت منذ ذلك التاريخ، قوة المروانيين بالتراجع، وتمكن السلاجقة أخيراً من القضاء على الإمارة المروانية في عام (٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م)[٢].

إمارة بني منقذ في شيزر

وتطورت في أواسط بلاد الشام زعامات أقل شأناً، منها بنو منقذ. إذ حدث أثناء حكم سابق المرداسي لحلب أن غادر علي بن المقلد الأمير المنقذي، صاحب كفرطاب[٣] المدينة، إلى مقره، وأخذ يخطط للاستيلاء على قلعة شيزر المنيعة بهدف تأسيس إمارة لأسرته. كانت هذه القلعة تحت حكم أسقف البارة[٤] وتدين بالطاعة للبيزنطيين.

أدرك علي بن المقلد أنه يصعب عليه فتح شيزر قهراً بعد حصار نظراً لشدة مناعتها، لذلك وضع خطة عسكرية لإجبارها على الاستسلام، فبنى قلعة على العاصي بالقرب منها[٥]، فتحكَّم بالطرق المؤدية إليها، ومنع مرور المؤن والذخائر

---

(١) جعبر: قلعة على الفرات بين بالس والرقة قرب صفين، وكانت قديماً تسمى دوسر فملكها رجل من بني قشير أعمى يقال له جعبر بن مالك، وكان يخيف السبيل ويلتجئ إليها، فنسبت إليه. الحموي: جـ ٢ ص ١٤٢.

(٢) ابن الأثير: جـ ٨ ص ١٧٤ ـ ١٧٥.

(٣) كفرطاب: بلدة بين المعرة ومدينة حلب في برية معطشة ليس لهم شرب إلا ما يجمعونه من مياه الأمطار في الصهاريج. الحموي: جـ ٤ ص ٤٧٠.

(٤) البارة: بليدة وكورة من نواحي حلب، وبها حصن، وهي ذات بساتين ويسمونها زاوية البارة. الحموي: جـ ١ ص ٣٢٠.

(٥) أصبحت تُعرف باسم قلعة الجسر.

إليها، فنفد ما فيها، واشتد الأمر بالمحاصَرين، واستطاع علي إقناع أسقف البارة بعد ذلك بالتنازل له عنها مقابل مبلغ من المال، ودخلها يوم الأحد في (١٥ رجب عام ٤٧٤هـ/ ١٩ كانون الأول عام ١٠٨١م)[١].

قوة الأحداث

لم تتطور الزعامات في بلاد الشام بعامة، وهكذا لم تحظ دمشق على الدوام بأكثر من والٍ فاطمي، وغالباً ما كان يرفضه السكان مما كان سبباً في تدهور الوضع السياسي ونشوب الحرب الأهلية مع الولاة وجندهم من المغاربة.

ويبدو أن أكثر القوى السياسية شأناً إنما هي قوة الأحداث في داخل المدن والتي نمت على حساب الزعامات المحلية، وقد دفعتها الحاجة إلى الأمن والنظام إلى البروز في الوقت الذي تدهورت فيه القوى السياسية المركزية، وربما تأسست منذ أواسط القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، إذ نلاحظ ظهور جماعات عسكرية شعبية تدافع عن المدن في بلاد الشام مع الجند النظامي أو بدونه، ومع الحكام أو ضدهم، كما كانت تعمل على ضمان الأمن الداخلي كقوة إضافية إلى جانب الشرطة[٢].

واشار المؤرخون إلى هذه الجماعات العسكرية باسم «أهل المدينة»، ثم انتشر اصطلاح «الأحداث» على هذه الجماعات، والراجح أنهم ظهروا في دمشق في عهد خمارويه بن أحمد ابن طولون. وتطورت هذه المؤسسة من خلال العمل السياسي والعسكري في ظل الفراغ الذي ظهر مع انهيار السلطة الأخشيدية في مصر واحتلال الفاطميين لها وتحركهم لاحتلال بلاد الشام، حتى أضحت قوة شعبية شبه رسميَّة انضوى إليها صغار العمال والفقراء، وأضحى لها رئيس، ويحمل في الوقت نفسه لقب رئيس البلد، وانتشرت في مختلف بلاد الشام وبعض مدن الجزيرة[٣].

وهكذا اضحى في كل مدينة أحداث يحملون السلاح ورؤساء للبلد هم رؤساء الأحداث، يشكلون قوة عسكرية ـ مدنية، لا يتجاوز نطاق نشاطهم أسوار المدينة غالباً، ويتفاوت عديدهم بين عدة آلاف في المدن الكبرى، مثل دمشق وحلب، في حين لا يتجاوزون المئات في المدن الصغرى[٤].

---

(١) ابن القلانسي: ص ١٨٤، ويذكر بأن علي بن المقلد ملك البارة يوم السبت في ٢٧ رجب. ابن العديم: جـ ١ ص ٣٠٦.

(٢) مصطفى: ص ٩٢ ـ ٩٣.

(٣) المرجع نفسه: ص ٩٣.

(٤) المرجع نفسه.

وشكَّل هؤلاء الأحداث مادة الثورة على الحكم الفاطمي منذ عام (٣٥٨هـ/ ٩٦٩م)، وظهروا كمدافعين عن حلب في وقت الشدة. فأثناء استيلاء الفاطميين على دمشق، اصطدموا بجماعات الأحداث فيها، وكان محمد بن عصودا من بين زعماء أحداث دمشق الذين تصدوا لجعفر بن فلاح، وساندوا مسلم بن قريش العقيلي في حلب عندما اصطدم بسليمان بن قتلمش السلجوقي في عام (٤٧٧هـ/ ١٠٨٤م) أثناء الصراع على شمالي بلاد الشام.



الفصل الثالث

ظهور السلاجقة

القوى السياسية في بلاد ما وراء النهر وخراسان قبيل ظهور السلاجقة

الإمارة السامانية

كانت بلاد ما وراء النهر وخراسان، عشية ظهور السلاجقة، مسرحاً للتنازع بين ثلاث قوى هي:

- قوة السامانيين الفرس الذين كانوا يجاهدون من أجل البقاء.
- قوة القراخانيين الأتراك الذين دخلوا بقوة على مسرح الأحداث وهم عازمون على القضاء على الإمارة السامانية في بلاد ما وراء النهر وخراسان، ووراثتها.
- قوة الغزنويين الأتراك الذين عزموا على اقتسام الإرث الساماني مع القراخانيين بعد القضاء على الإمارة السامانية.

وعندما تراجعت قوة السلطة المركزية للخلافة العباسية، قامت في المقاطعات الشرقية إمارات متفاوتة من حيث القوة، والحجم، دانت بالطاعة الاسمية للخليفة العباسي، كان من بينها الإمارة السامانية.

ينتسب السامانيون إلى إحدى الأسر الفارسية العريقة التي كانت تدين بالديانة الزرادشتية، ثم أسلم جدهم سامان خداه، وهو أحد أشراف مدينة بلخ في عهد الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك (١٠٥ ـ ١٢٥هـ/ ٧٢٤ ـ ٧٤٣م)، وانضم إلى الدعوة العباسية في خراسان، وعمل في صفوف أبي مسلم الخراساني[١].

حظي سامان خداه بحماية والي خراسان أسد بن عبد الله القسري (ت ١٢٠هـ/ ٧٣٨م)، وأسلم على يديه، وسمَّى ابنه أسداً تيمناً باسمه واعترافاً بفضله[٢].

---

(١) إقبال، عباس: تاريخ إيران بعد الإسلام ص ١٣٣.

(٢) صفا، ذبيح الله: تاريخ أدبيات در إيران، جـ ١ ص ٢٠٤.

قامت الدولة السامانية في بلاد ما وراء النهر التابعة لولاية خراسان، وامتدت إلى إيران وبسطت سيطرتها على خراسان، وضمَّت طبرستان والري والجبال وسجستان. وأدَّى أولاد أسد، وهم نوح وأحمد ويحيى والياس، دوراً بارزاً في وضع حد لحركة رافع بن الليث بن نصر بن سيار في عهد الخليفة العباسي المأمون، فكافأهم، ورفع من شأنهم، وعيَّنهم ولاة على أهم مدن بلاد ما وراء النهر. فعيَّن نوحاً حاكماً على سمرقند، وأحمد حاكماً على فرغانة، ويحيى حاكماً على الشاش، والياس حاكماً على هراة[1].

لم يستطع السامانيون الاحتفاظ بحكمهم على هراة، ويبدو أن الياساً توفي في عام (٢٤٢هـ/ ٨٥٦م) دون أن يخلف ولداً يرثه، إلا أنهم وطدوا حكمهم في بلاد ما وراء النهر حيث نجح الإخوة في التصدي لغارات الأتراك الوثنيين على مناطق الحدود، وتعاونوا مع الطاهريين[2] في ذلك، كما شاركوا في النزاع الذي نشب بين هؤلاء والصفَّاريين[3]، فساندوهم وشدُّوا أزرهم الأمر الذي جعل الطاهريين يقرونهم على أعمالهم بشكل دائم.

وعندما زالت الدولة الطاهرية في عام (٢٥٩هـ/ ٨٧٣م) استقل السامانيون بحكم بلاد ما وراء النهر وحكموه باسم الخلافة مباشرة. واعترفت هذه الأخيرة

---

(١) ابن الأثير: جـ ٦ ص ٣٢٤ ـ ٣٢٥. وهراة: مدينة عظيمة مشهورة من أمهات مدن خراسان، فيها بساتين كثيرة وخيرات وفيرة. الحموي: جـ ٥ ص ٣٩٦.

(٢) الإمارة الطاهرية، أسسها طاهر بن الحسين في عام (٢٠٥هـ/ ٨٢٠م) في خراسان، وهو أحد قادة المأمون، واتخذ من مدينة نيسابور قاعدة له، وراودته نزعة انفصالية، فخلع المأمون من الخلافة في عام (٢٠٧هـ/ ٨٢٢م) وقطع الدعاء له، ثم طرح لبس السواد معلناً انفصاله عن بغداد، إلا أنه توفي فجأة، فأقر المأمون ابنه طلحة على حكم خراسان. وحرص الطاهريون خلفاء طاهر على التقرب من الخلافة العباسية والتعاون معها معترفين بسلطانها عليهم. وقدَّر العباسيون ذلك، فقرَّبوا آل طاهر وساندوهم في صراعهم مع الصفَّاريين، الذين قضوا على دولتهم في عام (٢٥٩هـ/ ٨٧٣م).

(٣) قامت الإمارة الصفَّارية في جزء من أجزاء إيران الجغرافية وهو الجزء الجنوبي، وضمَّت بلاد فارس. أسسها يعقوب بن الليث الصفار في عام (٢٥٤ ـ ٨٦٧م)، وتوسع باتجاه خراسان بعد أن قضى على الدولة الطاهرية وسيطر على سجستان في أقصى شرقي إيران الجنوبية ووادي كابل والسند ومكران. ويبدو أن الخلافة العباسية لم ترض عن توسع يعقوب، وعدَّت الدولة الطاهرية القاعدة التي تعتمد عليها في المشرق، مما أثار الزعيم الصفَّاري فتقدم نحو فارس واحتلها، وتابع تقدمه باتجاه العراق ووصل إلى الأهواز. وعندما شعرت الخلافة بعجزها عن وقف تقدمه اعترفت به. ازدادت قوة الصفَّاريين في عهد خلفاء يعقوب، مما ضايق الخلافة العباسية التي تعاونت مع القوة السامانية النامية وقضت على الإمارة الصفَّارية في عام (٢٩٨هـ/ ٩١١م).

بجهودهم وإخلاصهم، ففصلت هذه البلاد عن خراسان وأقرَّتهم عليها، وقد هدفت إلى مكافأتهم من جهة، وإيجاد قوة موالية لها وراء المنطقة الخاضعة للصفاريين حتى تستفيد منهم عند الحاجة، من جهة أخرى، واتخذوا مدينة بخارى عاصمة لهم.

حرص السامانيون، خلال حياتهم السياسية، على التمسك بطاعة الخلافة العباسية وكسب مودتها. والحقيقة أن تطلعاتهم اتجهت نحو التوسع الخارجي متجنبين، ما أمكن، الدخول في نزاعات مع الإمارات الإسلامية الأخرى في الداخل، فكانوا بذلك المتممين الطبيعيين للمهمة التي بدأها الطاهريون، حماة للأمن والنظام. فمدُّوا نفوذ العالم الإسلامي فيما وراء الحدود الشرقية، إلى أواسط آسيا، وتركَّزت فتوحهم في التركستان شرقي نهر جيحون، واتبعوا خطة ذكية قائمة على الدفاع والهجوم معاً، فأقاموا الرباطات والثغور للدفاع عن الأراضي الإسلامية من غارات الأتراك الوثنيين، وعمدوا إلى تنفيذ هجمات متكررة ضد مناطق هؤلاء داخل السهوب، فشتَّتوا تجمعاتهم، وحدُّوا من اندفاعهم باتجاه الأراضي الإسلامية، ومدُّوا نفوذهم وهيبتهم إلى داخل السهوب، فأمَّنوا بذلك الاستقرار السياسي والاقتصادي لبلادهم، ونشروا الحضارة الإسلامية في تلك الربوع، ودخل على أيديهم عدد كبير من الأتراك الوثنيين في الإسلام.

وفي عام (٢٦١هـ/ ٨٧٥م)، عيَّن الخليفة العباسي المعتمد نصر بن أحمد الساماني والياً على بلاد ما وراء النهر، فأسس الإمارة السامانية[١]. ويبدو أن نصراً هذا كان لين العريكة، ضعيف السياسة حتى كاد ييأس من تثبيت أقدامه في إمارته، وبخاصة أنه وجد نفسه يواجه خصوماً أقوياء أمثال يعقوب بن الليث الصفّار في خراسان، بالإضافة إلى ما أثاره الطاهريون من الاضطرابات، لولا ما كان من مساندة أخيه الأصغر القوي إسماعيل له.

بدأ إسماعيل حياته السياسية في بخارى حين غزا حسين بن طاهر الطائي أمير خوارزم مدينة بخارى في عام (٢٥٩هـ/ ٨٧٢م)، فاستنجد بعض أعيانها، وعلى رأسهم أبي عبد الله الفقيه بنصر الساماني، فأرسل إليهم أخاه إسماعيل، فدخل المدينة، وعيَّنه السكان أميراً عليهم، فدعا لأخيه في (أول يوم جمعة من رمضان عام ٢٦٠هـ/ ٢٥ حزيران عام ٨٧٤م)، وأضحت هذه المدينة تحت حكم السامانيين[٢].

لم يكن حكم إسماعيل في البداية على شيء من السهولة. فقد كان عليه أن

---

(١) ابن الأثير: جـ ٦ ص ٣٢٤ـ٣٢٥.

(٢) المصدر نفسه: ص ٣٢٥.

يواجه ريبة أخيه نصر في إخلاصه له، ودسائس الحسين بن طاهر الذي فرَّ من المدينة إثر دخول إسماعيل إليها، والفلاحين الذين ساءت أوضاعهم الاجتماعية والاقتصادية وبعض أعيان بخارى والثائرين على حكمه. وقد خرج إسماعيل من كل هذه الصعاب ظافراً، وأضحى بعد قليل من الوقت محبوباً من الجميع بفعل حزمه وورعه وخشيته من الله تعالى، ولقَّبوه بعد موته بالأمير الماضي[1].

خلف إسماعيل أخاه نصراً في زعامة الأسرة بعد وفاته في (٢٢ جمادى الأولى ٢٧٩هـ/ ٢١ آب ٨٩٢م)، وتسلم في العام التالي عهد الخليفة، وبسط سلطانه على كل خوارزم وبلاد ما وراء النهر، وضمَّ خراسان وجرجان وطبرستان وسيستان والري وقزوين، إلى أملاكه. وقام بحملة ناجحة على طراز في إقليم أسفيجاب[2]، وحوَّل كنيستها إلى مسجد، وخلع الأسرة الحاكمة بأشروسنة، وضمَّ المنطقة إلى الأراضي الخاضعة للسامانيين. ونازعه عمرو بن الليث الصفَّار الذي ثبَّت حكمه في إيران، وطلب من الخليفة المعتضد منحه ولاية خراسان، فأجابه إلى ذلك وعزل محمد بن طاهر عنها[3]، ثم تمادى، فطلب من الخليفة أن يوليه بلاد ما وراء النهر دون أن يقدِّر الصعاب التي تعترض ذلك. وهنا وجد الخليفة فرصته للقضاء على قوة الصفَّاريين المتزايدة، فأراد أن يضرب عمرواً بالقوة السامانية النامية، فوافق على طلبه وهو يتوقع حصول اصطدام بين القوتين للفوز بحكم هذه البلاد. وفعلاً صدقت توقعات الخليفةَ فقد اصطدم السامانيون بالصفَّاريين في عام (٢٨٧هـ/ ٩٠٠م)، وكان مسرح القتال الأراضي الواقعة إلى الجنوب من نهر جيحون، وأُسر عمرو في المعركة التي جرت قرب بلخ وسيق إلى الخليفة الذي سجنه[4].

ظل إسماعيل مخلصاً للخلافة العباسية حتى آخر حياته، مما ساعده على توسيع رقعة إمارته باتجاه الغرب، فأخضع جميع ولايات إيران الشمالية، وسرعان ما جاءه التقليد من الخليفة بحكم ولاية خراسان. واتسمت علاقاته بجيرانه بالعدائية بفعل عداوة هؤلاء للعباسيين، فدخل مضطراً في صراع مع الصفَّاريين وقضى على إمارتهم، كما اصطدم بمحمد بن زيد العلوي أمير طبرستان في عام (٢٨٧هـ/ ٩٠٠م)

---

(١) ابن الأثير: جـ ٦ ص ٣٢٦ ـ ٥٦٠.

(٢) أسفيجاب: اسم بلدة كبيرة من أعيان بلاد ما وراء النهر في حدود تركستان، ولها ولاية واسعة وقرى كالمدن كثيرة، وكانت ثغراً عظيماً. الحموي: جـ ١ ص ١٧٩.

(٣) ابن الأثير: جـ ٦ ص ٤٧١ ـ ٤٧٢.

(٤) المصدر نفسه: ص ٥١١ ـ ٥١٢.

بعد أن طمع هذا الأمير في بلاد خراسان[1]. والمعروف أن الدعوة الشيعية لم تنقطع في خراسان حيث تمتَّع العلويون بعطف كبير من جانب السكان، وبخاصة بعد قيام الدولة الفاطمية في المغرب، حيث وجد الفاطميون طريقهم إلى هذه المناطق الشرقية لنشر الدعوة في ربوعها.

واصطدم إسماعيل بالأتراك الذين هدَّدوا حدود بلاده الشمالية وانتصر عليهم في عام (٢٩١هـ/ ٩٠٤م)[2]. وخُتمت بهذه المعركة سلسلة الحروب التي خاضها الأمير الساماني منذ أن تولى الحكم، واستطاع بنتيجتها أن يضم ولايات غنية كثيرة إلى ما ورثه من ملك عند جيحون، ويجعل من بلاد ما وراء النهر دولة قوية حاضرتها بخارى. وكان عماله أصحاب الأمر والنهي في مرو ونيسابور[3] والري وآمل وقزوين وأصفهان وشيراز وهراة وبلخ، ونجح في توحيد إيرانيي الشرق والغرب.

مما لا شك فيه أن قيام حاكم قوي في بلاد ما وراء النهر يتحمل عبء التصدي لهجمات الأتراك، كان مهماً في تلك المرحلة التي ظهر فيها ضعف الخلافة العباسية واضحاً، إلا أننا نرى خلفاء إسماعيل قد أضحوا، إلّا نفراً قليلاً منهم، ألعوبة في أيدي كبار القادة والولاة الأتراك. وسرعان ما تزايدت قوتهم فقضوا على الإمارة السامانية في بلاد ما وراء النهر، وانطلقوا ينشرون نفوذهم في كل ناحية ونجحوا في تأسيس إمارات لهم في ربوعها.

خلف إسماعيل ابنه أحمد بعد وفاته في عام (٢٩٥هـ/ ٩٠٨م)، وأرسل إليه الخليفة المكتفي عهداً بإمارة بلاد ما وراء النهر وخراسان. والواقع أن هذا الأمير لم يكن على مستوى الأحداث التي تعرضت لها بلاده، وبخاصة الضغط التركي في الخارج والمؤامرات في الداخل، على الرغم من أنه انتزع سمرقند من يد عمه إسحاق بن أحمد، وسيستان من قبضة بارس الكبير والي طبرستان في عام (٢٩٨هـ/ ٩٠٠م)، ووقع أخيراً ضحية مؤامرة. ويبدو أن العطف الذي أبداه نحو اللغة العربية ومحاولة نشرها، أدَّى إلى تعرُّضه لمؤامرة أودت بحياته في (٧ جمادى الآخرة ٣٠١هـ/ ٢٣ كانون الثاني ٩١٤م). والمعروف أن السامانين بعامة اتجهوا نحو تبنِّي النزعات الانفصالية الفارسية بشكل أكثر بروزاً من خلال إحياء اللغة والثقافة الفارسية[4].

---

(١) ابن الأثير: جـ٦ ص ٥١٣ ـ ٥١٤. (٢) المصدر نفسه: ص ٥٤٠.

(٣) نيسابور: مدينة عظيمة في فارس بينها وبين الري مائة وستون فرسخاً، وإلى سرخس أربعون فرسخاً. الحموي: جـ ٥ ص ٣٣١.

(٤) Brown: Literary History of Persia: I PP 369, 399.

خلف أحمد ابنه نصر بعد وفاته، وكان صبياً في الثامنة من عمره، فعُيِّن الوزير أبو عبد الله محمد بن أحمد الجيهاني وصياً عليه، فتعاون مع قائد الجيش حموية بن علي، وضبطا الأمور في البلاد[1]. والواقع أن هذا الأمير واجه خلال حياته السياسية عدة صعوبات، كانت متوالية، أثَّرت سلباً على أوضاع البلاد التي لم تعرف الاستقرار.

فقد واجه تمرد عمه إسحاق بن أحمد المطالب بالعرش الساماني وقد تحصَّن في سمرقند، كما ثار ابنه أبو صالح منصور، وشجعت الفوضى التي ضربت البلاد، الحسين بن علي المروزي حليف أبي منصور صالح وهو أحد زعماء الشيعة البارزين فأعلن الثورة على النظام، لكن نصراً تمكَّن من إخضاع الثائرين وسجن الحسين[2].

وبفعل اشتداد رياح الدعوة الفاطمية، استقطب الدعاة الفاطميون نصراً، ووافق على دفع مائة وتسعة عشر ألف دينار للقائم الفاطمي دية الحسين بن علي المروزي الذي توفي في سجن بخارى[3].

تعرض الأمير نصر لحركة مناهضة لهذا التوجه نحو الفاطميين من جانب قادة الحرس التركي والحاشية، فتآمروا عليه للتخلص منه إلا أنهم فشلوا في ذلك. ومن جهة أخرى كان التعاطف الساماني مع الاتجاه الفاطمي الشيعي مرحلياً، إذ بعد وفاة نصر في عام (٣٣١هـ/ ٩٤٢م) قضى ابنه وخليفته نوح على المذهب الفاطمي في رد فعل عارم[4].

وظهرت في الأفق السياسي، في عهد نوح، الدلائل التي تشير إلى تدهور الدولة، وذلك نتيجة الأحداث التي أحاطت بحكم نصر واستمرت في عهود خلفائه. ولم يتمكَّن نوح أن يُخرج الحكومة من المآزق الكثيرة التي تعرَّضت لها وبخاصة تأمين الجند، لإخماد الثورات التي واجهتها في ظل فراغ الخزينة.

وبرزت آنذاك على مسرح الأحداث قوى جديدة تمثلت بالغزنويين والقراخانيين، عجز السامانيون عن مواجهتهم، ووقعوا أخيراً تحت ضرباتهم. وتقاسمت الدولتان الغزنوية والقراخانية أملاك السامانيين في بلاد ما وراء النهر وخراسان في ظل حكم إسماعيل بن نوح الثاني الملقب بالمنتصر، آخر الأمراء السامانيين.

---

(١) ابن الأثير: جـ٦ ص ٦٢٥.

(٢) المصدر نفسه: ص ٦٢٥ ـ ٦٢٦.

(٣) إقبال: ص ١٤٣. بارتولد: ص ٣٧٤ ـ ٣٧٥.

(٤) إقبال: ص ١٤٤.

الإمارة القراخانية[1]

ينتسب القراخانيون إلى العنصر التركي، وينتمون إلى قبيلة القارلوق على الأغلب الذين يتكوَّنون بدورهم من مجموعة من قبائل تركية متحالفة. وكانت منازلهم في المناطق الوسطى من حوض نهر سيحون، وتمتد شرقاً حتى السهوب الغربية لجبال ألتاي، وجنوباً إلى المناطق الواقعة بين واديي نهري سيحون وإيلي ومناطق حوض وادي نهر جو في الشمال، ويحمل زعيم القراخانيين لقب إيلك[2].

أخذ الإسلام ينتشر بين أفراد هذه القبيلة خلال القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، وأول من أسلم من زعمائها هو سُتُق قراخان، وفي رواية هو سُتُق بغراخان عبد الكريم، جد بغراخان الفاتح الأول لمدينة بخارى عام (٣٨٣هـ/ ٩٩٣م)[3]. وقد اعتنق الإسلام في عام (٣٤٤هـ/ ٩٥٥م)، وكان حاكماً على مدينة كاشغر. تلى ذلك دخول أعداد هائلة في الإسلام[4]، وذلك بتأثير الفرق الدينية التي زرعت لها أتباعاً بين السكان المستقرين في بلاد ما وراء النهر، بالإضافة إلى القبائل الرحل.

توفي سُتُق بغراخان عبد الكريم في عام (٣٤٤هـ/ ٩٥٥م) وخلفه ابنه موسى. ويمكن تحديد قيام هذه الإمارة في بلاد ما وراء النهر في عام (٣٨٣هـ/ ٩٩٣م) وهو تاريخ سيطرتهم على بخارى عاصمة السامانيين. لكن الواقع أن سيطرتهم على المدينة كانت مزعزعة ومهدَّدة، فخرجوا منها تحت الضغط الساماني الذي كان يلفظ أنفاسه الأخيرة. ودام الصراع بين القوتين حوالي اثني عشر سنة سيطر القراخانيون في نهايتها على مدينة بخارى سيطرة تامة ونهائية، وذلك في (أواخر عام ٣٩٤هـ/ خريف عام ١٠٠٤م).

---

(١) عُرفت الإمارة القراخانية باسم الإيلك خانية، ولكن استعمال أفراد هذه الأسرة لكلمة قرة أو قرا، وتعني أسود، مضافة إلى أسمائهم، فقد أطلق عليها المستشرقون اسم القراخانية. وهكذا فإن اسم القراخانية هو اسم محدث للإيلك خانية. زكار، سهيل: مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية ص ٢٨.

(٢) إيلك اسم أويغوري معناه الأمير أو الحاكم أو الوصي، فهو بهذا ليس باسم علم، وهو مثل كلمات تركمان أو ترخان أو خاتون، أو غيرها من الألقاب التي سمى بها العرب والفرس الحكام الترك إذ ذاك، فامبري: ص ١٢٠ هامش رقم ١.

(٣) بارتولد: ص ٣٨٨.

(٤) ابن الأثير: جـ٧ ص ٢٣٠. الذي يذكر أنه أسلم من الأتراك نحو مائتي ألف خركاة. والخركاة تعني سقيفة، أو سرادق أو كوخ أو خيمة كبيرة، وهنا تعني أسرة.

كان الصراع على السلطة قد بلغ أشده في الإمارة السامانية المتداعية، وقد لمع نجم القائدين فائق وبكتوزون. وحتى يحافظا على مكتسباتهما راحا يتدخلان في عزل وتعيين الأمراء. ففي عام (٣٨٩هـ/ ٩٩٩م) انقلب بكتوزون على الأمير أبي الحارث منصور، فقبض عليه وسمل عينيه وخلعه من الإمارة وعيَّن أخاه أبا الفوارس عبد الملك.

وسرعان ما سقط الأمير الساماني الجديد فريسة سهلة لغدر الإيلك شمس الدولة أبي نصر أحمد بن علي (٣٨٨ ـ ٤٠٦هـ/ ٩٩٨ ـ ١٠١٥م). فقد قدم هذا من كاشغر إلى بخارى بدعوى حمايته، دون أن يدعوه أحد إلى ذلك، فقبض على جميع أمراء بخارى الذين كانوا قد خرجوا لاستقباله ثم دخل المدينة في (١٠ ذي القعدة ٣٨٩هـ/ ٢٣ آب ٩٩٩م) وسجن أبا الفوارس عبد الملك الذي مات في سجنه، كما ألقى القبض على أخيه منصور وسائر الأمراء السامانيين، منهياً بذلك دور الإمارة السامانية في بلاد ما وراء النهر. وحاول إسماعيل بن نوح الثاني، وهو ثالث أبناء أبي القاسم نوح، أن يُعيد للسامانيين ما بقي لهم من دولتهم، بعد أن هرب من سجن الإيلك، واستطاع أن يهزمه مرتين، لكن ذلك لم يؤد إلى تحقيق غايته. وظل هذا الأمير الساماني يتنقل بين طبرستان وخراسان حتى نجح في عام (٣٩١هـ/ ١٠٠١م) في الاستيلاء على نيسابور، لكن سرعان ما أخرجه منها نصر بن محمود، حفيد سبكتكين صاحب غزنة[(١)]، فراح يضرب في الأرض حتى غدر به أحد رجاله فأوقعه في شرك إيلك خان، لكنه تمكَّن من الإفلات ليلقى حتفه بعد ذلك في مضارب بني بهيج في صحراء مرو في (ربيع الأول ٣٩٥هـ/ كانون الثاني ١٠٠٥م). فانقرضت بموته الإمارة السامانية. وكان القراخانيون قد توسعوا قبل ذلك، فبسطوا نفوذهم على المنطقة الممتدة من بلاساغون[(٢)] إلى كاشغر حتى حد الصين[(٣)].

شكَّلت الإمارة القراخانية اتحاداً قبلياً، ولم تكن دولة مركزية متحدة، على رأسها حاكم يحمل لقب خان أو خاقان.

وفي الوقت الذي كان فيه القراخانيون، بقيادة بغراخان هارون بن موسى، يشنون غاراتهم ضد بقايا إمارة السامانيين في بلاد ما وراء النهر وامتلاك تركتهم

---

(١) غزنة: مدينة في طرف خراسان، وهي الحد بين طرف خراسان والهند. الحموي: جـ ٤ ص ٢٠١.

(٢) بلاساغون: بلد عظيم في ثغور الترك وراء نهر سيحون قريب من كاشغر. المصدر نفسه: جـ ١ ص ٤٧٦.

(٣) ابن الأثير: جـ ٧ ص ٤٥٨.

هناك، كان محمود الغزنوي قد أنهى سيطرتهم فيما دون النهر وضمَّ جميع ممتلكاتهم إلى أملاكه، وأضحى الصراع بين القوتين، القراخانية والغزنوية أمراً محتوماً، فكلٌ ترى بأنها الأحق بوراثة أملاك السامانيين، وكان محمود الغزنوي الأقوى سياسياً وعسكرياً، لكن اهتمامه بالتوجه لفتح الهند، أتاح للقراخانيين التفاهم معه، وتوجت تلك العلاقة بالتقارب الأسري الأمر الذي جعل السلطان الغزنوي يطمئن على حدود بلاده من الشرق والشمال الشرقي، فتفرغ عندئذ لفتوحه في شبه القارة الهندية.

ظل القراخانيون يحكمون بلاد ما وراء النهر بشكل مستقل دون الخضوع لأي سلطة خارجية حتى عام (٤٨٣هـ/ ١٠٩٠م)، عندما اصطدموا بالسلاجقة. فقد عبر السلطان السلجوقي ملكشاه آنذاك نهر جيحون واجتاح بلاد ما وراء النهر حتى كاشغر ومنابع نهر سيحون، وضمَّ تلك المناطق إلى أملاك الدولة السلجوقية، لكنه اقرَّ القراخانيين على حكمها، وإدارة شؤونها نيابة عن السلطنة السلجوقية[١]. ويبدو أنه كان لبعد المسافة بين هذه البلاد وبين قلب الدولة السلجوقية في إيران، واهتمام ملكشاه بمشكلات غربي آسيا، أثر في تصرفه هذا.

السلطنة الغزنوية

ينتسب الغزنويون إلى العنصر التركي ـ القارلوق ـ الذي كان يسكن في بلاد ما وراء النهر. ومؤسس السلطنة الغزنوية هو سبكتكين قائد ألبتكين حاجب الأمير الساماني عبد الملك (٣٤٣ ـ ٣٥٠هـ/ ٩٥٤ ـ ٩٦٢م) وقائد جيش غزنة[٢]. وبناء عليه فقد نشأ الغزنويون في كنف السامانيين، وبفضلهم اعتنقوا الدين الإسلامي بعد أن كانوا وثنيين، واتخذوا من غزنة حاضرة لهم.

كان سبكتكين قد وقع وجماعة من قومه في أسر المسلمين من الأتراك، فساقه تجار الرقيق إلى خراسان، فاشتراه القائد ألبتكين، وكان بنيسابور. ولم تلبث مواهبه أن اجتذبت اهتمام مالكه، وترقَّى سريعاً في الرتب العسكرية. وبعد اعتلاء الأمير منصور بن نوح العرش الساماني في عام (٣٥٠هـ/ ٩٦١م)، صحب مولاه إلى غزنة

---

(١) كان السلطان ألب أرسلان السلجوقي قد عبر نهر جيحون في عام (٤٦٥هـ/ ١٠٧٢م) بجيوش جرارة ليضم أراضي القراخانيين، ولكن وفاته في العام نفسه أجَّلت مشروع السلاجقة هذا لأكثر من خمس عشرة سنة.

(٢) ابن الأثير: جـ ٧ ص ٣٥٣.

حيث قدَّم له ولخلفائه خدمات جليلة جعلت آخرهم، وهو بيري، يتنازل له عن الإمارة. وتَمَّ إعلان سبكتكين أميراً على غزنة في (٢٧ شبعان ٣٦٦هـ/ ٢٠ نيسان ٩٧٧م)[١].

ويبدو أن تحسُّن العلاقات السياسية بين غزنة وبخارى بعد وفاة ألبتكين، واطمئنان الأمراء السامانيين على أن نفوذهم عاد يخيِّم على سماء أفغانستان جعل سبكتكين يطمئن على حدود إمارته الشمالية، فركَّز اهتمامه لغزو الهندَ وقد شجعته حروب المسلمين السابقة مع ملك أعالي السند، وبخاصة بعد أن هُزم راجا جيبال مؤخراً على أيدي المسلمين بقيادة بيري، وقيامه بالرد من خلال غزوه أراضي المسلمين في عام (٣٦٥هـ/ ٩٧٦م). ونجح سبكتكين في التوسع نحو الجنوب والجنوب الشرقي بفتحه مناطق واسعة منها قصدار في إقليم مكران وبست إحدى مدن سجستان، ثم نفذ إلى سهول السند عن طريق سلسلة جبال سليمان ـ ممر خيبر ـ وهزم جيبال، وضمَّ مدينة بيشاور[٢].

وظهر سبكتكين في بلاد ما وراء النهر امتثالاً لأمر نوح بن منصور الساماني (٣٦٦ ـ ٣٨٧هـ/ ٩٧٦ ـ ٩٩٧م). وقد اجتمع الرجلان قرب مدينة كش فتعهد سبكتكين بالطاعة التامة لنوح ووعده بمساعدته ضد أعدائه.

وحدث آنذاك أن ثار بعض القادة السامانيين على حكم نوح، وبخاصة فائق وأبي علي الجغائي، فطلب نوح المساعدة من سبكتكين. وتمكن الرجلان بمساعدة بعض الأمراء المجاورين من هزيمة أبي علي في سهل هراة.

وعقب انتصاره على أعدائه، أنعم نوح على سبكتكين بلقب ناصر الدولة، كما لقَّب ابنه محمود بلقب سيف الدولة، وولَّاه خراسان[٣].

وفي عام (٣٨٥هـ/ ٩٩٥م) غزا القراخانيون، بالتعاون مع أبي علي، بلاد ما وراء النهر مرة أخرى، وكان سلطان نوح الساماني قد امتد على جزء من هذه البلاد، إلا أن الأمير الساماني لم يستطع الصمود في وجه الحشود التركية الضخمة إلا بطلب المساعدة من سبكتكين الذي كان في غزنة، فعبر إلى بلاد ما وراء النهر بجيش كبير وعسكر بين كش ونسف، وكتب إلى نوح يستعجله للحاق به، غير أن الوزير ابن عزير نصح الأمير بعدم الخروج بقواته البائسة الموجودة تحت إمرته، لأن في ذلك تحقيراً للعرش.

عدَّ سبكتكين هذا الإحجام تقصيراً من الأمير الساماني، وعزم على إجباره

(١) بارتولد: ص ٣٩٨.
(٢) ابن الأثير: جـ ٧ ص ٣٥٤ ـ ٣٥٦.
(٣) االمصدر نفسه: ص ٤٦٢ ـ ٤٦٣.

على الخروج، فأرسل قوة عسكرية من عشرين ألف مقاتل إلى بخارى بقيادة ابنه محمود وأخيه بغراجق، وكان هذا كافياً لحمل الحكومة السامانية على الإذعان. واشتبك الطرفان في رحى معركة طاحنة عند طوس[١] في شهر (جمادى الآخرة/ تموز)، أسفرت عن انتصار سبكتكين الذي طارد أبا علي حتى خوارزم[٢].

والراجح أن الزعيم الغزنوي دخل في هذا الصراع حليفاً للسامانيين بشكل ظاهري، وهو يبطن الاستيلاء على أوسع مساحة ممكنة من أملاكهم واقتسامها مع القراخانيين، بدليل أنه عقد صلحاً مع هؤلاء تَمَّ بموجبه الاتفاق على أن يكون الحد الفاصل بين أملاك السامانيين وأملاك القراخانيين، مفازة قطوان، في خطوة لضم الأملاك السامانية إلى أملاكه في غزنة.

وهيمن سبكتكين بعد ذلك على مقدرات السامانيين، وأضحى الحاكم المطلق على جميع الولايات الواقعة جنوبي نهر جيحون، ولم يعد لنوح من سلطة في مجريات الأحداث بخراسان.

توفي سبكتكين في (شهر شعبان عام ٣٨٧هـ/ شهر آب عام ٩٩٧م) وهو في طريقه عائداً إلى بلاد ما وراء النهر، حيث عرَّج على مدينة طوس ومنها ذهب إلى مدينة بلخ التي اختارها في أواخر أيامه عاصمة له حيث توفي فيها، وكان قد عقد العزم على التوجه إلى غزنة[٣].

كان سبكتكين قد عهد إلى ابنه الأصغر إسماعيل بالأمر من بعده، ولم يكن هذا التعيين متوافقاً مع المصلحة العامة في ظل دولة ناشئة تتطلب مهارات سياسية وإدارية وعسكرية لم تكن تتوفر في إسماعيل، الذي استغل فرصة وجوده إلى جانب والده عند وفاته، وبُعد أخيه محمود في نيسابور في خراسان، فأقنع والده بتوليته العهد[٤].

كان من الطبيعي أن ينشأ نزاع بين الأخوين، إذ أن محموداً رأى نفسه أحق بخلافة والده بوصفه الابن الأكبر، لذلك غادر خراسان عندما علم بنبأ الوفاة، ونازع أخاه على السلطة وانتصر عليه قرب غزنة، فقبض عليه وسجنه وتسلم الحكم، وتوفي إسماعيل في سجنه[٥].

أعلن محمود، بعد أن اعتلى العرش في غزنة، ولاءه وطاعته للدولة السامانية

(١) طوس: مدينة بخراسان بينها وبين نيسابور نحو عشرة فراسخ. الحموي: جـ ٥ ص ٤٩. إنها مدينة مشهد الحالية.

(٢) ابن الأثير: جـ ٧ ص ٤٦٧.

(٣) المصدر نفسه: جـ ٧ ص ٤٨٩.

(٤) المصدر نفسه.

(٥) المصدر نفسه: ص ٤٨٩ ـ ٤٩٠.

المتداعية في بخارى، فأرسل إلى أميرها منصور بن نوح يطلب منه الاعتراف به والياً على غزنة وتوابعها، بالإضافة إلى خراسان. والواقع أن الغزنويين كانوا آنذاك لا يزالون يعدُّون أنفسهم أتباعاً للسامانيين من الناحية الاسمية على الأقل، ولم يستقلوا تماماً إلا بعد زوال هؤلاء، بالإضافة إلى ذلك، فقد وضع محمود خطة لفتح الهند والسند، وكان عليه قبل القيام بهذه المهمة تأمين حدود بلاده من جهة الشرق بالمحافظة على خراسان وما جاورها، ومنع أية قوة من المساس بأمنها، أو إخراجها من تحت سلطانه ومحاولة السيطرة عليها.

لبَّى الأمير الساماني طلب محمود جزئياً فقط، فأخرج خراسان من إمرته لأنه سبق ومنحها للقائد بكتوزون، فعقد له على بلخ وترمذ وما والاهما، وبست وهراة وما تاخمهما، وتلطف في الاعتذار إليه من أمر نيسابور حرصاً على ترضيته وكراهية لصرف بكتوزون عنها[١].

كان امتناع الأمير الساماني عن منح محمود إمارة خراسان، ذريعة لهذا الأخير لمهاجمة هذا الإقليم واستخلاصه من بكتوزون بالقوة المسلحة. وفعلاً نجح في السيطرة عليه بعد أن تغلَّب على بكتوزون في (٢٧ جمادى الأولى عام ٣٨٩هـ/ ١٦ أيار عام ٩٩٩م) وأضحى سيد خراسان بلا منازع منهياً بذلك سيطرة السامانيين على هذا الإقليم، وخطب للخليفة العباسي القادر (٣٨١ ـ ٤٢٢هـ/ ٩٩١ ـ ١٠٣١م) الذي لقَّبه بـ يمين الدولة[٢].

والواقع أن محموداً كان يسعى لتصفية منافسيه على السلطة في البلاط الساماني والاستحواذ على أكبر قدر ممكن من ممتلكات السامانيين الذين أضحى سقوطهم قاب قوسين أو أدنى، والتسابق في اقتسامها مع قوة تركية أخرى قادمة من شرق سيحون هي الإمارة القراخانية.

أصل السلاجقة

ينحدر السلاجقة من قبيلة قنق الغزية، وينتمون إلى جد هو سلجوق بن دقاق[٣]، استوطنوا الأراضي الواقعة بين كاشغر وخوطان في أقصى بلاد التركستان.

---

(١) ابن الأثير: جـ ٧ ص ٤٩٧. (٢) المصدر نفسه: ص ٥٠٣.

(٣) ورد في تاريخ ابن الأثير «تقاق»، وفي أخبار الدولة السلجوقية للحسيني «يقاق»، كما ورد في بعض المصادر «دقاق» وقد عُرف بـ تيموريلغ، اي ذو القوس الحديد. انظر: الكامل في التاريخ: جـ ٨ ص ٥. الحسيني: ص ١٧.

كان دقاق هذا وزيراً للخاقان بيغو[1]، أحد خانات تركستان، وقائداً لجيشه[2]، ويبدو أنه حصل نزاع بينهما بسبب بعض الغارات التي كان بيغو ينوي القيام بها على حدود المسلمين، غير أن هذا النزاع قد سُوِّي باسترضاء دقاق الذي بقي في خدمة سيده حتى وفاته[3].

والواضح أن غيرة دقاق على الإسلام دفعته إلى أن يمنع بيغو بالقوة من الإغارة على المناطق الإسلامية، واستناداً إلى ما أورده الحسيني فإن دقاق هو أول من دخل في الإسلام من أفراد قبيلته[4].

خلف سلجوق أباه دقاق في رئاسة القبيلة بعد وفاته، وبرزت عليه إمارات النجابة والنباهة فقربَّه بيغو وعيَّنه قائداً لجيشه، فأطاعه الناس وانقادوا له، فأثار بذلك حفيظة زوجته، فأغرته بقتله وبالغت في ذلك[5]. ويبدو أن الحديث بين بيغو وزوجته قد دار بحضور سلجوق الذي اضطر بعد ذلك إلى ترك تركستان، وهاجر مع قبيلته من سهوب القرغيز إلى المنطقة التي توجد فيها مدينة جَنْد الواقعة في الوادي الأدنى لنهر سيحون[6]. لا نعلم بالتحديد متى تمت تلك الهجرة ولعلها كانت في أواخر القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي.

---

(١) يجب قراءتها بيغو لأنه لا يوجد في المغولية الاسم بيهو الذي يرتفع عادة إلى Baigu أو Bayu. وبخلاف ذلك نلتقي في التركية بلفظ بيغو، وهو طير جارح أشبه بالعقاب. الحسيني: ص ١. بارتولد: هامش صفحة ٤٠٨.

(٢) خواند أمير: تاريخ حبيب السير في أخبار أفرادي بشر: جـ ٢ ص ٤٧٩.

(٣) المصدر نفسه: ص ٤٧٩ ـ ٤٨٠. الحسيني: ص ١ ـ ٢.

(٤) اختلف المؤرخون حول أول زعيم من قبيلة قنق دخل في الإسلام، دقاق أم ابنه سلجوق، وهم يذكرون روايتين متشابهتين حول الخلافات التي حصلت بين بيغو وكل من دقاق وسلجوق إنما تختلفان في نهايتهما.

(٥) يذكر الحسيني أن بيغو كان عقيماً، فخشيت زوجته بأن يستغل سلجوق هذا الوضع ويسعى إلى قتله والجلوس مكانه. أخبار الدولة السلجوقية ص ٢.

(٦) كان السامانيون يغيرون، منذ القرن التاسع الميلادي، على مناطق السهوب، وكانت غزواتهم تنتهي أحياناً بفتح بعض المدن، لكن هذه الغارات ظلت قاصرة على الأماكن القريبة من بلاد ما وراء نهر سيحون. بالإضافة إلى الفتوح المشار إليها، كان المهاجرون يأتون أحياناً من البلاد المذكورة ليستعمروا الصحراء صلحاً، فلما دخلت جمهرة سكان بلاد ما وراء النهر في الإسلام، واصلوا سياسة الفتح وإنشاء المدن. وهكذا أُنشِئت ثلاث مدن في القسم الأسفل لنهر سيحون وهي جَنْد وخوارة والقرية الحديثة، غير أن سكانها كانوا في تلك المرحلة خاضعين للأتراك الغز الوثنيين الذين لم يكونوا قد دخلوا في الإسلام، ويدفعون الجزية لهم. انظر: بارتولد: تاريخ الترك في آسيا الوسطى ص ٧٦.

كانت الأوضاع السياسية في بلاد ما وراء النهر ملائمة لدخول سلجوق وأتباعه في المعترك السياسي حيث السامانيون يقاتلون القراخانيين على السيادة. وأخذت قوة سلجوق تزداد يوماً بعد يوم، فذاعت شهرته في المنطقة، فطلب السامانيون مساعدته في حربهم مع هارون بن إيلك خان القراخاني الذي استولى على أطراف بلادهم، وفعلاً شارك سلجوق في الحرب حليفاً للسامانيين، غير أنه في الوقت نفسه كان ينتهز الفرص لتحسين أوضاع قبيلته. ويُعدُّ هذا الاتصال الأول من نوعه بين السلاجقة والسامانيين وتجربتهم الأولى في التدخلات السياسية[1].

كانت لهذه المساعدة أثرها الحسن في نفوس السامانيين، فسمحوا لسلجوق وأتباعه بالمرور عبر أراضيهم والاستقرار عند شواطئ نهر سيحون، مقابل التعهد بحراسة الحدود. واتخذ سلجوق من مدينة جَنْد قاعدة له ولأتباعه حيث راحوا ينتشرون في تلك المنطقة بعد أن اكتملت هجرتهم من التركستان.

وسعد سلجوق وأتباعه بالدين الإسلامي وفق مبادئ المذهب الحنفي الذي أخذوه عن السامانيين حيث ساد في دولتهم بعد ذلك. ومن جَنْد كان سلجوق يجاهد في سبيل دينه، فغزا الأتراك الوثنيين وطرد عمالهم من المنطقة. وبدت غيرته الدينية فيما بذله من جهود لحماية سكان المناطق الإسلامية المجاورة من غاراتهم[2].

لم يزل سلجوق بجَنْد يرعى مصالح قبيلته حتى توفي وله ثلاثة أولاد هم بيغو أرسلان المدعو إسرائيل[3] وميكائيل وموسى، وتضيف بعض الروايات ابناً رابعاً هو يونس[4].

قيام السلطنة السلجوقية في خراسان

ليس لدينا من التفاصيل الدقيقة والموثوقة حول ما وصلت إليه أوضاع أولاد سلجوق بعد وفاته، وما بلغوه من نفوذ في بلاد ما وراء النهر، وكل ما نعلمه على

---

(١) ابن الأثير: جـ ٨ ص ٦.   (٢) خواند أمير: جـ ٢ ص ٤٨٠.

(٣) كان زعيم الغز يحمل لقب بيغو أو يبغو، في حين أن قائد الجيش كان يعرف بسوباشي، كما وُجدت عندهم رتبة أدنى عُرف صاحبها باسم ينال أي ولي العهد.

(٤) يُلاحظ أن أسماء الآباء الأُوَل للسلاجقة وردت في الكتاب المقدس، حتى ليبدو أن سلجوق قد تأثر بالديانة اليهودية أو النصرانية. والمعروف أن القبائل الرعوية، ومنها الأتراك، كانت تجوب المنطقة الشمالية لبحر قزوين امتداداً إلى جمهورية الخزر اليهودية، وأقامت علاقات تجارية معها، وأن السلاجقة ظهروا على مسرح الاحداث بعد القضاء على هذه الجمهورية على يد الروس في القرن التاسع الميلادي. وعليه، يُحتمل أن بعض الأتراك الغز، ومنهم السلاجقة، قد دخلوا في الديانة اليهودية في وقت مبكر متأثرين بيهود الخزر، قبل أن يتحولوا إلى الإسلام بعد انتقالهم إلى المناطق الإسلامية واتصالهم بالمسلمين.

وجه اليقين أن القبيلة اتخذت من اسم سلجوق لقباً لها، وعرف أتباعها بالسلاجقة.

ويبدو أن أولاد سلجوق لم يستطيعوا العيش في وفاق مع المسلمين الذين حرَّروهم، وذلك بفعل تأثر السلاجقة بأصلهم القبلي، إذ كانوا يألفون حياة البداوة التي تميل إلى التنقل والترحال، ومهاجمة الحواضر. ونجد في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، حاكماً مسلماً على جَنْد، كان في حالة عداء شديد مع أولاد سلجوق[١].

كان السامانيون آنذاك يتعرضون لضغط القراخانيين وهم بأمس الحاجة إلى إقامة حاجز يقيهم هجماتهم، فوجدوا ضالتهم في القوة السلجوقية النامية ذات الأعداد الوفيرة، فاستدعوهم من جَنْد وأنزلوهم بنواحي نور بخارى[٢]. ويرجع المستوفي القزويني بهذا الحادث إلى عام (٣٧٥هـ/ ٩٨٥م)[٣]. ووافى القرن الخامس الهجري، وهم يجنحون بالقرب من موارد المياه حيث توجد الأراضي الخصبة، وكانت مساكنهم لا تزال في نور بخارى يقضون فيها فصل الشتاء، أما في الصيف فإننا نراهم في سمرقند[٤].

ظل السلاجقة حلفاء للسامانيين حتى زوال دولتهم. فقد انضموا إلى قوات المنتصر إسماعيل ابن نوح الساماني في حربه ضد القراخانيين، وكانوا يأملون، بالإضافة إلى المكاسب السياسية، الحصول على غنائم وفيرة. وقد مكَّنوه من هزيمة تكين خان والي سمرقند ثم نصر أرسلان إيلك بعد ذلك قرب هذه المدينة، وذلك في (شعبان ٣٩٤هـ/ حزيران ١٠٠٣م)، وسقط ثمانية عشر من قادته في الأسر، هذا وقد رفض السلاجقة تسليم الأسرى إلى المنتصر طمعاً في الفدية على ما يبدو. وقد أثار هذا التصرف شكوك المنتصر، وشعر بأنهم يميلون إلى التفاهم مع نصر أرسلان إيلك، فقرَّر هجرهم، غير أننا نراهم مرة أخرى حلفاء للمنتصر حين هزم جيش الإيلك في عام (٣٩٥هـ/ ١٠٠٤م) ثم تراجعوا بعد ذلك نحو معسكراتهم مكتفين بما حصلوا عليه من غنائم[٥].

---

(١) البيهقي، أبو الفضل: تاريخ البيهقي ص ٧٤٩.

(٢) نور بخارى: ضاحية من ضواحي بخارى، وهي عند جبل. الحموي: جـ ٥ ص ٣١٠.

(٣) تاريخ گزيدة: ص ٤٣٤.

(٤) الحسيني: ص ٢. الراوندي، محمد بن علي بن سليمان: راحة الصدور وآية السرور في تاريخ الدولة السلجوقية ص ١٤٥.

(٥) بارتولد: تركستان ص ٤٠٩.

بعد زوال السامانيين عن مسرح الأحداث في أواخر القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، تقاسم الغزنويون والقراخانيون أملاكهم، وكان السلاجقة، خلال ذلك، قد أنشأوا قوة عسكرية نظامية، يُخشى بأسها ويُرهب جانبها. ويبدو أن إسرائيل، الابن الأكبر لسلجوق، قد تبوأ الزعامة حيث نجد له ذكراً بوصفه حليف علي تكين الذي كان قد استولى على بخارى متحدياً بذلك سلطة محمود الغزنوي وقدرخان يوسف زعيم القراخانيين وملك المشرق[١].

وفي عام (٤١٦هـ/ ١٠٢٥م)، قام محمود الغزنوي بحملة إلى بلاد ما وراء النهر لخلع علي تكين، وكان تَبريره للقيام بحملته هذه هو أن سكان بخارى ومدن بلاد ما وراء النهر كثيراً ما جاؤوا إلى بلخ يتظلمون من تصرفاته، وقد شجعه على ذلك أيضاً هو أن علي تكين رفض السماح لرسله بالمرور عبر بلاده إلى ملوك الترك حكام تركستان الشرقية. كانت نتيجة الحملة أن هرب علي تكين من بخارى عندما علم بتقدم القوات الغزنوية، أما إسرائيل فإنه دخل وجماعته المفازة للاحتماء من جيش محمود[٢].

أدرك محمود بعد هذه الحادثة ما للسلاجقة من قوة وبأس، كما شعر بمدى الخطر الذي يمكن أن يشكلوه على دولته، فقرر القضاء عليهم، وقد توافقت مصلحته في ذلك مع مصلحة قدرخان. وعقد العاهلان اجتماعاً خارج سمرقند[٣] في عام (٤١٩هـ/١٠٢٨م) لتحديد أسس المصالحة بينهما وتعيين الحدود بين المملكتين الغزنوية والقراخانية.

اتفق العاهلان على توحيد قواتهما لانتزاع ما وراء النهر من يد علي تكين وإعطائها ليغان تكين، الابن الثاني لقدرخان، على أن يتزوج زينب كريمة محمود، ووعده قدرخان بأن يزوج كريمته لمحمد الابن الثاني لمحمود[٤].

أما موضوع السلاجقة فقد جاء عرضاً، على ما يبدو، خلال مباحثاتهما، حيث شكا قدرخان من ازدياد قوة السلاجقة وكثرة جنودهم، واستيلائهم على المراعي الموجودة في نور بخارى والصغد وسمرقند، وطلب منه العمل على القضاء عليهم قبل نهوضه لغزو الهند. والواقع أن محموداً لم يكن بحاجة إلى من يحثه على تحجيم قوة السلاجقة المتعاظمة لأنه كان قد وجَّه اهتمامه إليهم منذ البداية.

---

(١) الراوندي: ص ١٤٨. ابن الأثير: جـ ٨ ص ٧. (٢) ابن الأثير: جـ ٨ ص ٧.

(٣) تاريخ البيهقي: ص ٧٩. حيث يذكر أن اللقاء تَمَّ على باب سمرقند.

(٤) المصدر نفسه: ص ٢١١.

وهكذا فإن ظهور السلاجقة كقوة جديدة على المسرح السياسي اصبح يُحسب حسابها في تقدير الموقف الذي سيسود هذه المنطقة من جراء التوسع السلجوقي، مما أثار مخاوف الغزنويين، لذلك قرر محمود استعمال الحيلة للقبض على إسرائيل وتشتيت أتباعه، فأرسل إليه يدعوه للقائه بالقرب من شاطئ جيحون لعقد اتفاق صداقة وتعاون بينهما[1].

خُدع السلاجقة بهذه الحيلة، وصدَّقوا ما جاء في رسالة محمود، فهرع إسرائيل مع بعض أتباعه إلى لقاء العاهل الغزنوي في المكان المحدد، وأحسن هذا الأخير استقبالهم، وبالغ في إكرام إسرائيل[2]، ثم عرض عليه عقد ميثاق تحالف وتعاون للقضاء على كل ثائر على الدولة الغزنوية في خراسان. رحَّب إسرائيل بهذا العرض وهو يجهل ما يُدبَّر له ولقومه، وتظاهر محمود بالمحبة وهو يضمر الخديعة والشر وأجابه: «لن يكون منا تقصير في خدمتكم»[3].

ولتنفيذ الخطة التي رسمها محمود، أقام الولائم لأعضاء الوفد مدة ثلاثة أيام حتى أسرفوا في الشراب واستغرقوا في نوم عميق، عندئذ قيدهم بالحديد وحملهم إلى السجون. أما إسرائيل فقد سُجن في قلعة كالنجر ببلاد الهند حيث بقي سبعة أعوام رهينة تكفل لمحمود إخلاد السلاجقة إلى الهدوء والسكينة. أما أتباعه فقد نكَّب ببعضهم، واضطر عدد كبير إلى هجر زعمائهم، وارتحلوا إلى خراسان بموافقة محمود حيث وضع الخراج عليهم[4].

كان لتلك الحادثة أثرها المؤلم في نفوس السلاجقة الذين صمَّموا على الثأر لزعيمهم إسرائيل بالانتقام من الغزنويين، كما ازدادوا حذراً وحيطة.

خلف ميكائيل بن سلجوق أخاه إسرائيل في زعامة القبيلة، وأدرك بثاقب بصره أن قوة السلاجقة أضعف من قوة الغزنويين بعدما تفرقوا في بقاع شتى، وأن الصواب هو مهادنتهم، فآثر التريث والانتظار حتى لا تفنى البقية الباقية منهم، ثم أخذ يجمع شتات قومه وأرسل إلى محمود يلتمس منه الإذن بعبور النهر إلى نسا[5] وباورد[6]،

---

(١) الراوندي: ص ١٤٧ ـ ١٤٨.

(٢) المصدر نفسه: ص ١٤٨.

(٣) المصدر نفسه: ص ١٤٩.

(٤) المستوفي: تاريخ گزيدة ص ٤٣٥. خواند أمير: ج ٢ ص ٤٨٢.

(٥) نسا: مدينة بخراسان بينها وبين سرخس يومان، وبينها وبين مرو خمسة أيام، وبين أبيورد يوم، وهي مدينة وبئة جداً. الحموي: ج ٥ ص ٢٨٢.

(٦) باورد أو أبيورد: مدينة بخراسان بين سرخس ونسا، وبيئة رديئة الماء. المصدر نفسه: ج ١ ص ٨٦.

لأن مقامهم ضاق بهم، ومراعيهم أصبحت لا تفي بحاجة مواشيهم، وكان ذلك في عام (٤١٨هـ/ ١٠٢٧م)[١].

ولما علم أرسلان الجاذب، حاكم طوس، بالتماس السلاجقة، أرسل إلى محمود ينصحه بعدم إجابة طلبهم لأن في ذلك خطراً على الدولة الغزنوية بسبب كثرة فرسانهم ووفرة عددهم وعدتهم، بالإضافة إلى ذلك فإنهم سيثيرون المتاعب للسلطنة[٢].

لم يأخذ محمود بنصيحة حاكم طوس ظناً منه أن السلاجقة قد تضعضعوا بعد الأحداث الأخيرة، وبخاصة أنهم يفتقرون إلى قيادة قوية تؤمِّن استمرار مسيرتهم بعد أسر زعيمهم إسرائيل، بدليل أنهم لم يثوروا احتجاجاً لما حلَّ بقادتهم، كما توقفوا عن مضايقة الدولة الغزنوية. ونتيجة لهذا الظن ردَّ على حاكم طوس قائلاً: «أني لا أهتم بأمرهم ولا خشية لي من أمثالهم»[٣]، ثم سمح لهم فعبروا النهر واستقروا في إقليم خراسان بين نسا وباورد[٤].

كان السلاجقة، منذ دخولهم في الإسلام، يحاولون تحت ضغط الأحداث السياسية والاقتصادية أن يجدوا لهم مخرجاً وأرضاً يهاجروا إليها، وقد حقَّقوا هدفهم بعبور النهر إلى خراسان.

والواقع أن محموداً أخطأ في تقدير قوة السلاجقة والموافقة على السماح لجموعهم بعبور جيحون والانتشار في خراسان، وقد ندم فيما بعد على ذلك[٥]. وقد يسَّر لهم هذا العبور حرية الحركة والانتشار في مرج دندانقان[٦] وكان بداية لمرحلة جديدة من حياتهم في سبيل إقامة دولة، وسبباً في إضعاف الدولة الغزنوية.

لم يكد السلاجقة يستقرون في المناطق الجديدة حتى راحوا يُنمُّون قدراتهم العسكرية، ويتحينون الفرص للانقضاض على أملاك الدولة الغزنوية، لكن الظروف في خراسان لم تكن مؤاتية لهم، لأن سكان بعض المدن مثل نسا وباورد اشتكوا إلى محمود من مضايقة السلاجقة لهم وطلبوا منه العمل على إبعادهم[٧].

---

(١) الراوندي: ص ١٥٣.

(٢) المستوفي القزويني: ص ٤٣٥.

(٣) الراوندي: ص ١٥٤.

(٤) المستوفي القزويني: ص ٤٣٥.

(٥) الحسيني: ص ٣.

(٦) دندانقان: بلدة من نواحي مرو الشاهجان على عشرة فراسخ منها في الرمل، وهي بين سرخس ومرو. الحموي: ج ٢ ص ٤٧٧.

(٧) الكرديزي: زين الأخبار ص ٧٠ ـ ٧١.

ويبدو أن السلاجقة تخلَّوا عن حياة الهدوء والاستقرار في هذه المرحلة من حياتهم، وعادوا إلى طبيعتهم البدوية، فقاموا بأعمال السلب والشغب ومضايقة الناس والإغارة على المدن والقرى المجاورة.

ومهما يكن من أمر، فقد استجاب محمود لنداء الاستغاثة، وخرج من غزنة في عام (٤١٩هـ/١٠٢٨م) على رأس جيش كبير قاصداً طوس عن طريق بَست[١]، واجتمع بحاكم المدينة الذي شرح له حقيقة الموقف، فأمره محمود بأن يخرج على رأس الجيش ويجلي السلاجقة عن المنطقة.

والتقى الجيشان السلجوقي والغزنوي في رباط فراوة[٢]، ودارت بينهما رحى معركة طاحنة انتصر فيها الجيش الغزنوي، وقُتل فيها أربعة آلاف من خيرة فرسان السلاجقة، ووقع عدد كبير منهم في الأسر، وفرَّ من نجا إلى بلخان[٣] ودهستان[٤].

توفي محمود الغزنوي في (٢٣ ربيع الآخر ٤٢١هـ/ ٣٠ نيسان ١٠٣٠م)[٥] دون أن يضع حداً لنشاط السلاجقة أو يخضعهم لسلطانه، وخلفه ابنه مسعود بعد صراع مع أخيه محمد، كما توفي ميكائيل قبل ذلك بقليل، وخلفه ابنه طغرلبك الذي أعاد توحيد العشائر السلجوقية المتفرقة بين بلاد ما وراء النهر وخراسان، بمساعدة أخيه جفري بك.

استغل طغرلبك فرصة وفاة محمود الغزنوي وبروز صراع بين ولديه على السلطة، لتوسيع دائرة نفوذه، فأخذ يسيطر على الأراضي المجاورة للسلاجقة، وينشر نفوذه في أرجاء بلاد ما وراء النهر في غارات منظمة.

وشعر علي تكين، حاكم بخارى، بتزايد الضغط السلجوقي، فحاول تفرقة السلاجقة وضرب بعضهم ببعض، فاستدعى يوسف بن موسى بن سلجوق وعرض عليه أن يجعله على رأس جميع الأتراك الموجودين في خدمته، ويقطعه إقطاعات كثيرة ويمنحه لقب الأمير إينانج بيغو، إلا أن يوسف رفض عرض علي تكين عندما علم بنواياه، فما كان من هذا الأخير إلا أن أمر قائده ألب قرا بقتل يوسف، فعظم قتله على أولاد عمه وصمَّموا على الأخذ بثأره[٦].

---

(١) بَست: مدينة بين سجستان وغزنين وهراة وهي من أعمال كابل. الحموي: جـ ١ ص ٤١٤.

(٢) فراوة: بليدة من أعمال نسا بينها وبين دهستان وخوارزم. المصدر نفسه: جـ ٤ ص ٢٤٥.

(٣) بلخان: مدينة خلف أبيورد. المصدر نفسه: جـ ١ ص ٤٧٩.

(٤) دهستان: بلد مشهور في طرف مازندران قرب خوارزم وجرجان. المصدر نفسه: جـ ٢ ص ٤٩٢.

(٥) ابن الأثير: جـ ٧ ص ٧٣١.

(٦) المصدر نفسه: جـ ٨ ص ٨.

كان علي تكين هو البادىء في مهاجمة السلاجقة، حيث تعرضت معسكراتهم للخطر، إلا أنه تعرَّض لهزيمة قاسية في عام (٤٢١هـ/ ١٠٣١م) ورُدَّ على أعقابه. ثم قصد طغرلبك وجفري ألب قرا وقتلاه مع ألف من رجاله، فما كان من علي تكين إلا أن أعاد تجميع صفوف قواته، وزحف على السلاجقة وهزمهم واستولى على أملاكهم، وسقط عدد من نسائهم وأطفالهم في الأسر، إلا أنه عفا عنهم واستمالهم مجدداً بالقول الطيب والمال(١).

وحدث أن توفي علي تكين في عام (٤٢٥هـ/ ١٠٣٤م)، فساءت العلاقات بين خلفائه والسلاجقة واضطروا إلى الانتقال إلى خراسان. ووصلت إليهم، في هذه الأثناء، دعوة من خوارزمشاه هارون بن التونتاش ليضمُّوا إليه، والمعروف أن هارون هذا كان في عداء مع مسعود الغزنوي فاراد أن يستقوي بهم، فسارعوا إلى تلبية الدعوة، ومنحهم هارون أرضاً قرب شراه خان ورباط ماش(٢).

وكان بين السلاجقة وشاه ملك، حاكم جَنْد، خصومة وثأر قديمان، فهاجمهم في (شهر ذي الحجة ٤٢٥هـ/ شهر تشرين الأول ١٠٣٤م) وقتل سبعة آلاف منهم وفرَّ الباقون عابرين النهر. ويذكر ابن الأثير أن هارون غدر بالسلاجقة واتفق مع شاه ملك على القضاء عليهم(٣).

ومهما يكن من أمر، فقد دخل هارون في مفاوضات مع شاه ملك الذي رفض رفضاً قاطعاً عرضاً للتوسط بينه وبين السلاجقة، ولكنه قَبِل بأن يعقد معه ـ مع هارون ـ معاهدة وأن يساعده بقسم من جيشه لغزو خراسان لطرد الغزنويين منها(٤). وهكذا اضطر السلاجقة لمغادرة أراضي ما وراء النهر باتجاه خراسان.

عقب هذه الأحداث، طلب السلاجقة من والي نيسابور الغزنوي سوري بن المعتز أن يسمح لهم بالنزول بالقرب من المدينة والإقامة حولها، متعهدين بالإخلاد إلى الهدوء والسكينة، ووعدوه بأن يساعدوا الدولة الغزنوية في إخماد الثورات، ويكونوا عوناً للسلطان.

أرسل الوالي طلب السلاجقة إلى مسعود وكان في جرجان، فرفض طلبهم، وردَّ عليهم رداً غليظاً، وراح يفكر بوسيلة للقضاء عليهم(٥)، فأرسل جيشاً برئاسة

---

(١) ابن الأثير: جـ٨ ص ٨.
(٢) تاريخ البيهقي: ص ٧٤٨ ـ ٧٤٩.
(٣) ابن الأثير: جـ٨ ص ٩.
(٤) بارتولد: ص ٤٤٢.
(٥) انظر نص الرسالة والرد عليها في تاريخ البيهقي ص ٥٠٣ ـ ٥٠٧.

القائد بكتغدى ليقهر أبناء الصحراء ويجليهم عن خراسان، إلا أن السلاجقة تمكَّنوا من هزيمة جيشه في (شعبان ٤٢٦هـ/ تموز ١٠٣٥م) واضطر مسعود إلى القبول بعقد الصلح معهم، وكان ينوي التوجه إلى الهند، وعارض مستشاروه هذا التوجه وحذروه من عاقبة الاستهانة بما حدث، وأوصوه بعدم ترك خراسان لهؤلاء المغامرين الجدد، إلا أنه لم يُصغ إليهم، وترك المنطقة ليتفرغ إلى ترتيب أمور الهند، وإقرار الأوضاع فيها بعد أن شهدت بعض الفتن[١].

وهكذا خلا الجو للسلاجقة في إقليم خراسان، وتهيأت لهم الأسباب لتدعيم نفوذهم وبسط سلطانهم وإقامة سلطنة لهم في ربوعه تكون نداً للغزنويين[٢].

غضب مسعود عندما علم بهزيمة جيشه أمام أبناء الصحراء، وندم على عدم الأخذ بنصيحة مستشاريه، «وعلم أن هيبتهم قد تمكَّنت من قلوب عساكره، وأنهم قد طمعوا بهذه الهزيمة، وتجرأوا على قتال العساكر السلطانية بعد الخوف الشديد، وخاف من أخوات هذه الحادثة»[٣] وتصرف على محورين:

الأول: لاطفهم وأمَّنهم لبث الطمأنينة في نفوسهم وسيَّر إليهم الخلع النفيسة، وأمرهم بالرحيل إلى آمل الشط، وهي مدينة على جيحون، ونهاهم عن الشر والفساد، ومنح كل واحد من قادتهم الثلاثة لقب دهقان وبعض الإقطاعات. فأقطع دهستان لداوود، ونسا لطَغرلبك، وفراوة لبيغو[٤]، وحدَّد مسؤولية كل واحد منهم، على أن يحكم تحت مظلة السلطان.

الثاني: أرسل جيشاً إلى نيسابور لإجلائهم بقيادة سوباشي الحاجب.

والواقع أن قادة السلاجقة لم يثقوا بمسعود، وما زالت حادثة والده محمود عندما نكَّل بآبائهم ماثلة أمامهم، كما استخفوا بإجراءاته وبخاصة عندما علموا بأنه أرسل جيشاً للقضاء عليهم، فاصطدموا بهذا الجيش وانتصروا عليه.

كان انتصار السلاجقة، والفراغ الذي أحدثه خروج القوات الغزنوية من خراسان، حافزاً لهم على الإسراع بإعلان قيام دولتهم. فبادر طغرلبك إلى المسير على راس الجيش إلى نيسابور ودخلها، وجلس على عرش مسعود معلناً نفسه سلطاناً وخطب له فيها في (شعبان ٤٢٩هـ/ أيار ١٠٣٨م) بالسلطان المعظم، كما

---

(١) الراوندي: ص ١٥٥ ـ ١٥٦. وعند البيهقي مزيد من التفاصيل ص ٥١٧ ـ ٥٣١.

(٢) حسنين، محمد عبد النعيم: إيران والعراق في العصر السلجوقي ص ٣٤.

(٣) ابن الأثير: جـ ٨ ص ٩.

(٤) المصدر نفسه: ص ١٠.

خطب باسمه في مرو بعد أن استولى عليها، وكذلك في سرخس، وكانت أقوى مراكزه مدينة بلخ في الشرق ونيسابور في الغرب[1].

وهكذا أعلن طغرلبك قيام السلطنة السلجوقية في خراسان، وكتب رسالة إلى الخليفة العباسي القائم (٤٢٢ ـ ٤٦٧هـ/ ١٠٣١ ـ ١٠٧٥م) يشرح فيها ما آلت إليه الأوضاع السياسية، ويطلب منه الاعتراف بدولته الجديدة[2].

ذيول قيام السلطنة السلجوقية ـ معركة دندانقان

لم يستسلم مسعود للأمر الواقع في خراسان فيقبل بهيمنة السلاجقة عليه، لذلك صمَّم على وضع حد لنفوذهم والقضاء عليهم، لكن هؤلاء كانوا يتغلَّبون على جيوشه التي كان يرسلها بشكل متلاحق. وأخيراً قرَّر ترؤس الجيش الغزنوي بنفسه، فغادر غزنة في عام (٤٢٩هـ/ ١٠٣٨م) على رأس جيش جرّار يقدر بخمسين ألف جندي بين فارس وراجل، وثلاثمائة فيل، تام العدة والعتاد سالكاً طريق بست وتكيناباذ[3]. ويبدو أنه تنازعه الإحجام والإقدام، ولعله خشي من خسارة أخرى أمام هؤلاء، فلم يدخل خراسان إلا بعد مرور عامين كان السلاجقة قد ثبتوا أقدامهم في المنطقة.

كان طغرلبك، في هذه الأثناء، في مدينة طوس بعيداً عن أخيه جفري، وكانت خطة مسعود تقضي بمنع اتصال الأخوين. ومن أجل ذلك، توجه إلى طوس وهاجمها، غير أنه فشل في اقتحامها، ولم تنجح خطته التكتيكية التي أعدَّها، عندئذ رأى أن يهاجم معسكراتهم بالقرب من سرخس[4]. وفي دندانقان بين سرخس ومرو التقت قواته بالقوات السلجوقية، ودارت بين الطرفين رحى معركة قاسية، قاتل فيها السلاجقة ببسالة وهدفهم تحقيق النصر، لأن الخسارة كانت تعني التشرد حيث لا مكان يأويهم. إنها إذن معركة حياة أو موت بالنسبة إليهم، وقد نفَّذوا خطة ذكية

---

(١) ابن الأثير: جـ ٨ ص ١١ ـ ١٢. إن انتقال بلخ نهائياً إلى حكم السلاجقة، وبالتالي انقطاع الصلة تماماً بين الغزنويين وبلاد ما وراء النهر لم يحدث إلا في عام (٤٥١هـ/ ١٠٥٩م) وذلك وفقاً لنصوص معاهدة عُقدت بين داوود والسلطان الغزنوي إبراهيم.

(٢) المستوفي القزويني: ص ٤٣٦.

(٣) تاريخ البيهقي: ص ٦٦٣ وما بعدها، ويذكر بأن البيهقي كان مرافقاً للحملة، إذ كان نائب رئيس ديوان الرسائل، فهو شاهد عيان.

(٤) سرخس: مدينة كبيرة من نواحي خراسان كبيرة واسعة، وهي بين نيسابور ومرو في وسط الطريق. الحموي: جـ ٣ ص ٢٠٨.

كفلت لهم النصر، فألقوا الجيف في الآبار الموجودة خارج حصن دندانقان وردموها، ولما وصل الجيش الغزنوي إلى الحصن افتقر إلى الماء لأن الآبار داخل الحصن لم تكف لسقاية الجنود والدواب، مما حمل مسعود على إصدار الأوامر بالخروج من الحصن وإعادة حفر الآبار المطمورة، وما إن خرج الجيش المنهك حتى فاجأه السلاجقة من كل جانب، فاختل نظامه، ودبت الفوضى في صفوف أفراده ولم يجدوا غير الفرار أو الانضمام إلى السلاجقة ثمناً للنجاة، وانتهى الأمر بهزيمتهم[١]، وقد حصلت المعركة في (٩ رمضان ٤٣١هـ/ ٢٤ أيار ١٠٤٠م).

وعندما رأى مسعود تشتُّت عسكره انسحب من أرض المعركة قانعاً النجاة بنفسه بعد أن كاد يفقد حياته، تاركاً إقليم خراسان ليقع فريسة سهلة في أيدي السلاجقة، بعد أن أصبحت قوتهم أعظم قوة في خراسان[٢].

وضعت معركة دندانقان حداً نهائياً لحكم الغزنويين في خراسان، ونُصب التخت في مكان المعركة، فجلس عليه طغرلبك، وجاءه الأعيان يسلمون عليه بإمارة خراسان، ثم حُرِّرت الرسائل إلى الأمراء المجاورين لإعلامهم بخبر الانتصار.

وطارد السلاجقة فلول القوات المنهزمة إلى شواطئ نهر جيحون بهدف قسرهم على الهرب إلى ما وراء النهر حتى يقدموا برهاناً ملموساً على النصر الذي حقَّقوه[٣]. وأتاحت المعركة قيام سلطنة إسلامية جديدة وانحسار ظل واحدة، كما تعد إحدى المعارك الكبرى الفاصلة في التاريخ الإسلامي. هذا ولم تنحصر نتائجها في مجال العالم الإسلامي فقط إنما تعدته فأثَّرت بشكل مباشر على عالم العصور الوسطى[٤].

وأعرب مسعود من ناحيته، في رسالة بعثها إلى القراخانيين، عن ثقته في قيامهم بمساعدته لأنه سيقوم في المستقبل بحملة عسكرية لاستئصال شأفة السلاجقة، غير أن صدمة الخسارة قد أذهلته لدرجة فَقَدَ معها الرغبة في المقاومة، فخيل إليه أنه لا بد من ترك بلخ وتوابعها بالإضافة إلى غزنة، على الرغم من محاولات كبار رجال دولته لإقناعه أنه لا أساس لمثل هذه المخاوف، إلا أنه قرَّر الانسحاب نهائياً إلى الهند[٥].

---

(١) تاريخ البيهقي: ص ٦٦٣ ـ ٦٩٧، حيث تفاصيل وافية عن مجرى سير المعركة.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) بارتولد: ص ٤٤٨.

(٤) زكار: ص ٥٩.

(٥) تاريخ البيهقي: ص ٧٢٧ ـ ٧٢٨.

لقد واجه مسعود، منذ بداية حياته السياسية، مشكلة السلاجقة بكل أبعادها وأخطارها، ولما كان لا يتمتع بصفات والده من حزم وبصيرة فقد أخفق في حلها عندما واجهها، مما سمح للسلاجقة الاستيلاء على خراسان وتأسيس سلطنة في أرجائها.

اقتسمت العشائر السلجوقية، بعد الانتصار، الأراضي التي استولوا عليها، فكان نصيب جفري مدينة مرو وقد اتخذها عاصمة له كما ملك أكثر خراسان، أما أبو علي الحسن بن موسى فكان نصيبه ولاية بست وهراة وسجستان وما يجاور ذلك من النواحي، ونال قاورد، أكبر أبناء جفري، ولاية الطبسين[١] ونواحي كرمان[٢]، وحصل إبراهيم ينال على همذان، وياقوتي بن طغرلبك على أبهر[٣] وزنجان[٤] ونواحي أذربيجان، وقُتُلمش بن إسرائيل على جرجان ودامغان[٥].

إن فكرة التقسيم هذه تُناقض الفكرة الإيرانية عن الملك بوصفه صاحب السلطة المطلقة في الدولة، وهي غريبة على السلاجقة الأوائل، إلا أن المسؤولين السلاجقة هدفوا من وراء ذلك إحاطة السلطنة الغزنوية والحيلولة بينها وبين محاولة استعادة خراسان، ثم تأمين فتح طريق جيحون من أجل قدوم مهاجرين غز جدد.

ومهما يكن من أمر، فإن عام (٤٢٩هـ/١٠٣٨م) يُعد البداية الفعلية والحقيقية لقيام السلطنة السلجوقية، لأن طغرلبك باشر مهامه السياسية والقيادية والإدارية منذ ذلك التاريخ. أما اعتراف الخليفة العباسي به سلطاناً على الرغم من أنه أتى لاحقاً في عام (٤٣٢هـ/ ١٠٤١م)، إلا أنه لم يغير من واقع الأمر شيئاً، فاعتراف الخليفة ما هو إلا اعتراف بأمر واقع وهو شكلي فقط لإضفاء الصفة الشرعية على السلطنة الناشئة حتى يرضى عنها الناس ويقبلوا بحكمها، لأن الخليفة العباسي لم تكن له في ذلك الوقت قوة مادية بحيث يستطيع التدخل والمساهمة في الأحداث السياسية ويوجهها،

---

(١) الطَّبسين: قصبة ناحية بين نيسابور وأصبهان تسمى قُهستان قاين، وهما بلدتان كل واحدة منهما يقال لها طبس، إحداهما طبس العنَّاب والأخرى طبس التمر. الحموي: جـ ٤ ص ٢٠.

(٢) كرمان: ولاية مشهورة وناحية كبيرة معمورة ذات بلاد وقرى ومدن واسعة بين فارس ومكران وسجستان وخراسان. المصدر نفسه: جـ ٤ ص ٤٥٤.

(٣) أبهر: مدينة مشهورة بين قزوين وزنجان وهمذان من نواحي الجبل. المصدر نفسه: جـ ١ ص ٨٢.

(٤) زنجان: بلد كبير مشهور من نواحي الجبال بين أذربيجان وهي قريبة من أبهر وقزوين. المصدر نفسه: جـ ٣ ص ١٥٢.

(٥) الراوندي: ص ١٦٧ ـ ١٦٨. المستوفي القزويني: ص ٤٣٧. ودامغان: بلد كبير بين الري ونيسابور وهو قصبة قومس. المصدر نفسه: جـ ٢ ص ٤٣٣.

وكان يعترف عادة بالسلطان المنتصر والدولة المنتصرة[1].

كان لقيام السلطنة السلجوقية أثر كبير في تاريخ المشرق الإسلامي وغرب آسيا بشكل خاص والتاريخ الإسلامي بشكل عام، ذلك أن هذه السلطنة سوف تساهم في توجيه الأحداث السياسية في الشرق الإسلامي بشكل بارز، وفي رسم سياسة توسعية باتجاه العالم النصراني لنشر العقيدة الإسلامية[2]. وهكذا ولدت سلطنة جديدة لتأخذ مكانها على المسرح السياسي في العالمين الإسلامي والنصراني.

إن ما حقَّقه طغرلبك من نجاح أغراه بالتمدد باتجاه العراق قلب العالم الإسلامي للسيطرة على الخلافة العباسية وإقامة دولة سلجوقية مترامية الأطراف، وهذا طبيعي جداً، فكل من سبقوه في السيطرة على خراسان تطلعوا إلى السيطرة على بغداد والتحكم بمقدرات الخلافة العباسية، ولنا في تاريخ السامانيين والصفّاريين والغزنويين، أيام محمود، أمثلة على ذلك، أضف إلى ذلك، فإن طغرلبك هدف إلى الوصول إلى بغداد لإنقاذ الخلافة العباسية والمذهب السني من سيطرة البويهيين الشيعة.

وهكذا ضمَّ السلاجقة إيران وكرمان والعراق وتمدَّدوا إلى بلاد الشام وآسيا الصغرى، فانقسموا بذلك إلى خمسة بيوت حكم كل بيت ناحية من النواحي. فحكم السلاجقة العظام خراسان والري والجبال والعراق والجزيرة وفارس والأهواز، وحكم سلاجقة كرمان منطقة كرمان، وكان هناك سلاجقة العراق بعد انفصالهم عن السلاجقة العظام، وسلاجقة الشام، وسلاجقة الروم.

دخول السلاجقة إلى بغداد

كان الوضع الداخلي في بغداد آنذاك مزعزعاً، تشوبه حال من الفوضى وعدم الاستقرار، مما ساعد على تمهيد الطريق أمام مهمة دخول السلاجقة إليها وضم العراق إلى دولتهم التي أسسوها في خراسان وإيران، وذلك بفعل الخلافات الأسرية داخل البيت البويهي. والمعروف أن أوضاع البويهيين اضطربت بعد وفاة بهاء الدولة في عام (٤٠٣هـ/ ١٠١٢م) بفعل تنازع أبنائه، واعتمادهم على الأتراك الذين شكلوا قوة لا يمكن الاستغناء عنها حيث تفشت النزاعات بينهما، مما سبَّب الكثير من

---

(١) حسنين: ص ٣٦.

(٢) Camb. Hist of Iran: vol V p:23.

المتاعب للبويهيين، كما عجز هؤلاء عن معالجة المشكلات وتلبية حاجات الجند المتزايدة، مما تسبَّب في نشوب الفتن.

ففي عام (٤٢٤هـ/ ١٠٣٣م) ظهر التنافس واضحاً بين جلال الدولة البويهي وبين ابن أخيه أبي كاليجار، وخُطب لهذا الأخير في بغداد[١]، وغدت المدينة مسرحاً للشغب والنزاعات المذهبية والأسرية.

ولما توفي جلال الدولة في عام (٤٣٥هـ/ ١٠٤٤م) لم يتمكَّن ابنه الملك العزيز من الاحتفاظ بالحكم طويلاً، مما دفع أبا كاليجار إلى تثبيت أقدامه في الحكم، واستقر في بغداد في العام التالي[٢].

نتيجة لهذا التنافس الأسري، وبفعل ثورات الجند المستمرة، فُقِد الأمن في بغداد، وقد شعر الخليفة بهذا التفكك والانحلال، ورأى أن الدولة البويهية عاجزة عن إقرار الأمور في العراق.

حين شارف السلاجقة العظام على العراق، كان أبو الحارث أرسلان البساسيري، أحد قادة بني بويه الأتراك المتشيِّعين، يسيطر على بغداد وما جاورها، ويتمتع بنفوذ كبير لدرجة أنه أضحى يُخطب له على المنابر في العراق والأهواز، ولم يعد بإمكان أي من الخليفة العباسي أو الملك البويهي، اتخاذ أي قرار يتعلق بأمور الدولة إلا بعد موافقته، وقد شكَّل هذا القائد خطراً حقيقياً على الخلافة العباسية والدولة البويهية.

أما خطره على الخلافة العباسية فقد تجلى في عام (٤٤٦هـ/ ١٠٥٤م) حين نشب الخلاف بينه وبين الخليفة القائم (٤٢٢ ـ ٤٦٧هـ/ ١٠٣١ ـ ١٠٧٥م) مما دفعه للاتجاه نحو الفاطميين والاستعانة بهم[٣].

وأما خطره على الدولة البويهية، فقد تجلَّى في الخلاف الذي نشأ بينه وبين الملك الرحيم البويهي، مما هدَّد النفوذ البويهي في العراق بعد ضياع أملاك البويهيين في إيران على يد السلاجقة.

في هذا الجو المضطرب، أخذ كل طرف يسعى لمصلحته. أما الخليفة، الذي فَقَدَ ثقته بمن حوله، رأى أن مصلحته تقضي الاتصال بالقوة الغالبة، وبخاصة أنها كانت تدين بالمذهب السني، وتحترم الخلافة، وتدين لها بالولاء، فاستنجد بالسلطان السلجوقي طغرلبك طالباً مساعدته ضد البساسيري[٤].

---

(١) ابن الأثير: جـ٧ ص ٧٥٢.

(٢) المصدر نفسه: جـ٨ ص ٤١ ـ ٤٣.

(٣) المصدر نفسه: جـ٨ ص ١١٨ ـ ١١٩.

(٤) الحسيني: ص ١٨.

انتهز طغرلبك هذه الفرصة، وسار بجيوشه إلى بغداد ودخلها في عام (٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م) فألقى القبض على الملك الرحيم، آخر أمير للأمراء من الأسرة البويهية، ونفاه. وهكذا زالت الدولة البويهية من الوجود وحلَّت محلها السلطنة السلجوقية. اعترف الخليفة بطغرلبك سلطاناً على جميع المناطق التي تحت يده، وأمر بأن يُذكر اسمه في الخطبة[١]. وهكذا دخل العراق ضمن دائرة نفوذ السلاجقة العظام وأشرف هؤلاء على بلاد الشام وإقليم الجزيرة.

علاقة الخلافة العباسية بالسلاجقة

ابتدأت العلاقات العباسية ـ السلجوقية بالظهور ابتداء من عام (٤٢٩هـ/ ١٠٣٨م) عندما أعلن طغرلبك عن قيام دولته في خراسان كما أشرنا، وأضحى السلاجقة، منذ ذلك التاريخ، يمثلون ظاهرة جديدة في حياة دولة الخلافة العباسية. فقد اختلف موقفهم عن موقف أسلافهم البويهيين، فكانوا يحترمون الخلفاء تديناً ينبع من عقيدتهم ونشأتهم السنية.

وظلَّت العلاقات وثيقة بين الطرفين ما يقارب ثمانية عشر عاماً. والراجح أن الظروف السياسية التي أحاطت بهما، ومن بينها مقاومة النفوذ الشيعي المتمثل بالبويهيين، وبأبي الحارث أرسلان البساسيري، والدولة الفاطمية، حتَّمت أن تكون هذه العلاقات وثيقة.

لكن سرعان ما نشب الخلاف بين الطرفين إثر دخول طغرلبك بغداد حيث اعترف به الخليفة القائم سلطاناً على جميع المناطق الخاضعة لسيطرته، وأمر بأن يُذكر اسمه في الخطبة، وفوَّضه حكم ما يفتحه من المناطق الغربية[٢].

والواضح أن محاولة طغرلبك الاستئثار بجميع السلطات في العراق، حتى المتعلقة باختصاصات الخلافة، دفعت بالعلاقات بين الجانبين إلى التدهور. فقد أناب طغرلبك عنه في حكم بغداد وقبل أن يعود إلى الري، موظفاً سلجوقياً أطلق عليه اسم العميد[٣] وعيَّن موظفاً آخر لحفظ الأمن يُعرف بالشحنة[٤]، يأتمر بأمره، ويتمتع بنفوذ واسع حتى على الخليفة، كما ترك في بغداد حامية عسكرية، وأقطع المدن لخواصه، وحمل معه موارد العراق المالية إلى الخزانة السلجوقية، فأضحى

---

(١) ابن الأثير: جـ٨ ص ١٢٦.
(٢) المصدر نفسه: جـ٨ ص ١٤٧ ـ ١٤٨.
(٣) العميد: موظف يساعد الشحنة في إدارة الولاية.
(٤) الشحنة: هو المحافظ في عصرنا الحديث.

الخليفة نتيجة هذه الإجراءات مجرداً تماماً من سلطاته، واستأثر نواب السلطان بالسلطة.

ومما زاد الأمور تفاقماً محاولة ربط البيتين العباسي والسلجوقي بالمصاهرة، فخطب طغرلبك ابنة الخليفة متجاوزاً بذلك تقاليد الخلافة العباسية، وهذا مطمح لم يسع إليه أحد من قبل من خارج الأسرة العباسية[1].

استمرت العلاقات متوترة غالباً بين الجانبين في ظل حكم خلفاء طغرلبك، وقد جهد الخلفاء العباسيون للانعتاق من الطوق السلجوقي.

---

(١) البنداري، الفتح بن علي: تاريخ دولة آل سلجوق ص ٢١.

الفَصْلُ الرَّابع

الغزو التركي لبلاد الشام

تمهيد

تعرضت بلاد الشام وإقليم الجزيرة، ابتداء من أوائل القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، لغزو من قِبَل عشائر تركية غزية على دفعات متقاربة أو متباعدة، تغلغلت في ربوعهما ومهَّدت للحملات السلجوقية المنظمة التي سيطرت على المنطقة.

والحقيقة أن الأتراك تغلغلوا في العالم الإسلامي في العراق وبلاد الشام ومصر وأفريقية واليمن من قبل، ولكنهم دخلوا أفراداً لا جماعات قبلية محاربة، كما قدموا كمماليك لا ملوكاً وأمراء، وبالتالي لم يغيِّروا المعالم الإثنية تماماً، كما أثَّروا في الحياة السياسية من واقع تدخلهم فيها. ولما دخلوا بصفتهم الجديدة أحدثوا تغييراً جوهرياً في المناطق التي استقروا فيها، لكن بنسب متفاوتة، في عدد من نواحي الحياة والتاريخ. ولعل أبرز التغييرات التي حدثت في بلاد الشام هي:

١ ـ تغيير إثني في المجتمع الشامي استمر تسعة قرون على الأقل، وشكَّل الأتراك أهم عنصر في هذا التغيير.

٢ ـ تلاشي القلق المذهبي الذي ساد المجتمع في بلاد الشام منذ القرن الثاني الهجري بدخول المذهب الشيعي بأشكال مختلفة على الجماعة الإسلامية، وتثبيت المذهب السني بصفة عامة مذهباً للأكثرية.

٣ ـ إدخال عنصر تاريخي جديد، كان من أبرز ملامحه سيطرة الأتراك على مقدرات الحكم حتى الحرب العالمية الأولى.

٤ ـ أتاح لبلاد الشام التصدي للحملات الصليبية، وسمح لها أن تحتفظ بالسيطرة على الطرق التجارية التي تمر بها.

٥ ـ قامت في بلاد الشام، لأول مرة، بعد الانتشار التركي، أول تجربة لمجتمع تركي ـ عربي بقيادة الأتراك في الرئاسة والدفاع والنظام السياسي، لكن العنصر

التركي ذاب في المحيط العربي على الرغم من احتفاظه بالسيطرة على الزعامة السياسية[١].

وأطلق المؤرخون المسلمون على هذه الجموع التركية اسم الغز أو التغزغز والتركمان، وهي أسماء متتالية في الشمول. فالسلاجقة اسم العشيرة الكبيرة التي تزعَّمت حركة الانسياب التركي، في حين شكل الغز أو التغزغز مجموع القبائل التي تألف منها الشعب النازح كله، وهم بدورهم قسم من التركمان، الشعب التركي الأوسع، وأن كلمة تركمان كانت تستعمل في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، مرادفة لكلمة الغز أو الأتراك المسلمين[٢].

طلائع الموجات التركية

موجة الأتراك العراقية

بدأت طلائع الموجات التركية تطرق أبواب المنطقة منذ عام (٤٠٩هـ/١٠١٨م) بزعامة أشخاص يعملون لحسابهم الخاص لكن ضمن إطار سلجوقي عام. وكان الدافع لهذا التسرب تزايد أعداد المهاجرين الغز من الشرق، في الري وأذربيجان[٣]، وضعف الكيانات الموجودة في المنطقة.

انحدر قسم من المهاجرين إلى أذربيجان، وكانوا حوالي أربعمائة أسرة، بقيادة جفري بك، كما انحدر قسم آخر من الري، وانتشر حتى أصفهان والعراق العجمي، وكانوا حوالي ألفي خركاة، إلا أنهم طُرِدوا منها بعد ذلك بسبب طبيعتهم البدوية حيث أثاروا الفوضى وارتكبوا أعمال الشغب، بالإضافة إلى زحفهم غير المنظم[٤].

ونتيجة لضعف السلطة البويهية في هذه المناطق، ازداد تسرب الأتراك الغز. ففي عام (٤٢٧هـ/ ١٠٣٦م) جاءت موجة أخرى، كان من بين قادتها: كوكتاش وبوقا ومنصور ودانا وقزل ويغمر وناصغلي، وقد قاموا بأعمال الشغب والتعدي في المنطقة الممتدة بين الري وهمذان وبحيرة وان في أرمينية[٥].

---

(١) مصطفى، شاكر: في التاريخ الشامي جـ ٢ ص ٨١ ـ ٨٢.

(٢) المرجع نفسه: ص ٩٥.

(٣) أذربيجان: إقليم واسع مشهور، حده من برذعة مشرقاً إلى أرزنجان مغرباً، ويتصل حدُّه من جهة الشمال ببلاد الديلم والطرَّم. أشهر مدنه تبريز، وهي قصبته، خوي، سلماس، أرمية، أردبيل ومرند وغيرها. الحموي: جـ ١ ص ١٢٨.

(٤) مصطفى: ص ٩٥ ـ ٩٦.

(٥) ابن الأثير: جـ ٧ ص ٧١٨ ـ ٧٢٠.

وألفت هذه الجموع نفسها أمام الطرق المؤدية إلى بلاد الشام وإقليم الجزيرة، فاندفع أفرادها باتجاه الغرب في عام (٤٣٣هـ/ ١٠٤١) يعملون لحسابهم الخاص دون رادع أو التزام بآداب معينة. وراحوا يمارسون أعمال السلب والنهب والتدمير في ديار بكر، مستعينين ببعض الأدلّاء الأكراد، ووصلوا إلى جزيرة ابن عمر، وكان عددهم يزيد على ثلاثين ألفاً، فانحدر قسم منهم باتجاه الموصل نحو أراضي الدولة المروانية، وقد اعترضتهم قوات هذه الدولة، فقتلت ألفاً وخمسمائة رجل منهم وأسرت سبعة من أمرائهم؛ ومائة نفس من وجوههم(١)، وانقسم الباقون إلى ثلاثة أقسام، سار كل قسم باتجاه معين.

توجه القسم الأول إلى ديار بكر بزعامة بوقا وناصغلي، وبلغ عدد أفراده عشرة آلاف فارس، فهاجموا أراضي الدولة المروانية، ونزلوا على باب ميافارقين، فحاول أميرها سليمان بن نصر الدولة المرواني أن يتفاهم مع الزعيمين الغزيين، وبذل لهما خمسين ألف دينار على أن يعودا عن بلده، إلا أنهما رفضا ذلك، ثم حدث أن تشاجر الزعيمان التركمانيان، وقتل كل واحد منهما صاحبه، فتفرق أتباعهما(٢).

وسار القسم الثاني إلى نصيبين وسنجار للغارة، ثم عاد إلى الجزيرة وحاصرها(٣)، ولم يذكر المؤرخون أي تفاصيل عن هذا القسم.

وتحرك القسم الثالث باتجاه الجانب الشرقي للجزيرة بقيادة أمير يدعى منصور بن قزغلي. وحتى يجنِّب المنطقة ويلات غاراته، راسل سليمان بن نصر الدولة منصوراً، واتفق معه على المصالحة والمقام بأعمال الجزيرة إلى أن ينقضي فصل الشتاء، ثم يسير معه إلى الشام. وأضمر سليمان الغدر بمنصور، فعندما دخل الجزيرة قبض عليه وسجنه، وتفرَّق أصحابه في كل جهة(٤)، فطاردتهم القوات المروانية، ويبدو أنها لم تتمكَّن من كبح جماحهم، لذلك أجرى الزعيم المرواني مباحثات معهم للكف عن الغارة والتدمير مقابل إطلاق سراح زعيمهم منصور وإعطائهم بعض المال، فوافقوا على ذلك. ولما أَطلق سراح منصور وأعطاهم المال، غدروا ونقضوا الاتفاق، وراحوا يعيثون فساداً في النواحي(٥)، فكتب إلى السلطان طغرلبك

---

(١) ابن الأثير: جـ ٧ ص ٧٢١.

(٢) الفارقي: تاريخ ميافارقين ص ١٦٢ ـ ١٦٣. مصطفى: ص ٩٧.

(٣) ابن الأثير: جـ ٧ ص ٧٢٢. (٤) المصدر نفسه.

(٥) المصدر نفسه.

يشكو منهم، فأجابه: «بلغني أن عبيدنا قصدوا بلادك، وأنك صانعتهم بمال بذلته لهم، وأنت صاحب ثغر ينبغي أن تُعطى ما تستعين به على قتال الكفار»، ووعده بأنه سيرسل إليهم من يرحِّلهم من بلده[١].

انقسم الأتراك الغز أتباع منصور، على أثر هذه الأحداث، إلى قسمين: توجه القسم الأول نحو الجنوب الغربي، إلى نصيبين وسنجار والخابور، حيث انهمكوا في السلب والنهب، في حين توجه القسم الثاني إلى الموصل، فبذل لهم صاحبها قرواش مبلغ خمسة عشر ألف دينار للكف عن أعمالهم التدميرية. وفي الوقت الذي كان يجمع فيه المال، دخل هؤلاء الموصل، فنهبوا كثيراً، وهرب قرواش إلى السن[٢]، وأرسل إلى الملك جلال الدولة البويهي يعرِّفه الحال ويطلب النجدة، كما أرسل إلى دبيس بن مزيد وغيره من أمراء العرب والأكراد يستمدهم ويشكو ما نزل به[٣]. ولما كانت هذه البلاد تابعة للخلافة العباسية التي يسيطر عليها البويهيون، فقد كتب جلال الدولة البويهي إلى السلطان طغرلبك يعرِّفه ما يجري منهم فأجابه: «بأن هؤلاء التركمان لنا عبيداً وخدماً ورعايا وتبعاً يمتثلون الأمر ويخدمون الباب، ولما نهضنا لتدبير خطب آل سبكتكين وانتدبنا لكفاية أمر خوارزم، انحازوا إلى الري فعاثوا فيها وأفسدوا... ولا بد من أن نردَّهم إلى راياتنا خاضعين، ونذيقهم بأسنا جزاء المتمردين قربوا أم بعدوا، أغاروا أم أنجدوا»[٤].

حاول الأتراك الغز الاستقرار في الموصل وتشكيل دولة لهم في ربوعها، لكنهم فشلوا في تحقيق هذا الهدف بسبب انقطاع صلتهم بالمشرق حيث حُرموا من الإمدادات، كما لم يستطيعوا العودة إلى المشرق لأن السلطان كان ينتظرهم لمعاقبتهم بسبب خروجهم على أوامره.

ونجح قرواش في هذا الوقت، في استقطاب بعض الأمراء، منهم دبيس بن مزيد، وساندته بنو عقيل كافة، ثم سار إلى الموصل لإخراج الأتراك منها. وعندما علم هؤلاء بزحفه استنجدوا بالأتراك المقيمين في ديار بكر بزعامة ناصغلي وبوقا، وطلبوا منهم المساعدة على العرب، فساروا إليهم. والتقى الطرفان قرب الموصل في (٢٠ رمضان ٤٣٥هـ/ ٢٢ نيسان ١٠٤٤م) وجرت بينهما رحى معركة طاحنة أسفرت

---

(١) ابن الأثير: جـ ٧ ص ٧٢٤.

(٢) السن: مدينة على دجلة فوق تكريت. الحموي: جـ ٣ ص ٢٦٨.

(٣) ابن الأثير: جـ ٧ ص ٧٢٣.

(٤) المصدر نفسه: ص ٧٢٤ ـ ٧٢٥.

عن هزيمة الأتراك وقُتِل الكثير منهم، وهرب من نجا إلى الأراضي الأرمينية والبيزنطية. وانتهى بذلك أمر هذه الموجة التركية الغزية التي أطلق عليها المؤخرون اسم الغز العراقية[1]، وسيمر عشرة أعوام قبل أن تأتي موجة أخرى كبيرة.

تعقيب على الغزو التركي الأول

الواضح أن الضربة التي قضت على الغز العراقية لم تكن حائلاً دون تسرب موجات تركية أخرى نحو الغرب، وذلك تحت ضغط الانفجار السكاني والضائقة الاقتصادية، وسهولة الحصول على الغنائم، لكن يُلاحظ أن انتصارات السلاجقة في المشرق وتوجههم نحو الغرب حمل معه معطيات جديدة لعل أبرزها:

ـ دخول عدد كبير من الأتراك في الإسلام، حوالي عشرة آلاف خركاه بنواحي بلاساغون وكاشغر في عام (٤٣٠هـ/ ١٠٣٩م)[2]، وكان هذا دافعاً لشعوب أخرى للدخول في الإسلام والانضمام إلى السلاجقة، وبخاصة تلك التي وجدت نفسها في ظروف مشابهة. فدخل البلغار، في أقصى الشرق، في الإسلام في عام (٤٣٣هـ/ ١٠٤٠م)[3]، كما تحرك عدد لا يُحصى من الأتراك من منطقة التبت في عام (٤٣٨هـ/ ١٠٤٦ ـ ١٠٤٧م)، وهذا يعني تدفق جنود غزاة جدد ضمن الإطار السلجوقي العام، على الجماعات الغزية[4].

ـ دخول عناصر جديدة محاربة، ليست من العنصر التركي، في عداد المحاربين الأتراك بدافع الحصول على الغنائم. وهكذا نجد الديلم والفرس والأكراد والأوق والقارلوق في عداد جيش طغرلبك حين دخل بغداد، كما اشترك الأكراد في معركة مانزيكرت. ونجد في عداد جيش ابن خان، وهو أول من دخل بلاد الشام من الأتراك، كما سنرى، أعداداً من الديلم والأوج[5] والقارلوق إلى جانب الأتراك الغز[6].

ـ توجه المد التركي الغربي نحو أذربيجان وأرمينية نظراً لامتداد محور الضغط البشري التركي في الشمال من خراسان عبر الري مباشرة إلى أرمينية. وهكذا تجنَّب الأتراك في بداية الأمر التسرب نحو مركز الخلافة العباسية في بغداد. ويبدو أن دافع

---

(١) ابن الأثير: جـ ٧ ص ٧٢٦.
(٢) المصدر نفسه: جـ ٨ ص ٤٥.
(٣) المصدر نفسه: ص ٣٠.
(٤) مصطفى: ص ٩٨.
(٥) الأوج: اسم أُطلق على سكان المناطق الحدودية مع الأمبراطورية البيزنطية.
(٦) مصطفى: ص ٩٩.

الرهبة الدينية بفعل وجود الخليفة العباسي، شكّل حاجزاً معنوياً لكن مؤقتاً، لأن الضغط البشري التركي المتزايد وسياسة السلاجقة بالتوسع على حساب البيزنطيين والفاطميين في بلاد الشام؛ لم يمنع من الانتشار البطيء في أرض العراق بدءاً من عام (٤٣٧هـ/ ١٠٤٥ ـ ١٠٤٦م).

موجة الأتراك السلاجقة

دفعت موجة الغز العراقية كلاً من الإمارتين المروانية والعقيلية، إلى مسالمة السلطان السلجوقي طغرلبك، ودخلوا في طاعته وخطبوا باسمه[١]، كما كانت فاتحة لقدوم موجة أخرى قادها السلاجقة الغز الذين ساروا في الطريق نفسه الذي سلكه هؤلاء[٢].

والواقع أن هذه الموجة التي انسابت إلى بلاد الشام ترتبط بالمدى الذي وصلت إليه العلاقة بين أفرادها وبين الدولة البيزنطية، في ظل تراجع قوة الفاطميين في بلاد الشام. إذ في الوقت الذي دخلت فيه الأمبراطورية البيزنطية حالة من الركود والضعف بعد زوال الأسرة المقدونية في عام (٤٤٩هـ/ ١٠٥٧م)، وما تلى ذلك من صراع بين الأرستقراطيتين العسكرية والمدنية؛ ظهر السلاجقة على الحدود الأمبراطورية.

والواضح أن الضغط البشري والتزايد السكاني التركماني دفع السلطان طغرلبك لرسم سياسة توسع منظمة، بدلاً من الانسياح العفوي الذي كان ينفذه التركمان الغز، تقضي:

- بالتوسع على حساب البيزنطيين في أرمينية وآسيا الصغرى، وذلك بفعل اقترابهم من حدود الكرج والبلاد الأرمينية والبيزنطية، مما هيأ لهم الفرصة لأن يواصلوا حركة الجهاد الذي سبق أن قاموا بها في الشرق. ولم يكن السلطان طغرلبك يجهل أن بيزنطية كانت تملك آنذاك بعض الأقسام الشمالية الغربية من بلاد الشام، ما بين شيزر واللاذقية حتى أنطاكية ومناطق الثغور الشامية عند مداخل قيليقية، كما وقف على علاقتها الجيدة مع الدولة الفاطمية ومع الأمراء المرداسيين في حلب.

- بالقضاء على الدولة الفاطمية وتوحيد العالم الإسلامي تحت قيادة خلافة

---

(١) مصطفى: المؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام الأول: ص ٣٢١.

(٢) ضامن: ص ٧١.

واحدة، وهذا يعني ضم بلاد الشام ومصر. والواقع أن تبعية بلاد الشام للنفوذ الفاطمي في القاهرة وموقعها الجغرافي بالنسبة للقادمين من الشرق، جعلا البلدين مرتبطين في تفكير السلطان طغرلبك ومشاريعه السياسية، وعلى ضوء هذه السياسة بدأ تحرك السلاجقة باتجاه الغرب.

لقد حرص السلطان طغرلبك أن يجعل أتباعه التركمان دائماً تحت تصرفه يوجههم في حملات مختلفة، ويستفيد منهم في الجهاد ضد الكفار، وأن تدفق التركمان من بلاد ما وراء النهر في أفواج جديدة، جعل الأرض تضيق بهم، فأخذوا يبحثون عن مراع جديدة وغنية، فوجدوا ضالتهم في أراضي الدولة البيزنطية، يؤكد ذلك ما رواه ابن الأثير في سبب غزو إبراهيم ينال، شقيق السلطان طغرلبك، للأراضي البيزنطية «أن خلقاً كثيراً من الغز مما وراء النهر قدموا عليه، وكان في نيسابور، فقال لهم: بلادي تضيق عن مقامكم والقيام بما تحتاجون إليه، والرأي أن تمضوا إلى غزو الروم، وتجاهدوا في سبيل الله وتغنموا»[١].

وإذ أدرك السلطان طغرلبك أهمية السيطرة على أرمينية لكسر الطوق البيزنطي من أمام المسلمين، تمهيداً للتوغل داخل الأراضي البيزنطية لمواصلة حركة الجهاد وإشباع رغبة أتباعه؛ فيصح أن ندرك الأسباب التي من أجلها بدأ التوسع بأن نفذ الأتراك إلى الجهات الشمالية الغربية من إيران، وقاموا بغارات ضد الكرج والأرمن والبيزنطيين، سالكين الطرق التقليدية للغزو[٢].

وقد وقعت في عهد الأمبراطور قسطنطين التاسع (٤٣٤ ـ ٤٤٦هـ/ ١٠٤٣ ـ ١٠٥٤م) غارتان كبيرتان، قام بهما السلاجقة على أراضي الأمبراطورية. الأولى في عام (٤٤٠هـ/ ١٠٤٨م)، قادها إبراهيم ينال، ووصل إلى مانزيكرت[٣]، وتابع إلى أرزن الروم[٤]، وقاليقلا[٥]، وبلغ طرابزون على شاطئ البحر الأسود، ودمَّر في طريقه القرى والضياع، وسبى وغنم كثيراً[٦].

---

(١) الكامل في التاريخ: جـ ٨ ص ٦٨ ـ ٦٩. (٢) Cahen: Pre Ottoman Turkey p:23.

(٣) مانزيكرت ومنازجرد أو منازكرد: بلد مشهور بين خلاط وبلاد الروم، يُعد في أرمينية، وأهله روم وأرمن. الحموي: جـ ٥ ص ٢٠٢.

(٤) أرزن الروم: مدينة مشهورة قرب خلاط ولها قلعة حصنية، وكانت من أعمر نواحي أرمينية. المصدر نفسه: جـ ١ ص ١٥٠.

(٥) قاليقلا: بأرمينية العظمى من نواحي خلاط ثم من نواحي مانزيكرت. المصدر نفسه: جـ ٤ ص ٢٩٩.

(٦) ابن الأثير: جـ ٨ ص ٦٨ ـ ٦٩.

تصدى البيزنطيون للغارات السلجوقية، ونهضوا لقتال إبراهيم ينال بقيادة ليبارتس حاكم الأبخاز[1]، غير أنهم انهزموا، ووقع القائد البيزنطي في الأسر مع جماعة من بطارقته[2].

تُعدُّ هذه الغارة بمثابة غارة استطلاعية لرصد تحركات البيزنطيين المعادية، ورصد الطرق المؤدية إلى المناطق الحيوية للأمبراطورية. ومع ذلك فإنه يبدو أن السلطان طغرلبك لم يكن راغباً، آنذاك، في فتح باب العداء مع القسطنطينية، ولعله اراد إظهار قوة السلاجقة، وأن بإمكانه تهديد الأراضي البيزنطية في الوقت الذي يريد، أو أنه أراد التفاهم مع البيزنطيين وتحييدهم في الصراع الذي كان ينوي فتحه مع الفاطميين في بلاد الشام. لذلك، أطلق سراح القائد ليبارتس بعد مفاوضات جرت بينه وبين الأمبراطور البيزنطي لعقد هدنة بين الطرفين[3].

وطلب السلطان طغرلبك من الأمبراطور البيزنطي في عام (٤٤٤هـ/ ١٠٥٢م) السماح له باجتياز أراضي بلاده للوصول إلى بلاد الشام ومصر، لكن قسطنطين التاسع رفض الطلب «وأظهر المودة التي بينه وبين المستنصر، وأنه لا يرخِّص له في أذيته، واتفق قدوم رسول المستنصر إليه بهدية عظيمة...»[4].

وهكذا رفض الأمبراطور البيزنطي طلب السلطان السلجوقي، وذلك بسبب الهدنة التي كانت قائمة بينه وبين المستنصر الفاطمي، ويشير ابن الأثير إلى تجدُّد الهدنة بين الطرفين في عام (٤٣٩هـ/ ١٠٤٧م)، وتبادل الهدايا بينهما[5].

وكرَّر السلطان طغرلبك المحاولة في العام نفسه، عندما طلب من الأمبراطور مقاطعة الفاطميين، فكان جوابه «صاحب مصر مجاور لنا، وبيننا وبينه عهود وهدنة، وقد بقي منها سنتان ولا يمكن فسخها»[6].

ويبدو أن الدولة البيزنطية لم تكن راغبة في السماح للسلاجقة، المندفعين بقوة، بالتمركز على حدودها، لأنهم قد يشكلون خطراً عليها، وفضَّل البيزنطيون التعاون مع الفاطميين الضعفاء للوقوف في وجه الزحف السلجوقي.

---

(١) الأبخاز: اسم ناحية من جبل القبق المتصل بباب الأبواب وهي جبال صعبة المسلك وعرة لا مجال للخيل فيها، تجاور بلاد اللان، يسكنها أمة من النصارى يُقال لهم الكرج، الحموي: جـ ١ ص ٦٤.

(٢) ابن الأثير: جـ ٨ ص ٦٩.

(٣) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك: جـ ١ ص ١٣٩.

(٤) المقريزي: اتعاظ الحنفا: جـ ٢ ص ٢١٤.

(٥) الكامل في التاريخ: جـ ٨ ص ٦٤.

(٦) المقريزي: جـ ٢ ص ٢٢٤.

نتيجة لهذا التوجه السياسي، جدَّد السلطان طغرلبك غاراته على الأراضي البيزنطية، والضغط على البيزنطيين، وسمح لأتباعه التركمان بمهاجمة إقليم قارس[١] في عام (٤٤٤هـ/ ١٠٥٢م). والواقع أن غارات هؤلاء القبائل التركمانية لم تنقطع، إذ استمر المغامرون منهم يشعلون نار الحرب[٢]، وكان اجتياح الإقليم المذكور مقدمة للحملة الكبيرة التي سيقوم بها السلطان طغرلبك ضد الأراضي البيزنطية.

وفعلاً، فقد قاد السلطان السلجوقي في عام (٤٤٦هـ/ ١٠٥٤م) حملة عسكرية ضخمة، عندما علم بوفاة الأمبراطور قسطنطين التاسع، فغزا الأراضي الأرمينية ووصل إلى أرزن الروم[٣]، ونهبت عساكره الأقاليم الواقعة بين هذه المدينة وبحيرة وان، ومن بينها مدينة باركيري الواقعة على الطريق بين أرجيش وخوي في أذربيجان[٤]، ثم تقدم نحو مقاطعة باسين من أعمال أرزن الروم[٥]، وحاصر مانزيكرت، وضيَّق على أهلها، إلا أنه لم يستطع فتحها، وأحرق جنود الحامية آلاته التي استعملها في الحصار، وقاد باسيليوس، حاكم المدينة، حركة المقاومة، ونجح في صدِّ السلطان طغرلبك، ولما طال أمد الحصار، وحلَّ فصل الشتاء، اضطر السلطان السلجوقي إلى الانسحاب، وعاد إلى أذربيجان، ودمَّر أثناء تراجعه ما صادفه من قرى ومزارع مجاورة ونهبها، وذلك بهدف تدمير البنية الاقتصادية للبلاد وإضعاف قدرة السكان والدولة البيزنطية على المقاومة، وترك بعض أتباعه التركمان في المنطقة لمواصلة الغارة[٦].

كانت نتيجة التوغل السلجوقي في عمق الأراضي البيزنطية، ونجاح السلاجقة في تنفيذ غارات ناجحة، أن عرض السلطان السلجوقي على الأمبراطور البيزنطي مشروعاً للتحالف موجه ضد الفاطميين، ذكر ذلك المؤيد في الدين داعي الدعاة هبة الله الشيرازي فقال: «... ولما قوي أمر التركمانية، خذلهم الله، وحصلت بالري سنة ٤٦٦هـ، وصار القريب والبعيد من أهل البلاد يتقلبون من الخوف على مثل حسك السعدان، كانت الدولة العلوية، حرسها الله، في السابق من نغماتها التي بها تتنغَّم وتأخذ فيها مأخذ من أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم. وورد الخبر من حيز الروم

---

(١) قارس: مدينة بأرمينية من نواحي تفليس. الحموي: جـ ٤ ص ٣٢٣.

(٢) Grousset: Histoire de L'Armenie pp 596 - 597. Finlay: History of the Byzantine Empire: P 533.

(٣) ابن الأثير: جـ ٨ ص ١١٦ ـ ١١٧.

(٤) لسترينج، كي: بلدان الخلافة الشرقية ص ٢١٨.

(٥) الحموي: جـ ١ ص ٣٢٢. Chamichian: History of Armenia II, P 142.

(٦) ابن الأثير: جـ ٨ ص ١١٦ ـ ١١٧.

نسخة كتابها إليها على التجرد معها لأخذ المملكة العلوية لأولئك الأنجاس الأقذار فيجعلون الشام من جملتها نصيب إخوانهم من شياطين الروم الكفار...»[1]. لكن البيزنطيين رفضوا المشروع، وأخبروا الفاطميين بتفاصيله مما استدعى «... فتح باب المشاورة على هذا القول المهول من الأمر الذي هو على بُعد الشقة يرمي بشرر كالقصر، وقلت إن ابن المسلمة اللعين ـ الوزير العباسي في بغداد ـ مغناطيس هذا الشر... فإنه استطعم طعم الرياسة ... وإن تدبيره اليوم أمثل من تدبيره غداً...»[2].

وهكذا فشلت محاولة السلطان طغرلبك التفاهم مع البيزنطيين والتفرغ للقضاء على الدولة الفاطمية. ولا شك بأن هذا الرفض البيزنطي لمشروع المشاركة في تدمير الفاطميين كان من الأسباب التي حملت السلطان طغرلبك على مباشرة الحرب بنفسه على جبهة أرمينية، قبل أن يتوجه إلى بغداد بعد ذلك، وأَذِن في هذه الأثناء لجماعاته أن تغزو حيث شاءت، وأن تتوغل في أراضي البيزنطيين، ثم عاد إلى العراق ودخل بغداد في عام (٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م).

والواقع أن طغرلبك سار إلى الري بعد عودته من غزو البيزنطيين، فلما فرغ من الري عاد إلى همذان وذلك في شهر (محرم عام ٤٤٧هـ/ شهر نيسان عام ١٠٥٥م)، وأظهر أنه يريد الحج وإصلاح طريق مكة والمسير إلى الشام ومصر وإزالة المستنصر العلوي صاحبها، وكاتب أصحابه في الدينور[3] وقرميسين[4] وحلوان[5] وغيرها، وأمرهم بإعداد الأقوات والعلوفات، فعظم الإرجاف ببغداد وفتَّ في أعضاد الناس، وشغب الأتراك ببغداد...»[6].

ووصل السلطان طغرلبك إلى حلوان، وانتشر أصحابه في طريق خراسان، فأجفل الناس إلى غربي بغداد[7]. والواضح أن السلطان السلجوقي اختار، بعد أن تعذَّر عليه تأمين طريق الشمال عبر الأراضي البيزنطية، أن يسلك الطريق الآخر البعيد إلى بلاد الشام عن طريق الجنوب أو عن طريق وادي الفرات بعد أن يدخل بغداد،

---

(١) سيرة المؤيد في الدين داعي الدعاة ص ١٢٥.
(٢) المصدر نفسه: ص ١٢٥ ـ ١٢٦.
(٣) الدينور: مدينة من أعمال الجبل قرب قرميسين، بينها وبين همذان نيف وعشرون فرسخاً. الحموي: جـ ٢ ص ٥٤٥.
(٤) قرميسين: بلد معروف، بينه وبين همذان ثلاثون فرسخاً قرب الدينور وهي بين همذان وحلوان على جادة الحاج. المصدر نفسه: جـ ٤ ص ٣٣٠.
(٥) حلوان: مدينة هي آخر حدود السواد مما يلي الجبال من بغداد. المصدر نفسه: جـ ٢ ص ٢٩٠ ـ ٢٩١.
(٦) ابن الأثير: جـ ٨ ص ١٢٥.
(٧) المصدر نفسه.

ولا يتحقق ذلك إلا بالقضاء على البويهيين، وكان قد وطَّد علاقته بالخليفة العباسي عن طريق الوزير ابن المسلمة، وكان التناحر الداخلي بين هذا الوزير وبين البساسيري، قائد البويهيين العسكري، قد بلغ حداً أضحى معه تدخل السلطان طغرلبك أمراً ملحاً وطبيعياً.

وهكذا دخل السلطان طغرلبك مدينة بغداد، وقضى على الدولة البويهية، إلا أنه واجه حركة معارضة من جانب البساسيري الذي فرَّ من المدينة ومضى إلى الرحبة على الفرات، وقام بعدة حركات ارتدادية عسكرية وسياسية بهدف إخراج السلاجقة من عاصمة الخلافة، وتلقَّى دعماً من الدولة الفاطميةَ حيث قام المؤيد في الدين داعي الدعاة بدور بارز في ذلك، وتذبذبت ولاءات أمراء المنطقة من العرب والأكراد، فهي مع الطرف الأقوى، لضمان أمنها واستمرار وجودها، مثل بعض أمراء بني عقيل، ودبيس بن مزيد أمير بني أسد وغيرهم.

ونتيجة لثورة البساسيري، وتحركات الأتراك الغز، دبَّت الفوضى في إقليم الجزيرة وشمالي بلاد الشام مما أثَّر على الوضع الاقتصادي العام. وحدث آنذاك أن دبَّ النزاع بين السلطان طغرلبك وأخيه إبراهيم ينال، فاضطر الأول إلى مغادرة المنطقة عائداً إلى همذان، على وجه السرعة قبل أن يملكها أخوه، وبها حلل التركمان وخزائن السلطان وأمواله وسلاحه، فاستغل البساسيري ذلك ودخل بغداد يوم الأحد في (٨ ذي القعدة ٤٥٠هـ/ ١٧ كانون الأول ١٠٥٨م) حاملاً الرايات المستنصرية، وسيطر على المدينة، وأوقف الخطبة للعباسيين وخطب للمستنصر الفاطمي، وضرب دنانير جديدة باسمه، وخرج الخليفة القائم منها واحتمى بقريش بن بدران، واستقر في حديثة عانة على الفرات[١].

لم يزل الخليفة في حديثة عانة إلى أن انتصر السلطان طغرلبك على أخيه إبراهيم ينال وقتله، ثم عاد إلى بغداد بعد مرور سنة لإخراج البساسيري منها، غير أن هذا الأخير غادر المدينة عندما علم بزحف السلطان السلجوقي، والتحق بالحلة[٢] عند دبيس بن مزيد، واستعد لعبور الرحبة، إلا أنه لقي حتفه على يد القوات السلجوقية التي أرسلها السلطان طغرلبك لمطاردته[٣]. وتفرَّغ طغرلبك بعد ذلك

---

(١) ابن الأثير: جـ ٨ ص ١٥٣ ـ ١٥٥.

(٢) الحلة: قرية مشهورة في طرف دُجيل بغداد من ناحية البرية، بينها وبين بغداد ثلاثة فراسخ. الحموي: جـ ٢ ص ٢٩٥.

(٣) ابن الأثير: جـ ٨ ص ١٥٦ ـ ١٦١.

للزحف إلى بلاد الشام لإخراج الفاطميين منها، ومن ثم إخضاع مصر والقضاء على الدولة الفاطمية.

تاريخ دخول الأتراك السلاجقة إلى بلاد الشام

عندما أطلق السلطان طغرلبك لأتباعه حرية الحركة والانتشار في الربوع البيزنطية، تمكّن بعضهم من التسرب إلى إقليم الجزيرة وشمالي بلاد الشام تحت زعامة قادة عديدين، أمثال ابن خان والأفشين وصندق، فدخلوا ديار مضر وديار ربيعة، فتصدّى لهم ثمال بن صالح المرداسي وحقّق بعض الانتصارات عليهم، ولكنها كانت مؤقتة، لأن الضغط الغزي كان شديداً[١].

وهكذا بدأ الاحتكاك بين الغز والقبائل العربية في بلاد الشام وعلى رأسها بني مرداس الكلابيين، وأضحت حلب المركز الرئيسي لمقاومتهم. ويحدِّد المقريزي عام (٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م) تاريخاً لدخول الغز إلى بلاد الشام وبداية الاصطدامات بينهم وبين المرداسيين فيقول: «وفي هذه السنة تجمع كثير من التركمان بحلب وغيرها وأفسدوا في أعمال الشام...»[٢]، كما ذكر المؤيد في الله داعي الدعاة في مذكراته أن كتاباً وصل إليه من أمير الجيوش الفاطمي في شمالي بلاد الشام في عام (٤٤٨هـ/ ١٠٥٦م) يتضمن «التخوف من سرية تركمانية سمع أنها تسري إليه، وأنه يستعجل النجدة...»[٣]، وفي العام نفسه تسلم مكين الدولة أبو علي بن ملهم الفاطمي مقاليد الأمور في حلب بعد إجبار ثمال بن صالح على التخلي عن منصبه نتيجة ثورة البساسيري، وبتأثير من الوزير الفاطمي الحسن بن علي اليازوري، فتراجعت في عهده هجمات الغز على حلب[٤].

واستناداً لما ذكره ابن العديم، لم يدخل أحد من الغز إلى بلاد الشام إلا بعد وفاة ثمال بن صالح في (٢٣ ذي القعدة ٤٥٤هـ/ ٢٨ تشرين الثاني ١٠٦٢م) وذلك بتأثير الصراع الأسري الذي نشأ بعد وفاته بين أخيه عطية بن صالح وابن أخيه شبل الدولة محمود بن نصر، ويحدد عام (٤٥٦هـ/ ١٠٦٤م) بداية لدخول الغز إلى حلب عندما استدعى عطية ابن خان لمساعدته[٥].

ويبدو أن الموجة الغزية توقفت عدة أعوام بين (٤٤٧ ـ ٤٥٦هـ/ ١٠٥٥ ـ

---

(١) مصطفى: ص ٣٤٠.

(٢) اتعاظ الحنفا: جـ ٢ ص ٢٣٠.

(٣) مذكرات داعي الدعاة: ص ١٣٤.

(٤) المقريزي: جـ ٢ ص ٢٣٥.

(٥) زبدة الحلب: جـ ١ ص ٢٥٠.

١٠٦٤م)، أي بين التاريخ الذي يحدده المقريزي، والتاريخ الذي يذكره ابن العديم. ويمكن رصد الأسباب التالية لهذا التوقف:

- نشاط كل من الوزير المصري اليازوري، والبساسيري، في المنطقة بهدف القضاء على الخلافة العباسية.
- التفات الأتراك إلى المناطق الشمالية الشرقية الخاضعة للأمبراطورية البيزنطية في أرمينية والأناضول.
- انهماك السلطان طغرلبك بالقضاء على ثورة أخيه إبراهيم ينال[١].

ومهما يكن من أمر، فقد غيَّرت الأسباب المشار إليها طبيعة الغزو الغزي لبلاد الشام، بالإضافة إلى أسلوب دخول الأتراك إلى المنطقة، الذي أضحى بعد عام (٤٥٦هـ/ ١٠٦٤م) على شكل مجموعات منظمة تعمل إما لحساب الدولة السلجوقية بزعامة السلطان، وإما لحساب أمراء مغامرين في ظل التوسع السلجوقي العام، وقد سمحت ظروف المنطقة السياسية، بفعل التنازع بين أمرائها، واستعانة هؤلاء بهم ضد بعضهم البعض؛ إلى التدخل في شؤونهم الداخلية، والتوغل بعيداً في المنطقة.

التدخل التركي المباشر في أوضاع بلاد الشام

ابن خان

ذكرنا أن حلب شهدت، بعد وفاة ثمال بن صالح، نزاعاً بين أخيه عطية بن صالح وبين ابن أخيه محمود بن نصر. والمعروف أن ثمالاً أوصى بأن يخلفه أخوه عطية في الإمارة، لكن ذلك لم يرض محمود، فقام ينازع عمه على الحكم، وحاصره في حلب[٢].

وقرَّر عطية، نتيجة هذا النزاع، الاستعانة بقوة خارجية تنقذه من الموقف الحرج، ولم تكن هذه القوة سوى الأتراك الغز الذين انتشروا آنذاك في إقليم الجزيرة، وراحوا يجوبون منطقة شمالي بلاد الشام، وفرضوا حضورهم المؤثر والقوي في ظل تراجع القوة العربية، فاستدعى هارون بن خان[٣] وهو أحد قادتهم،

---

(١) بيطار، أمينة: موقف أمراء العرب بالشام والعراق من الفاطميين ص ٣١٠ ـ ٣١١.

(٢) ابن العديم: جـ ١ ص ٢٥٠.

(٣) يذكر ابن العديم أن ابن خان هو أحد أبناء الملوك الترك، وأن أباه غضب منه، فهجره وتوجه نحو الغرب، واستقر في أعالي الجزيرة عند مروان، لكنه لم يوضِّح من هو ملك الترك وما اسم ابن خان، إنما يمكن أن نستخلص مما رواه مؤرخنا أن اسم ابن خان هو هارون. زبدة الحلب: جـ ١ ص ٢٥٠.

وكان في الجزيرة في مضارب بني مروان، للقدوم إلى حلب. والواضح أن هذا الاستدعاء يشكل نوعاً من الاعتراف بالواقع الجديد، وهو أن قبيلة بني كلاب لم تعد وحدها صاحبة الكلمة الأولى في شمالي بلاد الشام، وأن القوى التركية التي كانت تجول بالمنطقة وتضغط عليها، لا بد من أن تشاركها بشكل أو بآخر في تقرير مصيرها[١].

لبَّى ابن خان نداء عطية، وزحف مع أتباعه وعددهم ألفاً من الرماة، من أصول مختلفة، كان الأتراك العنصر الغالب عليهم؛ باتجاه حلب، وعندما علم محمود بن نصر بذلك، فكَّ الحصار عن حلب، عندئذ طلب عطية من ابن خان التوقف عن الزحف[٢].

ويبدو أن المرداسيين هالهم هذا التخاصم، وخشوا من قوة الأتراك، فتنادوا إلى الصلح. وتقاسم عطية ومحمود بن نصر الأملاك المرداسية، فكان للأول حلب والرحبة وبالس ومنبج وعزاز[٣] وقنسرين، وأخذ الثاني الأثارب[٤]، واحتفظ بما كان في يده في أيام ثمال وهي معرة النعمان وكفرطاب وحماة[٥].

لكن هذه التسوية التي تمَّت بين الرجلين كانت مؤقتة. ففي (شهر جمادى الأولى ٤٥٦هـ/ شهر أيار ١٠٦٤م)، زحف محمود بن نصر نحو حلب وحاصرها، فلجأ عطية إلى استدعاء ابن خان مجدداً لمساعدته، وكان هذا الأخير يراقب الأوضاع وما يحدث في حلب عن كثب وينتظر الفرصة لتوسيع دائرة نفوذه، فلبى نداء الاستغاثة وقدم إلى حلب على رأس ألف من مقاتليه ودخلها، واضطر محمود بن نصر إلى فك الحصار عنها[٦].

وهكذا تخلَّص عطية من الخطر الكلابي الداخلي الواقع عليه، لكنه وقع في خطر أشد وأدهى، وهو الخطر التركي دون تبصر بنتائجه المدمرة. واستفاد الأتراك من قوتهم وضعف حليفهم، ففرضوا أنفسهم على مقدرات حلب وعطية معاً. وباشر ابن خان إدارة شؤون المدينة بنفسه مما أزعج عطية الذي خسر سلطاته، وأحداث

---

(١) مصطفى: في التاريخ الشامي ص ١١٨.

(٢) زكار، سهيل: مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية ص ١٢٨.

(٣) عزاز: بليدة فيها قلعة ولها رستاق شمالي حلب بينهما يوم. الحموي: ج ٤ ص ١١٨.

(٤) الأثارب: قلعة معروفة بين حلب وأنطاكية، بينها وبين حلب نحو ثلاثة فراسخ. المصدر نفسه: ج ١ ص ٨٩.

(٥) ابن العديم: ج ١ ص ٢٤٩ـ ٢٥١.

(٦) المصدر نفسه.

حلب الذين بدأوا يشعرون بفقدان نفوذهم أيضاً، ورأوا أن الأتراك يعملون على إزالتهم من الوجود، فكرهوهم.

لقد فرض ابن خان نفسه على عطية الذي شعر بوطأته، وحتى يُبعده عن حلب، قام وإياه بغارة ناجحة على أنطاكية التابعة للبيزنطيين، معتقداً بأنه لن يعود، وسيتوجه إلى الشمال لمتابعة الغارة على الأملاك البيزنطية، لكن اعتقاده كان في غير محله، فقد عاد ابن خان إلى حلب، وشدَّد قبضته عليها[١].

أدرك عطية أخيراً أن لا سبيل لإخراج الأتراك من حلب، إلا بتعاون الأسرة المرداسية، فاستدرك الأمر وصالح ابن أخيه محمود بن نصر على أساس الاتفاق السابق، وقد تمَّ الصلح في (شهر محرم ٤٥٧هـ/ كانون الأول ١٠٦٤م)[٢]، ثم دبَّر مذبحة للأتراك في الشهر التالي، فقتل منهم جماعة، كما هاجم الأحداث أماكن تواجدهم وقتلوا عدداً منهم، وأجبروا من بقي حياً على الفرار إلى خارج أسوار حلب[٣].

وخرج ابن خان يتهدَّد ويتوعَّد، ومضى فاراً مع من تبقَّى من رجاله في اتجاهين:

الأول: إلى أعالي الجزيرة، إلا أن القبائل البدوية العربية القاطنة حول حلب تخطَّفتهم وتخلَّصت منهم.

الثاني: عبر المناطق الشمالية والغربية من حلب، حيث قرَّر ابن خان الالتحاق بخصم عطية، وهو ابن أخيه محمود بن نصر، في سرمين[٤]، وكان عدد هذه الجماعة أقل من مائة وخمسين رجلاً، ووضع نفسه بتصرفه[٥].

وهكذا استقر ابن خان في المنطقة، يتدخل في شؤونها، ويقرر مصيرها. وهنا يمكن القول إنه أصبح للأتراك تواجدٌ فعليٌّ، عسكري وسياسي، على أرض الشام[٦].

نتج عن تحالف محمود بن نصر وابن خان قيامهما بمهاجمة حلب، فاصطدما بقوات عطية في مرج دابق شمالي حلب في (شهر جمادى الآخرة ٤٥٧هـ/ أيار ١٠٦٥م)، وتغلَّبا عليها. وفرَّ عطية إلى حلب، فلحقه محمود بن نصر وضرب الحصار على المدينة. استمر الحصار حتى (منتصف رمضان/ ٢٠ آب)[٧]، حيث

---

(١) ابن العديم: جـ١ ص ٢٥١. زكار: ص ١٢٩. (٢) المصدر نفسه..

(٣) المصدر نفسه، ابن القلانسي: ص ١٥٥.

(٤) سرمين: بلدة مشهورة من أعمال حلب. الحموي: جـ٣ ص ٢١٥.

(٥) ابن العديم: جـ١ ص ٢٥١ ـ ٢٥٢. (٦) ضامن: ص ٧٨.

(٧) العظيمي، محمد بن علي: تاريخ العظيمي ص ٣٢٦.

عجز عطية عن الاستمرار في المقاومة فاستسلم لابن أخيه وتنازل له عن حلب، وقنع بحكم المنطقتين الشرقية والشمالية بين منبج والرحبة(١).

ويبدو أن الأتراك خشوا من دخول حلب مع حليفهم لتجنُّب اصطدامهم بالأحداث. وفضَّل ابن خان التوجه نحو العراق والجزيرة حيث أخذ يجنِّد المرتزقة من الأتراك والديلم والأكراد والأوج، ثم عاد إلى حلب، فأقطعه محمود بن نصر معرة النعمان ثمناً لمساعدته له، فدخلها في (شهر شوال ٤٥٨هـ/ أيلول ١٠٦٦م). والواقع أن هذا الثمن الذي قدمه محمود بن نصر لابن خان كان باهظاً، إذ استقر الأمير التركي بعد ذلك في المنطقة وهجر حياة التنقل والترحال(٢).

والواقع أن ابن خان كان أداة فعَّالة في يد محمود بن نصر، فبمساعدته حصل على الإمارة، وبقوته ثبَّت حكمه وأخضع كافة القبائل البدوية المنتشرة داخل حدود إمارته، وبعمله هذا يكون قد مهَّد الطريق لإحداث تغيير جذري في بلاد الشام تمثل بإزالة القبائل العربية عن مسرح الأحداث السياسية وإحلال الأتراك الغز محلها(٣).

بقي ابن خان مع أتباعه في المنطقة زهاء أربعة أعوام، حاول خلالها التقرب من السكان وتبنِّي سياسة جهادية ضد البيزنطيين، ففتح أرتاح(٤) وكبَّد البيزنطيين خسائر فادحة في الأرواح. ويصف ابن العديم هذا الإنجاز بأنه كان فتحاً عظيماً لأن عملها قريب من أعمال الشام(٥)، مما دفع الأمبراطور البيزنطي رومانوس الرابع ديوجينس للتحرك نحو بلاد الشام، فاستولى على منبج في (شهر شعبان ٤٦١هـ/ شهر حزيران ١٠٦٩م)، وملك أسفونا(٦)، وتصدَّى ابن خان للحملات الفاطمية ضد شمالي بلاد الشام لاستعادة نفوذ الفاطميين فيها، واشترك مع محمود بن نصر المرداسي في استرداد حصن أسفونا من البيزنطيين(٧).

وعلى الرغم من ذلك، فقد ظل سكان بلاد الشام يكرهون ابن خان وأتباعه بوصفهم دخلاء، كما أن الحكام الفاطميين لم يرضوا عن وجوده في المنطقة لكونه

---

(١) ابن العديم: جـ ١ ص ٢٥٢.
(٢) ضامن: ص ٨٠.
(٣) زكار: ص ١٣٣.
(٤) أرتاح: اسم حصن منيع كان من العواصم، من أعمال حلب. الحموي: جـ ١ ص ١٤٠.
(٥) زبدة الحلب: جـ ١ ص ٢٥٦.
(٦) المصدر نفسه: ص ٢٥٧. ابن القلانسي: ص ١٦٥. وأسفونا: اسم حصن كان قرب معرة النعمان بالشام. الحموي: جـ ١ ص ١٧٩.
(٧) ابن العديم: المصدر نفسه..

تركياً موالياً للعباسيين، إذ كان يُشجِّع محمود بن نصر على تغيير ولائه السياسي والمذهبي والاتصال بالخليفة العباسي في بغداد والسلطان السلجوقي[1].

كان ابن خان يعمل لمصلحته، مما أوقعه في نزاع مع كل من السلطان السلجوقي ألب أرسلان الذي كان قد خلف عمه السلطان طغرلبك في عام (٤٥٥هـ/ ١٠٦٣م) وأمير حلب، وحاول هذا الأخير التخلص منه.

وحدث آنذاك أن زحف السلطان ألب أرسلان إلى حلب، وعندما علم ابن خان بذلك غادر المدينة متوجهاً إلى ساحل بلاد الشام والتحق بعين الدولة ابن أبي عقيل حاكم صور، فاستقبله وأكرم أتباعه، واستغل قوته للتصدي للفاطميين الذي كانوا يحاصرون صور آنذاك بقيادة أمير الجيوش بدر الجمالي والي عكا. غير أن ابن خان بدَّل ولاءه علَّه يحقق مع بدر الجمالي ما فشل في الحصول عليه مع غيره مما أثار حفيظة أمير صور، فحرَّض أتباعه عليه، فقتلوه[2]. وانتهت بوفاته حياة أول تركي دخل بلاد الشام وأدَّى دوراً مميزاً تمهيداً لوصول السلاجقة إلى هذا البلد والسيطرة عليه وحكمه حكماً مباشراً.

الأفشين

إنه قائد تركي غزي آخر، دخل الثغور الجزرية والشامية قادماً من أرمينية وأعالي الفرات. رافق في بداية أمره، الأمير كمشتكين حاجب السلطان ألب أرسلان، ثم حصل نزاع بينهما، فقتله، وقاد نحو ألف مقاتل من الأتراك إلى الأراضي البيزنطية، هرباً من غضب السلطان، وتوغل فيها حتى بلغ قيصرية[3]، في عام (٤٥٩هـ/ ١٠٦٧م) فنهبها، ثم انحدر إلى قيليقية، واخترق جبال الأمانوس، وهاجم أراضي أنطاكية، وغنم غنائم وفيرة من المواشي، وأسر كثيراً «فكان الجاموس يباع بدينار، وأكثره بدينارين وثلاثة، وأما البقر، والغنم، والمعز، والحمير، والجواري فلم يقع على ذلك إحصاء من الكثرة، وكانت الجارية تباع بدينارين، والصبي بتطبيقة نعال للخيل، ثم خرج إلى أعمال حلب وباع الغنائم التي كانت معه»[4]، ثم عاد إلى أطراف الدولة البيزنطية من ناحية الخزر وأقام هناك.

ويبدو أن السلطان ألب أرسلان عفا عنه بعد ذلك، وخصَّص له الأراضي

---

(١) ابن العديم: ص ٢٦٠.
(٢) سبط ابن الجوزي: ص ١٥١.
(٣) قيصرية أو قيسارية: مدينة كبيرة عظيمة في بلاد الروم. الحموي: جـ ٤ ص ٤٢١.
(٤) ابن العديم: جـ ١ ص ٢٥٥.

البيزنطية مجالاً للتحرك لتمهيد الطريق لحملته ضد أراضي تلك الدولة، بدليل أنه غزا عمورية[1] ونهبها وأسرى إلى خليج القسطنطينية وغنم ستة آلاف فرس، وعندما علم الأمبراطور البيزنطي، وكان يهاجم منبج، بهذا التوغل التركي عاد إلى عاصمته على عجل ليدافع عنها، فغادر الأفشين عندئذ مناطق الشمال البيزنطي. كما أننا نجد ذكراً للأفشين في حملة السلطان التي نفَّذها في عام (٤٦٢هـ/ ١٠٧٠م). ومع قدوم السلطان ألب أرسلان إلى حلب انتهى دور الأفشين.

صندق

تسربت إلى شمالي بلاد الشام في عام (٤٦٢هـ/ ١٠٧٠م) مجموعة تركية غزية أخرى بقيادة صندق التركي قادمة من الشمال، فنهب أفرادها أراضي حلب وجهات حمص وحماة ورفنية[2]، ولقي أهل الشام منهم شدة عظيمة[3].

وعندما خرج السلطان ألب أرسلان إلى مانزيكرت، وكان البيزنطيون قد اقتربوا من مدينة خلاط[4]، خرج إليهم عسكرها ومقدمهم صندق التركي، ثم دخل حلب من الأرتيق[5]، وتابع إلى الجَزر[6] ثم إلى بلدة معرة النعمان وكفرطاب وحمص ورفنية، ونهبت عساكره تلك المناطق «وهو أول نهب وفساد جرى بالشام من الأتراك»، واضطر محمود بن نصر المرداسي أمير حلب إلى استرضائهم بالهدايا حتى يكفُّوا عنه ولا يدخلوا مدينة حلب[7].

وتسربت إلى بلاد الشام، مع بداية عام (٤٦٣هـ/ أواخر ١٠٧٠م)، جموع تركية غزية أخرى قادمة من طرق مختلفة، وهي تعمل لحسابها الخاص، وكأنها مقدمة لموجة كبيرة منظمة وذات أهداف واضحة. ويذكر المؤرخون أنه استقرت في جنوبي بلاد الشام، في صور، جموع تركية غزية، كما وصلت جموع أخرى بدعوة من القاضي ابن عقيل والي صور لتساعده في ردِّ غارات البدو عنها[8].

وعلى الرغم من تواجد هذه الجموع في بلاد الشام بعامة، فإن تأثيرها كان

---

(١) عمورية: مدينة كبيرة في بلاد الروم. الحموي: جـ ٤ ص ٤٢١.
(٢) رفنية: كورة ومدينة من أعمال حمص. المصدر نفسه: جـ ٣ ص ٥٥.
(٣) ابن العديم: جـ ١ ص ٢٥٨ ـ ٢٥٩.
(٤) خلاط: بلدة عامرة مشهورة، وهي قصبة أرمينية الوسطى. الحموي: جـ ٢ ص ٣٨٠ ـ ٣٨١.
(٥) الأرتيق: كورة من أعمال حلب من جهة القبلة. المصدر نفسه: جـ ١ ص ١٤١.
(٦) الجَزر: كورة من كور حلب. المصدر نفسه: جـ ٢ ص ١٣٣.
(٧) ابن العديم: جـ ١ ص ٢٥٨ ـ ٢٥٩.
(٨) مصطفى: ص ٣٤٨ ـ ٣٤٩.

محدوداً نسبياً، أما الجموع الأخطر والأكبر فهي التي جاءت إلى بلاد الشام ضمن الحملات السلجوقية النظامية بقيادة السلطان ألب أرسلان بهدف ضم سياسي وعسكري[١]، وقد سلكت طريقين:

الأول: طريق الأناضول ـ الدروب الشامية، التي كانت دوماً خطوط المواصلات ما بين الثغور الشامية والعواصم.

الثاني: طريق الجزيرة العليا من جهة الشرق الشمالي لأرمينية وأذربيجان[٢].

الناوكية

إنهم إحدى الجموع التركية الغزية الذين تسربوا إلى بلاد الشام، وأدَّوا دوراً بارزاً في الأحداث التي سبقت ومهَّدت للحملات السلجوقية النظامية إلى هذه البلاد. ويبدو أن الناوكية أُطلقت على جموع محدَّدة من المرتزقة الذين يدينون بالطاعة للسلطان السلجوقي، ولم تكن اسماً لإحدى العشائر التركية، لكن الأتراك شكَّلوا الأكثرية العددية بينهم[٣].

ومن المحتمل أن كلمة الناوكية تعني الخارجين على السلطة، حيث عدَّ السلاجقة جموع الأتراك العراقية والناوكية خوارج على سلطتهم، ويمكن أن يندرج تحت هذا التفسير جميع الأتراك الذين تدفَّقوا إلى الأراضي البيزنطية والبلاد الجزرية دون علم السلطان السلجوقي[٤]، ومن بينهم ابن خان وأتباعه، بدليل ما ذكره ابن الجوزي: «وكان أريسيغي، زوج أخت السلطان المسماة جوهر خاتون، معه جماعة من الناوكية وكان السلطان يطلبهم، فساروا منحازين إلى بلاد الروم خائفين من السطان»[٥]، كما يبدو أن ابن خان غادر حلب عندما علم بقدوم السلطان ألب أرسلان إليها، مما يدل على أنه لم يكن على وفاق معه. وأشار سبط ابن الجوزي في حوادث عام ٤٦٣هـ، إلى وجود جماعة من الناوكية بقيادة أتسز بن أوق الخوارزمي، وأكَّد أنه مقدم الناوكية والأتراك في بلاد الشام، كما أكد ابن القلانسي تقدم أتسز على جميع الأتراك الغز بالشام[٦].

هذا على الرغم من أن أتسز وجماعته كانوا من الأتراك الذين تركهم السلطان ألب أرسلان في بلاد الشام بعد عودته إلى بلاده، ولا ينطبق عليهم اسم الناوكية

(١) مصطفى: ص ٣٤٨ ـ ٣٤٩.
(٢) المرجع نفسه. ضامن: ص ٨٦.
(٣) زكار: ص ١٣٢.
(٤) ضامن: ص ٨٦.
(٥) مرآة الزمان: ص ١٤٤.
(٦) ذيل تاريخ دمشق: ص ١٦٦ ـ ١٦٧.

كخارجين على إرادة السلطان[1]، كما يبدو أن سوء علاقتهم بالسلاجقة وتفردهم عن الجماعة السلجوقية قد يوحيان بوجود علاقة غير مؤكدة بينهم وبين التركمان العراقية، أو هم أنفسهم باسم جديد هاجروا تحت ضغط السلاجقة من العراق إلى الأراضي البيزنطية. ولعل الأرجح أن القوم جماعة خوارزمية مما لحق بالغز من الشعوب التركية[2]، وجاء بعضهم إلى بلاد الشام بناء على دعوة بدر الجمالي والي الشام الجنوبي من قِبَل المستنصر الفاطمي، لمساعدته في رد غارات البدو عن المناطق الحضرية والمدن، بعد أن قطع الأمل بوصول نجدة فاطمية من مصر.

ومهما يكن من أمر، فقد كان أول عمل للناوكية في بلاد الشام، أمنياً، هو التصدي لغارات البدو، أما عملهم الثاني فكان سياسياً بعد أن دخلوا في خدمة القوى المحلية المعادية للفاطميين، وحتى ضد الشخص الذي استقدمهم وهو بدر الجمالي[3]. فعندما حاصر هذا الأخير ثغر صور في عام (٤٦٢هـ/ ١٠٧٠م)، استنجد القاضي ابن أبي عقيل بالأمير قرلو، فاستجاب له وسار بعسكره منجداً له، ووصل إلى صيدا، ونزل عليه في ستة آلاف فارس وحاصرها وضيَّق على من فيها، وكانت تحت سلطة أمير الجيوش، وعندما علم هذا الأخير بالتقدم التركي فك الحصار عن صور[4].

ظل الناوكية في بلاد الشام حتى ذابوا في جسم الأتراك أتباع السلاجقة الذين قدموا بعد عام (٤٦٢هـ/ ١٠٧٠م)[5].

محاولة السلاجقة ضم حلب ـ حملة السلطان ألب أرسلان

خلف السلطان ألب أرسلان عمه طغرلبك، بعد وفاته في (٨ رمضان ٤٥٥هـ/ ٥ أيلول ١٠٦٣م)، وقد وضع نصب عينيه في سياسته الغربية تحقيق هدفي السلاجقة وهما التوسع باتجاه الأراضي البيزنطية، وطرد الفاطميين من بلاد الشام والحلول مكانهم ثم استخلاص مصر منهم، وقد أثاره احتمال تقارب بين البيزنطيين والفاطميين فحرص على أن يحمي نفسه من بيزنطية بفتح أرمينية والاستقرار في ربوعها، قبل أن يمضي في تحقيق الهدف الثاني وهو مهاجمة الفاطميين.

والواقع أنه كان من الصعب على السلطان السلجوقي، من الناحية العسكرية ـ السياسية، أن يتجاوز محور الرها إلى جنوبي بلاد الشام ثم مصر دون تقدير الموقف

---

(١) ضامن: ص ٨٩.

(٢) مصطفى: في التاريخ الشامي ص ١٢٨.

(٣) المرجع نفسه.

(٤) المرجع نفسه.

(٥) زكار: ص ١٣٣.

البيزنطي من جهة، ومواقف أمراء الجزيرة وبلاد الشام من جهة أخرى، إذ أن أي اضطراب في العلاقة مع هذه الأطراف من شأنه أن يهدد بقطع خط الرجعة على جيشه الذي سيكون بعيداً عن قواعده الخلفية[(١)].

واشتدت في هذه الأثناء، غارات الأتراك على أراضي الدولة البيزنطية منطلقين من حلب، وتوغلوا فيها، ففتح هارون بن خان أرتاح، كما أشرنا، في (٢٧ شعبان ٤٦٠هـ/ أول تموز ١٠٦٨م) بعد أن حاصرها خمسة أشهر[(٢)].

نهض الأمبراطور البيزنطي رومانوس الرابع ديوجينوس ليوقف تقدم المغيرين، ومنعهم من التوغل أكثر في عمق الأراضي البيزنطية، وقاد حملتين عسكريتين ضد الأجزاء الشمالية لبلاد الشام بين عام (٤٦١ ـ ٤٦٢هـ/ ١٠٦٩ ـ ١٠٧٠م)، فهاجم منطقة حلب، عقدة المواصلات التجارية والعسكرية بين العراق وأرمينية والأناضول وبلاد الشام، واصطدمت قواته بقوات محمود بن نصر المرداسي وبني كلاب، وابن حسان الطائي ومن معهم من جموع العرب، وانتصرت عليهم[(٣)]، إلا أن الأمبراطور انسحب من المنطقة على عجل دون أن يستثمر انتصاره، بعد ورود أخبار عن توغل قوات تركية بقيادة الأفشين في عمق الأراضي البيزنطية، وفتحها مدينة عمورية، وأنها بصدد التوجه نحو القسطنطينية، كما أن نفاد المؤن كان سبباً آخر دفعه إلى العودة إلى بلاده.

والواقع أنه لم ينجم عن هاتين الحملتين أي خطر حقيقي على شمالي بلاد الشام، إذ لم تؤديا إلا إلى استعادة أرتاح والاستيلاء على منبج[(٤)]، وتأمين الطريق بين الرها وأنطاكية، كما قام بأعمال مماثلة لتأمين حدود أرمينية، ولكن توغل الأتراك في الأناضول كان يهدِّد النظام البيزنطي من الداخل.

لكن الخطر الحقيقي جاء من الشرق، من خراسان، وكان لذلك علاقة بالمدى الذي وصلت إليه أوضاع الدولة الفاطمية في مصر من تدهور، وكان السلطان ألب أرسلان ينتظر فرصة سانحة ليحقِّق حلمه بضم بلاد الشام ومصر إلى الأملاك السلجوقية، وأتاح له النزاع الذي حصل بين أركان الحكم في مصر من أجل السيطرة والتسلط على المستنصر الفاطمي، هذه الفرصة.

(١) مصطفى: جـ ٢ ص ١٣١.
(٢) ابن العديم: جـ ١ ص ٢٥٦.
(٣) ابن الأثير: جـ ٨ ص ٢١٧. ابن العديم: جـ ١ ص ٢٥٧.
(٤) ابن القلانسي: ص ١٦٦. ابن الأثير: المصدر نفسه ص ٢١٧.

كان ناصر الدولة الحسين بن الحسن الحمداني أحد أبرز القادة في القاهرة، وقد انتصر على تحالف ضمَّ الوزير ابن أبي كدية وألدكوز، قائد عسكر الأتراك، وذلك في عام (٤٦٢هـ/ ١٠٧٠م)، وتمادى في تخطيطه عندما قرَّر القضاء على الدولة الفاطمية، وإقامة الدعوة للخليفة العباسي، فأرسل أبا جعفر محمد بن البخاري، قاضي حلب، إلى السلطان السلجوقي يطلب منه أن يرسل جيشاً إلى مصر، يساعده في تحقيق هدفه.

وفور تسلمه الدعوة، جهَّز السلطان ألب أرسلان جيشاً كبيراً وخرج على رأسه من خراسان متوجهاً إلى بلاد الشام لإخضاعها لسيطرة السلاجقة، ومن ثَمَّ متابعة زحفه إلى مصر لإسقاط الدولة الفاطمية وضمِّ هذا البلد إلى السلطنة السلجوقية.

لكن تحركه كان بطيئاً بسبب ما صادفه من عقبات كانت أولاها في الرها الواقعة تحت الحكم البيزنطي، فحاصرها في (أوائل عام ٤٦٣هـ/ أواخر عام ١٠٧٠م). قاوم الرهاويون الحصار ببسالة بقيادة باسيل بن أسار الذي عيَّنه الأمبراطور البيزنطي رومانوس الرابع ديوجينوس حاكماً على المدينة. وقطع السلاجقة أشجار الحدائق، وطمروا الخنادق بجانب الأسوار الشرقية كي يعبروا عليها، وقذفوا المدينة بالمجانيق، وشرع النقابون في حفر فجوات في السور، ولكن دون جدوى. واستعصت المدينة على السلطان ألب ارسلان، واضطر إلى التفاهم مع سكانها بعد نيف وثلاثين يوماً من الحصار المتواصل، ثم تابع طريقه إلى حلب[1] لضمِّها حتى يمنع أي محاولة التفاف من جانب البيزنطيين من جهة الجنوب، غير أن قسماً من جيشه تقاعس عن المضي معه بسبب تأخير أرزاقهم، فاضطر أن يتابع زحفه بمن بقي معه من الجيش وعددهم أربعة آلاف مقاتل، فعبر نهر الفرات في (١٤ ربيع الآخر ٤٦٣هـ/ ١٩ كانون الثاني ١٠٧١م) ودخل أراضي الإمارة، وقدَّم له جميع أمراء الجزيرة الولاء، أمثال شرف الدولة مسلم بن قريش العقيلي أمير الموصل، ونصر بن مروان أمير ميافارقين، وابن وثاب أمير حرّان، بالإضافة إلى أمراء الترك والديلم[2]، وتقاعس محمود بن نصر أمير حلب، ويبدو أن لذلك علاقة بالمدى الذي وصلت إليه معارضة الشيعة في حلب، وربما أدرك أنه سوف يفقد استقلاله إذا تجاوب مع مطالب السلطان السلجوقي[3]، فأرسل إليه القاضي أبا جعفر محمد بن البخاري يدعوه للقدوم إليه لتقديم الولاء والطاعة ودوس بساطه أسوة بسائر أمراء الجزيرة،

---

(١) ابن العبري: ص ١٠٩. ابن الأثير: جـ ٨ ص ٢٢٢. ابن العديم: جـ ١ ص ٢٦١.

(٢) ابن العديم: المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه: ص ٢٦١ ـ ٢٦٢.

وفتح أبواب حلب لاستقباله[1]، لكن محموداً رفض الدعوة بتحريض من ابن خان، وآثر الاعتصام بحلب والدفاع عنها، واستنفر الرجال من جميع أنحاء بلاد الشام، وتأهب لمقاومة الحصار الذي سوف يفرضه الجيش السلجوقي على المدينة. ويبدو أنه اطمأن إلى أن ولاءه للعباسيين وللسلطان السلجوقي، وارتداء خلع الخليفة التي أرسلت إليه في عام (٤٦٢هـ/ ١٠٧٠م)، كافيان لحمايته من هجوم السلطان، لكنه فوجئ بوصوله إلى حلب في (أواخر شهر جمادى الآخرة ٤٦٣هـ/ أوائل نيسان ١٠٧١م) وضربه الحصار عليها، واتخذ السلطان من الفنيدق[2] مركزاً لقيادته، «وكانت الخيام والعساكر من حلب إلى نقرة بني أسد، إلى عزاز إلى الأثارب، متقاربة بعضها من بعض، ولم يتعرَّض أحد من العسكر بمال أحد، ولا سُبيت حَرمة، ولا قاتل حصناً، ولم يأخذ عليقة تبن من فلاح إلا بثمنه. استمر الحصار مدة شهر ويومين، ولم يجر قتال غير يوم واحد وكان يقول لأتباعه: أخشى أن أفتح هذا الثغر بالسيف فيصير إلى الروم»[3].

ومهما يكن من أمر، فقد فشل السلطان في اقتحام المدينة، ولعل مرد ذلك يعود إلى شدة المقاومة ومتانة الأسوار، وإشراك محمود بن نصر جميع القبائل العربية في الدفاع عنها، بالإضافة إلى طبيعة تكوين الجيش السلجوقي الذي يعتمد على الفرسان الخفاف، والمعروف أن عمليات الحصار تتطلب جنوداً من المشاة، وهو ما افتقده الجيش السلجوقي. ولم تتوقف المفاوضات خلال أيام الحصار للوصول إلى حل، لكن دون جدوى بسبب التصلب في المواقف. واضطر السلطان أخيراً إلى فك الحصار عن المدينة، إلا أنه خشي على سمعته بعد إخفاقه في اقتحام الرها، وأخذ حلب مما سينعكس سلباً على دولته الناشئة وبخاصة بعد ورود أنباء عن ظهور الأمبراطور البيزنطي رومانوس الرابع ديوجينوس في أرمينية وهو عازم على مهاجمة خراسان[4]، لذلك لجأ إلى السياسة لتفريق الكلابيين وإضعاف موقف محمود بن نصر، فاستدعى جميع أمراء بني كلاب ليختار أميراً منهم يعيِّنه على حلب ويفوِّضه السعي للاستيلاء على المدينة وانتزاعها من يد محمود بن نصر، على أن يتفرغ هو لمواجهة الخطر البيزنطي[5].

---

(١) ابن العديم: ص ٢٦١ ـ ٢٦٢.

(٢) الفنيدق: من أعمال حلب، وهو الذي يُعرف الآن بتل السلطان، نسبة إلى السلطان ألب أرسلان. الحموي: جـ ٤ ص ٢٧٩.

(٣) ابن العديم: جـ ١ ص ٢٦٢ ـ ٢٦٣.

(٤) المصدر نفسه ص ٢٦٣.

(٥) المصدر نفسه.

لبّى الأمراء دعوة السلطان، وامتثلوا لأمره، ويدل هذا على أن التنازع كان متفشياً بين العشائر الكلابية، وأن محموداً لم يتمكَّن من جمع شمل القبيلة تحت رايته. وعندما علم محمود بهذا التحول، خشي على سلطته في حلب وبخاصة أن «البلد قد أشرف على الفتح»، فتحرك بسرعة باتجاه السلطان، وسعى إلى التوصل إلى مصالحة معه تحفظ ملكه وتفوِّت الفرصة على خصومه من الأمراء الكلابيين[1]. وإذا كان لنا أن نقيِّم تصرف الكلابيين، فإنهم أخطأوا، فلم يستغلوا الفرصة التي سنحت لهم للتضامن ومقاومة الخطر السلجوقي، فأتاحوا للسلاجقة أن يفرضوا سلطتهم عليهم، وقد يعود ذلك إلى طبيعتهم البدوية وتنافسهم على الزعامة.

ومهما يكن من أمر، فقد خرج محمود بن نصر من حلب متخفياً بزي الأتراك، في (ليلة الأول من شعبان ٤٦٣هـ/ ٤ أيار ١٠٧١م) بصحبة والدته منيعة بنت وثاب النميري، وتوجه إلى معسكر السلطان، فرحَّب به هذا الأخير، وجرت مفاوضات بين الرجلين أسفرت عما يلي:

- يخرج محمود بن نصر في اليوم التالي علناً ليزور معسكر السلطان ويدوس بساطه، ويقدِّم فروض الولاء والطاعة له.

- يوافق السلطان على بقاء محمود أميراً على حلب، على أن يكون تابعاً له، ويدعو للخليفة العباسي والسلطان السلجوقي[2].

وفعلاً خرج محمود في اليوم التالي من حلب، وتوجَّه إلى معسكر السلطان وحمل معه مفاتيح البلد، واصطحب معه والدته، فاستقبلهما السلطان ورحَّب بهما وأكرمهما وأحسن إليهما، وأعلن عن بقاء محمود أميراً على حلب، وكتب له توقيعاً بذلك[3]، وقد أضحى بموجبه تابعاً فعلياً ورسمياً للسلطان، ومتولياً من قِبله وبتوقيعه، وليس أميراً حاكماً بقوته يستطيع في كل لحظة نقض الولاء[4].

الاصطدام السلجوقي ـ البيزنطي

قرَّر السلطان ألب أرسلان، بعد أن أخضع حلب ولم يدخلها، العودة إلى خراسان دون أن يستكمل مشروعه بالزحف نحو بلاد الشام ومصر، وكلَّف محموداً

---

(١) ابن العديم: جـ ١ ص ٢٦٣ ـ ٢٦٤.

(٢) الحسيني: ص ٣٩. ابن العديم: ص ٢٦٤، ابن الأثير: جـ ٨ ص ٢٢٢.

(٣) ابن القلانسي: ص ١٦٧. العظيمي: ص ٣٢٦. ابن الأثير: جـ ٨ ص ٢٢٢. الحسيني: ص ٣٧.

(٤) ضامن: ص ٩٦ ـ ٩٧.

وإيتكين السليماني، وهو أحد أعيانه، وقد تركه في حلب، بإتمام هذا العمل، فتوجه إلى أرمينية، وعبر الفرات، وعند وصوله إلى أذربيجان علم بأن الأمبراطور البيزنطي وصل إلى أعمال خلاط.

ويبدو أن هذا الأمبراطور قرَّر القيام بمحاولة أخرى لاسترداد أرمينية ووقف غارات الأتراك على آسيا الصغرى، مستفيداً من توغل ألب أرسلان في بلاد الشام، لكن الواقع أن خطته كانت أوسع من ذلك، إنه أراد اختراق ثغور المسلمين من ناحية الجزيرة والتوغل في عمق الأراضي الإسلامية، بدليل أنه أقطع قادته الذين يرافقونه مصر والشام وخراسان والري والعراق، مستثنياً بغداد، وأوصى بعدم التعرض للخليفة لأنه كان صديقه.

قرَّر السلطان ألب أرسلان التصدِّي للبيزنطيين ووقف تقدمهم، فاشتبك معهم في جنوب مانزيكرت، وعلى وجه التحديد بين مانزيكرت وخلاط في مكان يُعرف بالزهوة[١]، وانتصر عليهم، ووقع الأمبراطور البيزنطي في الأسر. وجرت المعركة يوم الجمعة (٧ ذي القعدة ٤٦٣هـ/ ٦ آب ١٠٧١م)[٢].

لم يستثمر السلطان السلجوقي انتصاره، وفضَّل التفاهم مع الأمبراطور البيزنطي، ربما لأنه كان ينوي التفرغ لأمور بلاد الشام، فأراد تحييده في الصراع مع الفاطميين، فأطلق سراحه لقاء فدية وعلى أن يؤدي جزية سنوية، ويوافق على عقد اتفاقية تنظم العلاقة بين المسلمين والبيزنطيين[٣].

التوغل التركي في جنوبي بلاد الشام ـ أتسز يضم دمشق

غادر السلطان ألب أرسلان المنطقة بعد ذلك، وعاد إلى بلاد ما وراء النهر للقتال هناك، وترك بعض عسكره وأتباعه بقيادة أتسز بن أوق الخوارزمي، وكان معه إخوته، جاولي والمأمون وقرلو وشكلي، وأذن لهم بالاصطدام بالفاطميين وإخراجهم من بلاد الشام. وكان القاضي أمين الدولة أبو طالب عبد الله بن محمد بن عمار قد استبدَّ بحكم طرابلس وخلع طاعة أمير الجيوش بدر الجمالي، وضمَّ مدينة جبيل الواقعة على الساحل اللبناني إلى نفوذه، واضعاً بذلك النواة الأولى لقيام إمارة

---

(١) ابن كثير: جـ ١٢ ص ١٠١.

(٢) ابن القلانسي: ص ١٦٧. الأصفهاني: تاريخ دولة آل سلجوق ص ٤٠ ـ ٤٤. ابن الأثير: جـ ٨ ص ٢٢٣ ـ ٢٢٥.

(٣) ابن الأثير: جـ ٨ ص ٢٢٤ ـ ٢٢٥.

بني عمار المستقلة[١]. وحتى يدعم موقفه في طرابلس تقرَّب من السلاجقة، فأرسل إليه السلطان ألب أرسلان، قبل أن يغادر المنطقة، قوة عسكرية بقيادة أحد كتابه هو ابن جابر بن سقلاب الموصلي[٢].

لم يوضِّح المؤرخون ما تقرَّر بين السلطان ألب أرسلان وأمير طرابلس، لكن يغلب على الظن أن معاهدة عدم اعتداء عقدت بين الطرفين سمح بموجبها لجماعة من الأتراك بالإقامة في أعمال طرابلس، بدليل ما ذكره سبط ابن الجوزي، أنه بعد رحيل ألب أرسلان عن حلب تخلَّف عنه جماعة كبيرة من التركمان عُرفوا بالناوكية، فنزلوا الشام وأقام قسم منهم عند طرابلس[٣]، ولم يكن ذلك ليتم لولا الاتفاق بين أمين الدولة والسلاجقة وكان على رأسهم مقدمهم قرلو، وهو الذي استنجد به قاضي صور لدفع الفاطميين عنه، فأنجده كما تقدم، مما يعني أن السلاجقة انتشروا في المناطق الساحلية، ووصلوا في انتشارهم إلى فلسطين، وأنهم عقدوا تحالفات مع كل من أمراء الشام الذين خلعوا طاعة الفاطميين[٤].

وتنفيذاً لأوامر السلطان، قاد محمود بن نصر وإيتكين السليماني قواتهما وتوجها جنوباً لمهاجمة دمشق وانتزاعها من أيدي الفاطميين، وذلك في (شهر شعبان ٤٦٤هـ/ نيسان ١٠٧٢م)، وتوقفا في بعلبك ليخططا لحملتيهما. وعلم محمود بن نصر وهو في بعلبك بأن عمه عطية هاجم حلب بالتعاون مع البيزنطيين في أنطاكية، وأحرق قسماً من معرة مصرين[٥]، فاضطر للعودة إلى مقر إمارته للدفاع عنها، واشتبك مع البيزنطيين في عدة معارك، فانهزم أمامهم، وعندما وجد نفسه عاجزاً عن الوقوف في وجههم استعان بأتسز وإخوته، وكانوا في الجنوب يحاولون انتزاع فلسطين من أيدي الفاطميين، فلبوا دعوته، وقَدِموا إلى حلب، وتمكّن محمود بن نصر بفضل مساعدتهم من:

- صدِّ البيزنطيين، ووقف أعمالهم ضد أراضيه.
- استعاد الرحبة من مسلم بن قريش العقيلي في عام (٤٦٥هـ/ ١٠٧٣م)[٦].

---

(١) تدمري: تاريخ طرابلس ص ٣٥١.

(٢) ابن العديم: بغية الطلب: سيرة السلطان ألب أرسلان. ملحق بكتاب مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية، بقلم سهيل زكار ص ٢٨٢.

(٣) مرآة الزمان: ص ١٦٨.

(٤) تدمري: لبنان من السيادة الفاطمية حتى السقوط بيد الصليبيين ص ١٦٢.

(٥) معرة مصرين: بليدة وكورة بنواحي حلب ومن أعمالها. الحموي: جـ ٥ ص ١٥٥.

(٦) زكار: ص ١٥٢.

وبعد أن قضى منهم وتره، وأَمن جانب البيزنطيين، طلب منهم أن يغادروا حلب، وأغراهم بالمال والخيل، فغادروا إلى الجنوب. ويبدو أنهم تركوا قسماً منهم في خدمته يبلغ ألف فارس بقيادة أحمد شاه، بدليل أنه عندما أغار البيزنطيون على أراضي حلب في عام (٤٦٦هـ/ ١٠٧٣م) صدَّهم محمود بن نصر بمساعدة الأتراك الموجودين في حلب، كما فتح قلعة السن الواقعة تحت الحكم البيزنطي وضمَّها إلى أملاكه[١].

توجه الأتراك بزعامة أتسز، بعد رحيل السلطان ألب أرسلان عن المنطقة، إلى دمشق بهدف ضمِّها، فضربوا عليها حصاراً مركزاً، وأغاروا على أعمالها، وقطعوا الميرة عنها، ورعوا زرعها، ومع ذلك، فقد فشلوا في اقتحامها[٢]، فغادروها إلى فلسطين، فضمُّوا الرملة، وبيت المقدس، بعد حصار، وطردوا منها الحامية الفاطمية، وانتزعوا طبرية من أيدي الفاطميين، وحاصروا يافا، فهرب حاكمها رزين الدولة الفاطمي. وألغى أتسز الدعوة للمستنصر الفاطمي، وخطب للخليفة العباسي والسلطان السلجوقي، وأرسل إلى بغداد يخبر بما حقَّقه في بلاد الشام[٣]، ثم هاجم عكا وفيها بدر الجمالي وحاصرها، وتوفي قرلو أثناء الحصار فانسحب أتباعه، وهاجموا أثناء انسحابهم المناطق المجاورة، فاضطر أتسز إلى فكِّ الحصار عن عكا وزحف شمالاً باتجاه دمشق.

لا شك بأن انتصار أتسز وأصحابه قد فتح الآمال للأتراك الآخرين بالتحرك إلى بلاد الشام، كما أن انسحاب بدر الجمالي من عكا في عام (٤٦٦هـ/ ١٠٧٤م) وذهابه إلى القاهرة بدعوة من الإمام الفاطمي لمساعدته على تمرد الجيوش هناك، جعل بلاد الشام خالية من أي مقاومة فاطمية مما مهَّد للأتراك الطريق إلى ضمِّها إلى الأملاك السلجوقية.

وحدث أن توفي السلطان ألب أرسلان في (١٠ ربيع الأول ٤٦٥هـ/ ٢٤ تشرين الثاني ١٠٧٢م)[٤]، وخلفه ابنه السلطان ملكشاه (٤٦٥ ـ ٤٨٥هـ/ ١٠٧٢ ـ ١٠٩٢م)، فجدَّد تكليف أتسز بضم جنوبي بلاد الشام إلى الأملاك السلجوقية، وأرسل إليه قوة عسكرية قوامها ثلاثة آلاف مقاتل بقيادة يوسف الخوارزمي[٥].

وفي عام (٤٦٧هـ/ ١٠٧٥م) تمكَّن شكلي بن أوق من ضمِّ عكا بعد حصار،

---

(١) ابن القلانسي: ص ١٧٠. العظيمي: ص ٣٢٦ .زكار: ص ١٥٢.

(٢) ابن القلانسي: المصدر نفسه: ص ١٦٦ ـ ١٦٨.

(٣) المصدر نفسه. ابن الأثير: جـ ٨ ص ٢٤٤.

(٤) المصدر نفسه: ص ٢٢٦.

(٥) العظيمي: ص ٣٤٨. الحسيني: ص ٥٤.

وكان بدر الجمالي قد غادرها إلى القاهرة بناء لاستدعاء الفاطميين كما ذكرنا، وترك فيها أهله وأكثر أمواله وذخائره، فحاز شكلي على جميع ما تركه، وأسر زوجته مع ابن له وابنة، فتزوج الابنة واستقلَّ بعكا[1].

أزعج هذا الانتصار أتسز الذي عُدَّ متقدماً على جميع العناصر التركية في بلاد الشام، فحرص على المحافظة على زعامته، وتحرَّك ضده. وعمد شكلي إلى تقوية استحكامات عكا لمواجهة ما قد يقوم به أتسز من محاولات لانتزاعها منه، فحصَّن أسوارها، وصاهر حاكم دمشق الفاطمي حيدرة بن المعلى بن منزو الكتامي، كما اتصل بزعماء قبيلة كلب وتحالف معهم مكوِّناً حلفاً يقف في وجه أتسز. وجرى اللقاء بين الأخوين في الساحل في شهر (رمضان ٤٦٧هـ/ نيسان ١٠٧٥م)، وأسفر عن انتصار أتسز، وتراجع شكلي إلى رفنية من أعمال طرابلس، ولم يطارده أتسز، بل توجَّه إلى دمشق للاستيلاء عليها، ومن ثم عاد إلى بيت المقدس[2].

لم ييأس شكلي من تحقيق انتصار على أخيه أتسز، وجدَّد جهوده لتشكيل حلف ضده، ولكن مع أحد الأمراء الأتراك في آسيا الصغرى، هذه المرة. فكتب إلى ابن لقتلمش بن إسرائيل بن سلجوق يستنجد به ويحثُّه على مهاجمة بلاد الشام، ووعده بالانضمام إليه. والمعروف أن العلاقة بين البيتين التركيين السلجوقيين في إيران والعراق من جهة والأناضول من جهة ثانية، كانت متوترة بفعل قضاء السلطان ألب أرسلان على ابن عمه شهاب الدولة قتلمش في مطلع عام (٤٥٦هـ/ ١٠٦٣م)[3]، ولهذا لم يكن مستغرباً أن يستنجد شكلي بأمراء السلاجقة في الأناضول، كما لم يكن مستغرباً بالمقابل أن يستجيب هؤلاء للدعوة كيداً بأولاد عمهم.

واجتمع الأمير السلجوقي بشكلي عند رفنية للتنسيق، ثم غادراها إلى طبرية عن طريق بعلبك وسهل البقاع، وأظهرا الطاعة للفاطميين في محاولة لاستقطابهم، وفعلاً مال هؤلاء إليهما ووعدوهما بالمساعدة، واصطدم بهما أتسز خارج بيت المقدس وانتصر عليهما، وقَتَل شكلي وولده صبراً بين يديه، وأسر ابن قتلمش وأخاً صغيراً له، وابن عمه[4].

---

(١) ابن ميسر: ص ٢٣. ابن العديم: بغية الطلب. سيرة أتسز بن أوق. ملحق بكتاب مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية لسهيل زكار ص ٢٦٥.

(٢) سبط ابن الجوزي: ص ١٧١ ـ ١٧٥.

(٣) انظر فيما يتعلق بهذا الصراع والخلاف وما أدّى إليه من نتائج عند ابن الأثير: جـ ٨ ص ١٩٢ ـ ١٩٣.

(٤) سبط ابن الجوزي: ص ١٧١ ـ ١٧٥.

ووصلت إلى أتسز، في غضون، ذلك القوة السلجوقية التي أرسلها إليه السلطان ملكشاه، فتقوَّى بها، واستعدَّ لمهاجمة دمشق. والواقع أنه كان يغير عليها باستمرار عند نضوج المحاصيل الزراعية، فيتقوَّى بها على حساب أهل المدينة والحامية الفاطمية، وذلك بهدف إضعافها، لكن المدينة صمدت أمام هجماته على الرغم مما سبَّبته من ضائقة للسكان[١].

كان الوضع الداخلي في دمشق مضطرباً. فقد اتصف الوالي الفاطمي معلى بن حيدرة بن منزو الكتامي بالظلم والقسوة[٢]، فثار عليه الجند والرعية، وأجبروه على مغادرة المدينة، فذهب إلى بانياس في عام (٤٦٧هـ/ ١٠٧٥م)، ومنها إلى صور ثم أُخِذ إلى القاهرة وسُجِن فيها، وولَّى أهل دمشق عليهم انتصار بن يحيى، المعروف برزين الدولة[٣]، إلا أنه لم يستطع ضبط الأمور بسبب معارضة بعض السكان وبعض فئات من الجند الفاطمي له.

استغل أتسز هذه الأوضاع القلقة، فحاصر المدينة وضيَّق على سكانها حتى فُقِدَت الأقوات، واضطروا إلى تسليمها له بالأمان، فدخلها في (٢١ ذي القعدة ٤٦٨هـ/ ٢٦ حزيران ١٠٧٦م)، وأقيمت الخطبة فيها للخليفة العباسي المقتدي (٤٦٧ ـ ٤٨٧هـ/ ١٠٧٥ ـ ١٠٩٤م)، وقُطعت للمستنصر الفاطمي، ومُنِع الأذان بـ «حيَّ على خير العمل» بعد أن كان يؤذن به على منابر دمشق وسائر بلاد الشام مائة وستة أعوام. وتلقَّب أتسز بلقب الملك المعظم[٤]، وأضحى سيد بلاد الشام تقريباً، فامتد نفوذه ما بين حمص حتى أقصى فلسطين باستثناء الساحل، لأن الفاطميين كانوا يسيطرون على المنطقة ما بين طرابلس حتى عسقلان، ودعاه المؤرخون والناس بصاحب الشام، وأخذ يمارس سلطاته باسم السلاجقة حيث بدأت تتشكَّل ملامح دولة السلاجقة في بلاد الشام[٥].

محاولة أتسز ضم حلب

تطلع أتسز إلى مدِّ سلطانه نحو الشمال بضمِّ حلب إلى الأملاك السلجوقية، وإخضاع تركمان رفنية الذين ساندوا أخاه شكلي، فاستغل فرصة وفاة محمود بن

---

(١) ابن القلانسي: ص ١٦٧. ابن الأثير: جـ ٨ ص ٢٥٦.
(٢) ابن القلانسي: المصدر نفسه ص ١٦١. (٣) المصدر نفسه: ص ١٧٤.
(٤) المصدر نفسه: ص ١٧٥. ابن الأثير: جـ ٨ ص ٢٥٦ ـ ٢٥٧. ابن العديم: زبدة الحلب: جـ ١ ص ٢٨٢.
(٥) ضامن: ص ١٠٠.

نصر المرداسي في شهر (جمادى الأولى ٤٦٧هـ/ كانون الثاني ١٠٧٥م) لمهاجمتها. والمعروف أن محموداً أوصى بالحكم من بعده إلى ابنه الأصغر شبيب، ويبدو أن أعيان البلد وقادة الجند كان لهم رأي آخر، فرفضوا تنفيذ الوصية واختاروا نصراً، الابن الأكبر لمحمود، وبايعوه أميراً على حلب[1].

هاجم أتسز القرى الجنوبية لحلب في (شهر رجب ٤٦٨هـ/ شباط ١٠٧٦م) في خطوة تمهيدية لإخضاعها، فضمَّ رفنية، ومنحها لأخيه جاولي، وتردَّدت سراياه في جميع بلاد الشام الشمالية، وتمادى في الضغط على السكان وعلى نصر بن محمود، وفجأة دخل الرجلان في مفاوضات للتفاهم على الصلح، فطلب أتسز:

١ ـ أن يتنازل له نصر عن حكم حلب.

٢ ـ التقارب الأسري، وذلك بزواج أتسز من أخت محمود بن نصر.

٣ ـ أن يدفع له نصر قسماً من الأموال التي تركها والده محمود.

وافق نصر بن محمود على قبول البند الثالث، وَقبل أن يدفع لأتسز مبلغ خمسة عشر ألف دينار، ورفض الموافقة على البندين الأول والثاني[2].

ويبدو أن المفاوضات لم تُستكمل، إذ أن أتسز تعجَّل بالعودة إلى دمشق. فما الذي تغيَّر في الأفق السياسي حتى أقدم على هذه الخطوة؟

الواقع أن هناك عدة أسباب دفعت أتسز لمغادرة حلب لعل أهمها إثنان:

١ ـ قوة حلب، واعتماد نصر بن محمود على بقايا الناوكية بقيادة أحمد شاه.

٢ ـ علم أتسز بنية السلطان ملكشاه بإقطاع بلاد الشام إلى أخيه تاج الدولة تُتُش[3].

ترك أتسز قبل عودته إلى دمشق أخاه جاولي في الشمال، وأمره بتنفيذ سياسته تجاه حلب والمناطق الشمالية، فراح يغير على المدينة منطلقاً من رفنية، مما دفع نصراً بن محمود إلى أن يرسل قوة عسكرية بقيادة أحمد شاه لقتاله ووقف غاراته. واصطدم الطرفان في رحى معركة ضارية في حماة أسفرت عن انتصار القوات الحلبية، وفرَّ جاولي في جو الهزيمة القاتم إلى رفنية، ثم غادرها إلى دمشق[4].

---

(١) ابن القلانسي: ص ١٧٣. ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان: جـ ٤ ص ٤٤٠. ابن العديم: جـ ١ ص ٢٨٠.

(٢) ابن العديم: المصدر نفسه: ص ٢٨١ ـ ٢٨٢. ضامن: ص ١٠١.

(٣) ضامن: ص ١٠٢.

(٤) ابن العديم: زبدة الحلب: جـ ١ ص ٢٨٢.

محاولة أتسز ضم مصر

أراد أتسز بعد أن أضحى سيد بلاد الشام، المحافظة على مكتسباته، واعتقد أنه إذا نجح في ضم مصر فإنه سوف يقطع الطريق على مشروع السلطان ملكشاه بإرسال أخيه تُتُش إلى بلاد الشام، فأحيا المشروع السلجوقي العام بالقضاء على الدولة الفاطمية في مصر. وربما فكَّر في اتخاذ مصر ملجأً وملكاً له فيما إذا حاول السلاجقة الاستئثار ببلاد الشام، أو أنه خشي أن يُقدِم الفاطميون على مهاجمته، كما أن كاتبه ابن بلدكوز أغراه بغزو مصر بعد أن ساءه تحكُّم بدر الجمالي واستبداده بالأمور فيها[1]. ورأى قبل أن يزحف نحو مصر أن يحمي مؤخرة جيشه بضم المدن الساحلية وضمان عدم مساعدة حكامها لمصر أثناء مهاجمتها، ولعله اعتقد أن سيطرته على الطرق التجارية الداخلية في وسط بلاد الشام، سوف يعطيه الفرصة للتضييق على الثغور الساحلية والسيطرة عليها، وبخاصة طرابلس وصور، إذا استثنينا عكا التابعة مباشرة لبدر الجمالي.

خرج أتسز من دمشق في جمع عظيم قاصداً الساحل، فهاجم طرابلس، لكن جلال الملك ابن عمار صدَّه عنها، فتوجه جنوباً طمعاً في ضم صور، ولما لم يتمكَّن من دخولها عقد مع أميرها النفيس بن محمد بن أبي عقيل هدنة مشروطة بأن يسمح للأتراك بدخول المدينة، فيبيعون ويشترون ولا يقيمون فيها[2].

ولا شك بأن أتسز حقَّق بعض أهدافه بأن أخذ من صور عهداً بمنح الأتراك ميزات تجارية، حيث تمَّ له فتح أبوابها للتجارة مع الداخل في ظل استمرار إقامة الخطبة للفاطميين.

وبعد أن هيَّأ الظروف التي تسمح له بمهاجمة مصر، تقدم على رأس جيش من الأكراد والتركمان والعرب يقدر بعشرين ألف مقاتل، باتجاه الدلتا عن طريق الساحل، فبلغ أطراف مصر في (شهر ربيع الأول ٤٦٩هـ/ شهر تشرين الأول ١٠٧٧م)، دون أن يصادف مقاومة تُذكر، وعسكر في الدلتا مدة خمسين يوماً دون أن يزحف نحو القاهرة مرتكباً خطأً عسكرياً، لأن بدر الجمالي المتسلط على الأمور العامة في مصر، كان آنذاك غائباً عنها لإخماد بعض الثورات في الصعيد، وكانت القاهرة خالية ممن يحميها أو يدافع عنها، وانتشرت قواته في ربض مصر وقراها، فضايقوا السكان وأساءوا

---

(١) المقريزي: جـ ٢ ص ٣١٧.

(٢) ابن القلانسي: ص ١٧٦.

السيرة، فكتب زعماء القرى إلى المستنصر الفاطمي يشكون إليه ما أصابهم[1].

وعندما علم بدر الجمالي بوجود أتسز في مصر، عاد إلى القاهرة على وجه السرعة، فجنَّد القادرين على حمل السلاح، واستدعى من كان بالصعيد من العساكر السودان، كما جنَّد ثلاثة آلاف حاج كانوا يستعدون للسفر إلى بلاد الحجاز لمعاونته في القتال، فبلغ عدد أفراد جيشه زهاء ثلاثين ألفاً[2].

ولما تقدم أتسز نحو القاهرة، خرج بدر الجمالي للتصدي له، وحاول قبل بدء المعركة أن يُضعف من قوة خصمه، فاستقطب العرب في جيشه عن طريق إثارة النعرات العنصرية، فخرج ألفا جندي من الجيش السلجوقي بقيادة حازم الكلبي، مما أثَّر سلباً على معنوياته، فقرَّر عدم خوض المعركة والعودة إلى بلاد الشام، لكن قادة جيشه أرغموه على القتال، فاشتبك مكرهاً مع قوات بدر الجمالي يوم الخميس في (١٦ رجب ٤٦٩هـ/ ١٣ شباط ١٠٧٧م)، وأسفر اللقاء عن هزيمته وفرار جنده. وطاردهم الجيش الفاطمي حتى الرملة، وعاد أتسز إلى دمشق[3].

نجم عن هزيمة أتسز نوعان من رد الفعل: الأول داخلي، تجلَّى بوقوف أهل دمشق إلى جانبه اصطناعاً بفعل ضعفهم، وعصيان مدن بلاد الشام الجنوبية على حكمه بعد أن عدَّت هزيمته بمثابة النهاية له. والثاني خارجي، تمثَّل في شعور الدوائر السلجوقية في المشرق بعجز أتسز عن القيام بمثل هذه المهمة الضخمة. وعلى الرغم من أن الرجل لم يكن سلجوقياً إلا أن هزيمته كانت أول هزيمة بارزة للنفوذ السلجوقي أمام القوة الفاطمية، وقد أدرك أتسز هذه الظاهرة، لذلك أسرع بالكتابة إلى بغداد بأنه ينوي العودة إلى مصر وأنه يجمع العساكر.

ويبدو أن السلطان السلجوقي لم يقتنع أن بإمكان أتسز مهاجمة مصر مرة ثانية، أو لعله أراد استغلال تراجع قوته، للعودة إلى مشروعه السابق بمنح بلاد الشام إقطاعاً لأخيه تُتُش، وبخاصة أن الأمور لم تجر على نحو طيب هناك بعد ثورة سكان بيت المقدس على حكمه وعصيان بعض المدن الرئيسية في بلاد الشام. وهكذا أقطع السلطان السلجوقي أخاه تُتُش بلاد الشام وما يفتحه من تلك النواحي، وأمره بالمسير في (أوائل عام ٤٧٠هـ/ منتصف عام ١٠٧٧م)، وهذا يعني أن أتسز سوف يخضع للنفوذ السلجوقي المباشر.

---

(١) ابن القلانسي: ص ١٧٦ ـ ١٨١. ابن ميسر ص ٢٥. ابن الأثير: جـ ٨ ص ٢٦٠ ـ ٢٦١.
(٢) المقريزي: جـ ٢ ص ٣١٧.
(٣) ابن القلانسي: ص ١٨١.

الفصل الخامس

الاستقرار السلجوقي في بلاد الشام

تعيين تُتُش حاكماً على بلاد الشام

بعد أن ثبَّت السلطان ملكشاه أقدامه في الحكم، واطمأن على سلطنته، التفت إلى بلاد الشام، وأحيا مشروع أبيه السلطان ألب أرسلان بغزو هذه البلاد وضمِّ مصر إليها والقضاء على الدولة الفاطمية، فاختار أن يولي على هذه الجبهة البعيدة أميراً سلجوقياً لصيقاً به وبالأسرة السلطانية، يعمل على إدخال هذه البلاد تحت حماية السلطنة السلجوقية، ويشغله في الوقت نفسه عن التفكير بالشغب عليه أو منافسته، ويؤمِّن الإقطاع لقسم كبير من الجيش السلجوقي المتزايد[1].

وكان تُتُش قد اختص بمجموعة من المماليك الذين يتولون تربيته وتدريبه وشنَّ الحملات باسمه والدفاع عنه؛ على عادة السلاجقة، لأنه كان لا يزال فتى.

وسرعان ما انتشرت الأخبار بما عزم السلطان عليه، وبلغت مسامع أتسز الخوارزمي صاحب بلاد الشام، فكتب إلى السلطان يشرح له ما بذله من جهد في خدمة الدولة السلجوقية، وأنه ما يزال الخادم المطيع، ووعده بدفع مبلغ ثلاثين ألف دينار في السنة مقابل إبقائه حاكماً على بلاد الشام.

كان الوزير نظام الملك يعارض مشروع السلطان، فلما وقف على كتاب أتسز أرسل إليه قباء السلطان وقلنسوته وفرسه وسيفه وترسه، تشريفاً وإكراماً وطيَّب خاطره.

غير أن السلطان ملكشاه، أصرَّ على تنفيذ مشروعه، فولَّى أخاه تاج الدولة تُتُش حكم بلاد الشام وما يفتحه في تلك النواحي، كما أشرنا، وأمره بالمسير إليها، وكتب إلى القوى المتمركزة في إقليم الجزيرة وبلاد الشام بالانضمام إليه ومساعدته، كان من بينها مسلم بن قريش العقيلي أمير الموصل ووثاب بن محمود، وزعماء

(١) مصطفى: ص ١٤٥.

القوى التركية، مثل الأفشين، وبكجي، وصندق الحاجب، ومحمود بن دملاج، وابن طولون، وابن بريق وغيرهم، وتكشف هذه الكتب الأخيرة أنه كان ثمة عدد من القادة الأتراك في المنطقة يعملون لحسابهم الخاص ضمن الولاء السلجوقي العام[١]. وجاء تُتش إلى بلاد الشام حاملاً معه المشروع السلجوقي، وعندما علم أتسز بتحركه، أرسل إلى السلطان الهدايا والأموال ورسالة تزلف، فكتب السلطان إلى أخيه تُتُش أن لا يتعرض إلا إلى الشام الأعلى ويقصد ناحية حلب.

محاولة تُتُش ضم حلب

تعرَّضت القوى السياسية في حلب آنذاك للانقسام، بعد وفاة نصر بن محمود في شهر (شوال ٤٦٨هـ/ أيار ١٠٧٦م). إذ تنازع أخواه سابق ووثَّاب على حكم الإمارة، ونجح الأول في اعتلاء الحكم بمساعدة أحمد شاه التركي مما أزعج الثاني ومن سانده من العرب، فالتجأ إلى السلطان ملكشاه في خراسان، وطلب منه أن يساعده ضد أخيه سابق.

والواضح أن السلطان السلجوقي تفهَّم القضية، لكن من وجهة نظر واحدة، وقد أقنعه وثَّاب بصوابية رأيه، فوعده بالمساعدة، ووقَّع له إقطاعاً في بلاد الشام.

مما لا شك فيه أن التجاء وثَّاب إلى السلطان السلجوقي أملته ظروف المنطقة والواقع السياسي على الأرض. فالقوى المحيطة ببلاد الشام كانت أضعف من أن تقف في وجه أحمد شاه. فالبيزنطيون كانوا منهمكين في صدِّ الغارات السلجوقية على أراضيهم بالإضافة إلى النورمان في آسيا الصغرى وأوروبا، فلم يلتفتوا إلى ما كان يجري على أطرافهم الجنوبية والشرقية. أما الدولة الفاطمية فكانت ضعيفة وهي تمر في مراحل شيخوختها، وسيطرتها على مدن الساحل كانت مزعزعة، ولا تملك القدرة على التأثير والتغيير، ودمشق واقعة تحت حكم أتسز، وأن القوة الوحيدة التي كانت تملك سلطة اتخاذ القرار وفرضه، موجودة في خراسان وتتمثل في السلطان ملكشاه[٢].

ومهما يكن من أمر، فقد تحرَّك تُتُش غرباً في (شهر محرم ٤٧٠هـ/ آب ١٠٧٧م) متوجهاً إلى حلب لانتزاعها من يد سابق بن محمود المرداسي وضمِّها إلى الأملاك السلجوقية، وعندما وصل إلى ديار بكر، انضم إليه الحاجب إيتكين

---

(١) مصطفى: ص ١٥٢.
(٢) ضامن: ص ١٠٧.

السليماني، وعدد من أمراء بني كلاب ممن كان يساند وثَّاب، وساروا في ركابه[1].

وعندما علم سابق بزحف تُتُش باتجاه أراضي إمارته استعد للتصدي له، وأرسل إلى أحمد شاه، وكان يحاصر أنطاكية يستدعيه لمساندته. وتعرَّضت حلب للحصار (لثلاث خلون من ذي القعدة ٤٧٠هـ/ ١٨ آذار ١٠٧٨). ثم رأى تُتُش أن يرفع الحصار، وانسحب عدة أميال بعيداً عن أسوار المدينة. ويبدو أن ذلك كان خطة عسكرية بهدف استدراج المدافعين عنها للخروج منها، فيصطدم بهم خارجها، وربما هدف إلى إعادة تنظيم صفوف قواته استعداداً لحصار طويل.

ومهما يكن من أمر، فقد عاد تُتُش إلى أسوار حلب واستأنف حصارها. استمر الحصار مدة ثلاثة أشهر وعشرين يوماً، ثم رفعه مرة ثانية، ويبدو أن لذلك علاقة بـ:

ـ تجدُّد الصحوة العربية، ضد الوجود التركي، قادها مسلم بن قريش، وكان يعمل ضمنياً مع سابق ويجهد على تقوية موقفه، وذلك بدافع عروبته، إذ كان يُنكر على بني كلاب «خلطتهم بعسكر الترك»، ونصحهم بالرحيل إلى البادية أو الدخول إلى حلب للمساعدة والدفاع عنها. ومما شجَّعه على اتخاذ هذا الموقف مقتل أحمد شاه أثناء الحصار، حيث ضعفت قوة الأتراك بعد مقتله، وانحسر نفوذهم في المدينة[2]. تنبَّه بنو كلاب، واستفاقوا بعد غفلة، وهم الذين كانوا يكرهون الأتراك، فإذا بهم يستقدمونهم إلى حلب. ومن جهته رأى سابق أن مصلحته تقضي بفك ارتباطه مع الأتراك والعودة إلى الحظيرة العربية، فراسل بني كلاب وتألَّفهم وكتب إليهم يقول: «إني إنما أذبُّ وأُحامي عن بلادكم وعزكم، ولو صار هذا البلد إلى تُتُش لزال ملك العرب وذُلُّوا»[3].

ـ انسحاب مسلم بن قريش بعد أن كشف تُتُش توجهه العربي ووقوفه إلى جانب سابق، مما أضعف موقف الزعيم السلجوقي، إذ لا يمكنه الاستمرار في حصار حلب بدون مساعدة العرب.

ـ تدمير النجدة التي طلبها تُتُش. فقد اضطر نتيجة تخلِّي القوى العربية عنه إلى طلب النجدة من أخيه السلطان ملكشاه على أن تحمل معها آلات الحصار. استجاب السلطان لطلب أخيه، وأرسل إليه قوة عسكرية تقدر بألف فارس مجهزين بآلات

---

(١) ابن القلانسي: ص ١٨١. ابن العديم: جـ ١ ص ٢٨٩.

(٢) العظيمي: ص ٣٣١. ابن القلانسي: ص ١٨٣. ابن العديم: جـ ١ ص ٢٨٩ ـ ٢٩٠.

(٣) ابن العديم: المصدر نفسه ٢٩٠.

الحصار، بقيادة تركمان التركي، غير أن هذه النجدة لم تصل إلى حلب، وتشتَّتْ قبل ذلك، حيث قضى عليها سابق بالتعاون مع مسلم بن قريش في وادي بزاعة، فتحرَّج موقف تُتُش نتيجة ذلك. وما إن ابتعدت قواته عن أسوار حلب وهي تطارد البدو العرب، حتى خرجت القوات الحلبية من وراء الأسوار وهاجمت معسكراته وغنمت ما كان فيها[١].

ويبدو أنه لم يحقق أي نجاح في مطاردته للعرب، وعندما علم بنهب معسكراته، قرَّر عبور الفرات للانتقام من مسلم بن قريش، ولكن هذا الأخير كان يقظاً، فاضطر مكرهاً إلى التخلِّي عن خطته وذهب إلى ديار بكر حيث أمضى فصل الشتاء في مضارب بني مروان[٢].

وهكذا تفرَّق التحالف الذي أنشأه السلطان ملكشاه، وأخفق أمام أسوار حلب، وذلك بفعل وعي العرب. وكتب تُتُش من مشتاه إلى أخيه يشرح له ما آلت إليه الأوضاع في شمالي بلاد الشام ويطلب منه نجدة أخرى، ثم غادر مع قواته الجديدة التي وصلت إليه متوجهاً إلى حلب للاستيلاء عليها، ووضع خطة عسكرية جديدة تقضي بتجريد المدينة من أعمالها الحصينة وعزلها قبل أن ينقضَّ عليها، وبدأ بمنبج، فاستولى عليها كما استولى على حصون الفايا والدير وبزاعة وعزاز وجبرين وسرمين والخناقية، وترك فيها حاميات عسكرية، وبذلك يكون قد عزل حلب، ثم توجه بعد ذلك إليها ووصل إلى أسوارها في شهر (ذي الحجة ٤٧١هـ/ حزيران ١٠٧٩م). وقبل أن يستكمل استعدادات فرض الحصار، انقضَّت القوات الحلبية على قواته وفاجأتها، فأسقط في يده، وأدرك أخيراً عدم جدوى الاستمرار في الحصار والاستيلاء على حلب، فيمَّم وجهه نحو الجنوب[٣].

تُتُش يستولي على دمشق

غادر تُتُش وقواته المنهكة مدينة حلب وفي نفسه شيء منها متوجهاً نحو الجنوب، فاستولى على حماة والمعرَّة وما جاورهما، وأطاعه أمير حمص خلف بن ملاعب، فأقرَّه على حكمها.

وإذا كان التوغل السلجوقي في بلاد الشام قد بدأ بوصول تُتُش، إلا أنه لم

---

(١) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، الحوادث الخاصة بتاريخ السلاجقة بين الأعوام ٤٤٨ ـ ٤٧٩ هـ ص ١٩٨.
(٢) ابن القلانسي: ص ١٨٣.
(٣) ابن القلانسي: ص ١٨٣. ابن العديم: جـ ١ ص ٢٩٣ ـ ٢٩٤.

يحقق حتى ذلك الوقت أي إنجاز يُذكر، وتبيَّن من خلال أعماله أنه قائد تركي آخر لا يختلف عن القادة الذين سبقوه بما أحدثه من تدمير وسلب ونهب، لكن الفرصة ما لبثت ان سنحت له ليضع يده على مقدرات بلاد الشام ويؤسس دولة سلجوقية في ربوعها، وكان لذلك علاقة بالمحاولات الفاطمية الهادفة إلى استعادة نفوذ الفاطميين في هذه البلاد. فقد حدث أن أرسل بدر الجمالي جيشاً فاطمياً بقيادة ناصر الدولة الجيوشي إلى بلاد الشام لإعادة بسط السيادة الفاطمية عليها، فحاصر دمشق في عام (٤٧١هـ/١٠٧٩م) واستولى على أعمالها وأعمال فلسطين[١].

أدرك أتسز أنه لا قِبل له بهذا الجيش الكبير، فاضطر أن يطلب المساعدة من تُتش، ووعده بتسليمه دمشق، ويكون تابعاً له[٢]، وكان هذا هو الحل الوحيد أمامه، وهو أن يضع نفسه تحت الحماية المباشرة للسلاجقة العظام.

رحَّب تُتُش بهذه الدعوة، وكان ينوي متابعة زحفه إلى دمشق بعد فشله أمام حلب، وسار قاصداً المدينة لنجدتها. ولم يكد يقترب منها حتى فكَّ ناصر الدولة الجيوشي الحصار عنها وانسحب باتجاه الجنوب، لأن قواته كانت عاجزة عن أن تقف في وجه القوة السلجوقية، وبخاصة أن طرابلس وصور امتنعتا عن تقديم المساعدة له، بل إن حكامهما صانعا السلاجقة بالهدايا والملاطفات[٣].

وعندما وصل تُتُش إلى مرج عذراء الواقع إلى الشمال الشرقي من دمشق، استقبله أتسز، فبذل له الطاعة وسلَّمه البلد. وبعد أن أقام بضعة أيام في مرج عذراء توجَّه إلى المدينة، فاستقبله أتسز عند أسوارها ولم يذهب أبعد من ذلك للقائه[٤]، فاغتاظ منه تُتُش وعاتبه على ذلك، فاعتذر بأمور لم يقبلها. ويبدو أن تُتُش خشي من طموحات أتسز، ولم يطمئن إلى وجوده إلى جانبه، فاتخذ من ذلك حجة وتخلَّص منه، كما قتل أخاه جاولي، وتسلَّم دمشق دون قتال وأسس لنفسه ولأسرته حكماً فيها[٥].

والراجح أن هذا العمل يندرج ضمن لعبة التنافس على النفوذ الذي كان سائداً آنذاك بين الأمراء السلاجقة وبين ولاتهم في الجزيرة وبلاد الشام. وبذلك أضحى تُتُش يسيطر على الأقاليم الوسطى من بلاد الشام، وجهد بعد ذلك للعمل على:

---

(١) ابن القلانسي: ص ١٨٣. ابن العديم: جـ ١ ص ٢٩٣ ـ ٢٩٤.

(٢) ابن القلانسي: المصدر نفسه. (٣) ابن القلانسي: ص ١٨٢.

(٤) المصدر نفسه، وقارن بابن الأثير: جـ ٨ ص ٢٦٩.

(٥) المصدران نفساهما: ص ١٨٢ ـ ١٨٣. ص ٢٦٩.

- بسط سلطانه على كامل بلاد الشام، وبخاصة المدن الساحلية التي كانت تدين بالطاعة للدولة الفاطمية، أو تُحكم من قِبلها مباشرة.

- إنشاء دولة أخرى للسلاجقة في هذه البلاد يتولى حكمها بمعزل عن السلاجقة العظام في خراسان وفارس.

زوال الإمارة المرداسية وقيام الإمارة العقيلية في حلب

بعد أن تفرَّد تُتش بحكم دمشق، خشي الأفشين، وهو أحد القادة الأتراك الذين قدموا معه، أن يلقى مصيراً كمصير أتسز، فغادر دمشق مع القسم الأكبر من الأتراك الذين رافقوا تُتش، وتوجَّه إلى الشمال نحو الأراضي البيزنطية، فدمَّر في طريقه معظم مدن شمالي الشام بحيث لم يبق في أعمال حلب قرية مسكونة من بلدة المعرة إلى حلب، وهرب من سلم إلى الموصل محتمين بشرف الدولة مسلم بن قريش العقيلي[1].

ويبدو أن حملة الأفشين وأعماله الوحشية، كانت وفق تخطيط مسبق مع تُتُش لتمهيد الطريق للأخير للاستيلاء على شمالي بلاد الشام وضمِّها إلى الجنوب، بدليل أن تُتُش خرج وراءه مباشرة بحجة تعقُّبه، إلا أنه قصد حلب ليستولي عليها، وحاصرها أياماً غير أنه عجز عن اقتحامها، ففك الحصار عنها وتوجه شمالاً، فنهب القرى المحيطة بالمدينة، ثم عاد إلى دمشق محملاً بالغنائم[2].

نتيجة هذا الضغط الشديد والمتواصل، رأى أهل حلب أنه لا بد لهم من قوة تحميهم وتحفظ لهم مدينتهم، وبدا لهم بأن مسلم بن قريش هو الرجل الذي يمكنه أن يقوم بهذه المهمة، وبخاصة أنه ساند حلب وأهلها في أيام محنتها مع تُتُش، كما أكرم وفادة الذين التجأوا إليه هرباً من الأفشين، بالإضافة إلى أنه عربي، لذلك اختاروه ليسلِّموه حلب، وقد استبعدوا الاستعانة بملكشاه لأنه كان بعيداً عن مسرح الأحداث، ومنهمكاً بأمور المشرق، وربما ظنوا بأنه راض عن التخريب الذي أحدثه السلاجقة تحت سمعه، بهدف السيطرة على بلاد الشام وضمِّها إلى الأملاك السلجوقية، كما تجنَّبوا دعوة تُتُش أو الأفشين بفعل ما ظهر من أطماعهما وعدائهما نحو البلد وأهله.

نتيجة هذا التوجه السياسي، ذهبت عدة وفود وجماعات تمثل مختلف شرائح المجتمع الحلبي إلى الموصل لطلب المساعدة، كما أرسل أحداث حلب، بقيادة

---

(١) ابن العديم: جـ ١ ص ٢٩٨ ـ ٢٩٩.

(٢) المصدر نفسه: ص ٢٩٩. ابن القلانسي: ص ١٨٣. ابن الأثير: جـ ٨ ص ٢٧٢.

الشريف حسن بن هبة الله الهاشمي، المعروف بالحتيتي، وكانوا يمثلون قوة يُحسب حسابها، رسالة استغاثة، وطلبوا من مسلم بن قريش التحرك إلى بلاد الشام وإنقاذه من السلاجقة، حتى أن سابق بن محمود أمير حلب كتب إليه يعرض عليه التنازل له عن الإمارة وقال في رسالته: «أنت أولى بي من الغز، والعربية تجمعنا، فإن كنتُ مأكولاً فكن أنت بآكلي»[1].

اتصف مسلم بن قريش بالطموح السياسي، من خلال تأسيس دولة قوية وقادرة على التصدي للزحف السلجوقي، تضمُّ بلاد الشام وإقليم الجزيرة، لذلك قرَّر الاستجابة الفورية لطلب الحلبيين، لكنه كان بحاجة إلى موافقة السلطان ملكشاه على مخططه، خشية أن يقوم هو أو أحد قادته بمهاجمة الموصل بعد أن يغادرها إلى بلاد الشام، بالإضافة إلى سلامة موقفه أمام تُتُش الطامع في السيطرة على حلب، وحتى لا يتهمه بالخروج على إرادة السلطان ويتخذ من ذلك حجة لمهاجته، فأرسل ابنه من زوجته خاتون، أخت السلطان ألب أرسلان وعمة السلطان ملكشاه، إلى خراسان، فاجتمع بهذا الأخير وعرض عليه دفع مبلغ ثلاثمائة ألف دينار سنوياً مقابل:

- الموافقة على توحيد بلاد الشام وإقليم الجزيرة تحت حكم والده.
- يمارس مسلم بن قريش سلطانه باسم السلطان ويكون تابعاً له.
- يمتنع السلطان عن مهاجمة الموصل[2].

وافق السلطان ملكشاه على العرض، وطلب من مسلم بن قريش التحرك باتجاه حلب. وفعلاً غادر هذا الأخير مقر إمارته في الموصل متوجهاً نحو الغرب، فمرَّ بقلعة جعبر بن مالك، وكان جعبر هذا قد اتخذ من القلعة قاعدة انطلاق لمهاجمة القوافل التجارية وقطع الطرق على المسافرين، فحاصرها، واضطر صاحبها إلى مصالحته، وتعهَّد له بالتوقف عن أعماله العدائية، ثم تابع زحفه حتى وصل إلى حلب في (١٦ ذي الحجة ٤٧٢هـ/ ٥ حزيران ١٠٨٠م) ومعه بنو كلاب وسائر القبائل من كلب ونمير وغيرهما، وقد دخلوا في طاعته خوفاً من الغز[3]، فدخلها بالأمان، ومع ذلك فقد جوبه بمعارضة سابق بضغط من أخويه شبيب ووثّاب اللذين أزعجهما تنازل أخوهما عن الحكم لصالح بني عقيل مما ينذر بزوال حكم المرداسيين. وتحصَّن بالقلعة، فحاصرها مسلم بن قريش، ثم جرى الاتفاق بينه وبين

(١) سبط ابن الجوزي: ص ٢٠٣.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) العظيمي: ص ٣٣١. ابن القلانسي: ص ١٨٣. ابن العديم: ج ١ ص ٣٠٠.

سابق على تسليمه القلعة مقابل زواجه بأخته، ومالاً يدفعه له. وما إن نزل سابق من القلعة، حتى قبض عليه أخواه واستوليا عليها، فاضطر مسلم بن قريش إلى حصارها. استمر الحصار مدة أربعة أشهر لم يتمكَّن مسلم بن قريش خلالها من اقتحامها، فاستاء من الحلبيين، وقرَّر مغادرة حلب والعودة إلى الموصل، لكن مساندة قبيلة كلاب، وبعض أعيان الإمارة له، أقنعه بالبقاء في حلب ومتابعة الحصار. واستمرت في غضون ذلك الخلافات الأسرية بين المرداسيين، فاستغل علي بن مقلد بن منقذ أمير كفرطاب هذه الفرصة وتوسط بينهم وبين مسلم بن قريش، وأقنعهم بالتخلي عن القلعة وتسليمها لمسلم مقابل تعويضات مالية وإقطاعات لكل منهم، ولما كان هؤلاء في موقف ضعيف، وافقوا على الصفقة، فنزلوا من القلعة وتسلمها مسلم بن قريش يوم الأحد (١٠ ربيع الآخر ٤٧٣هـ/ ٢٨ أيلول ١٠٨٠م) وأقطع شبيباً ووثاباً قلعتي عزاز والأثارب وعدة ضياع أخرى، كما أقطع سابقاً مواضع في أعمال الرحبة[١]، فزالت بذلك الإمارة المرداسية بعد أن عمَّرت ستين عاماً تقريباً حفلت بالنزاعات الأسرية، وقامت الإمارة العقيلية، وأضحى مسلم بن قريش حاكماً على شمالي بلاد الشام بالإضافة إلى إقليم الجزيرة وأجزاء من العراق.

تأسيس إمارة بني منقذ في شيزر

اتصف علي بن مقلد بن منقذ، أمير كفرطاب، بالطموح السياسي، فأراد تأسيس إمارة لأسرته أسوة بسائر الأسر العربية في المنطقة، فتطلع إلى فتح قلعة شيزر المنيعة واتخاذها قاعدة له. كانت هذه القلعة تحت حكم أسقف البارة، ويدين بالطاعة للبيزنطيين.

أدرك علي بن المقلد أنه يصعب عليه فتح شيزر قهراً بعد حصار نظراً لشدة مناعتها، لذلك وضع خطة عسكرية لإجبارها على الاستسلام. ومن أجل تحقيق هذا الهدف بنى قلعة على العاصي بالقرب منها أصبحت تُعرف باسم قلعة الجسر، فتحكَّم بالطرق المؤدية إليها. والواقع أن خطته نجحت، فقد نفدت المؤن والذخائر من القلعة، واشتد الأمر بالمحاصرين، فمالوا إلى التفاهم مع الأمير العربي، واقتنع أسقف البارة بالتنازل له عن شيزر مقابل مبلغ من المال، ودخلها علي بن مقلد يوم الأحد (١٥ رجب ٤٧٤هـ/ ٢٠ كانون الأول ١٠٨١م)[٢].

---

(١) ابن العديم: جـ١ ص ٣٠١ ـ ٣٠٣.

(٢) ابن القلانسي: ص ١٨٤. سبط ابن الجوزي: ص ٢٠٦. ابن العديم: جـ ١ ص ٣٠٦.

العلاقة بين مسلم بن قريش وتُتُش

أجرى مسلم بن قريش ترتيبات إدارية جديدة في حلب، فعزل الوزير ابن النحاس وولَّى مكانه أبا منصور عيسى بن بطرس النصراني[1]، وأحسن إلى الحلبيين، فخفَّف عنهم أثقالاً كثيرة، وصفح عن كُلَف كانت عليهم في أيام بني مرداس، ونُقلت الغلات إلى حلب، فرخصت الأسعار بعد الغلاء الشديد[2].

وراودت مسلم بن قريش أحلام التوسع، من خلال القضاء على الجزر المنتشرة في بلاد الشام وضمِّها إلى أملاكه، وبدأ بشيزر، على الرغم من العلاقات الجيدة التي تربطه بأميرها. والواضح أن مسلم بن قريش أزعجه قيام إمارة جديدة في بلاد الشام قد تشكل عقبة في توحيدها تحت حكمه، لذلك تحرك بسرعة لانتزاع شيزر من يد علي بن مقلد، فجهَّز جيشاً عهد بقيادته إلى أخيه علي بن قريش وأرسله إلى شيزر، ولما وصل إليها ضرب الحصار عليها، إلا أنه عجز عن اقتحامها لأن أميرها قد شحنها بالمعدات والوسائل التي تكفل صمودها في وجه أي حصار، بالإضافة إلى متانتها ومناعتها. عندئذ خرج مسلم بن قريش بنفسه على رأس جيش جديد وحاصرها، إلا أنه ما لبث أن تركها نظراً لشدة مناعتها، ومقاومة أهلها، وتوجه نحو حمص، وترك تحت أسوارها قوة عسكرية لمواصلة الحصار بقيادة أخيه. ويبدو أن الحصار المتواصل ضايق أهل شيزر، فمالوا إلى التفاهم مع مسلم بن قريش، فأرسلوا وفداً إلى حمص من أجل هذه الغاية، عرض عليه مبلغ عشرة آلاف دينار والتبعية مقابل رفع الحصار عن قلعتهم، فقبل مسلم بن قريش العرض وأمر أخاه بفك الحصار عن شيزر[3].

التفت مسلم بن قريش بعد ذلك إلى إمارة بني نمير في حران، لضمِّها إلى أملاكه[4]، ثم جرَّد جميع أمراء الأسرة المرداسية من أملاكهم، واستولى على جميع القرى والأراضي الجبلية التي كانت في أيدي الأتراك، منها تل أغدى وبيت لاها وكفرنبل، وأضحى شمالي بلاد الشام حتى حماة خالياً من الأتراك[5].

وتطلع مسلم بن قريش إلى التمدد باتجاه الشمال والشمال الشرقي بعد أن أمَّن ضمَّ الأراضي الواقعة جنوبي حلب، فمدَّ نفوذه إلى مدينتي الرها وأنطاكية، وكانتا

---

(١) ابن العديم: المصدر نفسه ص ٣٠٢.
(٢) المصدر نفسه: ص ٣٠٣.
(٣) ابن العديم: جـ ١ ص ٣٠٦ ـ ٣٠٧. ضامن: ص ١١٧.
(٤) ابن الأثير: جـ ٨ ص ٢٧٩.
(٥) ابن العديم: جـ ١ ص ٣٠٧.

تابعتين للدولة البيزنطية[1]، ثم التفت مجدداً نحو الجنوب وهو عازم على ضمِّ كافة المدن والقرى، والوصول إلى دمشق لضمِّها هي الأخرى، فانتزع حمص من يد أميرها خلف بن ملاعب، لكن استعصت عليه القلعة، وعلم أثناء حصارها بأن تُتش يتجهز للتحرك ضده للقضاء عليه ووضع حد لطموحه.

والواقع أن تُتش أزعجه قيام إمارة قوية في شمالي بلاد الشام تقف حجر عثرة في طريق توسعه شمالاً، لذلك قرَّر القيام بحملة للقضاء على إمارة مسلم بن قريش في حلب.

أدرك مسلم بن قريش أنه لا قِبَل له بمواجهة قوة تُتُش دون استعداد كاف، فآثر السلامة، ثم عقد صلحاً مع خلف بن ملاعب وانسحب شمالاً إلى حلب، وتوجه بعد ذلك إلى الموصل لإعداد جيش قوي يجابه به قوة تُتش[2].

وهكذا أضحى الصراع مكشوفاً بين مسلم بن قريش، الذي كان يعمل على توحيد بلاد الشام، وضمِّها إلى إقليم الجزيرة، وتأسيس إمارة عربية قوية وفاعلة تقف في وجه السلاجقة، وبين تُتُش الطامع في ضمِّ حلب وتوحيد كامل بلاد الشام تحت سلطان السلاجقة، وتحرك كل طرف لاستقطاب الحلفاء.

أما مسلم بن قريش الذي كان يدين بالتشيع الإثني عشري، فقد تطلع إلى الدولة الشيعية الوحيدة في المنطقة ألا وهي الدولة الفاطمية، وقد جمعت الطرفين مصلحة مشتركة، وهي القضاء على السلاجقة السنة وإخراجهم من بلاد الشام. فأجرى اتصالاً مع بدر الجمالي في القاهرة، وتمَّ الاتفاق بينهما على أن يرسل الفاطميون جيشاً يساعد مسلم بن قريش في ضمِّ دمشق عندما يصل إليها ويحاصرها[3].

وتسلَّم تُتُش، في هذه الأثناء، عدَّة رسائل من بعض أمراء الأسرة المرداسية، ومن أميري حمص وشيزر، يشكون مسلم بن قريش الذي هاجم أملاكهم، وأضحى بنظرهم يشكل خطراً حقيقياً عليهم، وعرضوا التعاون معه لطرده من بلاد الشام، وتسليم أملاكه إليه.

وفي ظل هذا الانقسام العربي، رحَّب تُتُش بالعرض، فجمع قواته وتوجه نحو أنطاكية[4]، في حين تحركت القوات العربية المتحالفة معه باتجاه حلب، فاستولت

---

(1) Camb. Med. Hist: vol V p: 263.

(2) ابن العديم: جـ ١ ص ٣٠٨.

(3) ابن الأثير: جـ ٨ ص ٢٨٤.

(4) ابن الأثير: جـ ٨ ص ٢٨٤. ابن العديم: جـ ١ ص ٣٠٨.

على حماة والمعرة وتابعت زحفها نحو حلب، وقضت الخطة باستيلاء تُتُش على المناطق الشمالية الغربية لحلب بينما تستولي قوات التحالف على المناطق الواقعة في جنوبها ثم تضيِّق القوتان الخناق على المدينة وتستولي عليها وتطرد مسلم بن قريش من الشام[1].

وعندما علم مسلم بن قريش بأنباء تحرك المتحالفين، وكان في الموصل، أسرع بعبور الفرات على رأس جيش كبير متوجهاً إلى حلب للاصطدام بقوى التحالف أولاً، ثم الزحف نحو دمشق ثانياً، لانتزاعها من يد تُتُش الموجود في الشمال، وقد أجبر هذا التحرك السريع، المتحالفين إلى الانفضاض والعودة كل إلى إمارته للدفاع عنها ضد هجوم محتمل من قِبل مسلم بن قريش، وكان من بينهم تُتُش نفسه الذي عاد إلى دمشق في (أول محرم ٤٧٦هـ/ ٢١ أيار ١٠٨٣م)[2].

وصل مسلم بن قريش إلى دمشق في أواخر شهر محرم، وضرب عليها حصاراً مركزاً، دام هذا الحصار مدة شهر، دون أن ينال منها، ثم حدث أن فكَّ مسلم ابن قريش الحصار فجأة، وعاد إلى حلب[3]. فما الذي تغيَّر في المناخ السياسي حتى أقدم على هذه الخطوة؟ الواقع أنه تضافرت عدة عوامل دفعت مسلم بن قريش إلى هذا التصرف، لعل أهمها:

- فقدان التجانس القبلي بين قواته، التي تألفت من عدد من قبائل كلاب ونمير وطيء وعُلَيم وكلب وأكراد الجزيرة، وعدم إخلاصهم له، باستثناء العقيليين، وكانوا قد انضموا إليه، رهبة من بطشه، أو رغبة في الحصول على الغنائم إذا سقطت دمشق[4].

- تفوُّق القدرة القتالية للأتراك السلاجقة.

- مقاومة تُتُش الفعَّالة وهجماته المفاجئة التي كان يشنها ضد المحاصرين. ويصف ابن الأثير إحدى هذه الهجمات بقوله: «وفي بعض الأيام خرج إليه، أي إلى مسلم، عسكر دمشق وقاتلوه، وحملوا على عسكره حملة صادقة، فانكشفوا وتضعضعوا وانهزمت العرب، وثبت شرف الدولة، وأشرف على الأسر»[5].

- عدم وفاء الدولة الفاطمية بوعودها بإرسال جيش فاطمي إلى بلاد الشام لمساعدة مسلم بن قريش. والواقع أن بدر الجمالي لم يكن يمتلك القوة الضرورية

---

(١) زكار: ص ١٨٩. ضامن: ص ١١٨.
(٢) ابن الأثير: جـ ٨ ص ٢٨٤.
(٣) المصدر نفسه. ابن العديم: جـ ١ ص ٣١٠.
(٤) ضامن: ص ١١٩.
(٥) الكامل في التاريخ: جـ ٨ ص ٢٨٤.

لمساعدته، بالإضافة إلى أنه كان منهمكاً بمعالجة الشؤون الداخلية المضطربة. ويذكر ابن العديم أنه خشي من ميل العرب إليه، فتثاقل عنه، وأحجم عن تقديم المساعدة المطلوبة[١].

ـ علم مسلم بن قريش أثناء الحصار بقيام ثورة ضد حكمه في حران بقيادة القاضي ابن جلبة الحنفي، وأن الحرانيين قرروا تسليم مدينتهم إلى جُبق أمير التركمان بوصفه سنياً ولكون مسلم شيعياً[٢].

القضاء على ثورة الحرانيين

أدرك مسلم بن قريش أنه أخطأ في تقدير الموقف السياسي، فقرَّر تغيير موقفه من الأمراء العرب في المنطقة، وتوقف في حمص، أثناء عودته من دمشق إلى حلب، فصالح خلف بن ملاعب وتحالف معه، وأقطعه رفنية وسلمية إضافة إلى حمص، كما صالح شبيب بن محمود المرداسي وأقطعه حماة واستخلفه في تلك المنطقة[٣]، ثم أسرع إلى حران، فوصل إليها يوم الجمعة (٨ ربيع الأول ٤٧٦هـ/ ٢٦ تموز ١٠٨٣م) وحاصرها، وكان قاضيها قد استعان بجماعة من بني نمير ليتقوَّى بهم، كما استدعى جُبُق التركماني ليسلمه المدينة، ووصل الأتراك في غضون ذلك، فخشي مسلم بن قريش أن يقع بين فكي الكماشة، فترك قسماً من جيشه على الحصار، وسار على رأس القسم الآخر للاصطدام بالأتراك، فهزمهم، ثم عاد ليتابع الحصار، وتمكَّن جيشه من اختراق الأسوار، ودخل المدينة، فقبض على القاضي وولديه، والأعيان، وصلبهم، وقتل عدداً من السكان، وعاد إلى الموصل[٤].

محاولة السلطان ملكشاه السيطرة على إقليم الجزيرة وبلاد الشام

تعرَّض حكم مسلم بن قريش بعد ذلك، لخضَّة عنيفة زلزلت كيان إمارته. فقد حدث أن قذف الأتراك السلاجقة بموجة جديدة من المهاجرين باتجاه غربي آسيا، وكان من أبرز قادتها جُبُق وأُرتق بن أكسب.

وفي الوقت الذي كان فيه الأتراك يجتاحون العالم الإسلامي، ويؤسسون إمارات في ربوعه، برز بعض الأشخاص المحترفين على مسرح الأحداث السياسية،

---

(١) زبدة الحلب: جـ ١ ص ٣٠٩ ـ ٣١٠.
(٢) ابن الأثير: جـ ٨ ص ٢٨٦ ـ ٢٨٧.
(٣) ابن العديم: جـ ١ ص ٣١٠ ـ ٣١١.
(٤) المصدر نفسه: ص ٣١١. ابن الأثير: جـ ٨ ص ٢٨٦ ـ ٢٨٧.

نذكر منهم محمد بن أحمد ابن جهير الذي ترقَّى في العمل السياسي في عاصمة الخلافة، ووصل إلى رتبة وزير، وعُرف بلقب فخر الدولة، ومتَّن علاقته بالوزير السلجوقي نظام الملك عن طريق المصاهرة[1]، وعندما عُزِل عن وزارة الخليفة المقتدي، خلفه ابنه عميد الدولة الذي بقي في منصبه حتى تَمَّ عزله يوم الجمعة (٢٥ صفر ٤٧٦هـ/ ١٤ تموز ١٠٨٣م). ولما كانت علاقة الأسرة بالسلاجقة جيدة، فقد توجه فخر الدولة إلى أصفهان ووضع نفسه بتصرف السلطان ملكشاه، فاستخدمه السطان للقضاء على إمارة بني مروان وضم ديار بكر إلى الأملاك السلجوقية، وعيَّن حاجبه قسيم الدولة آق سُنقر مسؤولاً عسكرياً عن الحملة[2].

وعندما وصلت أنباء الحملة إلى الجزيرة، تحالفت القوتان المتخاصمتان فيها، وهما الإمارة المروانية والإمارة العقيلية لصد الزحف السلجوقي، وتنازل المروانيون عن مدينة آمد إلى مسلم بن قريش ثمناً لهذا التعاون. ولما أُخبر ملكشاه بهذا التعاون، أمدَّ حليفه بقوة إضافية كان من بين قادتها الأمير أُرتق بن أكسب. وعسكر الجيشان تجاه بعضهما، ثم اصطدما في رحى معركة ضارية انتهت بانتصار الجيش السلجوقي، وفرَّ مسلم بن قريش في جو الهزيمة القاتم إلى آمد، وتبعه ابن مروان[3].

بلغت أنباء الانتصار السلطان السلجوقي، فأراد استغلاله للسيطرة على الجزيرة وبلاد الشام، فخرج من أصفهان باتجاه الموصل، ودخلها، وأخذ يستعد لمواصلة الزحف إلى بلاد الشام، لكن تطور الأحداث غيَّر قواعد اللعبة السياسية. فقد أعلن أخوه تكش بن ألب أرسلان الثورة عليه، وراح يستولي على مدن خراسان وهو يعتزم إعلان نفسه سلطاناً على السلاجقة بدلاً من ملكشاه. ومن جهة أخرى، علم ملكشاه بنجاة مسلم بن قريش وتحصُّنه بآمد، فاضطر إلى تعديل خططه وقرَّر العودة إلى المشرق لمعالجة الموقف، وأراد قبل أن يغادر المنطقة التفاهم مع مسلم ابن قريش بوصفه القوة القادرة على تهدئة الموقف فاستقبله وصالحه[4].

وهكذا استعاد مسلم بن قريش أملاكه على الرغم من الضربة العنيفة التي

---

(١) زوَّج فخر الدولة ابنه عميد الدولة بابنتين من بنات نظام الملك، واحدة بعد أخرى.

(٢) ابن الأثير: جـ ٨ ص ٢٨٦، ٢٩١.

(٣) يذكر ابن الأثير بأن فخر الدولة مال إلى الصلح عندما رأى اجتماع العرب عليه وقال: «لا أوثر أن يحل بالعرب بلاء على يدي» فعرف التركمان ما عزم عليه، فركبوا ليلاً وأتوا إلى العرب وأحاطوا بهم، ولم يحضر فخر الدولة ولا أُرتق بن أكسب المعركة. المصدر نفسه: ص ٢٩٠.

(٤) المصدر نفسه: ص ٢٩٢.

نزلت به، ونجت الإمارة العقيلية من السقوط، وكانت حملة ابن جهير أخطر ما تعرَّض له حتى الآن[1].

الصراع بين مسلم بن قريش وسليمان بن قُتلمش

تأسيس سلطنة سلاجقة الروم

أتاحت معركة مانزيكرت للسلاجقة الانسياب إلى جوف آسيا الصغرى، وشجعتهم النزاعات والحروب الداخلية بين البيزنطيين على الاستقرار في ربوعها وتأسيس سلطنة عُرفت باسم سلطنة سلاجقة الروم[2]، أسسها سليمان بن شهاب الدولة قُتلمش ابن إسرائيل بن سلجوق، الذي يُعدُّ بحق جد سلاطين آسيا الصغرى.

وتولى سليمان حكم المنطقة الشمالية الغربية بعد رحيل ألب أرسلان عن آسيا الصغرى، وقرَّر إقامة سلطنة لنفسه في قونية[3] وآقسرا[4] وغيرهما من الولايات التي كانت بيد والده قُتلمش، ويتولى حكمها مع الاعتراف بسيادة السلطان ملكشاه الذي عهد إليه إدارة المنطقة لصالح الأتراك[5].

ساعد سليمان على تحقيق غايته عاملان:

الأول: التغيير الديمغرافي الناتج عن الفتوح، إذ أصبحت المناطق الشمالية الشرقية من آسيا الصغرى شبه خالية، بعد أن هجرها سكانها.

الثاني: حال الفوضى التي أمست عليها الأمبراطورية البيزنطية، بسبب ازدياد النزاعات بين الأباطرة والقادة العسكريين.

واستفاد السلاجقة بعامة، خلال الأعوام التي انقضت بعد معركة مانزيكرت، من الأوضاع المضطربة داخل الأجهزة البيزنطية، وراحوا يتدخَّلون في الشؤون الداخلية لأطراف النزاع، وظهروا كحلفاء ومساعدين لبعضهم، مما يسَّر لهم التوغل بعيداً حتى وصلوا إلى المقاطعات الغربية لآسيا الصغرى.

---

(١) ضامن: ص ١٢٠ ـ ١٢١.

(٢) سميت سلطنة السلاجقة في آسيا الصغرى بسلطنة سلاجقة الروم لأن البيزنطيين في العصور الوسطى الذين عرفهم العرب باسم الروم كانوا يسيطرون على هذه المنطقة، ولم تلبث أن سميت باسمهم، فظلت قروناً عديدة تعرف باسم بلاد الروم. ولما استقر السلاجقة فيها أطلق عليهم المؤرخون المسلمون اسم سلاجقة الروم، كما أطلقوا على الفروع الأخرى من السلاجقة اسم البلاد التي استقروا فيها.

(٣) قونية: من أعظم بلاد الإسلام بالروم. الحموي: ج ٤ ص ٤١٥.

(٤) آقسرا: مدينة في آسيا الصغرى.

(٥) الحسيني: ص ٧٢. خواند أمير: حبيب السير: ج ٢ ص ٥٢.

وألفت الجموع التركية نفسها لأول مرة داخل المدن الكبيرة في غربي الأناضول، ووجدت الفرصة المناسبة للتوسع مقابل ما قدَّمته من مساعدة للأمبراطورية في أزماتها. ويبدو أن ما جرى من استخدام القوات التركية، هيأ للسلاجقة الاستقرار والإقامة في غربي آسيا الصغرى، واعترف التركمان بسليمان زعيماً لهم، واتخذ من مدينة نيقية[(١)] عاصمة لسلطنته الجديدة، وذلك في عام (٤٧١هـ/١٠٧٨م)

التوسع السلجوقي الرومي في شمالي بلاد الشام

فتح أنطاكية

بعد أن أمَّن سليمان بن قتلمش حدود سلطنته من جهة الغرب مع الأمبراطورية البيزنطية، التفت نحو الجنوب، ذلك أنه لم يستطع السكوت على ازدياد نفوذ الإمارة الأرمينية التي أسسها فيلاريت في قيليقية، وشمالي بلاد الشام[(٢)]، لأنها تشكل عقبة في طريق توسعه نحو هذه البلاد، وهو الهدف الذي وضعه نصب عينيه، كما أزعجه تقارب فيلاريت وملكشاه. والمعروف أن فيلاريت كان على عداء مع بيزنطية فتقرَّب من الأمراء المسلمين حتى يؤمِّن على سلامة ممتلكاته، وعدَّ هذا التقارب أنه موجه ضده كما يحد من أطماعه، ولذلك قرَّر القضاء على دولة فيلاريت.

وحدث أن غادر فيلاريت أنطاكية في عام (٤٧٧هـ/ ١٠٨٤م) نتيجة الثورة التي قامت ضد حكمه، وترك فيها حامية عسكرية، فعيَّن السلطان عليهم والياً فارسياً يدعى إسماعيل، فانتهز خصوم فيلاريت، وبخاصة ابنه الذي كان مسجوناً، فرصة خروجه واتفقوا مع الوالي على تسليم المدينة لسليمان بن قُتلمش واستدعوه من أجل ذلك[(٣)].

أسرع سليمان بن قُتلمش، مستغلاً فرصة الاضطراب الذي حصل في دولة فيلاريت، وهو عازم على مباغتة المدينة، فخرج من نيقية على رأس جيش تألف من ثلاثمائة فارس وكثير من المشاة، وفتح أثناء زحفه بعض المدن القيليقية منها طرسوس وثوروس وأذنه والمصيصة وعين زربي[(٤)].

---

(١) نيقية: مدينة من أعمال القسطنطينية، وتبعد عنها نحو مائة ميل، وهي التي اجتمع بها آباء الكنيسة النصرانية لأول مرة في مجمع مسكوني، وكانوا ثلاثمائة وثمانية عشر أباً. الحموي: جـ ٥ ص ٣٣٣.

(٢) ابن العبري: ص ١١٨.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) المصدر نفسه. ابن الأثير: جـ ٨ ص ٢٩٤.

وعندما وصل إلى أنطاكية عسكر أمام أسوارها، ثم نصب السلالم عليها وصعد إلى السور حيث عقد اجتماعاً مع الوالي رتَّب بموجبه أمر دخول الجيش. وفعلاً دخل الفرسان السلاجقة إلى المدينة بعد أن فتحت الأبواب، إلا أنهم واجهوا مقاومة من جانب فئة قليلة من السكان، فاصطدموا بها وتغلبوا عليها. وسقطت المدينة والقلعة بيد سليمان ابن قُتلمش، ونهى جنوده عن استعمال القوة أو دخول بيوت السكان أو مصاهرة بناتهم، فاطمأن هؤلاء ونعموا بالأمان في ظل السيطرة السلجوقية(١).

أرسل سليمان بن قُتلمش، بعد سيطرته على أنطاكية، رسالة إلى السلطان ملكشاه يخبره بما فتح الله عليه ومظهراً طاعته(٢)، وقد هدف إلى اكتساب ودِّه حتى لا يعترض طريق تقدمه إلى بلاد الشام.

محاولة ضمِّ حلب

بعد أن ثبَّت حكمه في أنطاكية، أخذ سليمان بن قُتلمش يعمل على ضمِّ المناطق التابعة لإمارة حلب كمقدمة للسيطرة على حلب نفسها، وقد انضم إليه وهو في أنطاكية عدد من الأمراء المرداسيين مع أتباعهم، وبعض عساكر مسلم بن قريش. والواقع أن ضمَّ أنطاكية لسلطنة سلاجقة الروم، سبَّب تهديداً مباشراً لوضع مسلم بن قريش وحكمه في حلب، لذلك راح يعدُّ العدة لمقاومته، وعقد حلفاً مع أمير التركمان جُبُق وجموع أخرى من العرب(٣).

وتوضحت نية سليمان بنُ قتلمش في ضمِّ حلب، بدليل أنه جنَّد جماعة من بني كلاب وأرسلهم مع عسكره للقيام بغارات على حلب وسرمين وبزاعة. وبعد أن تحقَّق مسلم بن قريش من نيته أرسل إليه كتاباً يطلب منه ما كان يدفعه فيلاريت من المال بوصفه تابعاً له، ويخوِّفه في الوقت نفسه من معصية السلطان(٤).

لم يكن مطلب مسلم بن قريش سوى ذريعة لمباشرة الحرب، وإخراج سليمان ابن قُتلمش من المنطقة، إلا أن هذا الأخير أجابه أن شعاره طاعة السلطان بدليل إقامة الخطبة له في بلاده، وضرْب السكة باسمه، وأما المال الذي كان يدفعه فيلاريت فهو جزية رأسه وأصحابه أما هو فمؤمن ولا جزية عليه(٥).

---

(١) ابن العبري: ص ١١٨. ابن الأثير: جـ ٨ ص ٢٩٤. ابن العديم: جـ ١ ص ٣١٣ ـ ٣١٤.
(٢) ابن الأثير: المصدر نفسه. (٣) ابن الأثير: جـ ٨ ص ٢٩٥.
(٤) المصدر نفسه. ابن العديم: جـ ١ ص ٣١٥ ـ ٣١٦.
(٥) ابن الأثير: المصدر نفسه.

نلاحظ أن فتح أنطاكية من قبل سلاجقة الروم لم يتم دون إثارة الخلافات بين المسلمين. فلما رفض سليمان بن قُتلمش مطالب مسلم بن قريش، دخل الرجلان في صراع مكشوف، فأغار الثاني على ضاحية أنطاكية، فردَّ الأول بنهب ضاحية حلب في غارات انتقامية «وأرسل عسكره فنهبوا سواد حلب من منبج إلى المعرة، وسبوا وساقوا من الجمال والدواب والماشية شيئاً كثيراً»[1].

نتج عن هذه الغارات أضرار بالغة بالسكان والفلاحين، فاحتجوا لدى سليمان ابن قُتلمش، فبرَّر عمله بتعدِّي مسلم بن قريش أولاً، إلا أنه ردَّ عليهم أموالهم قائلاً: «لم تجر عادتي بنهب مال مسلم ولا آخذ ما حرَّمته الشريعة»[2]، في حين علَّل مسلم ابن قريش غاراته على أنطاكية بأن سليمان بن قُتلمش قطع الجزية التي كان يدفعها أمراء أنطاكية البيزنطيون.

شكَّلت غارة سليمان بن قُتلمش على ضاحية حلب مبرراً لمسلم بن قريش لقتاله وانتزاع أنطاكية منه، فجمع ستة آلاف مقاتل من العرب والتركمان، وزحف إلى أنطاكية، فلما علم سليمان بن قُتلمش بهذا الزحف، جمع عساكره وسار إليه، فالتقيا ظهيرة يوم السبت في (٢٤ صفر ٤٧٨هـ/ ٢١ حزيران ١٠٨٥م) في طرف من أعمال أنطاكية على بئر راحل قرب عفرين[3]، واشتبكت قوات الطرفين في رحى معركة ضارية انتهت بانتصار سليمان بن قُتلمش، وصمد مسلم بن قريش مع ستمائة من أحداث حلب حتى النهاية، ولما ازداد ضغط القتال حاول الانسحاب من أرض المعركة، وجهد الأحداث في تغطية انسحابه، فسقط منهم أربعمائة، إلا أنه فشل في تأمين طريق للنجاة، وتلقى ضربة أفقدته حياته حيث قتل في المعركة بعد أن صبر[4].

ويمكن تعليل هزيمة مسلم بن قريش أمام سليمان بن قُتلمش بالعوامل التالية:

- لقد ابتدأت المعركة عند الظهر، ولما مالت الشمس قليلاً نحو المغيب ضربت عيون قوات مسلم بن قريش لأنها كانت في وجوههم، فأثَّر ذلك على مقدرتهم القتالية[5].
- انضمَّ تركمان جُبق الغزية، عند ابتداء المعركة، إلى جانب سليمان بن قُتلمش

---

(١) سبط ابن الجوزي: ص ٢٧٧. (٢) ابن الأثير: جـ ٨ ص ٢٩٥.

(٣) عفرين: اسم نهر في نواحي المصيصة يخرج من أعمال حلب. الحموي: جـ ٤ ص ١٣٢. وهناك في المنطقة ذاتها بلدة تحمل الاسم ذاته.

(٤) العظيمي: ص ٣٥٣. ابن الأثير: جـ ٨ ص ٢٩٥. ابن العديم: جـ ١ ص ٣١٧.

(٥) ابن العديم: جـ ١ ص ٣١٧.

بوصفهم من العنصر نفسه، فتركوا مسلم بن قريش، مما رجَّح كفة سليمان[1].

ـ تخلّى أصحاب مسلم بن قريش وأتباعه من العرب عنه وهربوا من ساحة القتال، وتركوه يواجه مصيره، وليس معه سوى أحداث حلب.

الوضع الداخلي في حلب بعد مقتل مسلم بن قريش

تسلَّم الحكم في حلب، بعد مقتل مسلم بن قريش، أخوه إبراهيم، لكن سكان حلب رفضوا الخضوع له، في حين استولى ابن عمه سالم بن مالك على القلعة وتحصَّن بها، وأضحى مقدم أحداث حلب الشريف حسن بن هبة الله، المعروف بالحتيتي، الحاكم الفعلي للمدينة[2].

وصل سليمان بن قُتلمش، في هذ الأثناء إلى أسوار حلب وهو يحمل جثة مسلم بن قريش، فطرحها أمام الأسوار، وكان يأمل بأن تستسلم المدينة له، لكن شيئاً من ذلك لم يحدث، عندئذ ضرب الحصار عليها، وطلب من حسن الحتيتي تسليمه إياها، فرفض وأصرَّ على المقاومة، وأرسل في الوقت نفسه كتاباً إلى السلطان ملكشاه يعلمه فيه بمصرع مسلم بن قريش ويدعوه للقدوم إلى حلب ليتسلمها، وتجنَّب الاستعانة بتُتُش لأنه كان يعلم بطموحه في ضمِّ حلب إلى دمشق[3].

وإذ أدرك سليمان بن قتلمش أن ضمَّ حلب سيتطلب منه وقتاً طويلاً، أمر بإعادة بناء جانبٍ من مدينة قنسرين المجاورة لحلب، وجعل مقر قيادته فيها، ثم راح يهاجم أراضي وبلدات إمارة حلب الجنوبية، فضمَّ معرة النعمان وكفرطاب ولطمين[4].

الاصطدام السلجوقي ـ السلجوقي في حلب

استجاب السلطان ملكشاه لطلب حسن الحتيتي، وخرج من أصفهان على رأس قواته باتجاه حلب، لكن تحركه كان بطيئاً، مما جعل سليمان بن قُتلمش يضيق الحصار على المدينة، واضطر الحتيتي، تحت ضغط الظروف القتالية والأحداث، إلى استدعاء تُتُش، ووعده بتسليمه المدينة[5]، وكان هذا التصرف بنظره تدبيراً مؤقتاً، معتقداً بأن السلطان سيسبق تُتُش في الوصول إلى حلب، وبذلك يتخلَّص منه ومن سليمان بن قُتلمش في الوقت نفسه[6].

وصلت دعوة حسن الحتيتي إلى تُتُش في دمشق، وكان عنده أُرتق بن أكسب،

---

(١) ابن الأثير: جـ ٨ ص ٢٩٥.
(٢) المصدر نفسه. ابن العديم: جـ ١ ص ٣١٨.
(٣) المصدران نفساهما: ص ٣٠٣. ص ٣١٨.
(٤) ابن العديم: جـ ١ ص ٣١٩.
(٥) المصدر نفسه: ص ٣٢٠. ابن الأثير: جـ ٨ ص ٣٠٤.
(٦) ضامن: ص ١٢٤.

وإذ اغتبط بطلب الحلبيين ليحقق حلمه القديم بضمِّ حلب إلى إمارته، وكان يأمل بالاستيلاء على أنطاكية بعد حلب، وطالما عدَّ سليمان بن قُتلمش ثائراً على سلطة السلاجقة العظام عندما احتفظ بأنطاكية لنفسه، لذلك أسرع بالزحف على حلب على رأس جيش كبير، وصحبه أُرتق، وذلك في شهر (محرم ٤٧٩هـ/ أيار ١٠٨٦م)[١].

ولما علم سليمان بن قُتلمش بذلك، فكَّ الحصار عن حلب، وسار نحو الدمشقيين وهو على غير تعبئة. والتقى الجيشان السلجوقيان في مكان يُعرف بعين سليم بين أنطاكية وحلب، ودارت بينهما رحى معركة ضارية أسفرت عن خسارة سليمان بن قُتلمش وفرار عسكره، بعد أن أبدى شجاعة نادرة في القتال وثبت في القلب مع بعض أتباعه، لكنه عندما رأى انهزام جيشه، خرج من ساحة المعركة إلى مكان آمن، فخلع درعه واستلقى على الأرض، وكانت هذه هي المرة الأولى التي يتقاتل فيها جيشان نظاميان سلجوقيان على أرض الشام[٢].

وأرسل تُتُش، في هذه الأثناء، يستدعي سليمان بن قُتلمش للمثول بين يديه، لكنه رفض الدعوة بعدما اشتمَّ منها رائحة الخطر على حياته، ولما أصرَّ عليه أركان حربه لتلبية الدعوة، أخرج خنجراً وقتل نفسه به[٣].

واستولى تُتُش على معسكر سليمان بن قُتلمش، ثم سار إلى حلب ليتسلَّمها، لكنه وجد الأبواب مغلقة في وجهه، وعندما استوضح عن السبب أجابه حسن الحتيتي «أن السلطان أصبح قريباً من حلب وهو يحظِّر تسليمها لأحد غيره»[٤]. ويبدو أن تُتُش لم يقتنع بالجواب، فأمر قواته بحصار حلب، وكان سكان حلب يكرهون حسن الحتيتي لشدة ما عانوه من تدابيره، ففتحوا إحدى أبواب حلب للجيش السلجوقي، ودخل الجنود السلاجقة إلى المدينة التي سقطت بيد تُتُش في (٢٦ ربيع الأول ٤٧٩هـ/ ١١ تموز ١٠٨٦م)[٥].

لكن امتنعت عليه القلعة وقد تحصَّن بها سالم بن مالك، كما تحصَّن حسن الحتيتي مع بعض أحداث حلب بقلعته التي بناها وهي قلعة الشريف، وفصل بينها وبين المدينة

---

(١) ابن الأثير: جـ ٨ ص ٣٠٣ ـ ٣٠٤. ابن العديم: جـ ١ ص ٣٢٠.

(٢) ابن الأثير: جـ ٨ ص ٣٠٣. ابن العديم: جـ ١ ص ٣٢٠. ضامن: ص ١٢٤.

(٣) ابن الأثير: المصدر نفسه. منجم باشي: صحائف الأخبار: جـ ٢ ص ٥٦٠. ابن العديم: المصدر نفسه ص ٣٢١. يذكر ابن العديم عدة روايات تتعلق بنهاية سليمان بن قُتلمش.

(٤) ابن العديم: المصدر نفسه ص ٣٢٣.

(٥) المصدر نفسه: ص ٣٢٢. ابن الأثير: جـ ٨ ص ٣٠٤.

بسور وخندق. ويبدو أن الأحداث خافوا على أُسرهم في حلب، فغادروا قلعة الشريف، وبقي حسن الحتيتي في قلعته مع نفر قليل، فاضطر إلى طلب الأمان من تُتُش وتوسط له أرتق بن أكسب، فعفا عنه تُتُش، وتسلَّم القلعة، وسيَّره أُرتق إلى بيت المقدس[1].

ركَّز تُتُش حصاره بعد ذلك على القلعة الكبيرة، في حين رتَّب شؤون حلب الداخلية. استمر الحصار مدة شهر، ووصلت في غضون ذلك طلائع قوات السلطان ملكشاه، وقد تجنَّب تُتُش الاصطدام بأخيه أو حتى الاجتماع به، لذلك جمع قواته وانسحب عائداً إلى دمشق[2].

السلطان ملكشاه يتسلَّم حلب

وصلت طلائع السلطان ملكشاه إلى حلب بقيادة عدد من القادة منهم برسق وأياز وبوزان، أما السلطان فقد خرج من أصفهان في شهر (جمادى الآخرة ٤٧٩هـ/ أيلول ١٠٨٦م)، فاستولى في طريقه على حران، ثم سار إلى الرها ومنها إلى حلب حيث وصل إليها في (٢٣ شعبان/ ٣ كانون الأول)، فدخلها وتسلمها دون قتال، كما تسلَّم القلعة من سالم بن مالك، فأقطعه قلعة جعبر بدلاً عنها[3].

أمضى السلطان ملكشاه عدة أيام في حلب قبل أن يستأنف زحفه باتجاه أنطاكية، فتسلمها من الحسن بن طاهر وزير سليمان بن قُتلمش، وعاد إلى حلب، وتسلَّم، وهو فيها، رسالة من نصر بن علي بن منقذ أمير شيزر يعترف له بالطاعة، ويتنازل له عن اللاذقية وأفامية وكفرطاب[4].

ونظَّم السلطان أوضاع منطقة شمالي الشام وآسيا الصغرى، وتجنَّب التطرق إلى أوضاع جنوبي بلاد الشام، وكأنه جدَّد ثقته بأخيه تُتُش وأقرَّه على ما في يده من أملاك، فمنح حلب ومناطقها وحماة ومنبج واللاذقية وما يتبعها إلى حاجبه قسيم الدولة آق سُنقر، وأقطع أنطاكية للأمير ياغي سيان، ومنح الرها لبوزان، وعيَّن الأمير بُرسق حاكماً على أملاك السلاجقة في آسيا الصغرى، وقد حدث هذا التوزيع في المناصب في شهر (شوال ٤٧٩هـ/ كانون الثاني ١٠٨٧م)[5].

وعلى هذا الشكل استقر السلاجقة في بلاد الشام.

---

(١) ابن العديم: جـ ١ ص ٣٢٢، ابن الأثير: جـ ٨ ص ٣٠٤.
(٢) ابن القلانسي: ص ١٩٤. ابن الأثير: جـ ٨ ص ٣٠٤ ـ ٣٠٥. ابن العديم: جـ ١ ص ٣٢٣. المستوفي القزويني: تاريخ گزيدة ص ٤٨١.
(٣) المصادر نفسها: ص ١٩٥. ص ٣٠٥. ص ٣٢٥. ص ٤٨١. العظيمي: ص ٣٣٥.
(٤) ابن الأثير: المصدر نفسه.
(٥) ابن القلانسي: ص ١٩٦. ابن الأثير: المصدر نفسه. التاريخ الباهر: ص ٧.

الفصل السادس

بلاد الشام تحت الحكم السلجوقي

حلب تحت حكم آق سُنقر

ينتمي أبو سعيد آق سُنقر، والد عماد الدين زنْكي، إلى قبيلة ساب يو التركية. لم تحدد المصادر موطنها، كما لم تذكر طبيعة علاقتها بالسلاجقة، لكن يبدو أنها تمتَّعت بمكانة رفيعة بين العشائر السلجوقية[1].

كان آق سُنقر مملوكاً للسلطان ألب ارسلان، وعاش في كنفه مع ابنه ملكشاه، ثم أصبح مملوكَ هذا الأخير وحاجبه وأخصَّ أصدقائه، وقيل إنه كان لصيقه. فقد نشأ الرجلان وترعرعا معاً، وأنِس إليه ملكشاه، ووثق به، وأفضى إليه بأسراره، واعتمد عليه في مهماته، فكان أبرز قادته[2].

ومن أقوى الدلائل على الخطوة التي حازها آق سُنقر عند السلطان ملكشاه، منحه لقب «قسيم الدولة» وهذا يعني الشريك، والمعروف أن الألقاب في تلك الآونة كانت مصونة لا تُعطى إلى لمستحقيها[3]. ويبدو أنه قاسم السلطان شؤون الحكم والإدارة، بالإضافة إلى ذلك، فإن آق سُنقر كان يقف إلى يمين سدة السلطنة ولا يتقدمه أحد، وصار ذلك أيضاً لعقبه من بعده[4].

والراجح أن منح آق سُنقر هذا اللقب يعود إلى ثلاثة أسباب:

الأول: محبة السلطان ملكشاه له ودعمه إياه.

الثاني: انتسابه إلى قبيلة تركية لها مكانتها وأهميتها بين العشائر السلجوقية الحاكمة، وأنه كان ذا مكانة رفيعة فيها.

الثالث: أنه أدَّى خدمات جليلة للسلطان ملكشاه، استحقت منحه هذا اللقب[5].

---

(١) ابن العديم: بغية الطلب في تاريخ حلب: جـ ٨ ص ٣٨٤٤.

(٢) المصدر نفسه: جـ ٤ ص ١٩٥٤. بن الأثير: التاريخ الباهر في الدولة الأتاكية في الموصل ص ٤.

(٣) ابن الأثير: المصدر نفسه.

(٤) المصدر نفسه.

(٥) ضامن: ص ١٣٦.

وصلت مكانة آق سُنقر عند السلطان ملكشاه إلى الحد الذي أثار بعض كبار رجال الدولة، أمثال الوزير نظام الملك، فعمل على إبعاده عن البلاط السلجوقي، فأشار على السلطان أن يوليه إمارة حلب، وأن يضيف إليه حكم غيرها من بلاد الشام[١].

وقد هدف نظام الملك من هذه المشورة إلى:

- كسب ثقة السلطان ومحبة آق سُنقر الذي سيصبح حاكماً على إمارة هامة.
- إبعاده عن مرافقة السلطان حتى لا ينافسه.
- عدم المساس بثقة السلطان به[٢].

وتدل قرائن الأحداث التي كانت تمر بها بلاد الشام، آنذاك، أن السلطان ملكشاه وجد في نصيحة وزيره فرصة طيبة لتعيين شخص قادر على فرض الحكم السلجوقي في هذه المنطقة، ولعله أراد كذلك أن يتخذ من آق سُنقر حاجزاً بينه وبين أخيه تُتش الطامع في بلاد الشام والسلطة معاً، فعيَّنه حاكماً على إمارة حلب.

سياسة آق سُنقر الداخلية

بدأت مع تولي آق سُنقر الحكم في حلب مرحلة جديدة من حكم السلاجقة المباشر لهذه المدينة، وانتهى حكم القبائل العربية لهذه الإمارة، وأُزيحت عن مسرح الأحداث في بلاد الشام.

ويُعدُّ آق سُنقر أول حاكم سلجوقي لإمارة حلب بعدما عانت سنوات طويلة من التمزق والحروب بين القبائل العربية، ثم بينها وبين الأتراك القادمين من الشرق، ودام حكمه ثماني سنوات تقريباً، شكّلت مرحلة هامة في تاريخ الإمارة والمنطقة بفعل أنها أحدثت تغييرات أساسية شملت كل جوانب الحياة[٣].

لقد تسلَّم آق سُنقر الحكم في ظل حالة من الفوضى التامة بفعل عاملين داخلي وخارجي:

يتمثل **الأول** بصراع الحكام، وتدبيرهم المؤامرات، واستعانتهم بالقوى الكبرى في المنطقة، كالخلافة العباسية في بغداد، والدولة الفاطمية في القاهرة، بالإضافة إلى الدولة السلجوقية الطامعة في التوسع.

ويتمثل **الثاني** بالصراعات السياسية والعسكرية بين ثلاث قوى في المنطقة، هي:

---

(١) ابن الأثير: ص ٤.
(٢) ضامن: ص ١٣٦.
(٣) زكار: ص ٢٠٩.

ـ قوة القبائل العربية البدوية وبخاصة الكلابيين والعقيليين.
ـ قوة الأتراك المدمرة التي بدأت تغير على المنطقة.
ـ قوة الدولة البيزنطية، التي كانت تستغل الصراعات الداخلية لاستعادة نفوذها المفقود.

وشهدت حلب نتيجة ذلك وضعاً غير مستقر انعكس سلباً على الحياة الاقتصادية والاجتماعية والأمنية، فتغافل الحكام عن الاهتمام بالشؤون الداخلية للسكان، كما أهملوا تطوير الحياة الاقتصادية، مما أدَّى إلى تراجع واردات البلاد، وعمدوا إلى استنزاف السكان بفرض ضرائب أخرى وأتاوات باهظة، كلما أعوزهم المال، حتى أثقلوا كاهلهم، فتذمروا من سوء الأوضاع، وكثر انتشار اللصوص وقطاع الطرق، مما أدَّى إلى انعدام الأمن على الطرق، فتعطَّلت الحركة التجارية، وقلَّت السلع في الأسواق، وتراجعت موارد الزراعة لعدم تمكُّن الفلاحين من القيام بالحرث والزرع وجني المحصول، وبرزت، في هذه الظروف الصعبة، منظمة الأحداث التي أخذت على عاتقها رعاية مصالح أفرادها، ومقاومة التعديات الخارجية[1].

وضع آق سُنقر نصب عينيه هدفاً راح يعمل على تحقيقه، تمثَّل في إعادة الأمور إلى نصابها، فنفذ عميقاً في كل جوانب الحياة.

أقام الحدود الشرعية، وطارد اللصوص وقطاع الطرق وقضى عليهم، وتخلَّص من المتطرفين في الفساد، كما قضى على الفوضى التي كانت متفشية في البلاد، وعامل أهل حلب بالحسنى حتى «توارثوا الرحمة عليه إلى آخر الدهر»[2].

لم يكتف آق سُنقر بحصر تدابيره الإصلاحية بحلب، بل كتب إلى عمال الأطراف التي خضعت لحكمه أن يحذوا حذوه، وتابع أعمالهم بنفسه.

وأقرَّ قسيم الدولة مبدأ المسؤولية الجماعية، فإذا تعرض أحد التجار للسرقة في قرية ما، أو إذا هوجمت قافلة أو نُهبت، فإن أهل القرية التي جرت الحادثة فيها يتحملون مسؤولية جماعية عن دفع قيمة الضرر اللاحق بهؤلاء[3].

نتيجة لهذا المبدأ، هبَّ سكان القرى لمساعدة الحكام في فرض الأمن، فإذا وصل تاجر إلى قرية أو مدينة، وضع أمتعته وبضاعته إلى جانبه ونام وهو مطمئن

---

(١) مصطفى: مؤتمر بلاد الشام: ص ٣٠٧، ٣١٤ ـ ٣١٥.
(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ: جـ٨ ص ٣٧٩ ـ ٣٨٠. ابن العديم: جـ١ ص ٣٢٦.
(٣) ابن الأثير: التاريخ الباهر: ص ١٥.

بحراسة أهلها. وهكذا شارك السكان بتحمل المسؤولية في حفظ الأمن، حتى أَمِنت الطرق، وتحدث التجار والمسافرون بحسن تدابيره وسيرته[1].

كان قسيم الدولة واثقاً من نفسه، مطمئناً إلى أن تدابيره الأمنية سوف تحقق هدفه، لذلك نادى في أنحاء إمارة حلب بأن لا يرفع أحد متاعه، ولا يحفظه في طريق[2]. ونتيجة لاستتباب الأمن نشطت التجارة، وامتلأت الأسواق بالبضائع الواردة إلى حلب من كل الجهات، واستقر الوضع الاقتصادي، وتداعى الناس إليها للكسب فيها والعيش برغد[3].

تصرف آق سُنقر كحاكم مطلق له مبادئه الخاصة، ومفاهيمه الذاتية، ولا غرابة في هذا، متأثراً بنشأته في أحضان السلاجقة في إيران حيث تكوَّنت مفاهيمه الخاصة بالحكم والسياسة[4].

والواقع أن تقاليد البلاط السلجوقي قامت على مبدأ حكم الفرد، وهي نبعت من أصول تركية تأثرت بشدة بتقاليد فارس الإسلامية. وجاء تطبيق هذه المبادئ في شمالي بلاد الشام وجنوبه لأول مرة، بعد زوال الحكم العربي، بتجربة جديدة وخطيرة على أُناس اعتادوا منذ قرون عديدة على أساليب البدو العرب في الحكم وعلى مبادئهم في السياسة والإدارة[5].

أما من حيث إنجازاته العمرانية، فقد جدَّد عمارة منارة حلب بالجامع في عام (٤٨٢هـ/ ١٠٨٩م) واسمه منقوش عليها إلى اليوم، وأمر بتجديد مشهد الدكة[6].

سياسة آق سُنقر الخارجية

رأى آق سُنقر، بعد ان نظَّم أوضاع إمارته الداخلية، وحقَّق الأمن والاستقرار،

---

(١) ابن الأثير: التاريخ الباهر ص ١٥.

(٢) خرج آق سُنقر يوماً للصيد، فمرَّ بقرية من قرى حلب، فوجد أحد الفلاحين قد فرغ من عمل الفدان وطرح عن البقر النير، ورفعه على دابة ليحمله إلى القرية، فقال له: ألم تسمع مناداة قسيم الدولة بأن لا يرفع أحد متاعاً ولا شيئاً من موضعه؟ فقال له: حفظ الله قسيم الدولة، وقد أمنا في أيامه، وما نرفع هذه الآلة خوفاً عليها من أن تُسرق، لكن هنا دابة يقال لها ابن آوى تأتي إلى هذا النير، فتأكل الجلد الذي عليه، فنحن نحفظه منها ونرفعه لذلك. فعندما عاد قسيم الدولة من الصيد، أمر الصيادين فتتبعوا بنات آوى في إمارة حلب، فصادوها حتى أفنوها. انظر ابن العديم: جـ ١ ص ٣٢٦.

(٣) سبط ابن الجوزي: ص ٢٤٤.

(٤) زكار: ص ٢١١.

(٥) المرجع نفسه.

(٦) ابن القلانسي: ص ١٩٧. ابن العديم: جـ ١ ص ٣٢٧.

أن يتوسع على حساب جيرانه، وأن يقف في وجه تُتُش الطامع في ضمِّ بلاده، وبدا له، قبل الإقدام على ذلك، أن ينشئ جيشاً منظماً يعتمد عليه في حروبه. ويُذكر في هذا الصدد أن نواة هذا الجيش تمثَّلت بالقوة التي تركها السلطان ملكشاه تحت تصرفه عندما رحل عن حلب وتعدادها أربعة آلاف مقاتل، ثم تعدَّت الستة آلاف[(١)].

والواقع أن آق سُنقر اعتمد على نوعين من القوات العسكرية:

الأول: القوات النظامية التي كان يزداد عديدها باستمرار، وهي تنتمي إلى العنصر التركي.

الثاني: القوات الاحتياطية التي كان يجمعها حين يحتاج إليها، وكانت خليطاً من العرب والأتراك وغيرهم، وقد وصل عديدها في المعركة التي خاضها ضد تُتُش إلى عشرين ألفاً.

خاض قسيم الدولة ثلاثة أنواع من الحروب، تنوعت أهدافها وتعدَّدت أسبابها، وهي:

الحروب الدفاعية: خاضها من أجل الدفاع عن أملاكه أو مناطق تابعة له. من ذلك أنه في عام (٤٨١هـ/ ١٠٨٨م) حصل خلاف بين سكان لطمين التابعين لإمارته، وبين نصر بن علي بن منقذ صاحب شيزر، فتدخل في هذا الخلاف لصالح سكان لطمين، فهاجم شيزر في (مستهل رجب/ ٢٠ أيلول)، وقاتل جيشها ونهبها، وعاد إلى حلب بعدما صالحه أميرها[(٢)].

ويبدو أن هذا العمل كان استعراضاً للقوة، وإنذاراً للأمراء المجاورين بعدم التعرُّض للمناطق التابعة لحلب أو القيام بحركات معادية له، كما أنه أراد إثبات وجوده وقوته أمام البيزنطيين لاستعادة بعض المناطق التي كانت بأيديهم في بلاد الشام[(٣)].

الحروب الهجومية: خاضها من أجل التوسع، من ذلك أنه هاجم حصن برزويه[(٤)] في عام (٤٨٢هـ/ ١٠٨٩م)، لانتزاعه من أيدي البيزنطيين. والمعروف أن هذا الحصن هو الأخير في سلسلة الحصون الذي كان ما يزال تحت الحكم

---

(١) ابن العديم: جـ ١ ص ٣٢٥.

(٢) ابن القلانسي: ص ١٩٧. المصدر نفسه: ص ٣٧٢.

(٣) ضامن: ص ١٤٣.

(٤) برزويه: حصن قرب السواحل الشامية على سن جبل شاهق، يضرب بحصانته المثل، وهو من أعمال أنطاكية. الحموي: جـ ١ ص ٣٨٣.

البيزنطي، ففتحه وضمَّه إلى أملاكه[1].

الحروب الدفاعية ـ الهجومية: خاضها من أجل التوسع والدفاع عن أراضيه، وتمثلت في صراعه مع تُتُش حاكم دمشق كما سنرى.

توسع تُتش باتجاه الثغور الساحلية

إن معلوماتنا عن الأوضاع الداخلية في دمشق في عهد تُتُش قليلة بل نادرة، وذلك بفعل تركيز المصادر على مشاريعه التوسعية وعلاقاته الخارجية. لقد جهد تاج الدولة خلال سنوات حكمه في العمل على:

ـ بسط سلطانه على كامل بلاد الشام ومدنه وبخاصة الساحلية التي كانت تدين بالطاعة للفاطميين أو تُحكم من قبلهم مباشرة.

ـ إنشاء دولة أخرى للسلاجقة في هذه البلاد يتولى حكمها مباشرة بمعزل عن السلاجقة العظام في خراسان.

فبالإضافة إلى مهاجمته حلب، التي تحدثنا عنها في سياق صراعه مع مسلم بن قريش، هاجم المدن الساحلية، والواقع أن المدن الساحلية تعرضت لضغط عسكري مزدوج:

الأول: فاطمي، قاده ناصر الدولة الجيوشي، ابتداء من عام (٤٧١هـ/١٠٧٨م)، وقد أرسله الفاطميون إلى بلاد الشام لإعادتها إلى الحظيرة الفاطمية، فحاصر دمشق واستولى على أعمالها وأعمال فلسطين، ثم توجه نحو الساحل، وهدفه مدينتي صور وطرابلس اللتين خرجتا على طاعة الفاطميين. وقد عمد قاضيا المدينتين إلى مصانعة السلاجقة بالهدايا والملاطفات[2]، كما ذكرنا، ليجنبا مدينتيهما الاصطدام المباشر معهم، ويستفيدا منهم كقوة توازن أمام الدولة الفاطمية. هذا ولم يذهب جلال الملك ابن عمار، قاضي طرابلس وحاكمها، في تقرُّبه من السلاجقة إلى حد التورط معهم بالخضوع السياسي لهم، بل إن هذا التقرب لم يتعدَّ الهدايا والملاطفات، وتقديم ما يُطلب منه من مساعدات[3]. ومن ناحية أخرى، وطَّد علاقته بتُتُش حتى أضحى مسموع الكلمة لديه، ومشيراً له. من ذلك أن تاج الدولة عزم على مصاهرة بدر الجمالي وزير مصر، على ابنته، فأشار عليه ابن عمار بألا يفعل، فثنى عزمه عن ذلك على الرغم من الهدايا والملاطفات التي وردت عليه من مصر[4].

---

(١) ابن العديم: جـ ١ ص ٣٢٧.

(٢) ابن القلانسي: ص ١٨٢.

(٣) تدمري: ص ١٧١.

(٤) المرجع نفسه: ص ١٧٢.

الثاني: سلجوقي. ففي عام (٤٧٥هـ/ ١٠٨٢م) قام مسلم بن قريش العقيلي بمناورة أمام صور، أظهر فيها أنه يريد مهاجمتها، ولم يكن ذلك إلا ليصرف عنه تُتُش حيث خرج للإيقاع به، ولكنه لم يلحق به عندما علم أنه يريد صور، فلما عاد تُتُش إلى دمشق، عاد مسلم بن قريش إلى حمص[1].

وكان من الواضح أن صور لم تغب عن أطماع تُتُش على الرغم من العلاقات الودية التي كانت تربط السلاجقة بعامة بقضاتها من بني عقيل.

وهاجم تُتُش في العام نفسه، أنطرطوس وعدداً من الحصون الشمالية، فاستولى عليها، وأرسل إلى جلال الملك بن عمار يطلب منه أن يُرسل إلى المدينة قاضياً وخطيباً لأنها كانت تابعة له[2].

الصراع بين تُتش وآق سُنقر

نهض آق سُنقر لتوسيع أملاكه باتجاه الجنوب، فاصطدم بمنافس قوي كان يعمل على مد سلطانه باتجاه الشمال، هذا المنافس هو تاج الدولة تُتُش حاكم دمشق والطامع في توحيد بلاد الشام تحت إمرته.

وكان تُتُش قد طلب من أخيه السلطان ملكشاه في عام (٤٨٠هـ/ ١٠٨٧م) تزويده بقوات ومعدات تمكِّنه من طرد الفاطميين من بلاد الشام، وإخضاعها كلها لسلطان السلاجقة. والواقع أن السلطان السلجوقي كان يخشى تمدداً فاطمياً باتجاه الأملاك السلجوقية في بلاد الشام والعراق، لذلك لبَّى طلب أخيه، وأمر كل من آق سُنقر صاحب حلب، وبوزان صاحب الرها، بأن يقدِّما له كل ما يحتاج إليه في مهمته من عساكر وتجهيزات.

ويبدو أن آق سُنقر وبوزان لم ينفِّذا أوامر السلطان، فلم يذهب الأول بعيداً في مساعدة تُتُش وهو يعلم مدى خطورة أطماعه، وكذلك فعل الثاني، ومن جهته، فإن تُتُش لم يقم بأي عمل عسكري جدِّي ضد مدن الساحل[3].

لكن الأوضاع تبدَّلت في عام (٤٨٢هـ/ ١٠٨٩م) حين استولى الفاطميون على عكا وصور وصيدا وجبيل[4]، كما أن وجود حكام في بلاد الشام يوالون الفاطميين ويعملون على الاعتداء على الأراضي التابعة لتُتُش، ومن هؤلاء خلف بن ملاعب

---

(١) ابن القلانسي: ص ١٨٦. تدمري: المرجع نفسه ص ١٢٩.

(٢) ابن القلانسي: المصدر نفسه ص ١٨٧. (٣) زكار: ص ٢١٦.

(٤) ابن الأثير: جـ ٨ ص ٣٢٩ ـ ٣٣٠.

صاحب حمص وأفامية الذي اجتمع بالقائد الفاطمي واعترف له رسمياً بسلطان الفاطميين وسيادتهم عليه[1]؛ مما شكَّل تهديداً مباشراً لسلطان السلاجقة في بلاد الشام.

ونتيجة لما اتفق عليه الطرفان من بسط السيادة الفاطمية على كامل بلاد الشام، قام خلف بن ملاعب بالاعتداء على أراض تابعة لتُتُش، مما دفعه إلى الاستنجاد مجدداً بأخيه، كما أن الحكام السلاجقة في هذه البلاد، شكوا إلى السلطان اعتداءات أمير حمص، وكذلك فعل السكان بفعل أنه اتصف بالظلم.

ونظراً للأوضاع الخطيرة التي باتت عليها بلاد الشام، أمر السلطان أخاه تُتُش بتأديب ابن ملاعب، وطرد الفاطميين من البلاد وبخاصة مدن الساحل وضمها إلى الأملاك السلجوقية، وطلب، في الوقت نفسه، من ولاته فيها بالتحرك السريع لمساعدته[2].

انزعج كل من آق سُنقر وبوزان من قيادة تُتُش لهذه الحملة، وأدركا أنه سوف ينفرد بحكم ما سيستولي عليه، فخرجا مكرهين، غير مقتنعين بمساعدته[3]، ويبدو أن هذا الإحجام، وعدم الاندفاع الجدِّي، سبَّبا نجاحاً جزئياً لخطط تُتُش كما سنرى.

وصلت القوات المتحالفة إلى حمص في عام (٤٨٣هـ/ ١٠٩٠م) وحاصرتها، وضيَّقت عليها حتى استسلمت، وقُبض على ابن ملاعب، وأرسل إلى السلطان[4]، وانكشفت في غضون ذلك، أطماع الأطراف المتحالفة، فقد طلب كل من الأمراء حمص لنفسه، وكتب بذلك إلى السلطان، فأنعم بها على أخيه[5].

ثم حدث أن واصلت القوات المتحالفة مهمتها، فزحفت باتجاه عرقة التي كانت تحت سيطرة بني عمار حكام طرابلس، واستولت عليها، ثم زحفت باتجاه طرابلس نفسها وحاصرتها وذلك في عام (٤٨٤هـ/ ١٠٩١م)[6].

وجد جلال الملك بن عمار نفسه في موقف حرج لا يمكِّنه من التصدي لقوة المتحالفين، فعمد إلى السياسة لتفريق صفوفهم، ودخل من أجل ذلك، في مفاوضات مع آق سُنقر بواسطة وزيره رزين كمر، وقد أزعجه منح حمص لتُتُش، وخشي من ضم طرابلس إليه مما يؤدي إلى تقوية مركزه ـ تُتُش ـ وإضعاف قدراته هو وإمكاناته، وهو ما كان آق سُنقر يتجنبه.

---

(١) زكار: ص ٢١٦.

(٢) ابن الأثير: جـ ٨ ص ٣٥٢.

(٣) زكار: ص ٢١٦. ضامن: ص ١٤٤.

(٤) ابن الأثير: جـ ٨ ص ٣٥٢ ـ ٣٥٣.

(٥) المصدر نفسه: ص ٣٥٣.

(٦) المصدر نفسه.

وأبرز جلال الملك بن عمار وثائق موقَّعة من السلطان ملكشاه يعترف فيها بسلطانه على طرابلس. والراجح أنه كان على بيِّنة من النزاع بين آق سُنقر وتُتُش، فاستغله لصالحه، وتمكّن من إقناع الأول، بما بذله من مال، إلى إحداث شقاق بين الرجلين، تطور إلى مشادة وخصام، انسحب آق سُنقر على أثره عائداً إلى حلب، كما انسحب بوزان عائداً إلى الرها، واضطر تُتُش إلى الرحيل وهو حنق[١].

وأدرك آق سُنقر أن سياسته العدائية تجاه تُتُش تفرض عليه منعه من ضمِّ أي مدينة إلى أملاكه، لذلك جهد أثناء عودته إلى حلب في ضمِّ المواقع التابعة لخلف ابن ملاعب، ومنها أفاهية التي سلَّمها إلى ابن منقذ صاحب شيزر[٢]، ويبدو أنه هدف إلى:

- إقامة منطقة حاجزة بين أملاكه في شمالي بلاد الشام، وأملاك تُتُش في الجنوب، واعتقد أن الإمارة المنقذية، التي قامت بين أملاكهما، بإمكانها أن تقوم بهذا الدور.
- حرمان تُتُش من ضمِّ إمارة بني منقذ، وبالتالي إبعاده عن حلب.
- إيجاد حليف قوي يعتمد عليه في صراعه مع تُتُش.
- إبعاد بني منقذ عن التحالف مع تُتُش[٣].

والواقع أن السلطان ملكشاه وقف على هذا الصراع على النفوذ في بلاد الشام، فعمد إلى وضع حد له، فاستدعى في (شهر رمضان ٤٨٤هـ/ تشرين الأول ١٠٩١م) جميع ولاته في بلاد الشام والجزيرة بالإضافة إلى أخيه تُتُش، ليبحث معهم مشكلات وقضايا مناطقهم، ولمشاركته له بذكرى المولد[٤].

استغل تُتُش وجوده عند أخيه وعرض عليه خلافه مع آق سُنقر، واتهمه بعدم الإخلاص للقضية السلجوقية. ودافع آق سُنقر عن نفسه متهماً تُتُش بالكذب، واستطاع إقناع السلطان بوجهة نظره، فرفض اتهام أخيه له كما رفض مساعيه للتخلص منه[٥].

ظلَّت العلاقة الطيبة قائمة بين آق سُنقر والسلطان ملكشاه طيلة حياة هذا الأخير، ولما توفي في (شهر شوال ٤٨٥هـ/ تشرين الثاني ١٠٩٢م)[٦]، طلب تُتُش السلطنة لنفسه في ظل صراع على السلطة بين أولاد السلطان المتوفى، وتجهَّز

---

(١) ابن الأثير: جـ ٨ ص ٣٥٣.
(٢) ابن العديم: بغية الطلب: جـ ٤ ص ١٩٦١.
(٣) ضامن: ص ١٤٥.
(٤) ابن الأثير: جـ ٨ ص ٣٤٩.
(٥) ابن العديم: جـ ٤ ص ١٩٥٦.
(٦) ابن القلانسي: ص ٢٠٠.

للزحف شرقاً لإخضاع البلاد لسلطانه، وكاتب كلاً من آق سُنقر وبوازن يطلب مساعدتهما[١].

كان من المستحيل على آق سُنقر أن يظل بعيداً عن الأحداث السياسية، وبخاصة أن الأوضاع في خراسان كانت لا تزال غير واضحة، وأدرك في الوقت نفسه مدى خطورة تحركات تُتُش على وضعه في حلب، وأنه أعجز من أن يقف في طريقه، فاضطر تحت ضغط الأحداث إلى إجابة طلبه، وقَبِلَ مكرهاً الاعتراف بسلطانه، فخطب له في بلاده، وأبدى استعداده لوضع نفسه وقواته تحت تصرفه[٢].

وفي شهر (محرم ٤٨٦هـ/ شباط ١٠٩٣م) مرَّ تُتُش بأراضي حلب في طريقه إلى خراسان، فانضم إليه آق سُنقر وبوزان وياغي سيان حاكم أنطاكية، وضمَّ أثناء زحفه مدن الجزيرة مثل الرحبة ونصيبين، وأخضع الموصل، وكانت تابعة لبني عقيل برئاسة إبراهيم ابن قريش، كما ملك آمد، وميافارقين وأعمالها من حكام بني مروان، وقرَّر أمر هذه البلاد ورتَّب حكامها وخطب لنفسه بالسلطنة ثم سار منها إلى أذربيجان[٣].

قوي مركز تُتُش بعد هذا التوسع والانتشار، فأرسل إلى الخليفة العباسي المقتدي يطلب منه الاعتراف به سلطاناً على البلاد الخاضعة لحكمه، ويخطب له على منابر بغداد وبلدان الخلافة العباسية، فكان رد الخليفة بعدم الإيجاب والمماطلة[٤]، وانتظار ما ستسفر عنه النزاعات الأسرية بين أولاد السلطان ملكشاه في خراسان.

استقرت في هذه الأثناء أوضاع السلطنة السلجوقية، في خراسان، وانتهى الصراع على السلطة لصالح بركياروق، الابن الأكبر للسلطان ملكشاه[٥]، ولما علم تُتش بذلك، قرَّر الإسراع بزحفه باتجاه خراسان لمحاربة ابن أخيه، وعندما وصل إلى مدينة تبريز[٦]، حدثت المفاجأة، إذ تخلَّى عنه آق سُنقر وبوزان وانضما إلى السلطان بركياروق عند مدينة الري[٧]، فقوي موقفه بهما.

---

(١) ابن القلانسي: ص ٢٠٠ ـ ٢٠١. ابن الأثير: جـ٨ ص ٣٦٧.

(٢) ابن الأثير: التاريخ الباهر: ص ١٢.

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ: جـ٨ ص ٣٦٧ ـ ٣٧٠.

(٤) المصدر نفسه: ص ٣٦٩.

(٥) الحسيني، صدر الدين بن علي: أخبار الدولة السلجوقية ص ٧٤ ـ ٧٥.

(٦) تبريز: أشهر مدن أذربيجان، وهي مدينة عامرة ذات أسوار محكمة، في وسطها عدة أنهار جارية. الحموي: جـ٢ ص ١٣.

(٧) ابن القلانسي: ص ٢٠٣.

شكَّل هذا الانسحاب صدمة عنيفة لتُتُش، وحطَّم تطلعاته وآماله المستقبلية، وأدرك فوراً مدى تأثيره السلبي على أوضاعه، لأنه أضعف موقفه في لحظة حرجة، وقوَّى موقف خصمه السلطان بركياروق، وأجبره على التوقف عن الزحف وقتاله، والانسحاب إلى بلاد الشام.

ويبدو أن هناك عدة أسباب دفعت آق سُنقر إلى هذا التصرف لعل أهمها:

- كان تُتُش منافساً خطيراً لآق سُنقر، وأن تأييده حتَّمه واقع الظروف السياسية التي كان يمر بها.

- رأى آق سُنقر أن تبقى السلطنة محصورة في أبناء سيده السلطان ملكشاه، وفاء منه له.

- شعر قسيم الدولة بأن تُتُش يقرِّب ياغي سيان صاحب أنطاكية، ويميل إليه، وقد يعتمد عليه في حكم بلاد الشام في المستقبل[1].

ومهما يكن من أمر، فقد عاد تُتُش أدراجه إلى بلاد الشام عن طريق ديار بكر، وتوقَّف في الرحبة. ثم حدث أن أقنع كل من آق سُنقر وبوزان السلطان بركياروق بألا يترك تُتُش وشأنه، وحذَّراه من أطماعه، وأشارا عليه بمطاردته والقضاء عليه[2]. استجاب السلطان لهذه النصيحة، وتحرك الجميع باتجاه الرحبة للاصطدام بتُتُش، فلما علم هذا الأخير بذلك تركها واجتاز الفرات قاصداً أنطاكية، التي بقي فيها مدة، ثم عاد إلى دمشق[3]، وهذا يدل على قيام تقارب بينه وبين ياغي سيان، موجَّه ضد آق سُنقر وحلفائه.

وفي الرحبة، عُقِد اجتماع رباعي ضمَّ السلطان بركياروق وآق سُنقر وبوزان وعلي بن مسلم بن قريش الزعيم العربي، تمخَّض عن عقد تحالف بين الحاكمين السلجوقيين والأمير العقيلي تحت إشراف السلطان، هدفه الوقوف في وجه تُتُش، وعاد السلطان بعد ذلك إلى بغداد، بعد أن ترك قوة عسكرية بتصرف آق سُنقر، في حين عاد بوزان إلى الرها، وآق سُنقر إلى حلب فوصل إليها في شهر (ذي القعدة ٤٦٨هـ/ تشرين الثاني ١٠٩٣م)[4].

وهكذا قام آق سُنقر بدور بارز في إفشال مخططات تُتُش، ومنعه من الحصول على السلطنة، وساعد السلطان بركياروق على الاحتفاظ بها، مدركاً في الوقت نفسه،

---

(١) ضامن: ص ١٤٩.

(٢) ابن القلانسي: ص ٢٠٤.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) المصدر نفسه.

أن صاحب دمشق سوف ينتقم للضربة التي وُجِّهت إليه، فأخذ يستعد للتصدي له، وانتزاع دمشق منه هذه المرة، فطلب المساعدة من السلطان بركياروق فأمدَّه بكربوغا الذي صار أمير الموصل، واستنجد بمن جاوره من الحكام أمثال بوزان حاكم الرها، ويوسف ابن آبق أمير الرحبة. والواقع أن أول ما فكر به تُتُش بعد عودته إلى دمشق هو الانتقام من آق سُنقر وبوزان بعد أن خاناه وتخليا عنه في وقت الشدَّة، فضمَّ إليه ياغي سيان حاكم أنطاكية بعد أن صاهره وزوَّج ابنه رضوان من ابنته، كما انضم إليه جماعة من بني كلاب وأحداث حلب[1]، واستعد لقتاله.

وخرج تُتش من دمشق في شهر (جمادى الأولى ٤٨٧هـ/ أيار ١٠٩٤م) متوجهاً إلى حلب، وعندما علم آق سُنقر بخروجه، خرج هو الآخر من حلب على رأس جيش تعداده عشرين ألف مقاتل، فقطع نهر سبعين[2] قاصداً عسكر دمشق، في الوقت الذي لم يتمكَّن فيه كربوغا وبوزان من قطع بعض سواقي النهر، فظلوا في أماكنهم[3]، مما حرم آق سُنقر من قوة عسكرية هو بأمس الحاجة إليها، واضطر إلى خوض المعركة منفرداً.

والتقى الجيشان يوم السبت في (التاسع من شهر جمادى الأولى/ ٢٧ من شهر أيار) عند تل السلطان[4] القريب من حلب. ويبدو أن آق سُنقر لم يثق بمن كان معه من العرب، فنقلهم من الميمنة إلى الميسرة ثم إلى القلب. والراجح أن هذا التبديل في المواقع العسكرية أثَّر على قدراته القتالية، فدارت الدائرة عليه، ووقع أسيراً في يد خصمه الذي قتله على الفور، وفرَّت فلول جيشه إلى حلب[5].

توحيد بلاد الشام على يد تُتُش

توجَّه تُتُش بعد انتصاره إلى حلب لضمِّها بعد أن خلت من القيادة ومن المدافعين عنها، في حين فرَّ كربوغا وبوزان، واجتمعا بأهل حلب حيث تقرَّر طلب مساعدة عاجلة من السلطان بركياروق، لكن السرعة التي وصل بها تُتُش إلى أسوار

---

(١) ابن القلانسي: ص ٢٠٤. ابن الأثير: جـ٨ ص ٣٧٩. ابن العديم: زبدة: جـ ١ ص ٣٣١.

(٢) سبعين: قرية من قرى حلب وهي بباب حلب. الحموي: جـ ٣ ص ١٨٥.

(٣) ابن العديم: جـ ١ ص ٣٣٢.

(٤) تل السلطان: موضع بينه وبين حلب مرحلة نحو دمشق، وفيه خان ومنزل للقوافل، وهو المعروف بالفنيدق. الحموي: جـ ٢ ص ٤٢.

(٥) ابن القلانسي: ص ٢٠٦ ـ ٢٠٩.

المدينة، أحدثت ارتباكاً بين سكانها والأحداث والأتراك. وحدث أن جماعة من الأحداث ممن هم مع تُتُش فتحوا أحد أبواب المدينة، وهو باب أنطاكية، ونادوا بشعار تاج الدولة، فدخلها تُتُش وتسلمها يوم الاثنين (١١ جمادى الأولى/ ٣٠ أيار)، كما تسلَّم قلعة الشريف والقلعة الكبيرة من واليها نوح، وقبض على كل من كربوغا وبوزان، وأرسل قوة عسكرية إلى حران والرها لضمِّهما، فرفض السكان تسليمهما إليه، فقتل بوزان وأرسل رأسه إليهم فاستسلموا، وضمَّ المدينتين إلى أملاكه. أما كربوغا فقد أرسله إلى حمص، وسجنه فيها، وملك الديار الجزرية كلها بما فيها الموصل، ثم ملك ديار بكر بعد أن انتزعها من بني مروان، وشعر بأن الشام أضحى ملكاً له[١].

الصراع بين تُتُش وبركياروق ـ نهاية تُتُش

نظَّم تُتُش شؤون المناطق التي ضمَّها، قبل أن يواصل زحفه باتجاه الشرق، ووزَّعها على كبار رجاله، فأقطع معرة النعمان واللاذقية لياغي سيان، وعيَّن أبا القاسم الحسن الخوارزمي وزيراً في حلب ونائباً عنه فيها[٢].

توجَّه تُتُش إلى خراسان لمنازلة السلطان بركياروق، فخضعت له أذربيجان، وأرسل يوسف ابن آبق على رأس قوة عسكرية إلى بغداد للاستيلاء عليها والطلب من الخليفة المستظهر الخطبة له فيها[٣].

كان السلطان بركياروق آنذاك في نصيبين، فلما سمع بزحف عمه إلى أذربيجان، خرج منها وعبر دجلة من بلد فوق الموصل، وسار إلى إربل، ومنها إلى بلد سُرخاب بن بدر إلى أن بقي بينه وبين عمه تسعة فراسخ، ولم يكن معه غير ألف مقاتل، وكان عمه في خمسين ألفاً، فاصطدمت به قوة عسكرية بقيادة الأمير يعقوب ابن آبق، وهزمته، فسار إلى أصفهان. انتشرت أنباء هذه الهزيمة في بغداد، فقُطعت الخطبة لبركياروق، وخطب لتُتُش[٤].

وسار تُتُش في هذه الأثناء نحو الري وكتب إلى ابنه رضوان يستدعيه من دمشق، فتوجه إليه ومعه بقية من تخلَّف من أصحابه في بلاد الشام. وراسل أمراء التركمان الذين كانوا في أصفهان لاستقطابهم وبذل لهم الوعود الكثيرة، فأجابوه بالإيجاب ووعدوه بالانحياز إليه، وهم ينتظرون جلاء وضع بركياروق الصحي حيث

---

(١) ابن الأثير: جـ٨ ص ٣٨٠.

(٢) ابن العديم: جـ١ ص ٣٣٥.

(٣) ابن الأثير: جـ٨ ص ٣٨٠، ٣٨٩ ـ ٣٩٠.

(٤) المصدر نفسه: ص ٣٨٠ ـ ٣٨١.

كان مريضاً بالجدري. فلما شُفي السلطان من مرضه، أرسلوا إلى تُتُش يخبرونه أن ليس بينهم وبينه إلا السيف، وساروا مع بركياروق إلى الري[1].

كان الموقف حاسماً لبركياروق، الذي انضمَّت إليه العساكر من كل مكان حتى أضحى عديد جيشه ثلاثين ألفاً. وجرى اللقاء قرب الري يوم الأحد في (١٧ صفر ٤٨٨هـ/ ٢٧ شباط ١٠٩٥م) عند قرية يقال لها داشلو على بُعد اثني عشر فرسخاً من الري. وجرت بين الجيشين السلجوقيين رحى معركة طاحنة دارت الدائرة فيها على تُتُش وقواته، فانهزموا، وثبت تُتُش في القلب حيث قُتل على يد أحد أصحاب آق سُنقر ثأراً لزعيمهم[2]. وبمقتل تُتُش أضحى بركياروق سلطان الدولة السلجوقية دون منازع، إلا أنه اكتفى بحكم فارس وبغداد دون أن يحاول ضم بلاد الشام إليه.

والواقع أن مقتل تُتُش وآق سُنقر، ختم مرحلة طويلة من الصراع على الحكم في بلاد الشام بين الحكام السلاجقة، خلَّف صفحات سوداء قاتمة من القتل والخراب والدمار، لتبدأ مرحلة جديدة من الصراع على الحكم في هذه البلاد بين رضوان ودُقاق ابنا تُتُش[3].

---

(١) ابن الاثير: جـ ٨ ص ٣٨١، ٣٩٠. ابن القلانسي: ص ٢٠٩ ـ ٢١٠. ابن العديم: جـ ١ ص ٣٣٥.

(٢) ابن القلانسي: ص ٢١٢. ابن الأثير: جـ ٨ ص ٣٩٠ ـ ٣٩١. الحسيني: ص ٧٦. ابن العديم: جـ ١ ص ٣٣٥ ـ ٣٣٦.

(٣) ضامن: ص ١٥٣.

الفَصْل السّابع

الأوضاع الداخلية في بلاد الشام في عهد ابني تُتُش

تقاسم النفوذ في بلاد الشام

ترك تُتُش بعد وفاته خمسة أولاد هم: رضوان ودقاق وأبو طالب وبهرام وأرتاش، وأوصى، قبل أن يخرج لقتال ابن أخيه بركياروق، بأن يخلفه ابنه رضوان، وأمر أصحابه وبعض الأمراء مثل نجم الدين إيلغازي الأرتقي بطاعته. كان رضوان آنذاك صبياً في الثالثة عشرة من عمره، لكن تُتُش سرعان ما وجد نفسه أنه بحاجة إلى مزيد من القوات لمواجهة ابن أخيه، فاستدعاه من دمشق وأمره بالحضور مع من تخلَّف بالشام من العسكر. امتثل رضوان لأمر أبيه، فخرج من دمشق بالعسكر متوجهاً إلى المشرق وصحبه إيلغازي والأمير وثاب بن محمود بن صالح المرداسي، وجماعة من أمراء حلب القسيمية[١]، فمرَّ بالرحبة، ولما وصل إلى عانة القريبة من هيت[٢] علم بمقتل والده، فاضطرب لهذا الخبر وقلق، وخاف أن يطارده بركياروق بجنده ويستولي على بلاد الشام، فتوقف عن المضي في الزحف وعاد أدراجه إلى حلب، وكان برفقته أخواه أبو طالب وبهرام وأتابكه جناح الدولة حسين، على أن يلحق به باقي عسكره[٣].

كانت القوى متعددة في حلب، وقد راحت تتصرف وفقاً لمصلحتها للهيمنة على ميراث تُتُش، ويُعدُّ الوزير أبو القاسم بن بديع الخوارزمي الرجل الأول في حلب، ويبدو أنه كان يعمل على الانفراد بحكمها، ولم يكن ينوي تسليم الحكم إلى رضوان بدليل أنه:

---

(١) القسيمية أتباع قسيم الدولة آقسنقر.

(٢) هيت: بلدة على الفرات من نواحي بغداد فوق الأنبار، ذات نخل كثير وخيرات واسعة، وهي مجاورة للبرية. الحموي: جـ ٥ ص ٤٢١.

(٣) ابن القلانسي: ص ٢١٢. ابن الأثير: جـ ٨ ص ٣٩١. ابن العديم: جـ ١ ص ٣٣٦.

- أبقى الخطبة باسم تُتُش مدة شهرين بعد مقتله.
- لم يعامل رضوان كوريث، إنما عامله وأصحابه كالضيوف.

والواقع أن الوزير فوجئ بعودة رضوان دون عسكره، فلم يتمكَّن من تثبيت أقدامه في الحكم ويحتاط للأمر. وحاول كل من ياغي سيان صاحب أنطاكية ويوسف بن آبق وبعض الأمراء الآخرين أن يتفرَّد بالتحكم برضوان، وبالتالي السيطرة على ميراث تُتُش في الشام والجزيرة[1].

ومهما يكن من أمر، فقد دخل رضوان إلى حلب وتسلَّم الحكم فيها وخُطب له على منابرها، كما استولى على القلعة. وقد أدَّى أتابكه جناح الدولة حسين دوراً بارزاً في إقناع حاميتها من الجنود المغاربة بالانضمام إليه وتأييده، ووجد الوزير أبو القاسم نفسه في موقف حرج، فاضطر إلى التسليم بالأمر الواقع واعتذر عن تصرفاته[2].

ووصل دقاق، الابن الثاني لتُتُش، في غضون ذلك، إلى حلب قادماً من أرض المعركة مع جماعة من أتباعه، وأقام عند أخيه. وفي ظل صراع القوى بعد وفاة تُتُش، برز الأمير ساوتكين الخادم نائبه في دمشق وقلعتها، وقد أدرك أنه لن يكون له أمر مع رضوان بسبب سطوته وهو الذي خَبره أثناء غياب والده لطلب السلطنة، فاراد الاحتفاظ بامتيازاته ونفوذه بعيداً عن هيمنة رضوان، لكنه كان بحاجة إلى غطاء شرعي، لذلك أرسل إلى دقاق يستدعيه للقدوم إلى دمشق وتسلم الحكم فيها[3].

استجاب دقاق لدعوة ساوتكين، فخرج سراً من حلب قاصداً دمشق، ولما علم رضوان بخروجه، أرسل وراءه قوة عسكرية للقبض عليه، لكنه تمكَّن من الإفلات، ووصل إلى دمشق، فسلَّمه ساوتكين مقاليد الحكم، واستقل عن أخيه رضوان[4]، وبذلك يكون التمزق السياسي قد عاد مجدداً إلى بلاد الشام. وأقدم رضوان على قتل أخويه الآخرين أبي طالب وبهرام حتى لا يقتديا بدقاق[5].

حظي دقاق بعطف ياغي سيان حاكم أنطاكية الذي أشار عليه بالتفرد بحكم دمشق والاستقلال بها عن أخيه رضوان، وكان يهدف إلى إضعاف الأخير حتى لا يتمكَّن من عزله عن أنطاكية أو التخلص منه، وبخاصة أنه استعان برجل قوي هو

(١) زكار: ص ٢٣٢.
(٢) ابن الأثير: جـ ٨ ص ٣٩١.
(٣) المصدر نفسه: ص ٣٩٣. ابن القلانسي: ص ٢١٣.
(٤) المصدران نفساهما.
(٥) ابن العديم: جـ ١ ص ٣٣٧.

سقمان بن أُرتق، وقد منحه سروج[1] ومعرة النعمان بعد أن انتزعها من يده[2].

ووصل إلى دمشق، في هذه الأثناء، ظهير الدين طغتكين أتابك وهو أحد ضباط تُتُش، وكان معتقلاً في خراسان بعد خسارة تُتُش، فأطلق بركياروق سراحه نتيجة المفاوضات التي أجراها مع رضوان، فاستقبله دقاق ورحَّب به وأكرمه وردَّ إليه قيادة الجيش، واعتمد عليه في تسيير شؤون مملكته وسياسة الرعية[3].

شُغِل الأخوان في بداية أمرهما بالحفاظ على أملاكهما من جهة، وإعادة الوحدة إلى بلاد الشام من جهة أخرى، من خلال انتزاع كل منهما لأملاك الآخر وضمِّها إلى أملاكه. فقد أراد رضوان استعادة دمشق وبخاصة أنه نشأ وترعرع فيها، في حين قرَّر دقاق انتزاع حلب من يد أخيه وضمَّها إلى دمشق. وفي ظل هذا التمزق السياسي والصراع العسكري على السلطة في بلاد الشام بين مملكتي حلب ودمشق وصلت طلائع الحملات الصليبية.

الصراع بين الأخوين رضوان ودقاق

اتسمت العلاقات بين الأخوين رضوان ودقاق بالعدائية، ذلك أن رضوان لم ينس دمشق، ومنذ أن تسلَّم الحكم في حلب وهو لا يفتأ يذكرها ويتطلع إلى انتزاعها من يد أخيه. ويحدثنا ابن القلانسي عن هذه الرغبة فيقول: «وقد كان فخر الملك رضوان بن تاج الدولة صاحب حلب مائلاً إلى دمشق، ومحباً لها، ومؤثراً للعودة إليها، ولا يختار عليها سواها، لمعرفته بمحاسنها وترعرعه فيها، فجمع وحشد واستنجد بالأمير سقمان بن أُرتق، وبرز طالباً لدمشق والنزول عليها، وانتهاز الفرصة فيها»[4].

والواقع أن رضوان توجه إلى دمشق في عام (٤٨٩هـ/ ١٠٩٦م)، منتهزاً فرصة غياب أخيه دقاق وأمرائه عنها، واصطحب معه سقمان بن أُرتق لتعزيز قوته، وكان قد أقطعه معرة النعمان وأعمالها تعزيزاً لتحالفه معه، وأبقى جناح الدولة حسين في حلب، ولما وصل إليها، عسكر في ظاهرها[5]. لم يكن في دمشق آنذاك غير الوزير رزين الدولة محمد بن أبي القاسم وعدد قليل من العساكر والأجناد والأحداث، ولا

(١) سروج: بلدة قريبة من حران من ديار مضر. الحموي: جـ ٣ ص ٢١٦.
(٢) ابن الأثير: جـ ٨ ص ٣٩٢. ابن العديم: جـ ١ ص ٣٣٨.
(٣) ابن القلانسي: ص ٢١٣ ـ ٢١٤.
(٤) ذيل تاريخ دمشق: ص ٢١٥.
(٥) المصدر نفسه.

تشير المصادر إلى المكان الذي كان فيه دقاق وحليفاه ياغي سيان وإيلغازي، والراجح أن رضوان استطاع أن يتجنَّب جيش دقاق وأن يصل إلى أسوار دمشق ليفاجئ سكانها الذين تولوا الدفاع عنها.

ويصف ابن القلانسي دفاع الدمشقيين عن مدينتهم وصفاً حياً، فيقول: «... وأغلقت الأبواب وارتكبت الأسوار، وصاحوا ورشقوهم بالسهام، وكانوا قد بلغوا في الزحف إلى سوق الغنم، وقربوا من السور وباب الصغير، وطلب جماعة من العسكرية وأحداث البلد الخروج إليهم، والدفع عن البلد، فمنعهم السلار بختيار شحنة البلد، والرئيس أمين الدولة أبو محمد ابن الصوفي، رئيس البلد، من الخروج، وقاتلوهم على الأسوار ومنعوهم من الوصول إليها، واتفق الأمر المقتضى أن حجر المنجنيق وقع في رأس حاجب الملك رضوان وهو قائم يُحرِّض على الحرب فقتله، فسكنت الحرب واشتغلوا بأمره، وعادوا إلى مخيمهم لأجله، ولم يتم لهم أمر، ولا تسهَّل لهم غرض، وبلغهم أن الملك شمس الملوك عائد في العسكر إلى دمشق، فرحل في العسكر عائداً إلى حلب، خائباً في الأمر الذي طلب...»[١].

ويعلِّل ابن العديم سبب تراجع رضوان عن دمشق، وهو أن دقاق قبض على إيلغازي بن أرتق، أخي سقمان، واعتقله لتهمة وقعت به[٢]. ويبدو أن دقاق خشي من استمالة رضوان له مما يؤثر على قدراته القتالية، أو أنه خشي من مؤامرة قد يحيكها بتأثير من أخيه سقمان، بدليل أنه عمل على إثارة الاضطرابات والانقسامات داخل صفوف قواته.

والواقع أنه تضافرت عدة عوامل أجبرت رضوان على فك الحصار عن دمشق لعل أهمها:

ـ مقاومة الدمشقيين الضارية وتصميمهم على الدفاع عن مدينتهم مما فاجأ رضوان وأذهله.

ـ كان رضوان يأمل بمساعدة إيلغازي له من الداخل بتأثير أخيه سقمان وهو حليفه، فلما ألقي القبض عليه، رأى أنه لن يتمكَّن من تحقيق مشروعه.

ـ خشي سقمان من أن يقدم دقاق على قتل أخيه إيلغازي، فأقنع رضوان بالتخلي عن الحصار، ليتمكَّن، بعد ذلك، من التوسط لدى دقاق لإطلاق سراحه[٣].

---

(١) ذيل تاريخ دمشق: ص ٢١٥.

(٢) زبدة الحلب من تاريخ حلب: جـ١ ص ٣٤٠.

(٣) ضامن: ص ١٦١ ـ ١٦٢.

طارد دقاق أخاه رضوان، وتقارب المدى بين جيشهما، إلا أنهما لم يشتبكا، فتابع رضوان طريقه إلى حلب ووصل إليها في (آخر ذي الحجة عام ٤٨٩هـ/ كانون الأول عام ١٠٩٦م)، في حين رحل سقمان إلى بيت المقدس وتسلَّمها من نواب أخيه وأقام بها[١].

جدَّد رضوان هجومه على دمشق، واصطحب معه جناح الدولة حسين، فاستنجد دقاق بحليفه ياغي سيان، فسار إليه، وعندما علم رضوان بذلك ضعفت همته، وتخاذل، وقرَّر العودة إلى حلب، لكنه لم يتمكن من العودة مباشرة إليها خوفاً من أن يتصدَّى له دقاق وحلفاؤه في الطريق، فرحل إلى نابلس على نية التوجه إلى بيت المقدس ليحتمي بحليفه سقمان، ولكن تخلي العساكر عنه، ومطاردة دقاق له، وإشراف جيشه على التلف، اضطره للعودة إلى حلب على الرغم مما في ذلك من مخاطر، ثم التحق به سقمان قادماً من بيت المقدس عن طريق الصحراء خوفاً من مواجهة دقاق، فوصل إليها في (شهر محرم عام ٤٩٠هـ/ شهر كانون الثاني عام ١٠٩٧م)، واجتمع بجناح الدولة حسين مدبر شؤون حلب واتفقا على مهاجمة أملاك ياغي سيان حليف دقاق[٢]، إذ طالما عدَّ حكام حلب ياغي سيان خارجاً عن إرادتهم، وكان هذا الأخير قد حرَّض دقاق على مهاجمة رضوان كرد على مهاجمة هذا الأخير لدمشق ووعده بالمساندة، فجمع دقاق قواته وتوجه نحو الشمال واصطحب معه الأتابك طغتكين[٣]، وخرج ياغي سيان في الوقت نفسه من أنطاكية باتجاه الجنوب، والتقى الحليفان في حمص، ثم توجها إلى كفرطاب في (٢ ربيع الأول ٤٩٠هـ/ ١٨ شباط ١٠٩٧م) وحاصراها ثم دخلاها، وفرض دقاق غرامة مالية كبيرة على سكانها، ثم توجها إلى المعرة، واستوليا عليها بعد أن فرَّ منها أتباع سقمان[٤]، وتابعت القوات المتحالفة زحفها باتجاه حلب وأغارت على أعمالها[٥].

نهض رضوان لصد قوى التحالف التي هاجمته، لكنه افتقر إلى القوات الكافية لمواجهة الموقف، لذلك استنجد بسليمان بن إيلغازي صاحب سميساط، فوصل هذا إلى حلب على رأس جيش كثير العدد[٦].

---

(١) ابن القلانسي: ص ٢١٥. ابن العديم: جـ١ ص ٣٤٠.

(٢) ابن العديم: جـ١ ص ٣٤١. يذكر ابن الأثير أن سبب توجه رضوان إلى بيت المقدس هو الاستيلاء عليه، وهذا الرأي خاطئ لأن بيت المقدس كانت آنذاك لحليفه سقمان: جـ٨ ص ٤١٢.

(٣) ابن العديم: المصدر نفسه.

(٤) المصدر نفسه.

(٥) المصدر نفسه.

(٦) المصدر نفسه: ص ٣٤١ ـ ٣٤٢.

ولما شعر رضوان بالقوة، بما انضوى إليه، وظنَّ أن باستطاعته مواجهة خصومه، تحرَّك إلى قنسرين وعسكر في ظاهرها، في حين عسكرت قوات دقاق في المدينة. وعندما وجد الطرفان نفسيهما في مواجهة بعضهما تهيَّبا الدخول في معركة سافرة، وآثرا السلامة والتفاهم. فجرت بينهما مراسلات من أجل هذه الغاية، واتفقا على الاجتماع على نهر قويق لإجراء مباحثات هناك للوصول إلى حل سلمي يجنِّبهم القتال، إلا أن المفاوضات لم تسفر عن نتيجة إيجابية بسبب التصلب بالمواقف، وكان لا بد من الاصطدام المسلح لتقرير الموقف السياسي. والتقى الجمعان في (صبيحة يوم الخامس من شهر ربيع الآخر عام ٤٩٠هـ/ الثالث والعشرين من شهر آذار عام ١٠٩٧م)، وجرت بينهما رحى معركة ضارية استمرت حتى المساء، وأسفرت عن هزيمة قوات أنطاكية ودمشق، وفرَّ ياغي سيان في جو الهزيمة القاتم عائداً إلى أنطاكية، في حين عاد دقاق وطغتكين إلى دمشق[١].

كان لمعركة قويق عدة نتائج سياسية لعل أبرزها:

- تفوق رضوان العسكري مما أجبر دقاق على التفاهم معه، وعقد الأخوان معاهدة تفاهم تقرَّر بموجبها بأن يُخطب لرضوان بدمشق وأنطاكية قبل دقاق[٢].

- حصول نفور بين رضوان وجناح الدولة حسين. فقد شعر الأول بالحاجة إلى الانعتاق من سيطرة الثاني والانفراد بحكم حلب، فهرب جناح الدولة حسين من حلب مع زوجته أم رضوان وجماعة من مؤيديه وخواصه، وذهب إلى حمص، وتسلَّمها من قراجة، نائبه فيها[٣]، والمعروف أن حمص كانت من إقطاعه منذ أن سلَّمه إياها تُتُش بعد مقتل آق سُنقر.

- حصول تقارب بين ياغي سيان ورضوان، وهو نتيجة طبيعية لتفاهم الأخوين، فياغي سيان ما هو إلا أمير تابع لسلاجقة الشام، وتثبَّت هذا التقارب بالمصاهرة، إذ تزوج رضوان من ابنة ياغي سيان خاتون جيجك، ثم زار ياغي سيان مدينة حلب[٤].

- اتفق كل من رضوان وياغي سيان على مهاجمة حمص وانتزاعها من يد جناح الدولة حسين، غير أنهما هاجما شيزر وحاصراها قرابة شهر دون نتيجة، ثم توجها إلى

---

(١) ابن العديم: جـ١ ص ٣٤٢.
(٢) ابن الأثير: جـ٨ ص ٤١٢.
(٣) ابن القلانسي: ص ٢١٦، ابن العديم: جـ١ ص ٣٤٣.
(٤) ابن العديم: المصدر نفسه.

دمشق لانتزاعها من يد دقاق، لكن اختلاف الأمراء وقادة الجيش، في الرأي، منعهما من مواصلة الزحف، فتفرَّقا وعاد كل منهما إلى بلده[١]. والراجح أن هذا الاختلاف له علاقة مباشرة بمدى تطبيق الاتفاقية المبرمة بين الأخوين رضوان ودقاق.

صراع الأمراء في حلب في عهد رضوان

شهدت حلب في عهد رضوان صراعاً داخلياً مزدوجاً بينه وبين أُمرائه الطامحين إلى النفوذ والسلطان، وقد اتصفوا بالتقلبات السريعة وفقاً لتطور الأحداث السياسية، ثم بين الأمراء أنفسهم من أجل التفرد بالهيمنة عليه شخصياً وإدارته وفقاً لمصالحهم، نذكر من بين الأمراء الذين برزوا على المسرح السياسي وكانت لهم علاقات مباشرة مع رضوان: يوسف بن آبق وجناح الدولة حسين والمجن الفوعي.

كان يوسف بن آبق حاكماً على الرحبة، استنجد به آق سُنقر في حربه مع تُتُش، ثم انضم إلى هذا الأخير بعد مقتل الأول وأضحى من أبرز قادته المعتمدين لديه، واشترك معه في حربه ضد بركياروق، وقد أرسله تُتُش في (شهر صفر عام ٤٨٨هـ/ شهر شباط عام ١٠٩٥م) للاستيلاء على بغداد، فدخلها، ثم غادرها إلى الموصل بعد أن علم بمقتله، وراسل ابنه رضوان يطلب منه السماح له بالقدوم إلى حلب ويضع نفسه تحت تصرفه، فأذن له[٢].

أدرك يوسف بن آبق بعد قليل من الوقت بأن مصلحته تقضي عليه بالانفصال عن رضوان، فانضم إلى ياغي سيان صاحب أنطاكية أثناء هجوم رضوان على الرها، ثم اتصل برضوان مرة ثانية يطلب منه العفو، واضعاً نفسه تحت تصرفه، ويبدو أنه لم يجد عند ياغي سيان ما يبحث عنه من نفوذ وسلطان.

لكن رضوان لم يعد يثق به أكثر من ذلك، فأوعز إلى بركات بن فارس الفوعي الملقب بالمجن، رئيس أحداث حلب، بأن يتخلَّص منه، فهاجمه في داره وقتله في (شهر محرم عام ٤٨٩هـ/ شهر كانون الثاني عام ١٠٩٦م)[٣].

ربما كان يوسف بن آبق ضحية لصراع الأمراء، وبخاصة جناح الدولة حسين وياغي سيان. فقد ذكر ابن الأثير أن سبب القتل هو وشاية المجن إلى جناح الدولة واتهامه ليوسف بمراسلة ياغي سيان والتآمر معه[٤]، في حين يذكر ابن العديم أن

---

(١) ابن القلانسي: ص ٢١٧. ابن العديم: جـ ١ ص ٣٤٣.

(٢) ابن العديم: المصدر نفسه ص ٣٤٠. (٣) ابن الأثير: جـ ٨ ص ٤٠٠.

(٤) المصدر نفسه.

سبب قتل يوسف هو توهم رضوان منه الارتداد عن الإسلام، فخشيه رضوان وجناح الدولة وطلبا من المجن قتله، فهجم عليه مع أصحابه وقتلوه[1].

ومهما يكن من أمر، فقد كان رضوان هو المستفيد الأول من التخلص من يوسف بن آبق الذي عدَّه مشاغباً على حكمه.

وكان جناح الدولة حسين من أتباع تُتُش، وعندما قُتل هذا الأخير، عاد إلى حلب والتحق برضوان، وأمَّن له السيطرة على الحكم، واعتمد رضوان عليه في بداية عهده في تثبيت حكمه حتى أضحى صاحب الكلمة المسموعة، وصحبه في حملاته ضد ديار بكر وسروج والرها وحران ودمشق.

ونتيجة لطموح الأمراء، فقد اختلف جناح الدولة حسين مع ياغي سيان في عام (٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م) وبرز في هذه الأثناء المجن الفوعي كمنافس خطير له وبخاصة بعد أن نجح في قتل يوسف بن آبق. وحتى يتفرد بالهيمنة على رضوان، أثاره ضد جناح الدولة حسين، وشعر الأخير بتغير رضوان تجاهه، فخاف منه على نفسه وهرب إلى حمص وكانت من إقطاعه، واستقر بها[2].

وجهد رضوان لاستعادة حمص من يده، فخرج من حلب في عام (٤٩٠هـ/ ١٠٩٧م) متوجهاً إليها، واصطحب معه ياغي سيان وسقمان. وعندما وصل إلى شيزر حصل خلاف بين الأمراء، وساءت العلاقة من جديد بين رضوان وحليفيه، وقد أدَّى وزيره النجم بن بديع دوراً بارزاً في إثارة هذا الخلاف عندما أثار شكوكه من حليفيه، فعاد رضوان إلى حلب في حين عاد كل من ياغي سيان وسقمان إلى بلده[3].

ظل جناح الدولة حسين أميراً على حمص حتى عام (٤٩٦هـ/ ١١٠٣م) حيث قُتل على يد الحشيشية وهو في طريقه إلى الجامع لأداء صلاة الجمعة. إذ أرسل الحكيم المنجم الباطني ثلاثة نفر تصدَّوا له وقتلوه، كما قتلوا بعض مرافقيه. والواضح أن عملية القتل كانت بتدبير من رضوان، وصبَّت في مصلحته، إذ أزاحت منافساً قوياً وخطيراً من طريقه[4].

لم يحصل رضوان من هذا الاغتيال على حمص، لأن سكانها راسلوا دقاق واستدعوه ليسلموه المدينة، فأسرع بالمجيء إليها وتسلَّمها فأحسن إلى أولاد جناح

---

(١) زبدة الحلب: جـ ١ ص ٣٤٠.
(٢) ابن القلانسي: ص ٢١٦.
(٣) ابن القلانسي: ص ٢١٧. ابن العديم: جـ ١ ص ٣٤٤.
(٤) المصدران نفساهما: ص ٢٣٠. ص ٣٥٩.

الدولة، ونقلهم إلى دمشق، وخصَّصهم بإقطاع أبيهم[1].

وكان المجن الفوعي رئيس أحداث حلب منذ أيام آق سُنقر، وقد علت مرتبته وقويت شوكته حتى أن أوامره كانت تسري على الوزراء والقضاة ومن دونهم[2]، وأضحى الرجل الأول في حلب بعد فرار جناح الدولة حسين.

حاول المجن الفوعي التخلص من رضوان وتسلم الحكم في حلب، وقد أزعجه تقارب هذا الأخير مع الحشيشية واعتماده عليهم؛ فأعلن الثورة عليه. وفي المقابل، كان رضوان يخطط للتخلص منه كما فعل بغيره من قبل، وما إن أعلن الثورة حتى عزله عن رئاسة حلب وولَّى صاعد بن بديع مكانه، واستقطب الأحداث فانفضوا عن المجن، وضعف موقفه. وطلب رضوان منه مغادرة حلب فرفض واختفى عن الأنظار، إلا أن رضوان علم بمكان اختبائه، فقبض عليه وعلى أولاده وأقربائه ومن استمر على ولائه له، وأودعهم السجن وذلك في (شهر ذي القعدة عام ٤٩٠هـ/ شهر تشرين الأول عام ١٠٩٧م)، ثم قتله بعد ذلك، فتخلص من أحد أبرز المعارضين لسياسته[3].

الانتفاضات على الحكم السلجوقي في شمالي بلاد الشام

شهد شمالي بلاد الشام بعض الانتفاضات على الحكم السلجوقي. فقد استغل سكان أفامية الصراع بين ولدي تُتُش رضوان ودقاق وثاروا ضد حاكمهم التركي وطردوه، وذلك في عام (٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م)، وشكلوا وفداً أرسلوه إلى القاهرة للاستنجاد بالدولة الفاطمية. والمعروف أن غالبية سكان أفامية كانوا إسماعيلية مستعلية من أتباع الفاطميين في مصر، وعلى عداء مع الأتراك السُّنَّة، فعين الفاطميون خلف بن ملاعب والياً عليهم وكان في القاهرة، فعاد مع الوفد إلى أفامية.

وأثناء الصراع بين الأخوين رضوان ودقاق، حصل كربوغا على إذن من بركياروق بتجنيد جيش من الأتراك، وهاجم حران في عام (٤٨٩هـ/١٠٩٦م). والمعروف أن رضوان كان قد أطلق سراح كربوغا من السجن الذي كان تُتُش قد أودعه به عقب انتصاره على آق سنقر، ثم استولى على نصيبين وتابع زحفه إلى الموصل وانتزعها من يد آخر أمرائها علي بن شرف الدولة العقيلي.

وعلى هذا الشكل كان الصراع بين الحكام والأمراء المسلمين في شمالي بلاد الشام وإقليم الجزيرة، في الوقت الذي كانوا فيه بحاجة ماسة إلى لمِّ شعثهم

---

(١) ابن القلانسي: ص ٢٣٠.
(٢) ضامن: ص ١٦٧ ـ ١٦٨.
(٣) ابن الأثير: جـ ٨ ص ٤٠٠. ضامن: ص ١٦٩.

واتحادهم لمواجهة الأخطار الخارجية وفي مقدمتها الخطر الصليبي الذي بدأ يتوغل في هذه البلاد.

علاقات رضوان بالقوى الإسلامية

علاقة رضوان بالخلافة العباسية

حاول رضوان اتباع سياسة مستقلة عن الخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية في فارس والعراق، وبخاصة أن السلطان بركياروق التفت إلى التوسع في المشرق ولم يحاول ضمَّ بلاد الشام إلى أملاك السلاجقة العظام. وبناء عليه فقد اتصفت العلاقة بين الطرفين بالضعف وبأنها كانت محدودة جداً، إنما كانت تقوى أحياناً في أوقات الشدة والأزمات من واقع الوفود التي كانت تصل إلى بغداد لطلب المساعدة ضد الصليبيين، الذين كانوا آنذاك يجوثون خلال ديار بلاد الشام، ويمكن رصد طلب السلطان بركياروق من رضوان إطلاق سراح كربوغا وأخيه التونتاش وكانا سجينين في حلب منذ أيام تُتُش[(١)].

علاقة رضوان بالدولة الفاطمية

لم تنفك الدولة الفاطمية تجهد لاستعادة نفوذها في بلاد الشام بعامة، فاستغلت، في عهد رضوان، ابتعاده عن الخلافة العباسية، وحاولت التقرب منه، فأرسل إليه المستعلي الفاطمي رسالة يدعوه فيها إلى الدخول في طاعته مقابل تقديم المساعدة العسكرية والأموال لانتزاع دمشق. قَبِل رضوان العرض، وكان بحاجة إلى حليف خارجي، فأمر خطيب حلب أبا تراب حيدرة بن أبي أسامة للدعاء للمستعلي ثم لوزيره الأفضل بن بدر الجمالي ثم لنفسه، وذلك ابتداء من يوم الجمعة (١٧ رمضان ٤٩٠هـ/ ٢٨ آب ١٠٩٧م)[(٢)].

دامت الدعوة للفاطميين في حلب حتى (شهر رجب عام ٤٩٢هـ/ شهر حزيران عام ١٠٩٩م)، وفي رواية أنها لم تستمر أكثر من أربع جُمع، لأن رضوان قطعها عندما لم يصل إليه شيء من المساعدات التي وعده بها الفاطميون، فأعاد الخطبة للخليفة العباسي المستظهر ثم للسلطان بركياروق ثم لنفسه[(٣)].

---

(١) ابن الأثير: جـ ٨ ص ٤٠٢ ـ ٤٠٣. Elisséeff: Nur Ad-Din: II p289.

(٢) ابن العديم: جـ ١ ص ٣٤٣.

(٣) ابن القلانسي: ص ٢١٧. ابن الأثير: جـ ٨ ص ٤١٢. ابن العديم: جـ ١ ص ٣٤٣ ـ ٣٤٤.

وعزَّز رضوان تقرُّبه من الفاطميين، فعزل جد أبي غانم، أبا محمد بن هبة الله ابن أبي جرادة عن القضاء والخطابة بحلب، وكان الخليفة العباسي المقتدي قد ولَّاه هذه الأعمال في عام (٤٨٦هـ/ ١٠٩٣م)، وولَّى مكانه في الخطابة أبا تراب وهو إمامي المذهب، وولَّى القاضي فضل الله الزوزني العجمي الحنفي عمل القضاء وأرسله رسولاً إلى مصر، وناب عنه أبو الفضل أحمد ابن أبي أُسامة الحلبي، وعندما قطع رضوان الخطبة للفاطميين أعاد جد أبي غانم إلى القضاء والخطابة في حلب[١].

الواقع أن هذه الخطوة، وهي الدعاء للفاطميين التي أقدم عليها رضوان، تُعدُّ خطوة خطيرة لأنها جاءت من قِبَل ملك سلجوقي، والمعروف أن هدف السلاجقة الأول كان طرد الفاطميين من بلاد الشام وإعادتها إلى الحظيرة العباسية، ومن ثَمَّ مهاجمتهم في مصر والقضاء عليهم وإعادتها أيضاً إلى النفوذ العباسي.

ولا بد لنا في هذا المقام من التساؤل عن أهداف رضوان من وراء هذه الخطوة التي أقدم عليها، ويبدو أن هناك عدة احتمالات لعل أهمها:

- أراد رضوان الاستقلال عن السلاجقة العظام في المشرق، وشعر أنه بحاجة إلى قوة تسانده في حال نشوب نزاع معهم، فوجد أن الدولة الفاطمية يمكن أن تؤدي هذا الدور، فتقرَّب من الفاطميين ودعا لهم.

- يبدو أن رضوان تأثر بالدعوة الفاطمية التي انتشرت مع غيرها من المذاهب في بلاد الشام، ويذكر ابن الأثير أنه كان لرضوان منجِّم يُقال له الحكيم أسعد وكان يميل إليه، فقدَّمه بعد رحيل جناح الدولة حسين إلى حمص فحسَّن له مذهب العلويين المصريين[٢]. ومن الملاحظ أن الفاطميين كانوا يعدون حكام شمالي بلاد الشام بالمساعدة ثم لم يلبثوا أن يخلُّوا بتعهداتهم، ولعل مرد ذلك يعود إلى أن الدولة الفاطمية كانت تمر بمراحل صعبة اقتصادياً بعد الشدة المستنصرية التي ضربت مصر، وعسكرياً بعد تراجع قوتها العسكرية وبخاصة أمام السلاجقة والصليبيين، ووُجدت قناعة في الدوائر الفاطمية بعدم جدوى التحالف مع حكام إمارة حلب. والواقع أن ظهور السلاجقة في شمالي بلاد الشام قضى على الأمل الفاطمي في استعادة نفوذ الفاطميين في هذه البلاد، وأوقف المصالح الفاطمية هناك، وعزَّز موقف الصليبيين بخاصة.

الفاطميون يستعيدون بعض نفوذهم في بلاد الشام

سبق أن ذكرنا أن تُتُش أقطع قائده التركماني أُرتق بن أكسب بيت المقدس في

---

(١) ابن العديم: جـ ١ ص ٣٤٣ ـ ٣٤٤.

(٢) الكامل في التاريخ: جـ ٨ ص ٤١٢ ـ ٤١٣.

عام (٤٧٩هـ/ ١٠٨٦م) تمهيداً للاعتماد على مقدرته العسكرية، وللاستفادة من العدد الكبير من الأتراك الذين كانوا تحت إمرته، فضلاً عن إمكان اتخاذه حاجزاً بينه وبين الفاطميين في مصر[١]، وفي عام (٤٨٤هـ/ ١٠٩١م) توفي أُرتق فخلفه ولداه سقمان وإيلغازي.

لم تبق بيت المقدس بأيدي الأراتقة مدة طويلة، إذ أن الفاطميين في مصر كانوا يطمعون في إعادة الاستيلاء على بلاد الشام ومنها بيت المقدس، بوصفها قاعدة فلسطين ونقطة ارتكاز لمحاولة استرداد ما انتزعه السلاجقة منهم[٢].

وسرعان ما استغلوا ضعف الأتراك بسبب التنازع بين الأخوين رضوان ودقاق، وتعرُّض السلاجقة لغزو الصليبيين وتراجعهم أمامهم عند أنطاكية، ومقتل عدد كبير منهم؛ فنهض أمير الجيوش الأفضل بن بدر الجمالي لاستعادة نفوذ الفاطميين في جنوب بلاد الشام، ظناً منه أنه بات من اليسير تحقيق مكاسب سريعة على حساب السلاجقة[٣]، فخرج من مصر في (شهر شعبان ٤٩١هـ/ شهر تموز ١٠٩٨م) على رأس جيش كبير متوجهاً إلى بيت المقدس للاستيلاء عليها، وراسل الأخوين سقمان وإيلغازي يلتمس منهما تسليم المدينة إليه دون قتال، فامتنعا في بادئ الأمر عن إجابة طلبه ظناً منهما بأن تحصينات المدينة القوية والمقدرة القتالية لأتباعهما التركمان ستمكنهم من الصمود حتى تأتيهم نجدة سريعة من دقاق، فضرب الأفضل عندئذ الحصار على المدينة ونصب عليها نيفاً وأربعين منجنيقاً[٤]، راحت تضرب الأسوار بشكل متواصل حتى تهدم مواضع منها، ومع ذلك فقد قرَّر الأخوان الاستمرار في الصمود والقتال، غير أن سكان المدينة عارضوا الاستمرار في المقاومة وبخاصة أن دقاق لم يتمكَّن من تقديم نجدة عاجلة لهم، فراسلوا الأفضل في الصلح واتفقوا معه على فتح الباب له مقابل الأمان لهم، فاستجاب لهم، ومن ثَمَّ دخل هو وقواته المدينة بالأمان، فأحسن معاملة الأخوين وأتباعهما، وأجزل لهم العطاء وأطلقهم، وسمح لهم بالذهاب إلى دمشق، وذلك في (١٠ شوال ٤٩١هـ/ ١٠ أيلول ١٠٩٨م). فاستعاد الفاطميون بذلك سيادتهم على بيت المقدس، وعيَّن الأفضل افتخار الدولة والياً على بيت المقدس[٥].

---

(١) خليل، عماد الدين: الإمارات الأرتقية في الجزيرة والشام ص ٦٥ ـ ٦٦.

(٢) المرجع نفسه: ص ٧٧.

(٣) عاشور: جـ ١ ص ٢٣٥.

(٤) خليل: ص ٧٧.

(٥) ابن القلانسي: ص ٢٢١. ابن الأثير: جـ ٨ ص ٤٢٤ ـ ٤٢٥.

ولم تلبث المعاقل الساحلية أن وقعت في أيدي الفاطميين من عكا جنوباً حتى جبيل شمالاً، ومجرى نهر الأردن شرقاً باستثناء طرابلس التي نجحت في المحافظة على استقلالها[1].

والواقع أنه تحقَّق ظن الوزير الفاطمي، فالسلاجقة كانوا منهمكين في الصراعات الداخلية، وبصدِّ الغزو الصليبي، ولم يتمكنوا من صدِّ الهجوم الفاطمي، كما أن تهديد الفاطميين لفلسطين وبيت المقدس خدم القضية الصليبية لأنه سبَّب ارتباكاً للسلاجقة في أشد الأوقات حرجاً[2].

علاقة رضوان بطائفة الحشيشية[3]

الجذور التاريخية

انقسمت الطائفة الإسماعيلية، بعد وفاة المستنصر الفاطمي في عام (٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م)، إلى فرقتين: النزارية، التي اعتقد أتباعها بأحقية ابنه الأكبر نزار في خلافته على الحكم في مصر، وقد فروا إلى المشرق بعد أن تعرضوا لحملة اضطهادات في مصر، وكان على رأسهم الحسن بن الصباح الذي أسس في بلاد فارس ما يُعرف بالفرقة النزارية، وغلب على أتباعه اسم الحشيشية أو الباطنية، والفرقة الثانية هي المستعلية أتباع المستعلي، الابن الثاني للمستنصر.

تعمَّق الحسن بن الصباح في دراسة العقيدة الإسماعيلية، فألَمَّ بأصولها، على

---

(١) ابن الأثير: جـ ٨ ص ٤٢٤ ـ ٤٢٥.

(٢) Grousset: Histoire des Croisades I pp 84-85.

(٣) أطلق المؤرخون على هذه الطائفة الجديدة عدة تسميات منها: ـ الحشيشية أو الحشاشين. وجاءت هذه الصفة إما نتيجة استعمال هؤلاء الحشيش، الذي تزخر به الطبيعة الجبلية في تلك البلاد التي استقروا فيها، لصنع الأدوية، وإما لأنهم كانوا يتعاطون الحشيش المخدر كي يصبح الفرد منهم كالآلة في يد الشيخ قبل أن يوجهه لتنفيذ مهمة ما. ونحن نعلم من مؤرخي الحروب الصليبية أن جماعة الحشاشين الإسماعيلية استعملت الحشيش استثارة للقتل، واحتقاراً للموت في سبيل أغراضهم السياسية، ومن ثم انتقل الاسم حشاشون، وهو أصل لكلمة {Assassin}، إلى لغات جنوبي أوروبا، على أن المألوف لهذه الكلمة الأوروبية لا صلة له باللفظ الأصلي.

ـ السبعية: لأن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق هو الإمام السابع عندهم، ولتمييزهم عن طائفة الاثني عشرية.

ـ الباطنية: لأنهم يقولون إن لكل ظاهر باطناً، ولكل تنزيل تأويلاً، وقد جعلوا هذه النظرية عقيدة شاملة لكل أمور الحياة، كما جرت المصنفات الشرقية على تسميتهم بـ «الملاحدة» أو «النزارية». وعلى الرغم من تعدد التسميات، فإننا اعتمدنا على تسميتهم بالحشيشية. انظر دائرة المعارف الإسلامية: جـ ٧ ص ٣٩٦ ـ ٣٩٨ ص ٤٣٤ ـ ٤٣٧.

أن أهم ما قام به من إنجازات غلبت عليها الصفة العملية، فاستطاع أن يوجِّه أتباعه الشديدي الولاء له، لتحقيق أهداف سياسية مناهضة لخصومه، وبخاصة الخلافة العباسية في بغداد، التي تحدَّى شرعيتها، بالإضافة إلى بعض الأمراء المسلمين من السلاجقة، وأهم ما استخدمه من أسلحة هو الاغتيال. وفي عام (٤٨٣هـ/ ١٠٩٠م) اتخذ الحسن بن الصباح قلعة ألموت[١] في خراسان مقراً لدعوته.

وما اشتهر به أتباعه من التعلق المطلق به، جعلهم على استعداد للمخاطرة والتضحية بأنفسهم متى أمرهم بذلك. وفعلاً قاموا بسلسلة عمليات اغتيال كان ضحيتها الكثير من رجال الدولة العباسية وأمرائها، فعظم أمرهم، وقويت شوكتهم، وخشيهم الناس، وامتلأوا منهم رعباً، ولم تكن كراهيتهم للنصارى تزيد كثيراً على بُغض أهل السنة، لذلك لم يسع هؤلاء وأولئك إلا تقدير ذلك.

استخدام رضوان الحشيشية لتحقيق مآربه

كان أسعد أبو القنج الباطني، المعروف بالحكيم المنجم، أول وأكبر دعاة الحشيشية في بلاد الشام، يليه أبو طاهر الصائغ العجمي، وتمكَّن هذان الداعيان من التاثير على رضوان، فاكتسبا عطفه وحمايته لهما ولأتباعهما.

ويبدو أن صاحب حلب كان بحاجة إلى حليف قوي في الداخل لمواجهة مؤامرات منافسيه وخصومه، فوجد ضالته في هذين الداعيين، فأطلق لهما حرية العمل والحركة، وسمح لهما ببناء دار للدعوة في حلب[٢].

استغل الحشيشية هذا العطف، وتلك المكانة الكبيرة لدى رضوان، وأخذوا يباشرون أعمالهم الإجرامية من واقع القضاء على منافسيهم ومعارضيهم، منطلقين من حلب، وكان قاضي هذه المدينة فضل الله الزوزني العجمي الحنفي أول ضحاياهم، لأنه كان يهاجم معتقداتهم[٣].

وقتل الحشيشية في عام (٤٩٦هـ/ ١١٠٣م) جناح الدولة حسين أمير حمص كما ذكرنا، وتُعد هذه الحادثة أول عمل كبير قام به هؤلاء في بلاد الشام، وقد هدفوا إلى إرضاء رضوان والفوز بثقته من جهة، وإشعاره بأنه غير قادر على الاستمرار في الحكم بدون مساعدتهم، من جهة أخرى.

---

(١) ألموت: قلعة على جبل شاهق من حدود الديلم. ابن الأثير: جـ٦ ص ٧٢٨.

(٢) ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: جـ٥ ص ٢٠٥.

(٣) ابن العديم: جـ١ ص ٣٤٤.

وظنَّ رضوان أن مركزه يقوى ويتدعَّم بهذه الأعمال، إلا أن الواقع كان غير ذلك، إذ لم يؤيد سكان حلب سياسته تجاه الحشيشية، كما أدَّى ذلك إلى إضافة عامل جديد من عوامل التفكُّك والفوضى التي تعرَّض لها شمالي بلاد الشام، وأضعفت من إمكانات الوقوف في وجه الصليبيين[1].

وامتد نشاط الحشيشية إلى خارج إطار إمارة حلب، فامتلكوا عدداً من الحصون، كان أولها أفامية بعد أن انتزعوه من يد أميره خلف بن ملاعب في عام (٤٩٩هـ/ ١١٠٥م) وقتلوه، وساعدهم في ذلك أحد دعاتهم وهو أبو القنج السرميني، ونادوا بشعار رضوان، وهذا دليل على أنهم كانوا ينفذون سياسته[2]. وظلت أفامية بيد الحشيشية حتى استولى عليها الصليبيون في (١٣ محرم عام ٥٠٠هـ/ ١٥ أيلول عام ١١٠٦م)، وقتلوا أبا القنج السرميني وأسروا أبا طاهر الصائغ العجمي، ثم أطلقوا سراحه[3].

واعتمد رضوان على طائفة الحشيشية عندما قرَّر منع الجيش السلجوقي بقيادة شرف الدولة مودود بن التونتكين حاكم الموصل من دخول حلب في عام (٥٠٥هـ/ ١١١١م)، على الرغم من أنه قدم بناء على دعوته لمواجهة الأمير الصليبي تانكرِد[4].

وهكذا نرى أن العلاقة بين رضوان والحشيشية كانت علاقة متميزة، تمكَّن هؤلاء بواسطتها من كسب واستقطاب عدد كبير من الناس إليهم في سرمين والجزر وجبل السماق وبني عليم، كما امتلكوا عدة حصون هامة في بلاد الشام مثل القدموس والعليقة والكهف ومصياف. واستمرت هذه العلاقة الطيبة حتى وفاة رضوان، ولم يتعكر صفوها إلا مرة واحدة، وذلك عندما بلغه أنه لُعِن في مجلس السلطان محمد لمشايعته لهم، وذلك في عام (٥٠١هـ/ ١١٠٧م)، فأوعز رضوان إلى أبي الغنائم، ابن أخي أبي القنج، أن يخرج من حلب مع جماعته، وقتل بعضهم أثناء خروجهم[5].

علاقة دقاق بالأمراء المجاورين

إن ما نملكه من معلومات عن حكم دقاق في دمشق قليلة، إذ أن ما ورد في

---

(١) عاشور: جـ ١ ص ٥٤٤. ضامن: ص ١٧٨. Setton: History of the crusades: I pp 109 - 110.

(٢) ابن القلانسي: ص ٢٤٢. (٣) المصدر نفسه: ص ٢٤٣.

(٤) المصدر نفسه: ص ٢٧٩. وليم الصوري: جـ ١ ص ٥٤٥.

(٥) ابن العديم: جـ ١ ص ٣٦٤. ضامن: ص ١٧٩.

المصادر المتوفرة تتناول العلاقة بينه وبين أخيه رضوان بشكل خاص، ولا تتطرق إلى طبيعة حكمه في دمشق أو إلى علاقاته الخارجية إلا نادراً.

وتشكل علاقته بالأراتقة جانباً مهماً من سياسته حاول من خلالها التوسع في ديار بكر، كما كانت لعلاقته ببني عمار في طرابلس دافعاً له على التوسع في مناطق الثغور الساحلية.

وفي الوقت الذي انضم فيه سقمان بن أُرتق إلى دقاق بعد خروجه من بيت المقدس في عام (٤٩١هـ/١٠٩٨م)، أعرب لحلفائه عن رغبته في الاستيلاء على دياربكر واتخاذها قاعدة عسكرية في حروبه ضد أعدائه من جهة، ومكاناً أميناً لاستقرار بني أُرتق من جهة أخرى، وتُمثل هذه الرغبة البادرة الأولى في سياسة الأراتقة تجاه ديار بكر[١]، وبدأ نشاطاً سياسياً وعسكرياً واسع النطاق استطاع بواسطته أن يحقق هدفه، إلا أنه رأى نفسه بحاجة إلى حليف قوي يستند عليه لاستمرارية حكمه، فحالف دقاق.

ونتيجة لهذا التحالف، حاول دقاق أن يتوسع في ديار بكر، فتوجَّه في عام (٤٩٣هـ/١١٠٠م) إلى هناك وتسلَّم ميافارقين، ورتَّب فيها من يحفظها ويدافع عنها[٢]، كما تسلم الرحبة في عام (٤٩٦هـ/ ١١٠٣م) بعد أن ضايق أهلها، وقطع أسباب الميرة عنهم[٣].

وكان توسع دقاق في مناطق الثغور الساحلية محدوداً ومؤقتاً، وله علاقة بالمدى الذي وصلت إليه العلاقة بين فخر الملك بن عمار صاحب طرابلس وبين أبي محمد عبيد الله بن منصور المعروف بابن صليحة.

فبعد مرور الحملة الصليبية الأولى وزوال خطرها المباشر عن أملاك بني عمار، استطاع فخر الملك بن عمار أن يعيد توسيع رقعة إمارته إلى سابق عهدها لتشمل جبلة وأنطرطوس وعِرقة وحلبا وجبيل وجونية، فاستعاد الأولى في عام (٤٩٤هـ/ ١١٠١م)، وكانت آنذاك لا تزال تحت حكم ابن صليحة، وقد استُهدفت من جانب الصليبيين، لكن ابن صليحة تمكَّن من صدهم بالحيلة وهو على يقين بأنهم لن يلبثوا أن يعودوا لقتاله وانتزاع جبلة منه، فآثر أن يخرج منها سالماً «إذ ليس له من يمنعهم عنه»[٤]، ولما كان خارجاً على طاعة بني عمار عندما سلخ جبلة منهم، فإنه توجَّه إلى دمشق

---

(١) خليل: ص ٧٦.
(٢) ابن القلانسي: ص ٢٢٣.
(٣) المصدر نفسه: ص ٢٢٩. ابن العديم: جـ١ ص ٣٥٩.
(٤) ابن الأثير: جـ٨ ص ٤٤٧.

ودخل في حماية دقاق وأتابكه طغتكين وسلَّمه المدينة، فأرسل الأتابك ابنه تاج الملوك بوري ليحكمها باسم دقاق[1]، فأرسل فخر الملك إلى دقاق يعرض عليه ثلاثمائة ألف دينار مقابل أن يسلمه ابن صليحة عرياناً فلم يفعل[2].

ويبدو أن بوري بن طغتكين لم يكن على قدر المسؤولية التي أوكلت إليه، فآذى الناس وصادر أموالهم، فكاتبوا فخر الملك وشكوا إليه حالهم، وطلبوا منه أن يرسل إليهم قوة عسكرية تُخلِّصهم من ظلم بوري وأصحابه، ويتسلم البلد. استجاب أمير طرابلس لهذا الطلب، وأرسل قوة عسكرية هزمت الأتراك وأخرجتهم من البلد، وقبضت على بوري، فحُمل أسيراً إلى طرابلس، فأكرمه ابن عمار ثم أرسله إلى دمشق، وكتب إلى والده يطلعه على حقيقة الأمر ويعتذر منه مما جرى نحو ابنه، وبرَّر استيلاءه على جبلة بخشيته من أن يملكها الصليبيون[3].

وفاة دقاق

ألَمَّ بدقاق مرض تطاول به وتعذر معه الشفاء، فطلبت منه والدته الخاتون صفوة الملك بأن يوصي بما في نفسه ولا يترك أمر الدولة وولده سدى، فنصَّ على الأتابك طغتكين في الولاية بدمشق من بعده والحضانة لابنه الصغير تُتُش إلى حين يكبر، وكان عمر هذا الصبي سنة واحدة، وتوفي دقاق في (١٢ رمضان عام ٤٩٧هـ/ ٨حزيران ١١٠٤م)[4]. وذكر ابن عساكر سبباً آخر في وفاة دقاق، ذلك أن أمه زيَّنت له جارية فسمته في عنقود عنب معلق في شجرته، ثقبته بإبرة فيها خيط مسموم، وأن أمه ندمت على ذلك بعد الفوت، وأومأت إلى الجارية أن لا تفعل، فأشارت إليها أن قد كان، وتهرى جوفه فمات[5]. ويبدو أن لحادثة الاغتيال علاقة بحادثة اغتيال جناح الدولة حسين أمير حمص، فقد شجَّعت طغتكين على التخلص من دقاق ووراثته في حكم دمشق. وتشير قرائن حادثة الوفاة أن للأتابك وزوجته علاقة مباشرة بذلك من واقع طموح الأتابك إلى الانفراد بحكم دمشق وتأسيس إمارة وراثية، ويُدعم تطور الأحداث في دمشق بعد ذلك هذا الرأي إذ لم يلبث أن توفي تُتُش بن دقاق. وحتى لا يظهر الأتابك بمظهر الطامع في وراثته، أرسل إلى والي بعلبك فخر الدولة كمشتكين التاجي يأمره بإطلاق سراح أرتاش بن تاج الدولة تُتُش أخي دقاق،

---

(١) ابن القلانسي: ص ٢٢٦.
(٢) ابن الأثير: جـ ٨ ص ٤٤٧.
(٣) المصدر نفسه: ص ٤٤٨. ابن القلانسي: ص ٢٢٦.
(٤) ابن القلانسي: ص ٢٣٣.
(٥) تاريخ دمشق: جـ ١٧ ص ٣٠٤.

وهو الوحيد الذي نجا من تصفية الإخوة، وكان دقاق نفسه قد أمر باعتقاله في بعلبك، وكان عمره اثنتي عشرة سنة.

وحضر أرتاش إلى دمشق ليتسلم الحكم فيها، فاستقبله طغتكين وأكرمه وأقامه في منصب أخيه دقاق، وأطاعه الخاص والعام «فاستقامت بذلك الأمور، وسكنت إليه نفوس الجمهور»[1].

لكن أرتاش كان عديم الخبرة في الأمور السياسية بفعل صغر سنه، وتولت والدته توجيهه. ويبدو أنها وقفت على نوايا طغتكين وزوجته صفوة الملك في الاستئثار بالحكم، فخشيت على ابنها وأوهمته بأنهما ربما عمدا إلى قتله «فخاف منهما وحسَّنت له الخروج من دمشق ومملكتها والعودة إلى بعلبك لتجتمع إليه الرجال والعسكرية، فخرج منها سراً» في (شهر صفر عام ٤٩٨هـ/ شهر تشرين الثاني عام ١١٠٤م)[2]. واستقام الحكم في دمشق بعد ذلك للأتابك طغتكين، وتفرد بالأمر واستبد بالرأي وأسس إمارة وراثية عُرفت في التاريخ باسم أتابكية دمشق، قامت على أنقاض سلاجقة الشام.

وفاة رضوان

حكم رضوان إمارة حلب مدة عشرين عاماً، منذ أن تسلم الحكم بعد مقتل والده تُتُش في عام (٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م) حيث توفي في (٢٨ جمادى الآخرة ٥٠٧هـ/ ١٠ كانون الأول ١١١٣م)[3]. ومهما قيل عنه من أنه كان ظالماً، قبيح السيرة، قاسي القلب على المسلمين، لا يخرج لمحاربة الصليبيين الذين يغيرون على حلب، وأنه رأى العبر في نفسه[4]، فإن مدة حكمه حفلت بكثير من الأحداث السياسية والاجتماعية، ونعمت حلب بنوع من الاستقرار لم تعرفه من قبل كما لم تنعم به خلال السنوات القادمة في ظل حكم الأوصياء وحتى سقوط حلب بيد الزنكيين. والمعروف أن ما اتسم به حكم رضوان مع سائر المسلمين من التذبذب والفتور، أسهم إلى حد كبير في توطيد ملك الصليبيين في بلاد الشام، غير أن المسلمين لم يستفيدوا كثيراً من وفاته[5].

---

(١) ابن القلانسي: ص ٢٣٤.
(٢) المصدر نفسه: ص ٢٣٥.
(٣) المصدر نفسه: ص ٣٠١. سبط ابن الجوزي: ص ٤٦ ـ ٤٧. ابن الأثير: جـ ٨ ص ٥٩٨.
(٤) سبط ابن الجوزي: المصدر نفسه.
(٥) رنسيمان: جـ ٢ ص ٢٠٦.

الفصل الثامن

الأوضاع السياسية في حلب

بعد وفاة رضوان

في عهد لؤلؤ الخادم

تحول مسار التاريخ السياسي لشمالي بلاد الشام، بعد وفاة رضوان الذي لم يعد تاريخاً للأسرة السلجوقية، وإنما أضحى الأفراد النافذون هم الذين يصنعون هذا التاريخ ويوجهونه. ومن الطبيعي أن تتوجه جهود المؤرخين إلى تأريخ سياسات هؤلاء كجماعات إقليمية أو محلية تسعى إلى تنمية شخصيتها ومصالحها وتقوية قبضتها على ما تسيطر عليه، بدلاً من توجههم إلى تأريخ أعمال من تبقَّى من الملوك السلاجقة الذين زالوا فعلياً عن مسرح الأحداث، واستمر الوضع على هذا الشكل حتى وقوع شمالي بلاد الشام بيد الزنكيين.

لقد بلغت حلب درجة كبيرة من الضعف منذ أن توفي رضوان، إذ أعقبه في حكمها أبناؤه الضعفاء، فتحكَّم فيهم أوصياؤهم وخدامهم من الأتراك. فقد خلف رضوان ابنه ألب أرسلان وعمره ستة عشر عاماً[1]، وعُرِف بالأخرس لأنه كان ألثغاً لا يُحسن الكلام، اشتهر بالتهور وسفك الدماء، وانهمك بالمعاصي، ووصفه ابن العديم بأنه كان «متهوراً قليل العقل»[2].

استهل ألب أرسلان حكمه بقتل أخويه ملكشاه ومباركشاه حتى لا ينافساه على السلطة، وقبض على جماعة من أعوان أبيه، فقتل بعضهم، وصادر أموال الآخرين، كان من بينهم صاعد بن بديع، رئيس أحداث حلب، ثم أطلق سراحه لقاء فدية، فخشيه هذا، وخرج بأهله إلى مالك بن سالم، صاحب قلعة جعبر[3]، وعيَّن إبراهيم الفراتي بدلاً عنه في رئاسة أحداث حلب. وحتى يتقرَّب من السكان، أزال

---

(١) سبط ابن الجوزي: ص ٤٧.
(٢) زبدة الحلب: جـ ١ ص ٣٧٣.
(٣) المصدر نفسه. ابن القلانسي: ص ٣٠١. ابن الأثير: جـ ٨ ص ٥٩٨.

الرسوم والضرائب التي كان والده رضوان قد فرضها عليهم[1].

تولى لؤلؤ اليايا الخادم مساعدة ألب أرسلان في حكم حلب، وهو أحد أتباع أبيه رضوان، واتصف هو الآخر بسوء التدبير والظلم الذي أوقعه على الناس. واشترك الرجلان في التخلص من بعض الخدم والمقربين الذين استاءوا من هذه السياسة، فرفعوا أصواتهم للاحتجاج، كان من بينهم كمشتكين البعلبكي مقدم عسكر حلب، وعدد من ضباطه، والوزير أبو الفضل بن الموصول[2].

وتخبَّط ألب أرسلان في سياسته الخارجية كأبيه، فهادن الصليبيين في أنطاكية، ودفع الأتاوة لروجر حاكم المدينة والي خليفته تانكرِد، وقد هدف إلى الاستفادة من مساعدة الصليبيين ضد بقية السلاجقة.

وما لبث حاكم حلب أن شعر بأن «المملكة تحتاج إلى من يدبرها أحسن تدبير» ويرعى شؤونها، فلم يجد أمامه سوى طغتكين أتابك دمشق، فأرسل إليه يطلب منه الحضور واستلام إدارة حلب. رحّب طغتكين بهذه الدعوة، وطمع في ضمِّ حلب إلى دمشق في ظل حكم صبي لا خبرة له في الأمور السياسية «ولا يخشاه الكفار ولا رأي له»[3]. وإظهاراً لحسن نيته دعا له على منابر دمشق بعد الدعوة للسلطان السلجوقي، كما ضرب النقود باسمه وذلك في (شهر رمضان ٥٠٧هـ/ شهر شباط ١١١٤م)[4].

والواقع أن ألب أرسلان لم ينتظر وصول طغتكين إلى حلب، وتعجَّل بالذهاب إلى دمشق ليجتمع به ويؤكد علاقته الطيبة معه، فاستقبله طغتكين بما يليق به من مظاهر التشريف، وبالغ في إكرامه «... وأدخله إلى قلعة دمشق، وأجلسه في دست عمه شمس الملوك دقاق بن تاج الدولة، وقام هو والخواص في خدمته، وحمل إليه ما أمكن حمله من تحف وألطاف تصلح لمثله، وكذلك لجميع من وصل بصحبته، وأقام أياماً على هذه الحال...»[5]، ولا شك بأن ذلك ينم عن دهاء سياسي للوصول إلى الهدف.

وفي (أول شوال ٥٠٧هـ/ ١١ آذار ١١١٤م)، غادر ألب أرسلان دمشق عائداً إلى حلب وصحبه طغتكين. وأثناء وجوده في حلب، وقف الأخير على سيرة الأول السيئة، كما شعر بأنه يتآمر عليه، ولا يعمل بمشورته على الرغم من أنه أضحى مدبره

---

(١) ابن العديم: جـ ١ ص ٣٧٣، ٣٧٦.

(٢) المصدر نفسه: ص ٣٧٦.

(٣) المصدر نفسه: ص ٣٧٥.

(٤) المصدر نفسه.

(٥) ابن القلانسي: ص ٣٠٣.

والمسؤول عن تصرفاته، فاستاء من مسلكه وآثر ترك حلب، فغادرها وعاد إلى دمشق، واصطحب معه والدة رضوان التي رغبت في ذلك[1].

ويبدو أن ألب أرسلان تأثر بموقف لؤلؤ الذي ألَّبه على طغتكين بعد أن رأى فيه الرجل المزاحم له على السلطة، فأبعد بذلك أحد منافسيه الكبار، وتمكَّن من تحقيق طموحه وانفرد بحكم حلب، وتولى مع القائد شمس الخواص، أمير رفنية السابق، السيطرة على قلعة حلب وجيشها[2].

واستأنف لؤلؤ سيرته السيئة، فقتل من شكَّ في ولائه له وصادر أموالهم، ثم بدا له أن يتخلص من ألب أرسلان نفسه، ويبدو أنه خشي منه على حياته، فعاجله وقتله في قلعة حلب أثناء نومه وذلك في (شهر ربيع الأول ٥٠٨هـ/ شهر آب ١١١٤م)[3]، ونصَّب لؤلؤ سلطان شاه، أخا ألب أرسلان، ملكاً على حلب وعمره ستة أعوام، في حين ظل هو المدبر لأمور حلب[4].

شهدت الأوضاع السياسية في حلب آنذاك تدهوراً حاداً في ظل تسلط لؤلؤ الذي تخبَّط في إدارة الشؤون العامة، وكثر في عهده عزل وتعيين الوزراء[5]. ولم تكن الأوضاع الاقتصادية بأفضل حالاً، فأصاب البلاد جفاف أثَّر على محاصيلها الزراعية، واستولى الصليبيون على معظم قراها، فنفدت الأموال من الخزينة، واضطر لؤلؤ إلى بيع قرى كثيرة من نواحي حلب لتأمين الأموال الضرورية للإنفاق على الجيش والموظفين والبلد[6].

وشعر لؤلؤ أنه بحاجة إلى دعامة سياسية وعسكرية كي يواجه الأوضاع الخارجية الناشئة عن تهديد الصليبيين في أنطاكية لإمارة حلب، ولم يجد غير السلطان السلجوقي محمد، فعرض عليه في عام (٥٠٩هـ/ ١١١٥م) أن يتسلَّم حلب ويرسل العساكر إليها للدفاع عنها[7].

وكان السلطان السلجوقي قد سيَّر حملة عسكرية إلى الغرب تقدر بخمسة عشر ألف مقاتل بقيادة برسق بن برسق صاحب همذان وخوزستان، وهو أحد القادة المعروفين بمهارتهم العسكرية، وذلك لتحقيق هدفين:

الأول: إعادة بسط سيطرة السلاجقة على كافة الإمارات الإسلامية في بلاد

---

(١) ابن القلانسي: ص٣٠٣. ابن العديم: جـ١ ص٣٧٦. (٢) ابن العديم: ص ٣٧٧.
(٣) سبط ابن الجوزي: ص ٥٢. ابن الأثير: جـ ٨ ص ٦٠٦. ابن العديم: جـ ١ ص ٣٧٧.
(٤) ابن العديم: المصدر نفسه. (٥) المصدر نفسه: ص ٣٧٦، ٣٧٨.
(٦) المصدر نفسه: ص ٣٧٨. (٧) المصدر نفسه: ص ٣٧٩.

الشام وإقليم الجزيرة بعد أن تمكَّن حكامها من الاستقلال بإماراتهم عن الحكم السلجوقي أمثال طغتكين في دمشق، وإيلغازي الأرتقي في ديار بكر ولؤلؤ في حلب، على أن يبدأ بمحاربة إيلغازي وطغتكين[1].

الثاني: محاربة الصليبيين في أنطاكية والرها.

وعندما وصل طلب لؤلؤ إلى السلطان، أمر قائده برسق بالتوجه إلى حلب، فوضع هذا الأخير عندئذ خطة عسكرية على أساس اتخاذ حلب قاعدة لعملياته العسكرية في بلاد الشام[2].

وكان أن تجمَّعت الحملة في الجزيرة وتوجَّهت منها إلى بالس في طريقها إلى حلب، ولما علم لؤلؤ باقترابها من المدينة وأن قائدها برسق، غيَّر رأيه، وتراجع عن طلبه، ويبدو انه ظن أن السلطان سيرسل إليه معونة عسكرية ويترك له قيادتها، وأنه حين وجد أن الأمر دخل مرحلة جدِّية من التنفيذ، واقتربت جيوش السلطان من حلب؛ خشي غدر السلاجقة. والراجح أنه عجز عن الوقوف بمفرده وسط العواصف الداخلية والخارجية المحيطة به، فطلب مساعدة من طغتكين في دمشق، ووعده بتسليمه حلب مقابل إقطاعاً من أعمال دمشق، كما طلب المساعدة من إيلغازي الذي كان يحاصر، آنذاك، قراجة أمير حمص لتخليص ابنه أياز، فأسرعا لنجدته على راس ألفين من الفرسان، ودخلا حلب، وانتظر الجميع وصول القوات السلطانية. وعندما علم برسق بوصول إيلغازي وطغتكين إلى حلب انحرف نحو الجنوب لمهاجمة أملاك طغتكين. وبفضل مساعدة أمير حمص قام بهجوم مفاجئ على حماة التابعة له واستولى عليها، وقد حوت قدراً كبيراً من متاعه، كما تسلم رفنية من أولاد علي الكردي وسلَّمها إلى حليفه خيرخان أمير حمص[3].

ويبدو أن الحلفاء خشوا من قوة الجيش السلجوقي، وخاف طغتكين أن يستغل السلاجقة خلو دمشق ممن يدافع عنها فيهاجمونها، فقرروا أن يستقطبوا الصليبيين في أنطاكية ويتحالفوا معهم ضد العدو المشترك[4]. وإذ كان روجر أمير أنطاكية يخشى تمدداً سلجوقياً باتجاه أملاكه، فقد توافقت مصالحه مع مصالح الحلفاء في التصدي للجيش السلجوقي الزاحف باتجاه حلب، وكان قد جمع جيوشه

---

(١) ابن الأثير: جـ ٨ ص ٦٠٧. ويذكر هذا المؤرخ أن سبب إرسال هذه الجيوش هو انزعاجه من إيلغازي الذي خلَّص ابنه أياز من أسر البرسقي بعد أن انتصر عليه، كما أن طغتكين كان قد استوحش من السلطان لأنه نسب إليه قتل مودود. ص ٥٦٨.

(٢) ابن الأثير: جـ ٨ ص ٦٠٧.

(٣) المصدر نفسه. رنسيمان: جـ ٢ ص ٢١٣.

(٤) ابن الأثير: جـ ٨ ص ٦٠٨.

عند نهر العاصي على جسر الحديد للدفاع عن المدينة من جهة، ومراقبة تطورات الموقف في حلب من جهة أخرى، ثم وصلت إليه دعوة الحلفاء بطلب المساعدة والدفاع عن مدينة حماة، ولم يكن بلغهم خبر سقوطها[١].

اجتمعت قوات الحلفاء جميعاً عند أفامية، وقد بلغ عديدها اثني عشر ألف مقاتل منهم ألفان من الصليبيين، وتُعدُّ هذه المدينة مكاناً بالغ القيمة في مراقبة تحركات برسق عند عبور الفرات والزحف إلى شيزر[٢].

كان الأجدر بكل من طغتكين وإيلغازي الاتصال ببرسق والاتفاق معه على محاربة الصليبيين، لا أن يلجأ إليهم ويحالفهم ضد إخوانه من المسلمين، مفضِّلاً أطماعه الشخصية على القضية الإسلامية العامة.

ومضى برسق لمهاجمة كفرطاب فانتزعها من أيدي الصليبيين، واستعصت عليه أفامية، ثم رأى أن ينسحب من المنطقة بعد أن علم بوصول إمدادات صليبية من الجنوب بقيادة الملك بلدوين وبونز أمير طرابلس، وتراجع إلى الجزيرة[٣].

والواقع أن طغتكين أراد أن يؤخر الصدام بين برسق والصليبيين، لأن انتصار هؤلاء على الجيش السلطاني من شأنه أن يتيح لهم احتلال كامل بلاد الشام، لعدم وجود قوة تقف في وجههم، كما أن انتصار الجيش السلطاني من شأنه أن يؤدي إلى فقدانه الحكم في دمشق[٤].

وكان أن نجح الأتابك في تأخير هذا اللقاء الذي لم يحدث بعد ذلك مطلقاً. إذ في الوقت الذي تهيب فيه الصليبيون خوض المعركة، اتفق طغتكين مع حلفائه الصليبيين على عدم القتال، ورجع كل منهم إلى بلده، فعاد طغتكين إلى دمشق، ورجع روجر إلى أنطاكية، وإيلغازي إلى ماردين. أما الجيوش السلطانية، وقد ملَّ افرادها الانتظار، فغادروا متوجهين إلى حصن الأكراد، فهاجموه وكادوا ينجحون في فتحه[٥]. وهكذا ضاعت فرصة أخرى أمام السلاجقة لضم شمالي بلاد الشام.

وعندما عاد شمس الخواص إلى حلب، قبض عليه لؤلؤ واعتقله، ويبدو أنه خشي من طموحه لأنه أضحى يشكل مركز ثقل في حلب، ويمكن أن يتخلَّص منه ويحل محله فيها[٦].

---

(١) ابن الأثير: جـ ٨ ص ٦٠٨.
(٢) رنسيمان: جـ ٢ ص ٢١٣.
(٣) ابن الأثير: جـ ٨ ص ٦٠٨.
(٤) ابن العديم: جـ ١ ص ٣٨٠.
(٥) ابن العديم: جـ ١ ص ٣٨٠. وحصن الأكراد: هو حصن منيع يقابل حمص من جهة الغرب بين بعلبك وحمص، الحموي: جـ ٢ ص ٢٦٤.
(٦) المصدر نفسه. ضامن: ص ٢٠٨.

وجدَّد برسق هجومه على كفرطاب بعد عودة بلدوين وبونز إلى بلديهما، وفتحها في (أواخر عام ٥٠٨هـ/ أوائل عام ١١١٥م) وسلَّمها إلى حلفائه بني منقذ أمراء شيزر[١]، ثم توجَّه إلى معرة النعمان لمهاجمتها، فانتشر جنوده في مناطقها وقراها، وانطلق منها نحو زردنا القريبة من حلب لاستعادتها من أيدي الصليبيين[٢]، وتلقَّى وهو في المنطقة، رسالة استغاثة من سكان بزاعة وهي تحت سلطة شمس الخواص، يعلمونه بما اتخذه لؤلؤ من إجراءات عدائية، ففصل قسماً من جيشه وأرسله إلى بزاعة بقيادة جيوش بك، مما أثَّر على مقدرته القتالية، في حين تابع زحفه نحو دانيث في طريقه إلى حلب[٣].

كان الصليبيون يتابعون تحركاته ويرصدونها عن كثب. فسار روجر صاحب أنطاكية صوب الجنوب بجوار نهر العاصي قاصداً مرج الروج بشكل متواز لخط سير برسق، ولم يعلم كل من الرجلين بمكان تواجد القائد الآخر، حتى علم روجر من أحد جواسيسه بأن جيش برسق شوهد وهو يجتاز الغابة في طريقه إلى تل دانيث، قرب مدينة سرمين. وفي الوقت الذي كانت قواته تعسكر عند دانيث، فاجأه الصليبيون بقيادة روجر الأنطاكي وبلدوين دي بورج أمير الرها في صبيحة (٢٢ ربيع الآخر ٥٠٩هـ/ ١٤ أيلول ١١١٥م) وأجبروه على الارتداد إلى تل السلطان، وكبَّدوه خسائر فادحة في الأرواح، وفرَّ هو ومن نجا من عسكره نحو الضياع المجاورة حيث تعرضوا لنهب الفلاحين[٤].

وهكذا قضى انتصار الصليبيين في دانيث على جهود سلاطين السلاجقة لاسترداد بلاد الشام، وهي المهمة التي سيتولاها الزنكيون بعد ذلك.

بعد هزيمة برسق، أطلق لؤلؤ سراح شمس الخواص من سجنه، وأعاد إليه كافة إقطاعاته بما فيها بزاعة. ويبدو أن الأخير لم يعد يثق بالأول، فغادر حلب متوجهاً إلى دمشق. فانفرد لؤلؤ عندئذ بحكم حلب[٥]، وسعى إلى تعزيز التحالف مع طغتكين، غير أنه لم يجد قبولاً واستعداداً، وقد أثارت سيرته السيئة سكان حلب وأعيانها. ويبدو أنه كان على علم بكراهيتهم له، وأن له أعداء من بينهم يتربصون به، فكان يلازم القلعة ولا ينزل منها إلا قليلاً، لكن الجند والخدم كانوا يراقبون تحركاته

---

(١) ابن العديم: جـ١ ص ٣٨٠. ابن الأثير: جـ٨ ص ٦٠٨.

(٢) المصدران نفساهما.

(٣) ابن الأثير: المصدر نفسه. ودانيث: بلد من أعمال حلب بينها وبين كفرطاب. الحموي: جـ٢ ص ٤٣٤.

(٤) ابن العديم: جـ١ ص ٣٨١. (٥) المصدر نفسه: ص ٣٨٢.

وينتظرون الفرصة الموآتية للتخلص منه، وفي (شهر محرم عام ٥١١هـ/ شهر أيار عام ١١١٧م) خرج إلى بالس ليمارس هواية الصيد فقتله بعض أعوانه عند قلعة نادر وقد توقف ليريق الماء[١]. وفي رواية أن لؤلؤ خاف على نفسه من سكان حلب فأخذ أمواله وخرج طالباً بلاد الشرق للنجاة، فلما وصل إلى قلعة نادر قال سنقر الجكرمشي: «تتركونه يقتل تاج الدولة ويأخذ الأموال ويمضي! وصاح بالتركية: أرنب أرنب، فضربوه بالسهام فقتلوه»[٢]. وفي تاريخ العظيمي «خرج لؤلؤ لزيارة صفين فقتلته الوساقية عند قلعة نادر»[٣].

ومهما يكن من أمر، فقد كانت حلب تعيش آنذاك وضعاً سياسياً بالغ السوء حيث التآمر والاغتيالات والقتل، وتعثَّرت الحياة الاقتصادية بفعل الحروب المستمرة واحتلال الصليبيين لأجزاء واسعة من إقليم حلب.

في عهد ياروقتاش

تولَّت آمنة خاتون، ابنة رضوان، إمرة القلعة بعد خروج لؤلؤ من حلب، وذلك لمدة يومين فقط، لأن ياروقتاش، وهو أحد خدام رضوان، أسرع بالدخول إلى حلب واستولى على السلطة، فألقى القبض على بعض الذين قتلوا لؤلؤ في حين فرَّ بعضهم إلى الرحبة، فأعلموا آق سُنقر البرسقي أتابك الموصل، بالأوضاع المستجدة في حلب[٤]، وكان هذا يسعى إلى توسيع رقعة إمارته باتجاه إقليم الجزيرة وشمالي بلاد الشام. وإذ سنحت له الفرصة بمقتل لؤلؤ ووقوع الفوضى والاضطراب في حلب، أسرع للاستيلاء عليها، غير أن ياروقتاش كان قد سبقه إليها. وعندما وصل إلى بالس في (أوائل محرم ٥١١هـ/ ٥ أيار ١١١٧م)، خشي ياروقتاش على نفسه بسبب عدم قدرته على مواجهة الجيش السلطاني بمفرده، فاستنجد بإيلغازي الأرتقي في ماردين ووعده بتسليمه حكم المدينة، كما طلب المساعدة من روجر الصليبي صاحب أنطاكية وهادنه[٥]. والراجح أنه أراد ضرب القوى الإسلامية بعضها ببعض حتى يضعفها ويحول بينها وبين السيطرة على حلب، كما أن الهدنة التي عقدها مع صاحب أنطاكية تُبعد هذا الأخير عن التدخل في شؤون حلب، يضاف إلى ذلك، أنه

---

(١) ابن الأثير: جـ ٨ ص ٦٢٣.

(٢) ابن العديم: جـ ١ ص ٣٨٣. العظيمي: ص ٣١٧.

(٣) تاريخ العظيمي: ص ٣١٧.

(٤) ابن العديم: جـ ١ ص ٣٨٣.

(٥) المصدر نفسه: ص ٣٨٤. ابن القلانسي: ص ٣١٦.

كان قد تخلَّص من الأعيان المناوئين له، وبذلك يمكنه أن يحكم حلب دون أن يتهدَّدها أي خطر خارجي أو داخلي[١].

كان روجر يخشى من تمدد أرتقي باتجاه شمالي بلاد الشام، فإذا استولى إيلغازي على حلب فإنه سوف يشكل خطراً على الوجود الصليبي، لذا بادر فوراً إلى غزو أراضي حلب على الرغم من الهدنة المعقودة مع ياروقتاش «وأخذ ما قدر عليه من أعمال الشرقية»![٢].

وهكذا وقع ياروقتاش بين فكي الكماشة، آق سُنقر البرسقي الزاحف من الشرق، وروجر الأنطاكي القادم من الشمال، لذلك لم يسعه إلا تبريد الجبهة الشمالية بالتفاهم مع روجر فيتفرَّغ عندئذ لمحاربة آق سُنقر البرسقي، وكان يأمل بأن يحميه صاحب أنطاكية من الأتراك، لكن فاته أن الصليبيين كانوا العدو الأول له ولحلب والأتراك، فعقد صلحاً مع روجر تنازل له بموجبه عن حصن القبة أو قبة ملاعب، الواقع على الطريق الممتد بين حلب ودمشق والذي يستخدمه الحجاج عند المسير إلى مكة، فضلاً عن إعطاء الأمير الصليبي الحق في فرض ضرائب على قوافل الحجاج بين حلب والحجاز[٣].

غير أن هذا الاتفاق لم يكن في صالح ياروقتاش، إذ أن ما قام به قتلة لؤلؤ من إجراء إنما كان باسم سلطان شاه الذي لم يعترف به، ومن جهة أخرى قرَّر ياروقتاش التخلص من الأمراء والقادة المناوئين له ليطمئن على حكمه كما فعل لؤلؤ من قبل، إلا أن هؤلاء شعروا بما يُحاك لهم، فقبضوا عليه بأمر من بنات رضوان بعد شهر من ولايته، وأخرجوه من حلب وسلموا القلعة إلى أحد خدام رضوان[٤]. وكانت هذه هي المرة الثانية التي تتدخل فيها النساء في حلب بالشؤون السياسية منذ أن خرجت والدة محمود المرداسي إلى السلطان السلجوقي ألب أرسلان في عام (٤٦٣هـ/ ١٠٧١م)[٥].

وأمر سلطان شاه بتعيين أبي المعالي المحسن بن الملحمي العارض الدمشقي مقدماً لعسكر حلب ومدبراً لأمورها[٦]. وكان إيلغازي قد استجاب لدعوة ياروقتاش، فخرج من ماردين القريبة من نصيبين في إقليم الجزيرة في (شهر محرم ٥١١هـ/ شهر أيار ١١١٧م)، وتقدم مسرعاً إلى حلب. ولم يكد يصل إليها حتى تبيَّن

---

(١) ضامن: ص ٢١٥.
(٢) ابن العديم: جـ ١ ص ٣٨٤.
(٣) المصدر نفسه. ابن القلانسي: ص ٣١٦. Grousset: I pp 511-512.
(٤) العظيمي: ص ٣٦٧. ابن العديم: المصدر نفسه. ابن الأثير: جـ ٨ ص ٦٢٣.
(٥) ضامن: ص ٢١١.
(٦) ابن العديم: جـ ١ ص ٣٨٤.

له بأن ياروقتاش قد هوى عن الحكم، وتولى ابن الملحمي وزارة سلطان شاه، ومع ذلك فقد أجرى مفاوضات مع أعيان المدينة تَمَّ الاتفاق بموجبها على تسليمه الحكم مقابل تعويض بعض الأمراء عدداً من المواقع والحصون المجاورة مثل بالس والقليعة. وعلى هذا الأساس دخل إلى المدينة وتسلَّم الحكم[1]، غير أنه لم يمكث فيها طويلاً، وسرعان ما خرج منها بفعل ثلاثة عوامل:

١ ـ أنه لم يجد فيها ما يحتاج إليه من مال وذخيرة، واضطر إلى مصادرة أموال وممتلكات بعض رجال الحاشية، كما قبض على بعض الأمراء وألقى بهم في السجن، مما أدَّى إلى نفور الحلبيين منه.

٢ ـ لم يستطع الصمود في وجه الهجمات الصليبية، والمعروف أن حلب كانت تتعرَّض آنذاك لضغط صليبي من جانب روجر صاحب أنطاكية.

٣ ـ فضَّل العودة إلى الشرق لتثبيت أقدامه في ديار بكر، المجال الحيوي لإمارته.

غادر إيلغازي، إذن، حلب في (أواخر صفر/أوائل تموز)، وترك ابنه حسام الدين تمرتاش نائباً عنه فيها[2]، دون أن يتخذ من الإجراءات العسكرية والإدارية الكفيلة بتقوية مركزها ضد الأعداء[3].

في العهد الأرتقي وحتى السقوط بيد الزنكيين

كان التداعي في أوضاع حلب دافعاً للطامعين لاقتطاع ما يمكن اقتطاعه من أراضيها. فحين عودة إيلغازي إلى ماردين استولى على بالس والقليعة التابعتين لإمارة حلب، لكن حامية بالس عارضت استيلاء التركمان الأراتقة على المدينة، فقام أفرادها بأعمال الشغب والعصيان في قرى حلب، وهاجموا الحاميات الأرتقية، وتمادوا حين تحالفوا مع الصليبيين في أنطاكية ضد إيلغازي، فلما علم هذا الأخير بذلك، عاد إلى بالس، فانسحب الصليبيون ومن فيها من التركمان الخارجين على سلطة إيلغازي، ولم يغادرها إلا بعد أن باعها إلى ابن مالك العقيلي حتى لا تقع في أيدي الصليبيين، ثم تابع طريقه إلى ماردين[4].

---

(١) ابن القلانسي: ص ٣١٧. ابن العديم: جـ ١ ص ٣٨٤. ابن الأثير: جـ ٨ ص ٦٢٤.

(٢) ابن القلانسي: المصدر نفسه. وقارن بابن العديم: المصدر نفسه ص ٣٨٥، الذي يذكر أنه حين عاد إيلغازي إلى ماردين ترك ابنه رهينة في حلب. العظيمي: ص ٣٦٨ ـ ٣٦٩.

(٣) خليل، عماد الدين: الإمارات الأرتقية ص ١٠١.

(٤) ابن العديم: جـ ١ ص ٣٨٥.

وجدَّد الصليبيون، في هذه الأثناء، غاراتهم على قرى حلب. ولما كان إيلغازي في ماردين، ولا يملك تمرتاش القوة الكافية لردهم والتحكم بزمام الأمور في حلب، تحرَّك سلطان شاه فقبض على تمرتاش واحتفظ به رهينة، وأعاد ابن الملحمي إلى الحكم كوزير له، وأدار الرجلان الشؤون العامة، وطلب المساعدة من الأمراء المسلمين، من طغتكين صاحب دمشق وجيوش بك أمير الموصل وقراجة أمير حمص، لكن أي نجدة لم تصل إليهما[1].

وأغار الصليبيون آنذاك على عزاز، وكادت تقع في أيديهم، وخشي أهل حلب من هذه الغارة لأن عزاز ومنطقتها كانت المعبر الوحيد الباقي لهم والذي يؤمِّن وصول المؤن إليهم، والمعروف أن مناطق حلب الجنوبية والغربية وجزء من المناطق الشرقية كانت بأيدي الصليبيين، في حين كان القسم الأكبر من المناطق الشرقية مخرَّباً ومجدباً بسبب كثرة الحروب وقلَّة الأمطار.

وعندما وصلت الحالة في حلب إلى هذه الدرجة من التردي ويئس أهلها من نجدة الملوك والأمراء المسلمين، استقر رأيهم على استدعاء إيلغازي ثانية لدفع الصليبيين عنهم ووعدوه بتأمين المال لجنده[2].

لبَّى إيلغازي الدعوة، وما لبث أن قدم إلى حلب بجند يسير لعدم استعداده لهذا الموقف، ويبدو أنه لم يملك دافعاً قوياً لضم حلب إلى ممتلكاته بسبب مشكلاتها العسكرية والاقتصادية، على الرغم من أهميتها بالنسبة لإمارته في ديار بكر[3].

وإذ رأى الحلبيون قلَّة جنده، أدرك بعضهم عدم جدوى دخوله إلى حلب، وانقسموا إلى فئتين: عارضت الفئة الأولى السماح له بدخول المدينة وامتنعت عليه، وتمثَّلت بسلطان شاه وأنصاره، وقد خشي أفرادها على امتيازاتهم من أن ينتزعها إيلغازي منهم. ووافقت الفئة الثانية على السماح له بدخول المدينة، وكان من بينهم أبو الفضل بن الخشاب «وهو المرجوع إليه في حفظ المدينة والنظر في مصالحها»، وعدد من قادة الجيش، واعتقد أفرادها بقدرته على إجلاء الصليبيين عن حلب[4].

وفوجئ إيلغازي بأن فئة من الحلبيين أغلقت أبواب المدينة في وجهه، فقرَّر العودة إلى ماردين، ولكن القاضي أبا الفضل بن الخشاب وعدداً من أعيان حلب،

---

(١) ابن العديم: جـ ١ ص ٣٨٥ ـ ٣٨٦. العظيمي: ص ٣٦٩.

(٢) ابن العديم: جـ ١ ص ٣٨٦ ـ ٣٨٧.

(٣) المصدر نفسه: ص ٣٨٧. خليل: ص ٢٣٩. (٤) المصدر نفسه.

لحقوا به وأقنعوه بالعودة، فدخل إلى حلب، ونادى الناس بشعاره[١].

ويبدو أن إيلغازي وقف على نزعات الأسرة الحاكمة، فأخرجهم من القلعة، كان من بينهم سلطان شاه وأخواته وأنصاره والجند الموالون له، وفرض عليهم الإقامة الجبرية في إحدى الدور، كما ألقى القبض على كثير من الخدم المتنفذين الذين أساؤوا إلى أهل حلب ونهبوا أموالهم واستأثروا بتركات رضوان، وصادر أموالهم[٢].

نظَّم إيلغازي أوضاع حلب الإدارية قبل أن يغادرها إلى ماردين في عام (٥١٤هـ/ ١١٢٠م)، فعيَّن ابنه شمس الدولة سليمان والياً عليها، وجعل مكي بن قرناص الحموي رئيساً للمدينة، وألغى بعض الرسوم والضرائب التي فرضها رضوان من قبل، إلا أنه لم يترك فيها قوة عسكرية تدافع عنها مما جعلها عرضة لهجمات الصليبيين في الرها وأنطاكية على الرغم من الهدنة المعقودة مع الأنطاكيين[٣].

ويبدو أن سليمان كان ذا نزعات استقلالية، فعصى على والده واستقل بحكم حلب في العام التالي، واتخذ عدة إجراءات بهدف تثبيت أقدامه في الحكم، منها أنه أبعد سلطان شاه وأحفاد رضوان والأمراء المؤيدين لهم، وأرسلهم إلى قلعة جعبر، مما دفع الأب إلى القدوم إلى حلب لإنهاء عصيان ابنه، فدخلها وأعاد سيطرته على المدينة وذلك في (١ رمضان ٥١٥هـ/ ١٣ تشرين الثاني ١١٢١م) كما أعاد تنظيم الأمور الإدارية، فاستدعى أولاد رضوان والأمراء المبعدين، وعاقب من تعاون مع ابنه، وعيَّن ابن أخيه بدر الدولة سليمان بن عبد الجبار بن أرتق نائباً عنه فيها، وولى رئاستها سليمان بن عبد الرزاق العجلاني البالسي، ثم غادر المدينة في (شهر محرم ٥١٦هـ/ شهر آذار ١١٢٢م) إلى ماردين بعد أن عقد صلحاً مع الصليبيين[٤].

ثم حدث أن توفي إيلغازي في (شهر رمضان ٥١٦هـ/ شهر تشرين الثاني ١١٢٢م)، فانتقلت إمارة حلب إلى ابن أخيه سليمان بن عبد الجبار، فانتزعها منه بلك بن بهرام بن أرتق بعد أن اتهمه بالعجز عن مواجهة الصليبيين، وذلك في (١ جمادى الأولى ٥١٧هـ/ ٢٧ حزيران ١١٢٣م)[٥].

بدأ بلك حكمه في حلب بتنظيم أمورها الإدراية، ثم أرسل سلطان شاه بن رضوان إلى حران خوفاً من أن يثير المتاعب في وجهه[٦]، غير أنه لم يعمِّر طويلاً،

---

(١) العظيمي: ص ٣٩٦.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) ابن العديم: جـ ١ ص ٣٩٩ ـ ٤٠٠.
(٤) المصدر نفسه: ص ٤٠١ ـ ٤٠٣.
(٥) المصدر نفسه: ص ٤٠٦ ـ ٤٠٧، ٤٠٩.
(٦) المصدر نفسه: ص ٤٠٩.

فقد قُتل يوم الثلاثاء في (١٩ ربيع الأول ٥١٨هـ/ ٦ أيار ١١٢٤م) وهو يحاصر قلعة منبج[١]، فاستغل حسام الدين تمرتاش بن إيلغازي هذه الفرصة واستولى على حلب يوم الأربعاء (٢٠ ربيع الأول/ ٧ أيار)، فاعتقل سلطان شاه وأرسله إلى ماردين، لكن هذا الأخير تمكن من الفرار من سجنه وذهب إلى حصن كيفا محتمياً بداوود بن سقمان الأرتقي، فتعاون مع دبيس بن صدقة صاحب الحلة والصليبيين في انتزاع حلب من تمرتاش[٢].

وفي ظل تردي الأوضاع الداخلية في حلب نتيجة لسياسة تمرتاش وأعوانه السَّيئة، وتعرُّض المدينة للغارات الصليبية في ظل تقاعس تمرتاش الذي قبع في عاصمته ماردين؛ طلب الحلبيون مساعدة آق سُنقر البرسقي صاحب الموصل، فاستجاب لطلبهم وزحف إلى حلب ودخلها يوم الخميس (٢٢ ذي الحجة ٥١٨هـ/ ٣٠ كانون الثاني ١١٢٥م)[٣].

عيَّن آق سُنقر البرسقي ابنه عز الدين مسعود نائباً عنه في حلب، وشهدت المدينة في عهده نوعاً من الاستقرار السياسي والازدهار الاقتصادي، وقُتل البرسقي على يد الحشيشية يوم الجمعة (٩ ذي القعدة ٥٢٠هـ/ ٢٧ تشرين الثاني ١١٢٦م)، فاستقل ابنه بحلب[٤].

لم يحكم عز الدين مسعود إلا أياماً حيث توفي، فوجدت حلب نفسها في حالة شديدة من الفوضى في ظل تعدُّد المطالبين بالسلطة وتنازعهم. فقد استأثر قتلغ أبه نائب عز الدين مسعود بإدارة شؤونها[٥]، في الوقت الذي طمع فيها كل من جوسلين الثاني أمير الرها وبوهيموند الثاني صاحب أنطاكية، لاتخاذها قاعدة لمد النفوذ الصليبي باتجاه الشرق والجنوب الشرقي. وفعلاً شنَّ الصليبيون هجمات عنيفة للاستيلاء عليها رافقها تدهور حاد في أوضاعها الاقتصادية، وانتشر الخوف وساد القلق بين الناس[٦]، مما دفعهم إلى الالتفاف حول نائب حلب السابق سليمان بن عبد الجبار الأرتقي، وقد تزعم الثورة ضد قتلغ أبه الذي اتصف بالتعسف[٧].

---

(١) ابن الأثير: جـ ٨ ص ٦٩٢.

(٢) العظيمي: ص ٣٧٤. ابن العديم: جـ ١ ص ٤١٧، ٤٢٠.

(٣) ابن العديم: المصدر نفسه ص ٤٢٣ ـ ٤٢٤.

(٤) المصدر نفسه: ص ٤٢٥، ٤٢٨ ـ ٤٢٩.

(٥) المصدر نفسه: ص ٤٣٠ ـ ٤٣١.

(٦) ابن الأثير: الباهر في تاريخ الدولة الأتابكية بالموصل ص ٣٤، ٣٧ ـ ٣٨.

(٧) ابن العديم: جـ ١ ص ٤٣٠.

ويبدو أن سليمان لم يتمكَّن من وضع حد لتدهور الأوضاع على الرغم من أنه عقد هدنة مع جوسلين الثاني تنازل له بموجبها عن بعض المناطق الزراعية المحيطة بالجهات الغربية لحلب[1]، لكن يقظة عماد الدين زنكي صاحب الموصل أفسدت على الجميع خططهم ومشاريعهم، وقد سعى إلى ضمِّ حلب بوصفه يملك منشوراً من السلطان السلجوقي بحكم الموصل والجزيرة وبلاد الشام، فغادر مقر إقامته في الموصل، ولما وصل إلى مشارف حلب في (شهر جمادى الآخرة ٥٢٢هـ/ شهر حزيران ١١٢٨م)، خرج سكانها لاستقباله آملين ببداية عهد جديد من الاستقرار بعد أن سئموا من الفوضى التي سادت مدينتهم[2]، فدخلها ونظَّم شؤونها، وتزوج خاتون بنت رضوان، وتفرق من تبقَّى من الأسرة السلجوقية، فهرب إبراهيم بن رضوان إلى نصيبين وكانت في إقطاعه، وبقي فيها إلى أن مات.

---

(١) ابن الأثير: جـ٩ ص ١١ ـ ١٢.

(٢) المصدر نفسه: ص ١٢. ابن العديم: جـ١ ص ٤٣١ ـ ٤٣٢.



الفَصْل التَّاسِع

سلاجقة الشام

في مواجهة الخطر الصليبي

المواجهات العسكرية في شمالي بلاد الشام

الحركة الصليبية

في الوقت الذي كانت فيه الخلافات على أشدها بين الأمراء المسلمين في بلاد الشام وإقليم الجزيرة، كانت الأخبار «تتوارد بظهور عساكر الإفرنج من بحر القسطنطينية في عالم لا يحصى عدده كثرة»[١]، وقد قلق الناس في بلاد الشام من هذه الأخبار وانزعجوا منها. والواقع أن العالم الإسلامي الشرقي في بلاد الشام وإقليم الجزيرة، شهد حركة غزو صليبي قادم من أوروبا الغربية. وإذا كان لنا أن نذكر بإيجاز طبيعة الحركة الصليبية ودوافعها، نستطيع أن نقول إنها في حقيقة أمرها استمرار للصراع الطويل الذي قام منذ العصور القديمة بين الشرق والغرب، واتخذ، في كل عصر، شكلاً معيَّناً يتلاءم ومقتضيات الظروف وإن اتحد في الهدف والغاية.

فقد كان الصراع في العصور القديمة صراعاً سياسياً وعسكرياً، في عالم يدين بالوثنية، حمل لواءه الفرس واليونان، بينما اتخذ الغرب، في العصور الوسطى، الدين ستاراً لتحقيق الغايات نفسها، فاصطبغ الصراع بالصبغة الدينية بعد أن اعتنق الأمبراطور الروماني قسطنطين الكبير الديانة النصرانية في عام ٣٢٣م[٢].

وبظهور الإسلام في القرن السابع الميلادي، قام المسلمون، بعد أن ثبَّتوا أقدامهم في داخل الجزيرة العربية، بالتوجه خارج جزيرتهم، بهدف نشر مبادئ الدين الجديد، فزحفوا باتجاه العراق وبلاد الشام، واصطدموا بالفرس والبيزنطيين،

---

(١) ابن القلانسي: ص ٢١٨.

(٢) انظر فيما يتعلق باعتناق قسطنطين النصرانية، وعلاقته بمذاهبها كتاب: الدولة البيزنطية، للسيد الباز العريني ص ٣٢ ـ ٣٧.

وحقَّقوا، في سنوات قلائل، انتصارات مذهلة، كانت نتيجتها فتح العراق وبلاد فارس التابعة للأمبراطورية الفارسية، والولايات الشرقية التابعة للأمبراطورية البيزنطية.

وخلاصة القول، إن الحركة الصليبية كانت تمثل في العصور الوسطى روح المجتمع الغربي والأفكار السائدة فيه من ناحيتي الدين والحرب، فنتج عن الدين ظاهرة الحج، بينما نتج عن الحرب ظاهرة الحرب المقدسة، لكن الدوافع الأخرى، وهي متنوعة، بعيدة كل البعد عن الناحية الدينية، وجد فيها المجتمع الغربي تنفسه من الأزمات التي كان يمر بها.

فالباحث في تاريخ الحروب الصليبية، يستطيع أن يلمس أثر العوامل الاقتصادية والاجتماعية والسياسية في توجيهها وتحكُّمها بمصائرها، وأن الدين قد استُغِلَّ استغلالاً واضحاً للدعاية لها، والعمل على إنجاحها تحقيقاً لأغراض أخرى لا تمت إلى الدين بأي صلة.

وعندما أسس سلاجقة الروم سلطنتهم في آسيا الصغرى، بعد معركة مانزيكرت، واصلوا حركة توسعهم في المنطقة، وفتحوا معظم بقاعها، بالإضافة إلى بعض الجزر القريبة من ساحلها الغربي، وحاول الأمبراطور البيزنطي ألكسيوس كومنين (٤٧٤ ـ ٥١٢هـ/ ١٠٨١ ـ ١١١٨م)، دون جدوى، وقف الزحف السلجوقي الذي هدَّد عاصمته القسطنطينية، فاضطر إلى الاتجاه نحو الغرب الأوروبي والبابوية لطلب المساعدة.

ولم ينتهِ القرن الحادي عشر الميلادي حتى تحوَّلت الحرب المقدسة إلى اتجاه عملي، فأبدى الفرسان في المجتمع الأوروبي استعدادهم للاستجابة لدعوة الكنيسة، والقتال من أجل استرداد الأماكن المقدسة في الشرق، بينما وقف الأمراء، في بادئ الأمر، بعيداً عن هذا الاتجاه، على أن فكرة امتلاك الأراضي جعلتهم يُقبلون، بعد ذلك، على الاشتراك في الحرب المقدسة.

وعلى الرغم من أن الغرب الأوروبي قد استجاب لنداء بيزنطية من أجل حرب المسلمين، إلا أنه لم تكن هناك فكرة عن أي حرب صليبية في بيزنطية، وكانت قضية استعادة الأراضي المقدسة خيالية إلى حد بعيد، كما أنها لم تكن حيوية في سياسة بيزنطية الخارجية التي رأت نفسها وقد انغمست في غمرة الحروب الصليبية.

درج المؤرخون على الاهتمام بثماني حملات صليبية، اتجهت أربع منها نحو الأراضي المقدسة في فلسطين، وهي الأولى والثانية والثالثة والسادسة، واثنتان نحو

مصر وهما الخامسة والسابعة، وواحدة إلى القسطنطينية وهي الرابعة، أما الثامنة فنزلت في شمال إفريقية.

وتخلَّلت هذه الحملات ما كان يقوم به العامة من تنظيم مجموعات فاق بعضها، إن في الإعداد أو في الأهمية، ما قامت به بعض الحملات المعروفة.

الحملة الصليبية الأولى

بعد إعلان مولد الحركة الصليبية على يد البابا أوربان الثاني في كليرمونت[١] في أواخر عام (٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م)، بدأت استعدادات التنفيذ، فقام البابا المذكور بجولات دينية في بلدان الغرب الأوروبي لتعبئة الرأي العام، وكان يعتقد أن جيشاً منظماً تحت رعاية روحية واحدة وقيادة عسكرية موحَّدة، ستكفل للحملة التقدم والنجاح.

ولكن دعاته، الذين بثَّهم في أرجاء بلدان أوروبا، سمحوا لكل من حمل الصليب بالتوجه إلى الأراضي المقدسة؛ فانتابت المجتمعات الأوروبية، نتيجة ذلك، موجات عارمة من الحماس الديني، أسفرت عن قيام حملة الشعوب أو العامة، وضمَّت تشكيلة متنوعة من فئات مختلفة من فرنسا وإيطاليا وألمانيا.

واحتشد الآلاف من فقراء الرجال والنساء وقطَّاع الطرق واللصوص والغوغاء، الذين لم يكن لهم أي وازع ديني أو أي علم بفنون القتال، وقد انضم إليهم بعض صغار النبلاء ممن كانت تدفعهم المطامع الشخصية الدنيوية.

خرجت الحملة الشعبية، هذه، على شكل مجموعات مختلفة تحت زعامة أشخاص عديدين مثل جوتييه، وبطرس الناسك، ووالتر المفلس وغيرهم، وقد اصطدموا، أثناء تقدمهم، بشعوب البلدان التي مروا بها مثل باڤاريا والمجر وبلغاريا، وقاموا بأعمال السرقة والسلب والقتل وحرق المدن، ولم تنجُ ضواحي القسطنطينية من تعدياتهم مما حمل الأمبراطور البيزنطي ألكسيوس كومنين على اتخاذ مبادرة نقلهم إلى آسيا الصغرى، مدركاً في الوقت نفسه، بما له من خبرة وتجربة، أن هذا الجمع الصليبي غير المنظَّم لا يثير الخوف في النفوس، وأنه إذا عبر المضيق إلى آسيا الصغرى فسوف يدمره سلاجقة الروم بسرعة[٢]. وفعلاً اصطدم هؤلاء بهم عند

---

(١) انظر فيما يتعلق بمؤتمر كليرمونت: فوشيه الشارتري: تاريخ الحملة إلى القدس ص ٣١ ـ ٣٧.
Robert the Monk: Historia Hierosolymitana. in R.H.C.Occ vol III pp:727-729.

(٢) Albert of Aix: Liber Christianne Expeditions Pro Eroptione Ecclesia in R.H.C.Occ vol IV pp: 283-284. توديبو، بطرس: تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس. ص ٦٢.

قلعة كسيريجوردون وكانت كارثة حقيقية، إذ لم ينجُ منهم سوى ثلاثة آلاف من أصل عشرين ألفاً[1].

بعد قيام الحملات الشعبية، كانت الاستعدادات تجري في الغرب الأوروبي لتحرك الجيوش النظامية باتجاه الشرق، وقوامها الأمراء الإقطاعيون من فرنسا وإيطاليا ونورمنديا، وطبيعي أن يكون أفراد هذه الحملة أكثر تقديراً لخطة سيرهم بعد الاستعدادات بالسلاح والأموال والرجال والعتاد، والاتصال، مسبقاً، بأمراء وحكام النواحي الذين سيمرون في أراضيهم، حتى يمدوا لهم يد المساعدة.

ولم تكن الحملة النظامية هذه تحت قيادة أمير واحد، إنما كان لكل أمير رجاله وجنده، واختلفت أهواؤهم، فهم على تباين في نظراتهم إلى مفهوم الحركة الصليبية.

تكوَّنت الحملة من أربعة جيوش نظامية، تولى بوهيموند وابن أخته تانكرد قيادة القوات النورماندية، أما القوات البروفنسالية فكانت تحت قيادة ريموند الرابع كونت تولوز، والقوات الفرنسية تحت قيادة إتيين كونت بلوا، وهيو كونت فرماندوا، الابن الأصغر لهنري الأول ملك فرنسا، وروبرت الثاني كونت فلاندر، أما جودفري دي بوايون دوق اللورين، وأخوه بلدوين، فقد قادا قوات اللورين السفلى[2].

اتخذت هذه الجيوش أربع طرق مختلفة، لكنها اتفقت على الالتقاء عند أسوار القسطنطينية، وبلغ عدد أفرادها حوالي ثلاثين ألف مقاتل. ويذكر رنسيمان أن عدد أفراد الجيوش التي وفدت من الغرب ونزلت في أراضي الأمبراطورية البيزنطية، في المدة الواقعة بين صيف عام ١٠٩٦م وربيع عام ١٠٩٧م، تراوح بين ستين ألفاً ومائة ألف[3].

وبعد محادثات مضنية مع الأمبراطور البيزنطي، تمَّ نقلهم إلى آسيا الصغرى. والواقع أن ألكسيوس كومنين اشترط عليهم، في مقابل مساعدته لهم، بأن يُعطى له كل الأراضي التي سيتم الاستيلاء عليها من السلاجقة، إذا كانت هذه الأراضي تابعة للأمبراطورية من قبل[4].

---

(١) توديبو: المصدر نفسه: ص ٦٣ ـ ٦٤. رنسيمان، ستيفن: تاريخ الحروب الصليبية جـ ١ ص ٢٠١ ـ ٢٠٦. تبعد هذه القلعة حوالي أربعة أيام عن نيقية عاصمة سلاجقة الروم، وتبعد نيقية حوالي مائة ميل عن القسطنطينية.

(٢) انظر فيما يتعلق بجيوش الحملة الصليبية الأولى وأسماء زعمائها: توديبو: المصدر نفسه ص ٧٥ ـ ٨٢. ووليم الصوري: جـ ١ ص ١٩٥ ـ ٢٢٥.

(٣) تاريخ الحروب الصليبية: جـ ١ ص ٢٥٧.

(٤) رنسيمان: جـ ١ ص ٢٣٣.

أوضاع العالم الإسلامي عند وصول الحملة الصليبية الأولى

جاءت الحملة الصليبية الأولى في وقت كان فيه العالم الإسلامي في الشرق الأدنى يعاني من الانقسامات السياسية والمذهبية الدينية. وكان هذا الانقسام على حساب وحدة الجبهة الإسلامية، كما كانت بلاد الشام، التي استهدفتها تلك الحملة بشكل خاص، تعيش وضعاً مفكَّكاً حيث توزَّعت مدنها بين حكام وأمراء يحذر كل منهم الآخر. وبلغ الخلاف المذهبي والعسكري بين الفاطميين والسلاجقة أشده عندما بدأت جيوش الصليبيين تجوس خلال الديار الإسلامية، وقد رأى كل طرف في مجيء الصليبيين ما يحقق أهدافه في القضاء على خصمه أو الحدِّ من نفوذه، مما مهَّد لهؤلاء دخول بلاد الشام واحتلال بيت المقدس والقسم الساحلي بكامله.

نتائج الحملة الصليبية الأولى

سقوط نيقية

وسرعان ما توجَّهت هذه الجموع الصليبية الهائلة، الممتلئة حماساً واندفاعاً، صوب حدود سلطنة سلاجقة الروم، وهدف قادتها الاستيلاء على نيقية عاصمة السلطنة المذكورة، نظراً لموقعها الجغرافي المتميز، إذ لو بقيت بأيدي السلاجقة لشكَّل ذلك خطراً على خطوط مواصلاتهم مع بلاد الشام، وقد توحَّدت أهدافهم وأهداف بيزنطية في هذه القضية.

وصلت القوات الصليبية إلى نيقية في شهر (جمادى الأولى ٤٩٠هـ/ أيار ١٠٩٧م)، وضربت الحصار عليها. كان السلطان قلج أرسلان الأول (٤٨٥ ـ ٥٠٠هـ/ ١٠٩٢ ـ ١١٠٧م)، سلطان سلاجقة الروم، آنذاك، خارج عاصمته. وعلى الرغم من ضخامة الحامية السلجوقية المرابطة داخل المدينة، فإنها احتاجت إلى إمدادات لم يتمكَّن السلطان من تأمينها.

استمر الحصار مدة خمسة أسابيع، سقطت المدينة بعدها بيد الصليبيين الذين سلموها إلى الأمبراطور البيزنطي لأنها كانت من أملاكه[1].

---

(١) انظر فيما يتعلق بسقوط نيقية في أيدي الصليبيين: توديبو ص ١١٠ ـ ١١١. المؤرخ المجهول: أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ص ٣٤ ـ ٣٦. فوشيه الشارتري ص ٤٦ ـ ٤٧. كان فوشيه قسيس بلدوين ومرافقه في الحملة الصليبية الأولى، فهو يصف الأحداث كشاهد عيان. رنسيمان: جـ ١ ص ٢٦٤ ـ ٢٧٥.

تأسيس إمارة الرها

نجح الصليبيون في اختراق آسيا الصغرى بعد سقوط نيقية، ووصلوا إلى كيليكية وسيطروا عليها، ثم واصلوا تقدمهم باتجاه بلاد الشام، فبلغوا أنطاكية، وضربوا الحصار عليها، باستثناء ما كان من أمر بلدوين الذي انفصل عن الجيش الرئيسي عند عينتاب[1]، وتوجَّه نحو الشرق بناء على دعوة تلقاها من الأمير الأرميني ثوروس حاكم الرها لمساعدته في صد الزحف الإسلامي بقيادة كربوغا حاكم الموصل القادم لنجدة أنطاكية.

وكانت فرصة استغلها بلدوين بذكاء في تأسيس إمارة له في الرها حيث تبناه صاحبها وأشركه معه في الحكم. ولم تمض مدة طويلة حتى اغتال الأرمن ثوروس، فتزوج بلدوين امرأته وتسلم الحكم، وذلك في (شهر ربيع الآخر عام ٤٩١هـ/ شهر آذار عام ١٠٩٨م). وهكذا قامت أول إمارة صليبية في الشرق الأدنى الإسلامي[2].

وتوسع بلدوين بعد ذلك، فاستولى على تل باشر[3] والراوندان[4] وسميساط، بالإضافة إلى كثير من المواقع والمدن في شمالي الجزيرة، فامتدت هذه الإمارة الصليبية فوق مساحة من الأرض تقع شرقي نهر الفرات وغربه، وجاورت إمارة الموصل، وهدَّدت مدن ديار بكر مثل نصيبين وماردين وحرَّان، بل شمالي العراق كله، كما سيطرت على الطرق المؤدية إلى حلب والموصل.

تمثَّلت أهمية هذه الإمارة في أنها أدَّت دور الحاجز في الشمال الشرقي، بحيث تلقَّت الهجمات الإسلامية الأولى بدلاً من الإمارات الأخرى، وهنا قبع بلدوين فرحاً بما حقَّقه، ولم يعد يهتم بمساعدة جيش الصليبيين الرئيسي الذي كان لا يزال يحث الخطى نحو أنطاكية، وهذا دليل على أن الأمراء الصليبيين الغربيين عندما اشتركوا في الحملة الصليبية الأولى كانوا يتطلعون إلى إقامة إمارات لهم في ربوع الشرق الإسلامي، أما القضية الدينية المتمثلة بالاستيلاء على بيت المقدس وتخليص قبر المسيح وتأمين طريق الحاج فلم تكن إلا قضية ثانوية.

---

(١) عينتاب: قلعة حصينة ورستاق بين حلب وأنطاكية، وكانت تُعرف بدلوك، وهي الآن من أعمال حلب، الحموي: جـ ١ ص ١٧٦.

(٢) فوشيه الشارتري: ص ٥١ ـ ٥٣.

(٣) تل باشر: قلعة حصينة وكورة واسعة في شمال حلب بينهما يومان وأهلها نصارى أرمن. الحموي: جـ ٢ ص ٤٠.

(٤) الراوندان: قلعة حصينة وكورة طيبة معشبة مشجرة من نواحي حلب. المصدر نفسه: جـ ٣ ص ١٩.

ومهما يكن من أمر، فإن إمارة الرها كانت من أوسع الإمارات الصليبية، وأشدها أذى للمسلمين بسبب أطماع أصحابها النورمان واجتهادهم في الحروب والغارات، ولكنها كانت مع ذلك أضعف هذه الإمارات بسبب توسطها بلاد المسلمين، وتعرضها بالضرورة لردود أفعالهم، بالإضافة إلى عدم تلقِّيها دعم الحجاج ولا إمدادات التجار الإيطاليين.

تأسيس إمارة أنطاكية

تمهيد

وصل الصليبيون إلى أنطاكية في (شهر ذي القعدة ٤٩٠هـ/ شهر تشرين الأول ١٠٩٧م) وضربوا الحصار عليها. فتمركز روبرت أمير فلاندر وروبرت أمير نورمانديا وهيو أمير فرمندوا وستيفن إتيان أمير بلوا بين باب بولس وباب الكلب، واتخذ بوهيموند ورجاله النورمان مواقعهم في الجهة الشمالية للمدينة أي عند باب بولس، في حين استقر ريموند كونت تولوز والمندوب البابوي أدهيمار ومعهم فرسان البروڤانس على مقربة من باب الكلب إلى الجهة الغربية منه، وعسكر جودفري دي بوايون في الجهة الشمالية الغربية، أي في مواجهة باب الدوق[١].

والواضح أنه سهَّل مهمة الصليبيين ما حدث من خلافات بين ياغي سيان ورضوان، بالإضافة إلى النزاعات بين الأخوين رضوان ودقاق. كان ياغي سيان آنذاك لا يزال في طريق عودته إلى أنطاكية قادماً من شيزر، عندما علم بوصول عدد كبر من الصليبيين إلى شمال بلاد الشام، وأنهم نزلوا على بغراس[٢] وأغاروا على القرى المحيطة بأنطاكية[٣]، فانزعج، ثم أخذ يلتمس الحلفاء، فأرسل فوراً ابنه شمس الدولة إلى دقاق وطغتكين، كما أرسل ابنه الآخر محمد إلى ملوك الشرق وأمرائه، وإلى كربوغا حاكم الموصل، وكتب إلى جناح الدولة حسين صاحب حمص ووثاب بن

---

(١) كان لمدينة أنطاكية خمسة أبواب هي: باب القديس بولس ويقابله الباب الشرقي ويحمل اسم القديس جورج ويقعان في القسم العلوي في الشرق، وتقع ثلاثة أبواب في الناحية الشمالية وجميعها مفتوحة نحو النهر وهي: باب الكلب وباب الدوق وباب الجسر. انظر وصف مدينة أنطاكية عند وليم الصوري، جـ ١ ص ٢٧٤ ـ ٢٨٣.

(٢) بغراس: مدينة في لحف جبل اللكام بينها وبين أنطاكية أربعة فراسخ على يمين القاصد إلى أنطاكية من حلب، وفي البلاد المطلة على نواحي طرسوس. الحموي: جـ ١ ص ٤٦٧.

(٣) ابن القلانسي: ص ٢١٨ ـ ٢١٩. ابن العديم: جـ ١ ص ٣٤٥.

محمود وبني كلاب؛ يستحثهم على القدوم للجهاد ضد الصليبيين[1]، وتجنَّب دعوة رضوان، ولعل السبب في ذلك هو الخلاف الذي نشب بينهما في شيزر في العام الماضي، كما أنه خشي من أن يقدم صاحب حلب على التخلص منه وإعادة أنطاكية إلى حكمه، ومن جهته، فإن رضوان لم يبذل له المساعدة لما بدر منه من خصومة، على الرغم مما في ذلك من قصر نظر سياسي[2].

وهكذا نرى أن الخلافات والأطماع الشخصية، حالت دون إسهام رضوان في صدِّ الخطر الصليبي المحدق وتوحيد جهوده مع جهود الأمراء الآخرين في مقاومته، وهو الأقوى والأقرب إلى أنطاكية، مما أضعف الجبهة الإسلامية المتحدة أمام الصليبيين[3].

أعدَّ دقاق حملة للإنقاذ، ونهض طغتكين وجناح الدولة للمساعدة. وأدرك كربوغا الذي يُعدُّ أهم الأمراء المسلمين في أعالي الجزيرة، ما يهدد العالم الإسلامي كله من الخطر الصليبي، لذلك أعدَّ جيشاً لنجدة أنطاكية، وحشد ياغي سيان في تلك الأثناء كل ما لديه من قوات، وشرع في توفير المؤن استعداداً لحصار طويل[4].

ومن جهتهم، انخرط الصليبيون في اللعبة السياسية في الشرق الإسلامي، بعد أن فرضوا وجودهم في شمال بلاد الشام. فبالإضافة إلى أنهم وقفوا على أوضاع المسلمين المتردية، راحوا يبثون الطمأنينة في نفوس الفاطميين، وإعطاءهم صورة غير حقيقية عن مشاريعهم في بلاد الشام، كما طمأنوا سلاجقة الشام إلى أنهم لا يطمعون إلا في استرداد الأماكن والبلدان التي كانت تابعة للبيزنطيين في الماضي، أي الرها وأنطاكية واللاذقية[5].

واستقبلوا أمام أنطاكية سفارة فاطمية، عرضت عليهم اقتسام أراضي سلاجقة الشام، فيأخذ الصليبيون شمال بلاد الشام ويحوز الفاطميون على فلسطين. ولا شك بأن الأفضل، الوزير الفاطمي، عدَّ الصليبيين عساكر مرتزقة للأمبراطور البيزنطي، فافترض أن هذا العرض سوف يلقى القبول التام، ولم يدرك حقيقة الحركة الصليبية، وربما استند في تفكيره هذا إلى بعض السوابق التاريخية. فمنذ القرن العاشر الميلادي لم تتعدَّ أملاك الأمبراطورية البيزنطية في بلاد الشام مدينة أنطاكية، فظنَّ أن

---

(1) ابن القلانسي: ص ٢١٩. ابن العديم: جـ١ ص ٣٤٥ ـ ٣٤٦.

(2) رنسيمان: جـ١ ص ٣٢٣. (3) ضامن: ص ١٨٣.

(4) ابن الأثير: جـ٨ ص ٤١٧. ابن العديم: جـ١ ص ٣٤٧.

(5) عاشور: شخصية الدولة الفاطمية في الحركة الصليبية ص ١٧٣.

أولئك الصليبيين إنما أتوا في نهاية القرن الحادي عشر الميلادي لتحقيق الأهداف نفسها التي حاول كل من الأمبراطور نقفور فوقاس ويوحنا زمسكيس تحقيقها[1].

والواقع أن الصليبيين لم يلتزموا بتدبير خاص أمام السفارة الفاطمية، ولم يميطوا اللثام عن أهدافهم الحقيقية أمام أعضائها، كما أنهم أرسلوا إلى كل من رضوان ودقاق يطلبون منه أن يلتزم الحياد، وأنهم لا ينوون مهاجمة بلاده وقالوا: «اننا لا نقصد غير البلاد التي كانت بأيدي الروم لا نطلب سواها، مكراً وخديعة منهم حتى لا يساعدوا صاحب أنطاكية»[2]، وبذلك يتمكنون من الاستيلاء على الممالك الإسلامية ومدنها الواحدة تلو الأخرى.

معركة البارة

لم يمض ثلاثة أشهر على بداية الحصار حتى بدأ الجيش الصليبي يعاني من مشكلة نقص المؤن، فعقد الزعماء الصليبيون مؤتمراً لتدبير وسائل الحصول عليها، وتقرَّر تشكيل فرق لسلب ونهب المناطق الريفية المجاورة وبخاصة في حوض نهر العاصي، والحصول على ما تحويه من مؤن وغذاء. لكن كميات الطعام التي كان الصليبيون قد نهبوها من هذه المناطق من قبل، أرهقت الموارد المحلية، فلم يجد الغربيون ما ينهبونه، كما أن المسلمين بدأوا يدافعون عن أرزاقهم بشكل منظم بحيث كانوا ينقضُّون على فرق السلب والنهب بأكملها[3].

لم يكن بوسع الصليبيين أن يطوقوا المدينة، واكتفوا بحصارها من ثلاث جهات فقط لأسباب طبيعية. فقد تركوا باب الجسر والباب الشرقي دون حصار لأن الوصول إليهما يتطلب عبور النهر. ومن جانبه، فإن ياغي سيان لم يتوفر له من الجند ما يكفي لحماية الأسوار، ولم يغامر بالتضحية بأحد من رجاله إلا بعد أن قدمت الإمدادات، فلم يحاول مهاجمة الصليبيين حينما تحركوا لاتخاذ أماكن لهم، وظل أسبوعين لا يحاول أن يتعرض لهم بأذى[4].

وتجمعت، في غضون ذلك، نجدة إسلامية قرب شيزر لإنقاذ أنطاكية على رأسها دقاق وطغتكين وجناح الدولة حسين. وعلم هؤلاء أن قوة صليبية بقيادة بوهيموند النورماني وروبرت أمير فلاندر شوهدت تزحف على امتداد نهر العاصي،

---

(١) عاشور: الحركة الصليبية: جـ ١ ص ١٩٧. (٢) ابن الأثير: جـ ٨ ص ٤١٨.

(٣) وليم الصوري: جـ ١ ص ٢٨٣، ٢٨٦. رنسيمان: جـ ١ ص ٣٢٩ ـ ٣٣٠.

(٤) المرجع نفسه: ص ٣٢٦.

فقرروا الاصطدام بها. ودارت بين الطرفين معركة عند البارة في (شهر محرم عام ٤٩١هـ/ شهر كانون الأول عام ١٠٩٧م) كانت نتيجتها غير واضحة، ويفهم مما رواه ابن القلانسي أن المسلمين تغلّبوا على الصليبيين، وأنهم قتلوا جماعة منهم[١].

ويبدو أن المسلمين تفرقوا بعد ذلك، إذ قبع دقاق في دمشق هادئاً، وظل مدة بعد معركة البارة لا يحاول التدخل لدفع خطر الصليبيين عن أنطاكية. أما رضوان فإنه لم يتمكّن من الاستمرار طويلاً في موقفه السلبي بعد الأحداث العاصفة التي تعرَّض لها شمال بلاد الشام نتيجة احتلال الصليبيين للرها وحصارهم لأنطاكية، ومهاجمتهم لأعمالها، وعلى الرغم من علاقته السيئة مع ياغي سيان إلا أنه لا يزال يعدُّه تابعاً له، وأن أنطاكية هي من أملاكه، كما أن ياغي سيان وجد نفسه بحاجة إلى قوة رضوان ليساعده في إنقاذ أنطاكية، فأرسل ابنه إلى حلب لاسترضائه، ويعتذر له عما مضى، ويستحثه للعمل على إنقاذ أنطاكية[٢].

معركة العمق

أدرك رضوان أخيراً أنه لا بد من تناسي الماضي، وأعلن أسفه وحزنه لتراخيه وامتناعه عن مساعدة ياغي سيان الذي أدَّى إلى وصول الصليبيين إلى أنطاكية، وقرَّر الإسراع في الخروج لمساعدة المدينة، وهذا تفكير نيِّر، إذ أن العودة عن الخطأ فضيلة، إنما جاء بعد فوات الأوان، إذ أن الخلافات بين الأمراء المسلمين، وعدم التخطيط السليم، مكَّنا الصليبيين من الوصول إلى أنطاكية.

خرج رضوان من حلب على رأس قوة عسكرية وتوجه نحو أنطاكية، وصحبه في حملته سقمان الأرتقي الذي قدم إليه من ديار بكر، وصهره أمير حماة، وقوات من حمص، ومقاتلون من الأراتقة[٣].

احتشدت القوات الإسلامية في حارم، بعد أن استعادتها من أيدي الصليبيين، لاتخاذها قاعدة انطلاق. وقضت الخطة المتفق عليها أن تهاجم هذه القوات المعسكرات الصليبية التي تحاصر أنطاكية، في الوقت الذي يخرج فيه ياغي سيان من المدينة لمهاجمتها من الاتجاه المقابل، وبذلك يقع الصليبيون بين فكي الكماشة، بين قوات رضوان وحلفائه من الخارج وقوات ياغي سيان من الداخل[٤].

---

(١) ذيل تاريخ دمشق: ص ٢١٧. ابن العديم: جـ ١ ص ٣٤٦. وليم الصوري: جـ ١ ص ٢٩٠ ـ ٢٩٢.
(٢) ابن العديم: جـ ١ ص ٣٤٦.
(٣) المصدر نفسه. عاشور: جـ ١ ص ٢٠٠.
(٤) المصدر نفسه: ص ٢٩٩. المرجع نفسه.

علم الصليبيون بتفاصيل خطة رضوان وحلفائه عن طريق السريان والأرمن في حلب وحارم، وقد أخبروهم بكل التفاصيل حتى لا يؤخذوا على غرَّة[١]، فوضع بوهيموند خطة مضادة لمواجهة الموقف، تقضي ببقاء المشاة داخل المعسكر الصليبي لإحباط كل محاولة من داخل المدينة للهجوم على المعسكر، على أن يخرج هو على رأس الفرسان لصد زحف المسلمين، واختار مكاناً حصيناً بين بحيرة العمق ومجرى نهر العاصي، يستطيع منه أن ينقضَّ على المسلمين عند تقدمهم لعبور الجسر[٢].

وفي يوم (٤ ربيع الأول ٤٩١هـ/ ٩ شباط ١٠٩٨م) أضحى المسلمون على مرأى من الصليبيين الذين بادروهم بالهجوم، وجرى قتال بين الطرفين انتهى باندحار المسلمين الذين تراجعوا إلى حصن حارم. والواقع أن الصليبيين نجحوا في إجبار المسلمين على التجمع في بقعة ضيقة بين البحيرة والنهر، ففقدوا حرية الحركة والانتشار الضروريين للانتصار، وعجزوا عن استخدام أساليبهم القتالية المألوفة في إطلاق السهام ثم الانسحاب بعد ذلك، كما لم يستطيعوا تحمل ضغط القتال، وانتهى الأمر بهزيمتهم، وطاردهم الصليبيون، وعندما رأت حامية الحصن حرج الموقف لاذ أفرادها بالفرار بعد أن أشعلوا النار بالحصن، فاستولى الصليبيون عليه بمساعدة أهله من السريان والارمن[٣]. ويُعدُّ هذا الانتصار كبيراً نظراً لأهمية موقع حارم في حماية أنطاكية من ناحية حلب، ولم يلبث كل جيش رضوان أن تراجع إلى حلب، وقد اضطربت صفوفه وسادته الفوضى[٤].

وفي الوقت الذي كانت تجري فيه معركة العمق، هاجم ياغي سيان المعسكرات الصليبية المحاصرة لأنطاكية، واشتبك مع الصليبيين، ولاح له النصر لولا أن تغير وجه القتال فجأة، إذ عندما أوشك الصليبيون أن يخسروا المعركة لاح لهم اقتراب الفرسان الذين انتصروا في معركة العمق، وعندما اقترب هؤلاء الفرسان، أدرك ياغي سيان أن الجيش الإسلامي القادم لنجدته، حلت به الهزيمة، فاصدر أوامره لرجاله بالعودة إلى داخل أسوار المدينة[٥].

---

(١) ابن العديم: جـ١ ص ٣٠٠. وليم الصوري: جـ١ ص ٢٩٩ ـ ٣٠٠.

(٢) وليم الصوري: جـ١ ص ٣٠٠. عاشور: جـ١ ص ٢٠٠. Chalandon: Première Croisade p:195.

(٣) ابن العديم: جـ١ ص ٣٤٧. وليم الصوري: المصدر نفسه: ص ٣٠٠ ـ ٣٠١.

(٤) Stevenson: The Crusaders in the East: p: 27.

(٥) وليم الصوري: جـ١ ص ٣٠١ ـ ٣٠٢.

سقوط أنطاكية

أدرك ياغي سيان، بعد هزيمة سلاجقة الشام، أنه لا بد من الاستعانة بالسلاجقة العظام في فارس وخراسان، فأرسل نداء عاجلاً إلى السلطان بركياروق. وارتفعت في المقابل روح الصليبيين المعنوية، غير أنها لم تؤد مباشرة إلى تحسين وضعهم، فلا زال الطعام قليلاً على الرغم من أن كميات من المؤن أخذت تصل إلى ميناء السويدية، جاء معظمها من قبرص، وثبت لهم أن طول مدة الحصار ليست في صالحهم. كما انتشرت إشاعة بين صفوفهم تفيد بأن جيشاً كبيراً من الأتراك بقيادة كربوغا في طريقه إليهم، مما دفعهم إلى التفكير في وضع خطة عاجلة للاستيلاء على أنطاكية قبل أن يجري تحطيمهم لوقوعهم بين حامية المدينة والجيش الإسلامي الضخم القادم لإنقاذها، والتمسوا المساعدة من الأمبراطور البيزنطي ألكسيوس كومنين الذي كان يغير آنذاك على الأناضول[1].

واستبدَّ القلق والضيق ببوهيموند، بشكل خاص، لحرصه وعزمه على الانفراد بحكم أنطاكية، فإذا وصل الأمبراطور قبل سقوط المدينة، أو إذا لم يتيسر هزيمة كربوغا إلا بمساعدته، أضحى من المستحيل الامتناع عن رد المدينة إليه، لذلك اتبع خطة من شقين:

الأول: انه تخلَّص من القوة البيزنطية بقيادة تاتيكيوس التي كانت تساعد الجيش الصليبي في حصار أنطاكية، حتى لا يطالب هذا القائد بردها إلى الحظيرة الأمبراطورية إذا استولى الصليبيون عليها وذلك تنفيذاً لمعاهدة القسطنطينية، فأوهمه بأن الزعماء الصليبيين يتهمونه بالتواطؤ مع الأتراك ضدهم، وأنهم يدبرون مؤامرة لاغتياله. ونجحت الخطة، إذ خاف القائد البيزنطي على حياته، فترك المعسكر الصليبي في شهر (ربيع الأول ٤٩١هـ/ شباط ١٠٩٨م).

الثاني: وطَّد صلته بأحد القادة بداخل المدينة، واسمه فيروز، وهو أرميني اعتنق الإسلام وارتقى إلى وظيفة رفيعة في حكومة ياغي سيان. وعلى الرغم من تظاهره بالولاء لسيده، فإنه كان شديد الحقد له لأنه فرض عليه أخيراً غرامة لاختزانه القمح[2].

---

(١) عاشور: جـ ١ ص ٢٠١. رنسيمان: جـ ١ ص ٣٤٥.

(٢) وليم الصوري: جـ ١ ص ٣٠٩ ـ ٣١٠، ٣١٥ ـ ٣١٦. ابن العديم: جـ ١ ص ٣٤٨. يدعو ابن العديم هذا الشخص بالزرّاد. ويذكر ابن الأثير أن اسمه برزوبه وهو زرّاد: جـ ٨ ص ٤١٧.

وبعد أن اطمأن إلى أن المدينة سوف تؤول إليه، طلب من الزعماء الصليبيين أن يملِّكوه المدينة بعد الاستيلاء عليها، لكنهم رفضوا طلبه في بادئ الأمر لأنهم سوف يتقاسمونها فيما بينهم بعد امتلاكها لاشتراكهم جميعاً في عملية الحصار. لكن سرعان ما تغير الموقف، وبات الجيش الصليبي مهدداً بالخطر، فعقد الزعماء الصليبيون مجلساً للمشورة، قرروا فيه استعدادهم للتنازل عن المدينة لبوهيموند بعد الاستيلاء عليها، باستثناء ريموند كونت تولوز، فتوافر له عندئذٍ، من الدواعي ما جعله يطمئن[1].

وجهد بوهيموند، فشيَّد قلعة على تل قريب من أنطاكية يحوي مقابر المسلمين، فاستغل ما فيه من أحجار في بنائها، وقد مكَّنت الصليبيين من إحكام الحصار على المدينة، ومنحتهم الحماية وسهولة التحرك، ومنعت السكان من مغادرتها.

كان فيروز يتولى قيادة القوات المرابطة في برج الأختين الشقيقتين، الذي يشرف على ما يليه من قطاع من سور المدينة المطل على الخارج، والذي يواجه تانكرِد، ولذلك حثَّ بوهيموند على حشد الجيش الصليبي وأن يقوده صوب الشرق، ويتظاهر بأنه سائر لمنع تقدم كربوغا ثم يعود إلى جهة الأسوار الغربية والشمالية الغربية، في خطوة لإيهام من بداخل المدينة بأن الصليبيين يرتحلون، فيخلدوا للراحة، ثم يعمد على فتح باب البرج أمام جنوده[2].

وفي ليلة (٢٨ جمادى الآخرة عام ٤٩١هـ/ ٢ حزيران عام ١٠٩٨م) نُفِّذت الخطة بإحكام. فدخل الصليبيون أنطاكية في صباح اليوم التالي بعد أن فُتحت أبوابها أمامهم، وتعرَّض المسلمون فيها للسلب والنهب والقتل، وقد رحَّب الأرمن والسريان الموجودون في داخل المدينة بالغزاة وساعدوهم في قتل المسلمين[3].

وإذ استيقظ ياغي سيان على جلبة القتال والضجيج الذي رافقه، لم يلبث أن أدرك أن كل شيء قد ضاع، فحاول الفرار مع جملة من فرَّ من المسلمين ولكنه سقط عن فرسه، فقتله الأرمن وحملوا رأسه إلى بوهيموند. أما ابنه شمس الدولة فإنه أسرع

---

(١) وليم الصوري: جـ١ ص ٣١٧. رنسيمان: جـ١ ص ٣٤٥ ـ ٣٤٦.

(٢) وليم الصوري: جـ١ ص ٣٢٦ ـ ٣٢٧. رنسيمان: جـ١ ص ٣٤٩.

(٣) المصدر نفسه: ص ٣٢٧ ـ ٣٣٠. المرجع نفسه: ص ٣٥٠ ـ ٣٥١. ابن الأثير: جـ٨ ص ٤١٧. ابن العديم: جـ١ ص ٣٤٨ ـ ٣٤٩.

إلى القلعة قبل أن تقع في أيدي الصليبيين، فاستولى عليها وتحصَّن بها، ولما حاول بوهيموند القيام بهجوم عنيف عليها أصابه الفشل وجُرح في القتال[١]. وهكذا سقطت أنطاكية بعد حصار دام سبعة أشهر.

حملة كربوغا

في الوقت الذي كان الصليبيون يحاصرون أنطاكية، أعدَّ كربوغا جيشاً لنجده المدينة، وسانده سلطانا السلاجقة في فارس والعراق اللذان وعدا بالمساعدة[٢]، غير أن ما ارتكبه من أخطاء في التقدير هيأ للصليبيين الفرصة للتنفس والراحة، ومكَّنهم من الاستيلاء على أنطاكية. إذ لم يشأ هذا القائد الإسلامي أن يزحف مباشرة إلى أنطاكية خشية أن ينقضَّ الصليبيون في الرها على جناح جيشه الأيمن، لذلك توقف أمام الرها في محاولة لانتزاعها من يد بلدوين[٣]، ولم يدرك أن ما بذله من جهد وما أنفقه من وقت إنما ضاع سدى، إلا بعد مضي الأسابيع الثلاثة الأخيرة من شهر أيار عام ١٠٩٨م، وهو يحاول عبثاً مهاجمة أسوارها[٤]، وبعد أن كان بوهيموند قد أحكم خطته العسكرية لدخول أنطاكية مما دفع أحد مؤرخي الحروب الصليبية إلى القول بأن دفاع بلدوين أمير الرها ومقاومته هي التي أنقذت الصليبيين أمام أنطاكية[٥].

وتخلَّى كربوغا في نهاية شهر أيار عن حصاره الفاشل الذي فرضه على الرها وواصل زحفه باتجاه أنطاكية، وتوقف قليلاً في مرج دابق حيث انضم إليه دقاق والأتابك طغتكين، وأرسلان تاش صاحب سنجار، وسقمان الأرتقي، وغيرهم من الأمراء المسلمين، ورفض رضوان الاشتراك في الحملة بسبب خلافه مع أخيه دقاق، وردَّ عليه كربوغا بأن ضمَّ جناح الدولة حسين صاحب حمص[٦].

وهكذا اجتمع الجيش الإسلامي الجرار[٧] في مرج دابق، ومنها أخذ يزحف نحو أنطاكية عن طريق نهر العاصي. وكان الصليبيون قد تركوا قوة عسكرية عند

---

(١) وليم الصوري: المصدر نفسه: ص ٣٣١ ـ ٣٣٢. المرجع نفسه. ابن الأثير: المصدر نفسه: ص ٤١٧ ـ ٤١٨. فوشيه الشارتري: ص ٥٣ ـ ٦٧.

(٢) ابن القلانسي: ص ٢١٨. Elisséeff: II p:289.

(٣) وليم الصوري: جـ ١ ص ٣١٨ ـ ٣١٩. رنسيمان: جـ ١ ص ٣٤٦.

(٤) المصدر نفسه. المرجع نفسه.

(٥) المصدر نفسه: ص ٣١٩.

(٦) ابن القلانسي: ص ٢٢١. ابن الأثير: جـ ٨ ص ٤١٨. ابن العديم: جـ ١ ص ٣٤٧. عاشور: جـ ١ ص ٢٠٦.

(٧) ابن القلانسي: المصدر نفسه. ابن العديم: المصدر نفسه. يقدر ابن العبري عدد أفراد الجيش الإسلامي بمائة الف مقاتل: تاريخ الزمان ص ١٢٤. في حين يقدر وليم الصوري العدد بمائتي ألف، مع ما في ذلك من المبالغة. تاريخ الأعمال المنجزة فيما وراء البحار: جـ ١ ص ٣١٨.

جسر الحديد إلى الشمال الشرقي من أنطاكية، فاصطدم المسلمون بها وقتلوا أفرادها، ثم لم تلبث أن ظهرت طلائع الجيش الإسلامي أمام أسوار أنطاكية في صبيحة (٤ رجب ٤٩١هـ/ ٧ حزيران ١٠٩٨م)(١).

حاول كربوغا اقتحام المدينة عن طريق قلعتها التي كانت لا تزال بأيدي المسلمين، وساعده شمس الدولة ابن ياغي سيان، لكنه فشل في ذلك، فضيَّق عندئذ الحصار عليها(٢).

عانى الصليبيون كثيراً من شدة الحصار، وتحرَّج موقفهم، وعمَّت المجاعة بينهم، وانتشر الوباء في صفوفهم، ونفدت أقواتهم، ومات عدد كبير منهم. وفي غمرة هذا البؤس حاول الكثير منهم الهرب، وكان بطرس الناسك «نبي الحركة الصليبية ومبشرها الملهم» من بين الهاربين، ولكن تانكرِد قبض عليه وأعاده مجللاً بالخزي والعار، ويدل ذلك على مزيد من الإفلاس العقائدي(٣)

وبلغ الصليبيون درجة من الياس جعلتهم يفكرون بالاستسلام، لكن كربوغا رفض أن يعطيهم الأمان ليخرجوا من أنطاكية وقال لهم: «لا تخرجون إلا بالسيف»(٤).

وهكذا كانت الأمور تسير من سيء إلى أسوأ بالنسبة للصليبيين المحاصرين، على الرغم مما أبداه بوهيموند من شجاعة وحزم. وظهرت في تلك الأثناء التي بدا فيها التخاذل واضحاً بين الصليبيين بعض الأساطير والرؤى التي كانت تهدف إلى إثارة الحماس الديني وتقوية الروح المعنوية المنهارة بينهم، وكان من أثر هذه الظاهرة أن تبدَّل الحال. وألهب بوهيموند حماس الجند بعد أن كان اليأس قد دبَّ في نفوسهم وكادوا أن يستسلموا، فنهضوا في وجه المسلمين(٥)، فولى هؤلاء منهزمين، فعاد كربوغا إلى الموصل، وأُسقط في يد قائد القلعة، فسلمها إلى بوهيموند(٦).

---

(١) وليم الصوري: جـ١ ص ٣٣٤ ـ ٣٣٥.

(٢) المصدر نفسه: ص ٣٣٦ ـ ٣٣٧.

(٣) المصدر نفسه: ص ٣٣٨ ـ ٣٤٠. قاسم، عبده قاسم: الخلفية الأيدلوجية للحروب الصليبية ص ٢٠٢.

(٤) ابن الأثير: جـ٨ ص ٤١٩.

(٥) المصدر نفسه. ابن القلانسي: ص ٢٣١. وليم الصوري: جـ١ ص ٣٥٨ ـ ٣٦٤. حيث تفاصيل وافية ومثيرة، وينفرد هذا المؤرخ بذكر اشتراك السلطان السلجوقي الرومي قلج أرسلان الأول في معركة أنطاكية.

(٦) يوميات صاحب أعمال الفرنجة: لمؤرخ مجهول، تحقيق سهيل زكار في كتابة الحروب الصليبية: جـ١ ص ٢٣٩ ـ ٢٦١، حيث تفاصيل وافية.

أسباب سقوط أنطاكية

مما لا شك فيه أن خسارة أنطاكية كانت ضربة كبرى للمسلمين، وكسباً مدوياً للقضية الصليبية، ويُعدُّ انتصارهم هذا من أكبر انتصاراتهم العسكرية منذ أن قاموا بحركتهم في أواخر القرن الحادي عشر الميلادي، وقد تضافرت عدة عوامل أدَّت إلى هذه النكسة لعل أهمها:

- أخطأ كربوغا بمهاجمة الرها قبل أنطاكية، على الرغم من اعتقاده بصوابية هذه الخطوة، حيث أضاع كثيراً من الوقت، مما سمح لبوهيموند من إحباك المؤامرة التي ضمنت له دخول المدينة والاستيلاء عليها.

- أن التحالف الإسلامي الذي شكله كربوغا كان مزعزعاً بفعل التفكير السياسي غير السليم للأمراء المسلمين. فقد تخلَّى الأمراء عن كربوغا في ساعة الشدة لأنهم خشوا أنه إذا انتصر فسوف تزداد قوته مما يجعلهم يدفعون الثمن باهظاً[1].

- أساء كربوغا معاملة الأمراء المسلمين مما كان له أثر في ازدياد التصدع[2].

- أثار غياب رضوان جواً من الاستياء والقلق في صفوف المسلمين، هذا على الرغم من أن تأمين مستقبل حكمه كان يحتم عليه أن يضع خلافاته مع الأمراء المسلمين جانباً، وأن يتخذ موقفاً أكثر تعقلاً بالانضمام إلى القوات الإسلامية بعد أن أضحت حلب واقعة بين الرها في الشرق وأنطاكية في الغرب، وكلتاهما سقطت في أيدي الصليبيين[3].

- عندما شعر كربوغا أنه بحاجة إلى قوة رضوان، بدأ يسعى للاتصال به، وعندئذ «توهم دقاق من ذلك»، وشعر برغبته في العودة إلى دمشق بحجة مراقبة توسع الفاطميين في فلسطين[4].

- كان جناح الدولة حسين قلقاً هو الآخر، بسبب الخوف من انتقام يوسف بن آبق أمير الرحبة ومنبج الذي كان على اتفاق مع رضوان[5].

- بلغ الأمر بالمسلمين أمام أنطاكية أن انقسموا على أنفسهم، فظهر الخلاف واضحاً بين العرب والأتراك، وجرت منافرة بين الطرفين، فاضطر وثاب بن محمود

---

(١) رنسيمان: جـ ١ ص ٣٧١.
(٢) ابن الأثير: جـ ٨ ص ٤١٨.
(٣) عاشور: جـ ١ ص ٢٠٩.
(٤) ابن العديم: جـ ١ ص ٣٥٠.
(٥) عاشور: جـ ١ ص ٢١٠.

إلى الانسحاب بمن معه من جموع العرب[1].

- انفضَّ كثير من الأتراك من حول كربوغا بتأثير من رضوان.

- تهاون كربوغا وتردُّده في التصدي للصليبيين، إذ عندما خرج هؤلاء من باب أنطاكية، للاصطدام بالمسلمين، لم يبادر إلى مهاجمتهم، على الرغم من إلحاح وثاب بن محمود، مفوتاً فرصة ثمينة للانتصار، نظراً للفارق العددي بين القوتين من جهة، وانكشاف القوات الصليبية من جهة أخرى. ويبدو أنه خشي أنه إذا أسرع بقتالهم فإنه لن يحطم إلا مقدمتهم، أما إذا انتظر فإنه سوف يتخلَّص، بضربة واحدة، من كل القوات الصليبية، على أنه حين شاهد مثل هذه القوات تردَّد في خوض المعركة[2].

- لا يُعزى نجاح الصليبيين في الانتصار والاستيلاء على أنطاكية، إلى صفات خاصة تميزوا بها دون المسلمين كالشجاعة والجرأة، وإنما يعود إلى انقسام الصف الإسلامي. فلو كان رضوان ودقاق قد اتفقا وقتذاك لألحقا بالعدو الهزيمة، ولحالا بينه وبين التوغل في آسيا الصغرى وشمالي بلاد الشام، ولكنهما على الرغم من الخطر الدائم الذي كان يهددهما، وبدلاً من الاتحاد لمواجهة هذا العدو المشترك، لم يبذلا أي مجهود في سبيل وقف التقدم الصليبي في الشرق الإسلامي.

ذيول سقوط أنطاكية

شجَّع سقوط أنطاكية وهزيمة كربوغا الصليبيين، فاستأنفوا نشاطهم العسكري ضد المناطق المحيطة بحلب على شكل غارات صغيرة، وشرع ريموند الصنجيلي في إعداد غارة على الأراضي الإسلامية، من أجل الحصول على المؤن، وتلقى في غضون ذلك دعوة من جودفري دي بوايون للقدوم عليه ليشتركا سوياً في مهاجمة مدينة عزاز الواقعة على الطريق الرئيسي المؤدي من الرها وتل باشر إلى أنطاكية، والتي تبعد عن حلب مسافة أربعين كيلومتراً إلى الشمال.

والواقع أن عمر أمير عزاز تعرَّض لضغط من رضوان بعد أن خرج على حكمه، فلم يسعه إلا طلب النجدة من جودفري دي بوايون الذي ساءه أن تبقى عزاز تحت حكم رضوان. ولما لم يكن بوسعه أن يشن حرباً على حلب دون الاستعداد الكافي، فقد حصل على مساعدات قوية من بوهيموند، بناءً على طلبه. ولما اقترب

---

(١) ابن العديم: جـ ١ ص ٣٥٠.

(٢) ابن الأثير: جـ ٨ ص ٤١٩. ابن العديم: جـ ١ ص ٣٥٠. رنسيمان: جـ ١ ص ٣٧٠.

الجيش الصليبي من المدينة فكَّ رضوان الحصار عنها وعاد إلى حلب. وأقرَّ جودفري دي بوايون عمر على حكم عزاز، فبذل الولاء له. أما ريموند الصنجيلي فقد تعرَّض للكمائن الإسلامية أثناء عودته وتكبَّد خسائر فادحة[١].

لم يستطع رضوان السكوت عما فعله والي عزاز، وما زال به حتى أخذ عزاز منه وقبض عليه في تل هراق وقتله[٢].

وفي (شهر شعبان عام ٤٩١هـ/ شهر تموز عام ١٠٩٨م) ترأس أحد فرسان ريموند الصنجيلي، ويدعى ريموند بليه، قوة عسكرية صغيرة وهاجم معرة النعمان وتل منس بهدف احتلالهما، وهي الجهات الواقعة إلى الجنوب الشرقي من أنطاكية، أي أنها داخلة في نطاق ممتلكات رضوان. ويبدو واضحاً أن الفارس الصليبي كان على صلة بالسريان والأرمن في تلك النواحي، وتلقَّى مساعدة من سكان تل منس النصارى ومن أهل المعرة، لكن رضوان أسرع بإرسال «قطعة من عسكر حلب»، فالتقى الحلبيون والصليبيون بين تل منس ومعرة النعمان، وأسفر اللقاء عن هزيمة واضحة للفرسان الصليبيين فيما ثبتت مشاتهم، فَقُتِل منهم أكثر من ألف رجل، حُملت رؤوسهم إلى داخل المعرة[٣]، في حين ارتد ريموند إلى تل منس.

وفي شهر (ذي الحجة/ تشرين الأول) أغار ريموند الصنجيلي على البارة، الواقعة شرقي نهر العاصي بين جسر الشغور ومعرة النعمان إلى الجنوب الشرقي من أنطاكية، وهي تابعة لمملكة حلب، وكان سبق له أن استولى على الروج على نهر العاصي. ويبدو أن رضوان لم يبذل جهداً في الدفاع عن البارة، فاستسلم سكانها الذين تعرَّضوا للانتقام، فعاقب ريموند الرجال والنساء، واستصفى الأموال، وسبى بعضاً وقتل بعضاً، وحوَّل جامعها الكبير إلى كنيسة[٤].

ويبدو أن تلك الغزوات التي قام بها الصليبيون في ذلك الدور لم تكن إلا وسيلة لإثبات الحضور، وتأمين المؤن حتى يحين الوقت للزحف على بيت المقدس، ولم تلبث أن تهيأت الظروف لذلك الزحف بانقضاء فصل الصيف واعتدال درجة الحرارة. وكان الأمراء الصليبيون قد أقسموا بعد هزيمة كربوغا، أن يسيروا في شهر تشرين الأول إلى بيت المقدس، واجتمعوا في الأول من شهر

---

(١) ابن العديم: جـ ١ ص ٣٥٤. وليم الصوري: جـ ١ ص ٣٧١ ـ ٣٧٣.

(٢) ابن العديم: المصدر نفسه. وتل هراق: من حصون حلب الغربية. الحموي: جـ ٢ ص ٤٥.

(٣) ابن العديم: المصدر نفسه ص ٣٥١. المؤرخ المجهول: ص ٢٦٤.

(٤) المصدران نفساهما: ص ٣٥٥. ص ٢٦٤. وليم الصوري: جـ ١ ص ٣٧٨.

تشرين الثاني في أنطاكية للتشاور في خططهم، وقرروا في الخامس منه استئناف الزحف نحو بيت المقدس[١].

الوضع القانوني لأنطاكية

أثار قرار الصليبيين استئناف الزحف إلى بيت المقدس وضع أنطاكية القانوني، لا سيما وأن بوهيموند ظل متمسكاً بحقه في السيطرة على كامل المدينة، في حين نازعه ريموند الصنجيلي. والمعروف أن الأول كان يسيطر على ثلاثة أرباع المدينة بالإضافة إلى القلعة، بينما كان الثاني يسيطر على الجسر المنيع وقصر ياغي سيان، كما كان للأمبراطورية البيزنطية حقوق في أنطاكية وفقاً للاتفاقية المعقودة بين الأمبراطور البيزنطي ألكسيوس كومنين وزعماء الحملة الأولى في عام (٤٩٠هـ/ ١٠٩٧م)، بوصفها كانت سابقاً من أملاك الأمبراطورية[٢].

وعندما أدرك بوهيموند أن الأمبراطورية سوف لن تتنازل عن حقها في أنطاكية، قرَّر السيطرة عليها رغم إرادة الأمبراطور. ومن جهته، ساند ريموند الصنجيلي حق الأمبراطور البيزنطي في امتلاك أنطاكية من واقع احترام الاتفاقية التي عقدها الصليبيون مع ألكسيوس كومنين[٣]. وبذلك أدَّت مشكلة أنطاكية إلى تأزيم الموقف بين الصليبيين والبيزنطيين بالإضافة إلى زعماء الحملة الصليبية أنفسهم[٤].

وطال النقاش بين زعماء الحملة الصليبية الأولى حول مصير أنطاكية، ورفض ريموند التنازل عن المراكز التي كان يحتلها، وأخذ في تحصينها، فاستاء الجند وبقية الفرسان، وأنذروا هؤلاء بأنهم سوف يدمرون أسوار المدينة ويتركونها مكشوفة أمام المسلمين والبيزنطيين جميعاً ثم يتركونهم ويتوجهون إلى بيت المقدس، إذا استمروا في منازعاتهم[٥].

ولا شك بأن هذا التهديد أثار مخاوف كلاً من بوهيموند وريموند، فضلاً عن بقية الأمراء الذين خشوا على مصيرهم ومستقبل الحملة، لذلك بدأت المساعي الجدِّية للوصول إلى حل لتلك الأزمة[٦].

وتقرَّر أخيراً امتصاص التهديد عن طريق شغل الجند بمهاجمة المسلمين،

---

(١) وليم الصوري: جـ ١ ص ٣٧٠. رنسيمان: جـ ١ ص ٣٨٤. Michaud: Histoire des Croisades: I pp 346-347.

(٢) المصدر نفسه: ص ٣٦٧. المؤرخ المجهول: ص ٢٦٦ ـ ٢٦٧.

(٣) رنسيمان: جـ ١ ص ٣٨٥ ـ ٣٨٦.

(٤) Grousset: I p:120.

(٥) وليم الصوري: جـ ١ ص ٣٦٩ ـ ٣٧٠.

(٦) عاشور: جـ ١ ص ٢١٣.

واختيرت معرة النعمان كهدف عسكري، لأن إخضاعها سوف يؤمِّن الجناح الأيسر للصليبيين حين يسيرون إلى الجنوب نحو بيت المقدس.

الصليبيون يهاجمون معرة النعمان

ساهم الصليبيون في الرها في الإغارة على المناطق المحيطة بحلب، وبعد فشلهم في الهجوم على معرة النعمان في (شهر شعبان ٤٩١هـ/ شهر تموز ١٠٩٨م)، واصلوا تعدياتهم على المسلمين وتحرشاتهم بهم، فاحتلوا البارة كما ذكرنا، وانتقموا من سكانها، ثم زحفوا على معرة النعمان وحاصروها في (٢٨ ذي الحجة ٤٩١هـ/ ٢٧ تشرين الثاني ١٠٩٨م) فأتلفوا مزروعاتها وقطعوا أشجارها، إلا أنهم فشلوا في اقتحامها، لذلك تقرَّر تشديد الحصار، وعلى الرغم من ذلك لم يحدث شيء من التقدم خلال أسبوعين، وكان لا بد من استعمال آلات الحصار لاقتحامها[١].

استغاث سكان المعرة، في هذا الوقت، برضوان وجناح الدولة حسين، فلم يغثهم أحد[٢]، عندئذ اعتمدوا على قوتهم الذاتية، فصمدوا مدة أمام الحصار وقاوموه. ونجح الصليبيون في غضون ذلك في بناء برج متحرك احتموا بداخله، وقد جرى دفعه إلى جانب أحد أبراج المدينة. وتيسَّر للجنود الصليبيين نقب السور في أحد جانبي البرج حتى تداعى السور. واستطاع عدد من الجنود أن يشقوا طريقهم إلى داخل المدينة، وأن يستبيحوها ليلة الأحد (٢٤ محرم ٤٩٢هـ/ ٢١ كانون الأول ١٠٩٨م)، واضطر السكان إلى الاستسلام مقابل منحهم الأمان، والتجأ قسم منهم إلى بعض الدور الحصينة وطلبوا الأمان مقابل دفع ضريبة، وقد فرض الصليبيون مبلغاً من المال على كل دار، واطمأن السكان. غير أنه لما جرى استئناف القتال في صباح اليوم التالي لم يحترم الصليبيون الأمان الذي منحوه للسكان وإنما «غدروا بهم، ورفعوا الصلبان فوق البلد، وقطعوا عن أهل البلد القطائع، ولم يفوا بشيء مما قرَّروه، ونهبوا ما وجدوه، وطالبوا الناس بما لا طاقة لهم به»[٣]. وقدَّر ابن العديم عدد قتلى المسلمين في معرة النعمان بأكثر من عشرين ألف رجل وإمرأة وصبي[٤]، في حين قدَّرهم ابن الأثير بما يزيد على مائة الف[٥]. وتضيف المراجع الصليبية، أن

---

(١) المؤرخ المجهول: ص ٢٦٨ ـ ٢٦٩. وليم الصوري: جـ ١ ص ٣٧٩ ـ ٣٨٠.

(٢) ابن العديم: جـ ١ ص ٣٥٥.

(٣) ابن القلانسي: ص ٢٢٢. ابن العديم: جـ ١ ص ٣٥٥. المؤرخ المجهول: ص ٢٦٩ ـ ٢٧١.

(٤) زبدة الحلب: جـ ١ ص ٣٥٥.

(٥) الكامل في التاريخ: جـ ٨ ص ٤٢٠.

الصليبيين أحرقوا المعرة أولاً عن آخر، ومكثوا فيها أربعين يوماً ثم عادوا إلى أنطاكية والرها دون أن يجدوا من يقف في طريقهم أو يرد عليهم[١]. وظل رضوان قابعاً في حلب دون حراك، وكأن الأمر لا يعنيه، في الوقت الذي أضحى الصليبيون فيه على أبواب حلب[٢].

بوهيموند يؤسس إمارة أنطاكية

استمرت النزاعات قائمة بين بوهيموند وريموند الصنجيلي بعد الاستيلاء على معرة النعمان، بسبب مشكلة أنطاكية، فعقد زعماء الصليبيين عدة اجتماعات في كنيسة القديس بطرس بالمدينة لحسم النزاع القائم بين الرجلين. فعرض بوهيموند على المجتمعين الاتفاق الذي أبرمه معهم، والذي ينص على تنازلهم عن أنطاكية له، في حين أطلعهم ريموند الصنجيلي على نص اليمين الذي أقسمه بين يدي الأمبراطور ألكسيوس بناء على نصيحة بوهيموند نفسه، ولكنهم لم يصلوا إلى نتيجة إيجابية. ويبدو أن ريموند أدرك أخيراً أن القضية قد طال أمدها، وأنه لا بد من وضع حد سريع لها، فدعا كل الأمراء إلى الاجتماع به في الروج، وعرض عليهم مبالغ من المال ليستقطبهم إلى جانبه ويعترفون به زعيماً أوحد للصليبيين في الشرق، إلا أنه فشل في ذلك، فقد رفض الأمراء طروحاته، وعمَّ الاستياء في المقابل جميع صفوف الجند والفرسان، فأرغموا ريموند الصنجيلي على المسير بأن دمروا أسوار معرة النعمان، فأدرك عندئذ أنه لم يعد ثمة تأجيل وإرجاء، فخرج من معرة النعمان في (١٧ صفر ٤٩٢هـ/ ١٣ كانون الثاني ١٠٩٩م) على رأس قواته معلناً الزحف على بيت المقدس، وتبعه بقية الصليبيين باستثناء بوهيموند الذي عاد إلى أنطاكية، واختار البقاء فيها ليعلن تأسيس إمارة أنطاكية الصليبية، أما معرة النعمان فتقرر منحها لأسقف البارة[٣].

توسع بوهيموند فيما وراء نهر العاصي

استطاع بوهيموند في (شهر شعبان ٤٩٣هـ/ شهر حزيران ١١٠٠م) أن يثبِّت أقدامه في الطرف الجنوبي الشرقي الواقع وراء نهر العاصي، ويتوسع على حساب الأمراء المسلمين المجاورين لإمارته. وبدأ بمهاجمة أفامية في حوض نهر العاصي في (شهر رجب/ شهر أيار)، وكانت تابعة للأمير العربي سيف الدولة خلف بن ملاعب الذي كان في عداء دائم مع جيرانه من الأمراء المسلمين وبخاصة بني منقذ

---

(١) المؤرخ المجهول: ص ٢٧١. (٢) ضامن: ص ١٩٠.

(٣) المؤرخ المجهول: ص ٢٧١ ـ ٢٧٢. وليم الصوري: جـ١ ص ٣٨٢ ـ ٣٨٣. توديبو: ص ٢٦٣.

في شيزر، وربما ظنَّ أن تلك النزاعات من شأنها أن تساعده في تحقيق أطماعه، ولكنه لم يكد يصل إلى أفامية حتى جوبه بمقاومة ضارية، فعاد أدراجه إلى أنطاكية بعد أن أفسد زرعها[1].

ردَّ رضوان على الهجوم الصليبي، فغزا الأثارب في (آخر رجب/ ١٠ حزيران) وحاصرها أياماً، لكن بوهيموند أحبط هجومه هذا، فتركها وتوجه نحو كلَّا[2] لطرد الصليبيين منها. والمعروف أن بوهيموند كان يسيطر على عدة قلاع في المنطقة منها زردنا وسرمين بالإضافة إلى كلًّا، فخرجت الحاميات الصليبية من تلك المراكز وطاردت رضوان وهزمته في (٢٥ شعبان/ ٥ تموز) واستباحت عسكره، وقتلت منهم عدداً كبيراً، وأسرت قرابة خمسمائة منهم، من بينهم بعض الأمراء[3].

لم يسع رضوان، بعد هذه الهزائم، إلا أن يستنجد بجناح الدولة حسين أمير حمص، دون أن يقدِّر مدى ما تسببه استعانته بذلك الأمير العربي ذي الإمكانات المحدودة، من مساس بمكانة السلاجقة وهيبتهم[4].

لبَّى جناح الدولة حسين نداء الاستغاثة، وجاء إلى حلب لمساعدة رضوان، لكنه عومل بالمهانة وعدم التقدير، مما جعله يعود بسرعة إلى حمص وهو يتوعد رضوان بالانتقام[5].

وإذ أدرك بوهيموند أن العلاقة بين حلب وحمص لم تكن من القوة ما تثير مخاوفه، قام بعملية ارتدادية إلى بلد الجزر فاحتل كفرطاب وبرج الحاضر، وسيطر على معظم المناطق المحيطة بحلب باستثناء تل منس التي استردها جناح الدولة حسين[6]، وعسكر في (شهر رمضان/ شهر تموز) في المشرفة، من الجانب القبلي على نهر قويق، ومن هناك أخذ يراقب الموقف عن كثب، ثم ألقى الحصار على حلب، وحتى يشدِّد الحصار عليها، عمد إلى تحويل الكثبان القريبة منها، التي كانت مدافن للمسلمين، كالحيف والدكة وقرنبيا، إلى حصون تحيط بها وتهددها، فتسقط عند ذلك في يده[7].

---

(١) ابن القلانسي: ص ٢٢٣.

(٢) كلّا: مكان شرقي العاصي في منتصف الطريق بين أنطاكية وحلب.

(٣) ابن العديم: جـ ١ ص ٣٥٦ ـ ٣٥٧. العظيمي: ص ٣٦٠.

(٤) ابن العديم: المصدر نفسه ص ٣٥٥. عاشور: جـ ١ ص ٣٨٥.

(٥) ابن العديم: جـ ١ ص ٣٥٧.

(٦) المصدر نفسه.

(٧) المصدر نفسه.

وكان بإمكانه اقتحام المدينة والاستيلاء عليها نظراً لتداعي قوة رضوان، لكن لم يُنقذه ومدينته من السقوط سوى مهاجمة كمشتكين الدانشمندي مدينة ملطية. والواقع أن بوهيموند حرص، وهو في أوج صراعه مع البيزنطيين من أجل السيادة على أنطاكية، على السيطرة على دروب جبل اللكام، التي يصح أن تجتازها أي حملة بيزنطية تقصد مهاجمة أنطاكية، لذا استجاب لنداء الاستغاثة المقدم من قِبَل جبريل أمير ملطية، ففكَّ الحصار عن حلب وتوجه إلى ملطية لمقاومة الحصار الدانشمندي[١].

وقوع بوهيموند في أسر المسلمين

حدث في عام (٤٩٣هـ/ ١١٠٠م) أن وقع بوهيموند في أسر المسلمين، وكان لذلك علاقة بمهاجمة الدانشمنديين الأتراك مدينة ملطية. فقد تجدَّدت في هذه السنة محاولات كمشتكين غازي الدانشمندي صاحب سيواس لفتح ملطية، فاستنجد حاكمها الأرميني جبريل ببوهيموند، وتعهد له بتسليمه المدينة إذا نجح في إنقاذها، فنهض الأمير الصليبي لمساعدته[٢]، وهو يدرك أهمية الأرمن والدور الذي يمكن أن يقوموا به في القضايا المتعلقة بتاريخ المنطقة، وبخاصة في الأزمة بينه وبين الأمبراطورية البيزنطية، لذلك حرص على حمايتهم والدفاع عنهم، معتقداً أن النورمان والأرمن تجمعهم مصلحة مشتركة وهي العداء للبيزنطيين والأتراك المسلمين[٣].

غادر بوهيموند أنطاكية في (ذي القعدة ٤٩٣هـ/ أيلول ١١٠٠م) على رأس قوة عسكرية قليلة العدد[٤] متوجهاً إلى ملطية، دون اكتراث للكمائن التركية التي نصبوها للإيقاع به بعد أن علموا بوجهته بواسطة الجواسيس، وصحبه ابن عمه ريتشارد أمير سالرنو، ولم يلبث أن وقع في إحدى هذه الكمائن في أرض مرعش، وانتهى الأمر بأسره مع ابن عمه من قِبل كمشتكين غازي، فنقلهما إلى قلعة نِكسار التي تقع في الشمال الشرقي لآسيا الصغرى قرب شواطئ البحر الأسود[٥].

---

(١) رنسيمان: جـ١ ص ٤٧٣.

(٢) Mathew ol Edessa: Chronique: in R.H.C Arm I p:51 ابن العبري: ص ١٢٥.

(٣) Grousset: I p:378.

(٤) تقدر بخمسمائة مقاتل. قدَّر ابن الأثير عدد رجال بوهيموند بخمسة آلاف، وهو عدد مبالغ فيه كما يبدو من تطورات الأحداث التي أدَّت إلى أسره. الكامل في التاريخ: جـ٨ ص ٤٣٨.

(٥) ابن القلانسي: ص ٢٢٣ ـ ٢٢٤. المصدر نفسه. Albert of Aix: in R.H.C vol IV. p:525.

ذيول وقوع بوهيموند في أسر المسلمين

مما لا شك فيه أن وقوع بوهيموند في الأسر جاء بمثابة كارثة للصليبيين، نظراً لنشاطه وبلائه في حرب المسلمين، مما حمل أحد مؤرخي الأرمن على القول إن اسم بوهيموند كان يثير الرعب في قلوب المسلمين حتى خراسان(١). وفي المقابل، أثارت حادثة الأسر موجة من الحماسة، المؤقتة، في صفوف المسلمين ظهر أثرها في النكسة التي مُني بها الصليبيون. من ذلك أن الصليبيين النورمان أتباع بوهيموند، أسرعوا عقب ذلك إلى الانسحاب من إقليم حلب، في حين تشجَّع رضوان، فأغار على مزارع الغلال المجاورة متخذاً معسكره قرب سرمين، أما جناح الدولة حسين فإنه استرد قلعة أسفونا الواقعة غرب سرمين وشمال معرة النعمان(٢).

على أن انشقاق المسلمين آنذاك حال دون قيامهم بعمل موحد وحاسم ضد الصليبيين، إذ أن النزاع سرعان ما دب بين رضوان وجناح الدولة حسين بسبب الاختلاف العنصري والمذهبي. فقد كان رضوان تركياً في حين كان جناح الدولة حسين عربياً، وفي الوقت الذي كان فيه الأول متشيعاً إسماعيلي المذهب، كان الثاني سنياً. ولعل هذه النعرة هي التي دفعت جناح الدولة حسين إلى مهاجمة رضوان في معسكره قرب سرمين، ولم يسع رضوان إلا أن لاذ بالفرار تحت ضغط القتال، ووقع وزيره أبو الفضل بن الموصول في الأسر(٣). ثم إن تعاطف رضوان مع الحشيشية، وتشجيعه المتزايد لهم، ومساعدته دعاتهم في نشر دعوتهم، وتعيينهم في المناصب الكبيرة في إمارته، وقد أفسدوا علاقته بجناح الدولة حسين، ولم يستطع رضوان أن يتغاضى عما حلَّ به قرب سرمين، لذلك تظاهر بمصالحة جناح الدولة حسين ودعاه إلى حلب، وهناك غدر به بالاتفاق مع الحشيشية كما ذكرنا.

إطلاق سراح بوهيموند من الأسر

ترك أسر بوهيموند فراغاً كبيراً في شمال بلاد الشام، لا سيما وأن بلدوين أمير الرها ما لبث هو الآخر أن استُدعي إلى بيت المقدس ليرث أخاه جودفري دي بوايون في الحكم(٤). أما في أنطاكية فقد تقرر استدعاء تانكرِد للقيام بالوصاية على الإمارة أثناء أسر خاله(٥).

---

(١) Mathew of Edessa: p:52. (٢) ابن العديم: جـ ١ ص ٣٥٨.

(٣) المصدر نفسه. (٤) عاشور: جـ ١ ص ٣٨٩.

(٥) فوشيه الشارتري: ص ١١٣. وليم الصوري: جـ ١ ص ٤٨٩.

ونتيجة لسياسته التوسعية تجاه جيرانه المسلمين، وبفعل العداء التقليدي بين النورمان والبيزنطيين؛ اعتمد تانكرِد الخطط للتوسع على حساب هؤلاء، فهاجم قيليقية لاسترداد المصيصة وأذنة وطرسوس التي احتلها البيزنطيون منذ ثلاثة أعوام، ولم تكن الجيوش البيزنطية من القوة ما يكفي لمقاومته[1]، ثم هاجم اللاذقية، وهي الميناء البيزنطي الذي كان محط أنظار النورمان منذ زمن بعيد[2].

كما أن تدخله في شؤون الإمارات الصليبية الأخرى أثار الأمراء الصليبيين، الذين تمنوا عودة بوهيموند إلى الحكم. والواقع أن تانكرِد حاول أن يتدخل في شؤون مملكة بيت المقدس، فاستقبل في أنطاكية البطريرك دايمبرث الذي نفاه الملك بلدوين. وعندما تعرَّض هذا الملك للهزيمة في الرملة على أيدي الفاطميين في (شهر رجب عام ٤٩٥هـ/ شهر أيار عام ١١٠٢م)[3]، استنجد بأمراء الشمال، فلم ينجده تانكرِد[4] مما كان سبباً في اتساع الهوة بين الرجلين، كما أن أعمال تانكرِد ونشاطه، لم تلق القبول من جاره بلدوين دي بورج حاكم الرها، وكلما مضى الزمن ازداد ارتيابه في أطماعه، ولم يجد سبيلاً لمنع الصدام مع النورمان في أنطاكية سوى إطلاق سراح بوهيموند وإعادته إلى إمارته[5]. وهكذا تعدَّدت الأطراف من ذوي المصلحة المشتركة، المطالبة إما بالحصول على شخص بوهيموند أو عودته إلى الحكم.

واتجهت أنظار البيزنطيين والصليبيين إلى الأمير الدانشمندي كمشتكين غازي، فعرض الأمبراطور البيزنطي ألكسيوس كومنين عليه مبلغاً ضخماً من المال قدره مائتين وستين ألف دينار مقابل تسليمه بوهيموند، وقام حاكم طرابزون بالوساطة بين الطرفين[6].

---

(١) Albert of Aix: p:582.

(٢) وليم الصوري: جـ ١ ص ٥٠٨. رنسيمان: جـ ٢ ص ٥٩.

(٣) انظر فيما يتعلق بمعركة الرملة: وليم الصوري: المصدر نفسه ص ٥٠٢ ـ ٥٠٤.

(٤) يذكر وليم الصوري أن تانكرِد الذي عاش في قلق شديد إزاء الكارثة التي أصابت المملكة، كان على وشك الانطلاق، وقد أبهج انتصار الملك فؤاده فشكر الخالق كثيراً. جـ ١ ص ٥٠١. والراجح أن وليم حاول، كغيره من مؤرخي الصليبيين اللاتين، طمس الخلافات الداخلية بين الأمراء الصليبيين أو التخفيف من حدتها، وتشير قرائن الأحداث إلى حصول نفور بين بلدوين وتانكرِد، وأن الأخير حصر اهتمامه بالتوسع في الشمال على حساب بيزنطية ولم يُعر القضية الصليبية في الجنوب أي اهتمام جدِّي، كما أن بلدوين طرب عندما غادر تانكرِد فلسطين لاستلام مهامه الجديدة في أنطاكية لأنه تخلص بذلك من أخطر أتباعه في فلسطين.

(٥) رنسيمان: جـ ٢ ص ٦٦.

(٦) Albirt of Aix: p:610.

وشرع بلدوين دي بورج في الوقت نفسه، بالاشتراك مع برنارد بطريرك أنطاكية، في إجراء مفاوضات مع الأمير الدانشمندي لإطلاق سراح بوهيموند[1].

وصل عرض الأمبراطور البيزنطي المغري إلى مسامع قلج أرسلان، سلطان سلاجقة الروم في قونية، فطلب من كمشتكين غازي أن يحصل على نصف المبلغ بوصفه سيداً على جميع أتراك آسيا الصغرى من جهة، وثمناً للمساعدة التي قدمها له في عام (٤٩٤هـ/ ١١٠١م) ضد اللمبارديين الذين اجتازوا بلاده من ناحية أخرى، ونتيجة لذلك تراجع كمشتكين غازي عن قبول العرض رافضاً أن يشاركه قلج أرسلان بنصف المبلغ.

ويبدو أن بوهيموند علم، وهو في الأسر، بهذه المفاوضات، فأرسل إلى كمشتكين غازي يذكِّره بأن كلاً من الأمبراطور البيزنطي وسلطان سلاجقة الروم عدو مشترك لهما، وأن مصلحتهما المشتركة تتطلب منه أن يطلق سراحه دون أن يسلمه لأحد، وفي هذه الحالة يتعهد بمحالفته ضد أعدائهما المشتركين[2].

وهكذا استطاع بوهيموند إقناع الأمير الدانشمندي بفائدة تحالفه مع الصليبيين في أنطاكية بدل مفاوضة الأمبراطور البيزنطي، وبخاصة أن قلج أرسلان السلجوقي عزم على التدخل في القضية، فوافق كمشتكين غازي على إطلاق سراحه مقابل الحصول على مائة ألف دينار، وذلك في عام (٤٩٦هـ/ ١١٠٣م)[3].

بوهيموند يهاجم حلب

لم يكد بوهيموند يعود إلى أنطاكية حتى استأنف هجماته ضد حلب مستغلاً ضعف رضوان وعدم قدرته على الدفاع عن مملكته، وكان صاحب حلب قد عيَّن والياً جديداً على عزاز بعد أن قتل واليها السابق عمر إثر عصيانه عليه، وهاجم هذا الوالي ناحية الجومة[4]، واصطدم بقوة عسكرية صليبية مشتركة من أنطاكية والرها[5]، فردَّ بوهيموند بأن أغار على بلاد حلب بالاشتراك مع جوسلين كورتناي نائب بلدوين دي بورج على مرعش ووصل إلى المسلمية[6] القريبة من حلب واستولى عليها، واعتدى جنوده على السكان، فقتلوا بعضهم وفرضوا على من نجا أموالاً باهظة، وعسكر

---

(١) Setton: I p:388. (٢) Albirt of Aix: P:610.

(٣) ابن الأثير: جـ ٨ ص ٤٧٥، يحدِّد إطلاق سراح بوهيموند في عام ٤٩٥هـ. Ibid. Albirt of Aix: p:611.

(٤) الجومة: من نواحي حلب. الحموي: جـ ٢ ص ١٨٩.

(٥) ابن العديم: جـ ١ ص ٣٦٠.

(٦) المسلمية: تبعد عن حلب مسافة خمسة عشر كيلومتراً إلى الشمال وتقع على نهر قويق.

بوهيموند في المنطقة عدة أيام، وأرسل إلى رضوان في أمر الصلح[١].

ويبدو أن رضوان وجد نفسه في موقف حرج يصعب معه مقاومة الصليبيين، لذلك، ولأمر الصلح، اتفق مع تانكرِد على أن يدفع له غرامة مقدارها سبعة آلاف دينار وعشرة رؤوس من الخيل مقابل وقف اعتداءاته، وإطلاق سراح الأسرى المسلمين لديه باستثناء من أُسِر على المسلمية من الأمراء[٢].

كانت هذه هي المرة الأولى التي يدفع فيها رضوان غرامة حربية للصليبيين نتيجة ضعفه وعجزه عن مواجهتهم[٣]، وعلى الرغم من ذلك، فقد استمر هؤلاء في شن الغارات على مملكة حلب. فقد خرج الصليبيون من تل باشر ودمروا الأجزاء الشمالية والشرقية من حلب، وعاثوا فيها فساداً وتحريقاً، وتكررت هجماتهم، واستولوا في إحدى الغارات على حصن بسرفوث[٤] في الطريق الممتد من أنطاكية إلى حلب، غير أنهم فشلوا فيما قاموا به من محاولات للاستيلاء على كفرلاثا[٥] الواقعة جنوبي حلب نظراً لما أبدته قبيلة بني عليم من مقاومة عنيفة، حيث قاموا بهجوم مضاد على الصليبيين في كفرلاثا، فتراجعوا إلى بسرفوث. والواقع أن استيلاء الصليبيين على هذا الحصن أمر له أهميته لأن ذلك الحصن يتحكم في الطريق بين حلب وأنطاكية[٦].

معركة البليخ

استغل بلدوين دي بورج صاحب الرها انقسام المسلمين على أنفسهم، بفعل ما نشب من حروب بين السلطانين الأخوين بركياروق ومحمد في عام (٤٩٦هـ/ ١١٠٣م)؛ ليتوسع على حسابهم ويقطع الطريق بين حلب والفرات. على أن الاتصال بين المسلمين في بلاد الشام والمسلمين في العراق وفارس لم يكن لينقطع فعلاً إلا إذا احتل الصليبيون حصن حرَّان المنيع الواقع في شمال الجزيرة بين الرها ونهر الفرات[٧]، لذلك قام بحملته الشهيرة على حرَّان في (شهر شعبان عام ٤٩٧هـ/ شهر أيار عام ١١٠٤م)، ونظراً لأهمية هذه الحملة فقد سانده جوسلين دي كورتناي

---

(١) ابن العديم: جـ ١ ص ٣٦٠. (٢) المصدر نفسه.

(٣) ضامن: ص ١٩١.

(٤) بسرفوث: حصن من أعمال حلب في جبال بني عُلَيْم. الحموي: جـ ١ ص ٤٢٠.

(٥) كفرلاثا: بلدة ذات جامع ومنبر في سفح جبل عاملة من نواحي حلب بينهما يوم واحد. المصدر نفسه: جـ ٤ ص ٤٧٠.

(٦) Grousset: I p:401. (٧) ابن الأثير: جـ ٨ ص ٤٩٦.

صاحب تل باشر وبوهيموند صاحب أنطاكية وابن أخته تانكرِد فضلاً عن عدد كبير من الأمراء الصليبيين ورجال الدين[١].

كان معنى استيلاء الصليبيين على حرَّان أنهم سيتمكَّنون من قطع الاتصالات بين المسلمين في العراق وفارس من جهة وبلاد الشام من جهة أخرى، فضلاً عن أن سقوطها سيمنحهم الفرصة لمهاجمة الموصل وتأمين السيطرة على إقليم الجزيرة وقطع الاتصالات مع حلب[٢].

ويبدو أن الصليبيين أضاعوا وقتاً ثميناً أمام حرَّان لأنهم لم يحاولوا اقتحامها واكتفوا بحصارها حتى يضطرها الجوع إلى التسليم، ولم يعلموا أن جيشاً إسلامياً كبيراً كان في طريقه لإنقاذها، وهو على وشك الوصول[٣].

ذلك أن تهديد الصليبيين لحرَّان جعل اثنين من كبار القادة المسلمين، وهما جَكَرْمِش، أتابك الموصل، وسقمان الأرتقي، صاحب ماردين وديار بكر، يتناسيان ما كان بينهما من حزازات قديمة، وأن يتَّحدا سوياً لمهاجمة الرها والتصدي للخطر الصليبي قبل أن يتعرضا لهجوم الصليبيين[٤].

وخرج رضوان على رأس قواته من حلب إلى الفرات ليراقب تطور الأحداث عن قرب وانتظار ما يكون من خبر الصليبيين، ولم يشترك في القتال. ولا تشير المصادر إلى سبب ذلك، وقد يكون للصراع الذي كان محتدماً آنذاك بينه وبين جَكَرِمِش بشأن أتابكية الموصل أثر في ذلك، أو لعله أراد أن يُبقي على قواته سليمة لاسترداد ما فقده أمام الصليبيين إذا انتصر المسلمون، وهذا ما حصل كما سنرى.

ومهما يكن من أمر، فقد اجتمع جَكَرْمِش وسقمان على الخابور عند رأس العين، ثم توجها على رأس جيشيهما المشترك لمهاجمة الرها. ومن جهة أخرى، احتشد الجيش الصليبي أمام حرَّان، ولم تلبث المعركة أن نشبت بين الطرفين في (شهر رمضان/ شهر أيار) على ضفة نهر البليخ حيث انسحب المسلمون وفق خطة عسكرية، فتبعهم الصليبيون، عندئذ كروا عليهم وهزموهم، ووقع بلدوين صاحب الرها وجوسلين صاحب تل باشر في الأسر، ولاذ بوهيموند بالفرار[٥].

---

(١) فوشيه الشارتري: ص ١٣٢. Elisséeff: II p:296.

(٢) Ibid. (٣) وليم الصوري: جـ١ ص ٥١٣ ـ ٥١٦.

(٤) ابن الأثير: جـ٨ ص ٤٩٦. ابن العديم: جـ١ ص ٣٦١.

(٥) ابن القلانسي: ص ٢٣٢. ابن الأثير: جـ٨ ص ٢٢١ ـ ٢٢٢. فوشيه الشارتري ص ١٣٢ ـ ١٣٤. وليم الصوري: جـ١ ص ٥١٣ ـ ٥١٦.

نتائج معركة البليخ

كان لمعركة البليخ نتائج بالغة الأهمية على الصعيدين الإسلامي والصليبي، لعل أهمها:

ـ أوقفت زحف الصليبيين وتوسعهم باتجاه الشرق على حساب المسلمين، وقضت على آمالهم في التقدم نحو العراق وإتمام سيطرتهم على الجزيرة.

ـ تلاشت أحلام بوهيموند في السيطرة على حلب، وتحويل إمارة أنطاكية إلى دولة كبيرة، وقضت على آمال الصليبيين بقطع الاتصال بين القوى الإسلامية في بلاد الشام وإقليم الجزيرة وآسيا الصغرى، عن طريق الاستيلاء على حلب.

ـ قرَّرت مصير إمارة الرها التي تعرَّضت لكثير من المتاعب الداخلية التي أضعفتها، وبخاصة من جانب الأرمن الذين سرعان ما أبدوا تذمراً من الحكم اللاتيني بفعل تعسف اللاتين مع الكنيسة الأرمينية واضطهاد رجالها، مما دفع الأرمن إلى الاتصال بالمسلمين، وأضحى احتمال سقوط هذه الإمارة وشيكاً[1].

ـ أتاحت للمسلمين فرصة استعادة الأملاك التي خسروها في السابق وضُمَّت إلى إمارة أنطاكية، فاسترد رضوان القلاع والبلدات القريبة من حلب، فأرسل إلى أهل الجزر وقرى حلب الأخرى الواقعة تحت السيطرة الصليبية وطلب منهم القبض على من عندهم من الصليبيين، فانقضَّ سكان الفوعة[2] وسرمين ومعرة مصرين وغيرهم على حكامهم الصليبيين، حتى أن بعض هؤلاء طلبوا من رضوان الحماية والأمان، فأمَّنهم وأُسرهم، كما استردَّ شمس الخواص صاحب رفنية صوران الواقعة شرق شيزر. ولم تلبث حاميات المدن الموجودة في لطمين وكفرطاب ومعرة النعمان والبارة، أن هربت والتحقت بأنطاكية. وبذلك انكمشت حدود إمارة أنطاكية إلى القويق وبحيرة العمق بعد أن كانت تلك الحدود قد لامست مشارف حلب، واسترجع رضوان أيضاً بالس والفايا وتسلَّم حماة من سكانها الذين خشوا من سيطرة شمس الخواص عليها، والسلمية، وكانت تابعة لجناح الدولة حسين، وعيَّن عليها نواباً من قبله[3].

---

(١) Mathew of Edessa: pp: 80-81.

(٢) الفوعة: قرية كبيرة من نواحي حلب، وهي مع سرمين ومعرة مصرين في بقعة واحدة من أعمال حلب في جهة الجنوب وعلى مرحلة منها، ولهذه البقعة الأشجار الكثيرة من الزيتون والتين وغير ذلك. الحموي: جـ ٤ ص ٢٨٠.

(٣) ابن العديم: جـ ١ ص ٣٦١ ـ ٣٦٢.

- كثَّف رضوان هجماته على أنطاكية نفسها، وبلغ جسر الحديد، ولم يبق على حامية بوهيموند في البستان[1]، الواقعة في أقصى الشمال إلا ما سبق من اعتقال زعماء الأرمن الوطنيين الذين كانوا يتحالفون مع المسلمين. وكادت إمارة بوهيموند بأكملها تتعرض للخطر لو لم يحدث من وفاة دقاق صاحب دمشق، فتحول رضوان عندئذ إلى الجنوب، واهتم بما وقع من النزاع على حكم مملكة دمشق بين ابن دقاق وعمه أرتاش[2].

- أضحى تانكرِد بعد وقوع بلدوين في الأسر، وصياً على إمارة الرها، كما أصبح بوهيموند أقوى الأمراء الصليبيين في الشمال.

معركة أرتاح

استعادت مملكة حلب قوتها وهيبتها بعد استرجاع رضوان للمناطق المقتطعة، ورأى في نفسه القوة مما دفعه إلى تجديد غاراته على أنطاكية. وتلقى آنذاك رسالة من سكان أرتاح يبدون رغبتهم بتسليم الحصن إليه، وهو ذو موقع مهم بالنسبة لأنطاكية، والمعروف أن الأرمن في أرتاح ثاروا على الحكم الصليبي نظراً لما لاقوه من اضطهاد وتعسف هؤلاء لهم، فأرسل نائباً عنه إلى الحصن وتسلَّمه[3]. كما تلقى رسالة من فخر الملك بن عمار صاحب طرابلس يطلب منه مساعدته ضد الصليبيين الذين كانوا يحاصرون طرابلس آنذاك بقيادة وليم جوردان.

استجاب رضوان لطلب المساعدة، فجمع قوة عسكرية كثيفة العدد وخرج في (شهر رجب عام ٤٩٨هـ/ شهر آذار عام ١١٠٥م) يريد طرابلس، ولكنه اصطدم بالصليبيين قرب أرتاح. والواقع أن هؤلاء خشوا من ازدياد قوته وتوسعه، وازداد وضعهم سوءاً بتسلمه أرتاح، فقرروا استعادة الحصن.

وترأس تانكرِد، المدافع عن أنطاكية بعد رحيل بوهيموند إلى الغرب في عام ١١٠٤م، قوة عسكرية خرجت من أنطاكية، وانضم إليه الصليبيون في النواحي، وتوجه نحو حصن أرتاح وحاصره، وضيَّق على سكانه، فأرسل نائب الحصن إلى رضوان يشرح له الموقف ويطلب منه القدوم لنجدته. عندئذ عدل رضوان عن المضي إلى طرابلس وتوجه بجيشه المؤلف من سبعة آلاف من الفرسان الأتراك والمشاة العرب إلى قنسرين، فوصل إليها في (٣ شعبان/ ٢٠ نيسان) وعسكر بالقرب

---

(١) البستان أو أبلستين: مدينة مشهورة في بلاد الروم. الحموي: جـ١ ص ٧٥.

(٢) رنسيمان: جـ٢ ص ٧٧ ـ ٧٨.

(٣) ابن العديم: جـ١ ص ٣٦٢ ـ ٣٦٣.

من المعسكر الصليبي. ويبدو أن تانكرِد تهيَّب الدخول في معركة، فراسل رضوان طالباً الصلح، لكن صاحب حلب رفض طلبه بتأثير إصبهذ صباوة، وهو أحد قادته، الذي حثَّه على ألا يتردد في الهجوم[١].

والتقى الجيشان بالقرب من قرية تيزين الواقعة شرق أرتاح، ودارت بينهما رحى معركة ضارية ثبت فيها مشاة رضوان في الوقت الذي لاذت فيه خيالته إلى الفرار. وعلى الرغم من أن النصر كان حليفه في بداية المعركة، إلا أن الصليبيين غيَّروا نتيجة المعركة بما قاموا به من هجوم معاكس وهزموا مشاة رضوان وقتلوا نحو ثلاثة آلاف بين فارس وراجل. وانهزم رضوان وانسحب مع فلول جيشه إلى حلب، ولما علم من بأرتاح بنتيجة المعركة، هربوا من الحصن وتركوه خالياً، فاحتله الصليبيون[٢].

وهكذا استطاع تانكرِد أن يمحو بسرعة هزيمة البليخ، وأن يسترد أرتاح من المسلمين، فانقلب، بذلك، الموقف مرة أخرى على جبهة العاصي لصالح الصليبيين الذين راحوا يطاردون المسلمين ويستردون ما فقدوه في العام السابق.

وعسكر تانكرِد عند تل أغدى، من أعمال ليلون[٣]، أي على الطريق الرئيسي بين أنطاكية وحلب، وتعرَّضت قرى حلب للمضايقة من قبله، واضطربت الأوضاع من ليلون إلى شيزر، فهرب سكانها إلى حلب خشية من بطش الصليبيين، فطاردهم هؤلاء وقتلوا منهم جماعة وسبوا أخرى، وأعادوا احتلالهم لمعظم الحصون، ولم يبق بيد رضوان إلا حماة والأثارب، وبذلك هدَّدوا حلب تهديداً مباشراً، كما استردوا سرمين وهو مركز مهم في إقليم الجزر، واحتلوا أفامية دون قتال في (٣ محرم عام ٥٠٠هـ/ ٤ أيلول عام ١١٠٦م)، وكان رضوان قد ضمَّها قبل ذلك، ومعرة النعمان، وكفرطاب، مما مكَّنهم من شن غارات عنيفة وتهديد المدن والقلاع الإسلامية القريبة وبخاصة شيزر[٤].

واضطر رضوان نتيجة هذا الانفلاش الصليبي إلى طلب الصلح، ووافق على أن يتنازل عن كل أملاكه الواقعة في وادي نهر العاصي، وأن يؤدي جزية لتانكرِد[٥]، الذي امتدت أملاكه مرة أخرى جنوباً حتى البارة ومعرة النعمان.

---

(١) ابن القلانسي: ص ٢٣٩. ابن الأثير: جـ ٨ ص ٥١٢. ابن العديم: جـ ١ ص ٣٦٢ ـ ٣٦٣.

(٢) المصادر نفسها. فوشيه الشارتري: ص ١٣٥.

(٣) ليلون: جبل مطل على حلب بينها وبين أنطاكية... وفيه قرى ومزارع. الحموي: جـ ٥ ص ٢٩.

(٤) ابن القلانسي: ص ٢٤٢. ابن العديم: جـ ١ ص ٣٦٣.

(٥) ابن القلانسي: المصدر نفسه.

التحالفات المختلطة في شمالي بلاد الشام

تعرَّض شمالي بلاد الشام في أوائل القرن السادس الهجري لأحداث سياسية مثيرة، متداخلة ومعقدة، وذلك بتأثير النزاعات الداخلية بين المسلمين بالإضافة إلى الصليبيين.

والواضح ان النزاعات بين المسلمين لها صلة بالمدى الذي وصلت إليه آنذاك العلاقة بين السلاجقة العظام وأتابكتهم في شمالي بلاد الشام وإقليم الجزيرة. والمعروف انه مزَّق العالم الإسلامي الشرقي في عام (٤٩٦هـ/ ١١٠٣م) ما جرى من قتال بين السلطانين الأخوين بركياروق ومحمد، على أن الصلح انعقد بينهما في العام التالي، فاحتفظ بركياروق بمقتضاه ببغداد وهضبة فارس الغربية في حين حصل محمد على شمالي العراق والجزيرة، وأضحت له حقوق السيادة على ديار بكر وبلاد الشام، وحاز الأخ الثالث سنجر على خراسان وشرق فارس[١].

لكن جَكَرْمِش حاكم الموصل رفض أن يسلِّم السلطان محمد مدينة الموصل التي كانت من نصيبه، وأعلن أنه لا يدين بالولاء إلا للسلطان بركياروق ولن يسلمها إلا إليه، عندئذ تقدم السطان محمد نحو المدينة لانتزاعها منه، غير أنه حدث أن توفي السلطان بركياروق في (شهر ربيع الآخر ٤٩٨هـ/ كانون الثاني ١١٠٥م) والسلطان محمد يحاصر الموصل، وقد غدا السطان الوحيد للسلاجقة الكبار، فلم يعد لجَكرْمِش من عذر في الاستمرار في الحرب، فأذعن للسلطان محمد[٢].

والراجح أن ما أعدَّه جَكَرمِش آنذاك من حملة ضد الصليبيين كان بناء على طلب السلطان محمد، إذ أن حاكم الموصل شكَّل حلفاً إسلامياً اشترك فيه رضوان صاحب حلب ونائبه الإصبهذ صباوة، وإيلغازي الأرتقي الذي خلف أخاه سقمان بعد وفاته، وصهر جَكَرمِش ألبي بن أرسلان تاش صاحب سنجار[٣].

لكن السلطان أزعجه ما كان لجَكَرمِش من نزعات استقلالية وقوة عسكرية متنامية، كما ارتاب في عقده اتفاقاً مع قلج أرسلان السلجوقي صاحب قونية وسلطان سلاجقة الروم، بالإضافة إلى أنه لم يفِ بما تعهد به للسلطان من حمل المال إليه[٤].

نتيجة لهذا التبدل في التفكير السياسي، خرج جَكَرمِش من الحلف، فرأى

---

(١) ابن الأثير: جـ ٨ ص ٤٩٣. سبط ابن الجوزي: ص ٨.

(٢) ابن الأثير: جـ ٨ ص ٥٠٤ ـ ٥٠٥. ابن العبري: ص ١٢٨.

(٣) رنسيمان: جـ ٢ ص ١٧٧.

(٤) ابن الأثير: جـ ٨ ص ٥٣٥.

الحلفاء عندئذ أنه من الأجدى مهاجمته لإرضاء السلطان محمد، فمضوا سوياً وهاجموا نصيبين، غير أن أتباع جَكَرمِش نجحوا في بث الشقاق بين المتحالفين وبخاصة بين رضوان وإيلغازي، فاغتنم الأول فرصة إقامة مأدبة أمام أسوار نصيبين، فاختطف إيلغازي وكبَّله بالسلاسل، على أن أنصاره هاجموا رضوان وأرغموه على الانسحاب إلى حلب[1].

وانتزع السلطان محمد الموصل وديار بكر من جَكَرمِش ومنحها إلى أحد قادته ويدعى جاولي سقاوة، وذلك في (شهر محرم عام ٥٠٠هـ/ شهر أيلول عام ١١٠٦م)، وعهد إليه بمحاربة الصليبيين في أطراف العراق وبلاد الشام، وتحت هذا الستار يستطيع القضاء على جَكَرمِش[2].

سار جاولي إلى الموصل ليتسلمها، فامتنع عليه جَكَرمش، وخرج للقائه، إلا أنه انهزم أمامه ووقع أسيراً في يده. ولما كان لجَكَرمِش من محبة ومكانة عند سكان الموصل، بادر هؤلاء إلى تنصيب ابنه زنْكي، البالغ من العمر إحدى عشرة سنة، وخطبوا له[3].

في هذه الظروف الحرجة، راسل زنكي قلج أرسلان يستنجد به ووعده بتسليمه الموصل وأعمالها[4]. استغل سلطان قونية هذه الفرصة للتوسع على حساب الأمراء المتنازعين، فأسرع لنجدة زنكي، ولما علم جاولي بمسيره انسحب من المدينة، لا سيما وقد توفي جَكَرمِش فجأة وهو في الأسر وكان ينوي اتخاذه أداة للمساومة. ودخل قلج أرسلان إلى المدينة وتسلَّم الحكم، وتوجَّه جاولي إلى سنجار حيث اتصل به كل من إيلغازي ورضوان، واتفق الأطراف الثلاثة على طرد قلج أرسلان من الموصل، والتوجه بعد ذلك لمهاجمة أنطاكية[5].

انتهت الحرب ضد قلج أرسلان بهزيمته وغرقه في نهر الخابور، فأضحى بوسع جاولي أن يدخل الموصل، غير أن ما اقترن به حكمه من الوحشية لم يلبث أن جعله مكروهاً عند الناس، كما أعلن استقلاله عن السلاجقة العظام، مما اضطر السلطان محمد لأن يعهد إلى أحد رجاله، وهو مودود بن التونتكين، بطرد جاولي من الموصل والحلول مكانه في حكمها[6].

---

(١) ابن الأثير: جـ٨ ص ٥٢١ ـ ٥٢٢.
(٢) المصدر نفسه: ص ٥٣٥.
(٣) ابن الأثير: جـ٨ ص ٥٣٦.
(٤) ابن القلانسي: ص ٢٥٠.
(٥) ابن الأثير: جـ٨ ص ٥٣٨.
(٦) المصدر نفسه: جـ١ ص ٥٣٩ ـ ٥٤١.

وهكذا اضطر جاولي إلى الفرار مجدداً من الموصل، وذهب إلى الجزيرة حيث التفَّ حوله جميع أعداء الدولة السلجوقية وعلى رأسهم قبيلة بني مزيد العربية، كما لم يتردد في عقد محالفة مع القوى الصليبية المجاورة لمواجهة الهجوم المقبل من جهة مودود، فأطلق سراح بلدوين الثاني صاحب الرها وعقد معه تحالفاً ضد السلاجقة[1]، واتفقا على مهاجمة مملكة حلب، واستفاد بلدوين الثاني من هذا التحالف لإبعاد تانكرِد عن التدخل في شؤون الرها. والمعروف أن الخلافات الداخلية بين الصليبيين بلغت اشدها آنذاك، ولم يشأ تانكرِد أن يتخلَّى لبلدوين الثاني عن الرها، وطلب منه أن يحلف له يمين الولاء، غير أن بلدوين الثاني، بوصفه تابعاً لملك بيت المقدس، رفض طلب تانكرِد، وتوجه إلى تل باشر مغاضباً، ولحق به جوسلين، واتصلا بجاولي يطلبان منه المساعدة[2].

ارتاح رضوان عندما علم بهذا التحالف، والمعروف أن جاولي كان يهدِّد ممتلكاته على نهر الفرات، فردَّ على ذلك بأن أغار على قافلة تجارية خرجت من تل باشر في طريقها إلى مقر جاولي كانت تحمل قسماً من المال الذي افتدى به بلدوين الثاني نفسه، وجاء الرد المعاكس سريعاً من قِبل جاولي الذي بادر إلى شن هجوم على بالس الواقعة على نهر الفرات والتي لا تبعد عن حلب سوى خمسين ميلاً، فاستولى عليها، وقتل كبار أنصار رضوان فيها، واضطر رضوان إلى البحث عن حليف صليبي أسوة بجاولي، فلم يجد إلا خصمه تانكرِد[3]، الذي استنجد بدوره برضوان لرد اعتداءات بلدوين الثاني على أملاكه، فأمده بستمائة فارس[4].

وهكذا انقسم المسلمون والصليبيون في شمال بلاد الشام والعراق على أنفسهم، فظهر حلفان: الأول مكوَّن من جاولي سقاوة وبلدوين الثاني حاكم الرها، والثاني مؤلف من رضوان وتانكرِد حاكم أنطاكية.

جهَّز بلدوين الثاني وجوسلين بضع مئات من الفرسان انحازا بها إلى جاولي عند منبج، وكان تحت تصرف هذا الأخير خمسمائة فارس وعدد كبير من البدو بقيادة بدران بن صدقة أمير بني مزيد، فبلغ عدد أفراد هذا الجيش نحو ألفي مقاتل. وفي المقابل، أعدَّ رضوان قوة عسكرية تبلغ نحو ستمائة فارس، ونهض تانكرِد

---

(١) Setton: I pp:393-394.

(٢) Setton: I pp:393-394.

(٣) ابن الأثير: جـ ٨ ص ٥٦٧ ـ ٥٦٩. رنسيمان: جـ ٢ ص ١٨٤.

(٤) المصدر نفسه: ص ٥٦٩. ابن العديم: جـ ١ ص ٣٦٤ ـ ٣٦٥.

لمساعدته في قوة تبلغ عدتها ألفاً وخمسمائة مقاتل[١].

ودارت المعركة بين الحلفين، بين مسلمين ونصارى من جهة، ومسلمين ونصارى من جهة أخرى في (٢٨ محرم ٥٠٢هـ/ ٨ أيلول ١١٠٨م)، وانتهت بهزيمة جاولي وأنصاره وانتصار رضوان وأنصاره، وخسر الصليبيون جميعاً ألفي رجل[٢].

استئناف الصراع بين رضوان وتانكرِد

كان موقف رضوان من الصليبيين متأرجحاً بين العداء والتعاون حفاظاً على مصالحه، فإذا أتيحت له الفرصة استغلها. فتارة كان يقف متفرجاً دون أن يتدخل، على الرغم من أنهم يعيشون في أراضي إمارته، وتارة ينشد التفاهم معهم ويحالفهم تجنباً للاصطدام بهم وإبعاد خطر خصومه من المسلمين. غير أن هذه السياسة المتأرجحة أوصلت الأمور إلى الحد الذي حاصر فيه الصليبيون حلباً أكثر من مرة، واضطر أن يدفع لهم الأتاوات مقابل الحفاظ على حكمه، مما أدى بأهل حلب إلى اتهامه بالتقصير في حماية البلاد من الخطر الصليبي[٣].

ففي ظل الصراع الإسلامي ـ الصليبي العام، شكَّل مودود، أتابك الموصل، حلفاً مكوَّناً من إيلغازي الأرتقي صاحب ماردين وسقمان القطبي أمير أرمينية، المعروف باسم شاه أرمن، وأحجم رضوان عن الاشتراك في الحلف[٤].

كان هدف المتحالفين مدينة الرها، فزحفوا إليها في (شهر شوال عام ٥٠٣هـ/ شهر نيسان عام ١١١٠م)، وما إن علم الصليبيون فيها بحشود المسلمين حتى استنجد بلدوين الثاني بالملك بلدوين في بيت المقدس، متجاهلاً الاستعانة بتانكرِد، إذ كان يشك في نواياه، وباتفاقه مع المسلمين ضد الرها[٥].

ضرب مودود الحصار على الرها مدة شهرين، كان ملك بيت المقدس خلالها قد وصل إلى المدينة، فاستدعى تانكرِد ونجح في تحقيق مصالحة بينه وبين أميرها، فوحَّد بذلك كلمة الصليبيين[٦].

غير أن مودوداً عجز عن اقتحام الرها، فرفع الحصار عنها وتراجع إلى حران

---

(١) ابن الأثير: جـ ٨ ص ٥٦٧ ـ ٥٦٩.

(٢) المصدر نفسه ص ٥٦٩ ـ ٥٧٠. ابن العديم: جـ ١ ص ٣٦٤ ـ ٣٦٥. ابن العبري: ص ١٣١.

(٣) ضامن: ص ١٩٥.

(٤) ابن القلانسي: ص ٢٧٠ ـ ٢٧١. ابن الأثير: جـ ٨ ص ٥٨٧.

(٥) ابن العديم: جـ ١ ص ٣٦٥. رنسيمان: جـ ٢ ص ١٨٧ .

(٦) المرجع نفسه: ص ١٨٧ ـ ١٨٨. Elisséeff: II pp:302-203.

وفق خطة عسكرية محكمة، وانضم إليه طغتكين أتابك دمشق[1]، وأمعن في انسحابه لاستدراج الصليبيين إلى مكان بعيد عن قاعدتهم، ثم تطويقهم بعد أن ينحرف فجأة إلى الشمال، لكن عملية المطاردة توقفت فجأة وانفرط عقد التحالف الصليبي. فقد أدرك الملك بلدوين عدم جدوى مهاجمة المسلمين وقرَّر الانسحاب من الجهات الواقعة شرق الفرات وإخلاءها من النصارى[2]. فما الذي حدث في الأفق السياسي؟ الواقع أنه تضافرت عدة دوافع جعلت الصليبيين يتوقفون عن المطاردة ويتراجعون من المنطقة، لعل أهمها:

- لقد تلقى الملك بلدوين تحذيراً مبكراً بخطة الأتابك مودود، كما تلقى إنذاراً من بيت المقدس بتحرك فاطمي ضد بيروت، فقرر التخلي عن الحملة.

- راجت شائعات في الأوساط الصليبية بأن رضوان صاحب حلب يستعد لمهاجمة أنطاكية في ظل غياب أميرها، فاضطر تانكرِد إلى التخلي عن الحملة[3].

والواقع أن رضوان استغل الموقف الناتج عن الفراغ العسكري في إمارة أنطاكية، ونهض لاسترجاع قرى حلب التي كانت بأيدي الصليبيين دون اكتراث للهدنة الموقعة بينه وبين تانكرِد، فاستعاد بعضها، ثم طمع في التوغل في أراضي إمارة أنطاكية واقتطاع ما يمكن اقتطاعه من أراضيها، لكن مجرى الأحداث تبدَّل فجأة بعد فشل المسلمين في انتزاع الرها وانسحاب الصليبيين من أمامهم مما انعكس سلباً على وضع رضوان الذي عجز عن الاستمرار في حملته على أنطاكية[4].

وجاء دور تانكرِد للانتقام وإنزال العقاب برضوان، فأغار على قلعة النقرة الواقعة على الحدود، واستولى عليها، وعاث فساداً في المناطق الشرقية لحلب، فقتل عدداً من سكانها، وسبى أهل النقرة، وأخذ ما استطاع من المواشي، واضطر السكان إلى الفرار إلى بالس، ثم توجه إلى حصن الأثارب، الذي لا يبعد عن حلب إلا نحو عشرين ميلاً، وحاصره[5].

---

(١) ابن القلانسي: ص ٢٧١ ـ ٢٧٢. ابن العديم: جـ ١ ص ٣٦٥.
(٢) وليم الصوري: جـ ١ ص ٥٢٩. ابن العديم: المصدر نفسه: ص ٣٦٦.
(٣) رنسيمان: جـ ٢ ص ١٨٩. Elisséeff: II pp:302-303.
(٤) ابن القلانسي: ص ٢٧٢ ـ ٢٧٣. ابن العديم: جـ ١ ص ٣٦٦.
(٥) ابن القلانسي: ص ٢٧٣. ابن العديم: جـ ١ ص ٣٦٦.

عجز رضوان عن صد الهجوم الصليبي المضاد، ولما لم يتلق أي مساعدة من سائر الأمراء المسلمين بفعل مواقفه المتحفظة، حاول أن يدخل في مفاوضات مع تانكرِد للحصول على هدنة، وعرض عليه مبلغ عشرين ألف دينار مقابل رحيله، ولكنه رفض، وطالب بشروط أقسى وقال: «قد خسرت ثلاثين ألف دينار، فإن دفعتموها إليَّ وأطلقتم كل عبد بحلب منذ ملكت أنطاكية فأنا أرحل»(١)، فعدَّ رضوان ذلك ثمناً باهظاً.

في هذا الوقت، أرسل سكان الأثارب إلى رضوان يخبرونه بحصار الصليبيين لهم ويطلبون منه مساعدة عاجلة، لكن الكتاب وقع في يد تانكرِد الذي زاد من ضغطه على رضوان، ولما يئس سكان الأثارب من نجدة تصل إليهم، سلموا البلد إلى تانكرِد في (جمادى الآخرة ٥٠٤هـ/ كانون الأول ١١١٠م)(٢).

والواقع أن سقوط الأثارب في يد الصليبيين، والتي لا تبعد عن حلب أكثر من ثلاثين كيلومتراً، تُعدُّ ضربة موجعة لرضوان، وأتاحت لتانكرِد أن ينطلق منها لمهاجمة حلب نفسها، فضلاً عن حرمانها من الغلال والمؤن التي تحصل عليها من السهول المحيطة بها، وأضحى صاحب أنطاكية في موقف قوي يستطيع من خلاله إملاء إرادته على رضوان(٣).

وشعر تانكرِد بأهمية انتصاره في الأثارب، فطمع في تحقيق المزيد، فهاجم حصن زردنا واحتله، واستولى على منبج وبالس، وأضحى المسيطر الفعلي على الأطراف الشمالية من بلاد الشام، فهابه الأمراء المجاورون، فتعهد كل من سلطان بن منقذ، أمير شيزر، وعلي الكردي، أمير حماة، بدفع مبالغ طائلة ثمناً لمسالمته(٤).

عند ذلك لم يسع رضوان إلا أن يعقد الصلح مع تانكرِد على عشرين ألف دينار وعشرة رؤوس من الخيل، وأن يعيد جميع الأسرى الأرمن الذين أسرهم أثناء غاراته على أنطاكية(٥).

وصلت الحالة السياسية والاقتصادية في حلب، بعد الغارات الصليبية، إلى درجة من الضعف والانهيار بحيث اضطر رضوان إلى بيع ستين ضيعة من قرى

---

(١) ابن العديم: جـ١ ص ٣٦٦ ـ ٣٦٧.
(٢) ابن القلانسي: ص ٢٧٣. ابن الأثير: جـ٨ ص ٥٨٤. ابن العديم: المصدر نفسه ص ٣٦٧.
(٣) عاشور: جـ١ ص ٤٢٠.
(٤) ابن الأثير: جـ٨ ص ٥٨٤. ابن العبري: ص ١٣٢.
(٥) ابن القلانسي: ص ٢٧٣. ابن الأثير: جـ٨ ص ٥٨٤. ابن العديم: جـ١ ص ٣٦٧.

حلب لأهلها بثمن زهيد لضمان بقائهم فيها وزيادة إنتاجهم بعد أن أضحت ملكاً لهم[١].

رد فعل عامة المسلمين

الواقع أن الوضع السيء الذي بات فيه المسلمون، في أواخر القرن الخامس الهجري، أوائل القرن الثاني عشر الميلادي، في بلاد الشام وأطراف العراق، أثار بينهم موجة عامة من الاستياء، فارتفعت الأصوات تندِّد بذلك الوضع وتدعو للجهاد؛ إذ أن سيطرة الصليبيين على كثير من المراكز والمعاقل في أرض الجزيرة وبلاد الشام، قطَّع أوصال العالم الإسلامي في الشرق الأدنى، وحال دون انتقال القوافل والتجارة بين العراق وبلاد الشام ومصر والحجاز[٢].

ونتيجة لتردِّي الأوضاع في حلب بشكل خاص ذهب وفد، ضمَّ بعض الصوفيين والتجار والفقهاء، إلى بغداد للتعبير عن استيائهم وطلب المساعدة ضد الصليبيين[٣]، ويبدو أنهم لم يحصلوا إلا على وعود، مما دفعهم إلى إثارة أهل بغداد، فقصد الجميع جامع السلطان وقت صلاة الجمعة، وأنزلوا الخطيب عن المنبر وحطَّموه، ونادوا بوجوب القيام بالجهاد[٤].

وتكرَّر هذا الحادث في يوم الجمعة التالي، حين قصد الناس جامع القصر بدار الخلافة في بغداد، فاقتحموا الجامع وكسروا شباك المقصورة والمنبر[٥]، عندئذ أدرك الخليفة أبو العباس أحمد، الملقب بالمستظهر بالله، (٤٨٧ ـ ٥١٢هـ/ ١٠٩٤ ـ ١١١٨م) خطورة الوضع، فأرسل إلى السلطان السلجوقي محمد «يأمره بالاهتمام بهذا الفتق ورتقه»[٦].

وكان الخليفة قد استقبل، قبل وصول الوفد الحلبي، سفارة من الأمبراطور البيزنطي ألكسيوس كومنين للتباحث بشأن القيام بعمل مشترك ضد تانكرِد[٧]، الأمر الذي جعل المسلمين في بغداد يصيحون في السلطان: «أما تتقي الله تعالى أن يكون ملك الروم أكثر حمية منك للإسلام، حتى أرسل إليك في جهادهم»[٨]، لكن الأمبراطور البيزنطي لم يهتم مطلقاً بمصالح المسلمين من واقع جهادهم ضد

---

(١) ابن العديم: جـ ١ ص ٣٦٨. ضامن: ص ١٩٧.
(٢) عاشور: جـ ١ ص ٤٦٠.
(٣) ابن العديم: المصدر نفسه.
(٤) ابن القلانسي: ص ٢٧٦.
(٥) ابن الأثير: جـ ٨ ص ٥٨٥.
(٦) ابن الأثير: المصدر نفسه.
(٧) ابن القلانسي: ص ٢٧٧.
(٨) ابن الأثير: المصدر نفسه.

الصليبيين، وقد جمعته مصلحة مشتركة معهم في هذه الآونة وهي العداء لتانكرِد بشكل خاص.

تجدد هجمات المسلمين ضد الرها

نتيجة للضغط الشعبي، أمر السلطان محمد الأتابك مودود بإعداد حملة كبيرة لحرب الصليبيين، وجعل القيادة الاسمية لابنه مسعود(١). واجتمع تحت قيادة مودود جميع حكام الأقاليم في دولة السلاجقة: سقمان القطبي صاحب خلاط وتبريز وبعض ديار بكر، وإيلغازي الأرتقي الذي أناب عنه ابنه أياز، والأميران الكرديان أحمديل صاحب مراغة(٢)، وأبو الهيجاء صاحب إربل(٣) فضلاً عن بعض أمراء فارس بزعامة الأميرين أيلنكي وزنكي، ابني بُرسق أمير همدان(٤).

بدأت قوات التحالف عملياتها العسكرية في (شهر محرم عام ٥٠٥هـ/ شهر تموز عام ١١١١م)، وفتحت عدة مواقع صليبية شرقي الفرات(٥)، ومن ثَمَّ توجَّه أفرادها لحصار الرها.

أثارت الحملة الذعر بين السكان، لكن في الحقيقة لم تغيِّر الموقف فيها، فقد أعيت الرها المسلمين بسبب مناعتها وصمود أهلها، عندئذ رأى مودود أن يعبر الفرات لمهاجمة تل باشر، معقل جوسلين الثاني(٦).

رضوان يستنجد بالقوة الإسلامية

انتشرت أخبار الحملة في الأوساط الإسلامية في شمالي بلاد الشام، فحاول كل أمير استغلالها لصالحه، بغضِّ النظر عن المصلحة الإسلامية العامة، وهذا تقصير في التفكير السياسي السليم، إذ أن المسلمين في شمالي بلاد الشام كانوا في تناحر مستمر، فاستنجد سلطان ابن علي صاحب شيزر، الذي كان يعاني من ضغط صليبي، بمودود، كما أرسل إليه رضوان يعلمه بالوضع السيء الذي وصلت فيه الأمور في حلب، إذ لم يعد بوسعه أن يصمد طويلاً أمام تانكرِد، وطلب منه المبادرة

---

(١) ابن الأثير: جـ ٨ ص ٥٨٧.

(٢) مراغة: بلدة مشهورة عظيمة، أعظم وأشهر بلاد أذربيجان. الحموي: جـ ٦ ص ٩٣.

(٣) إربل: مدينة كبيرة وقلعة حصينة، بين الزابين، تعد من أعمال الموصل وبينهما مسيرة يومين. المصدر نفسه: جـ ١ ص ١٣٨.

(٤) ابن القلانسي: ص ٢٧٨ ـ ٢٧٩. ابن الأثير: جـ ٨ ص ٥٨٧.

(٥) Stevenson: p:91.

(٦) ابن العديم: جـ ١ ص ٣٦٨. وليم الصوري: جـ ١ ص ٥٤٥.

إلى ترك تل باشر والتعجيل بالقدوم إلى حلب لنجدته ضد الأمير الصليبي[1]. ويشير ابن العديم إلى رسالة رضوان بقوله: «إنني قد تلفت، وأريد الخروج من حلب، فبادروا إلى الرحيل»[2].

تعرَّض الصليبيون في تل باشر للمضايقة، وحتى يخفف الضغط عن المدينة، انتهج جوسلين الثاني سياسة التفرقة بين المسلمين لإضعافهم، فأقام علاقات سرية مع أحمديل وأقنعه بفك الحصار عن تل باشر، فأقنع بدوره الأمراء المسلمين بهذا التوجه، وفعلاً اتفق هؤلاء على التوجه إلى حلب لنجدة رضوان[3]، وكأن هذه الحملة الإسلامية تهيم على وجهها دون تخطيط.

ومهما يكن من أمر، فقد تأثر مودود بتغير الموقف السياسي لصاحب حلب، ففكَّ الحصار عن تل باشر بعد خمسة وأربعين يوماً، وقاد جيوشه لمساعدته[4].

وصل مودود وحلفاؤه إلى حلب، وكان من المنتظر أن يستقبله رضوان وينسق معه لمحاربة الصليبيين وإبعادهم عن الأراضي التابعة لإمارة حلب، إلا أنه تصرف بغرابة، ويبدو أنه لم يكن صادق النية؛ إذ لم تكد القوات الإسلامية المتحالفة تصل إلى حلب حتى أغلق أبواب المدينة في وجهها[5]، بعد أن أثارت كثرتهم العددية مخاوفه، واعتقد أن ما يمكن أن يشكلوه من خطر بسبب مطامع بعض الأمراء، ربما فاق خطر تانكرِد، ولم يلبث أن تحالف مع هذا الأخير للوقوف في وجه الخطر المشترك، واتخذ من إجراءات الحيطة والحذر لمنع المظاهرات المعادية لمسلكه، فأمر باعتقال عدد كبير من أعيان المدينة واتخذهم رهائن حتى لا يجرؤوا على تسليم حلب لمودود، كما وضع حرساً من أتباعه ومن الحشيشية لحفظ سور البلد ومنع الحلبيين من الصعود إليه[6].

ظلَّت أبواب حلب مغلقة سبعة عشر يوماً، وبقي الناس في المدينة وقد عانوا كثيراً من قلَّة المؤن، فانتشر اللصوص في أحيائها، وخاف الأغنياء والأعيان على أنفسهم من السلب والنهب[7].

ويصف ابن العديم تصرفات رضوان مع أهل حلب في تلك المرحلة فيقول:

---

(١) ابن القلانسي: ص ٢٧٩. وليم الصوري: جـ ١ ص ٥٤٥.
(٢) زبدة الحلب: جـ ١ ص ٣٦٩.
(٣) سبط ابن الجوزي: ص ٣٥ ـ ٣٦. Grousset: p:465.
(٤) ابن الأثير: جـ ٨ ص ٥٨٨.
(٥) المصدر نفسه. ابن العديم: جـ ١ ص ٣٦٩.
(٦) ابن العديم: المصدر نفسه.
(٧) المصدر نفسه. ابن القلانسي: ص ٢٧٩.

«وساء تدبير الملك رضوان، فأطلق العوام ألسنتهم بسبه وتعييبه وتحدثوا بذلك فيما بينهم، فاشتد خوفه من الرعية أن يسلموا البلد وترك الركوب بينهم»[1].

وتمادى رضوان في إساءة التصرف، فأقدم على ارتكاب جرائم قتل لأقل هفوة، فقتل رجلاً لأنه قفز من السور، ورمى برجل آخر من فوق السور لأنه أعطى ثوبه لآخر، ومارس جنده السلب والنهب بأطراف حلب، فخلَّفوا أضراراً أكثر مما خلَّفه الصليبيون[2]، ولم يلبث أن تحالف مع تانكرِد، وحاول بث التفرقة بين المسلمين.

والواقع أن تصرفات رضوان مردها إلى عدة أسباب، لعل أهمها:

ـ أثارت كثرة الجيوش الإسلامية العددية مخاوف رضوان، واعتقد أنهم يمكن أن يشكلوا خطراً على حكمه بسبب أطماع بعض الأمراء.

ـ كان رضوان يشك في كل شيء حتى في أقرب المقربين منه، فكيف لا يشك بأمراء أقوياء أمثال مودود؟

ـ كان رضوان يعد نفسه مساوياً للسلطان محمد، ولا يريد أن يحقق السلطان أمجاداً على حسابه.

ـ عدم ثقة رضوان بأهل حلب، فقد خشي أن يسلموا المدينة لمودود، وجاء عدم الثقة هذا بسبب تصرفاته الرعناء تجاههم، وموقفه الضعيف، ودعمه للحشيشية وتعاونه معهم[3].

نتيجة لهذا الانقلاب في موقف رضوان، توجَّه مودود بجيشه جنوباً إلى حوض نهر العاصي لاسترداد الأماكن التي استولى عليها تانكرِد مؤخراً والمجاورة لمعرة النعمان، وهناك حضر إليه طغتكين أتابك دمشق وانضم إلى قواته[4]، فرحَّب به مودود. ويشير سبط ابن الجوزي وغيره إلى سبب قدوم طغتكين إلى مودود وبقية الأمراء، أنهم كاتبوه عندما كانوا على الفرات ليوافيهم ويساعدهم «ويدبر الأمور»، وأن السلطان أرسل إليه بمثل ذلك، «فجمع وحشد رجاله ورجال حمص وحماة ورفنية، وصار في جمع كثيف طلباً للجهاد، وتحرك نحوهم فوصل أبواب حلب، فسروا بوصوله، وقويت نفوسهم، فلم ير منهم عزيمة صادقة في جهاد ولا حمية...»[5].؟

والواقع أن طغتكين حاول في بادئ الأمر التقرب من الصليبيين في بيت

---

(١) زبدة الحلب: جـ ١ ص ٣٦٩.
(٢) المصدر نفسه ص ٣٧٠.
(٣) ضامن: ص ٢٠٠.
(٤) ابن القلانسي: ص ٢٨٠. Elisséeff: II p:306.
(٥) مرآة الزمان: ص ٣٦. ابن القلانسي: المصدر نفسه.

المقدس لأنه خشي من أن ينتزع منه بعض الأمراء المشاركين في الحملة دمشق، لأنه انتزعها من أيدي السلاجقة، إلا أنه فشل في ذلك بفعل الأوضاع المضطربة بين الطرفين الإسلامي والصليبي، واضطر أخيراً إلى مصادقة مودود.

ومهما يكن من أمر، فقد اكتملت رابطة المسلمين، ولم يعد متخلفاً سوى رضوان. أما تانكرِد الذي عسكر أمام شيزر، فإنه تراجع إلى أفامية، وأرسل إلى الملك بلدوين في بيت المقدس يستنجد به. استجاب الملك الصليبي لنداء الاستغاثة، وأرسل إلى أمراء الرها وأنطاكية وطرابلس وتل باشر للاجتماع به(١).

والواقع أن الأحداث لم تجر على نحو طيب في صفوف المسلمين؛ إذ أن طغتكين لم يشأ أن يبذل المساعدة لمودود قبل أن يتعهد بالمضي إلى الجنوب لانتزاع طرابلس رغم خطورة هذه الحملة من الناحية العسكرية(٢). أما برسق فقد أصابه المرض، فقرَّر العودة إلى بلاده. ومات سقمان فجأة في بالس، فانسحبت قواته صوب الشمال(٣). وبادر أحمديل إلى الانسحاب بعساكره كيما يحاول أن ينتزع له جانباً من إرث سقمان، وبقي أياز بن إيلغازي بعساكره(٤).

وفي الوقت الذي انفرط فيه عقد الحلف الإسلامي، أخذت القوى الصليبية تتجمع من جديد لمواجهة الخطر الناجم عن اتحاد كلمة المسلمين، فبلغ عديدها ستة عشر ألفاً(٥).

تحصَّن مودود آنذاك وراء أسوار شيزر متجنباً خوض معركة مكشوفة مع الصليبيين، نظراً لتناقص قواته يوماً بعد يوم، كما أنه لم يكن راغباً في أن يقضي فصل الشتاء بعيداً عن قاعدته(٦).

وأخيراً عسكرت القوات الصليبية قرب أفامية على الضفة الشرقية لنهر العاصي، في حين عسكر مودود على الضفة الغربية بتشجيع من صاحب شيزر الذي هوَّن عليه أمر الجهاد(٧). وعبر المسلمون نهر العاصي إلى الضفة الشرقية واشتبكوا مع الصليبيين في مناوشات كانت عنيفة أحياناً، وتغلبوا عليهم، وهرب الصليبيون على أثرها يحمي بعضهم بعضاً، في حين عاد مودود وطغتكين إلى شيزر وذلك في عام (٥٠٥هـ/ ١١١١م)(٨).

---

(١) وليم الصوري: جـ ١ ص ٥٤٥. Stevenson: p:92.

(٢) رنسيمان: جـ ٢ ص ١٩٩.

(٣) ابن الأثير: جـ ٨ ص ٥٨٨.

(٤) ابن الأثير: المصدر نفسه: ص ٥٨٨ ـ ٥٨٩.

(٥) رنسيمان: جـ ٢ ص ١٩٩.

(٦) ابن الأثير: المصدر نفسه: ص ٥٨٩.

(٧) المصدر نفسه.

(٨) المصدر نفسه. ابن القلانسي: ص ٢٨٣. ابن العديم: جـ ١ ص ٣٧٠ ـ ٣٧١.

بعد هزيمة الصليبيين أمام مودود وطغتكين، هاجم تانكرِد قلعة عزاز، وحاصرها، فحاول رضوان ردَّه عنها مقابل مبلغ عشرين ألف دينار وخيلاً، ولكن الأمير الصليبي رفض العرض، عندئذ طلب رضوان المساعدة من طغتكين، وكان لا يزال بالقرب من حماة في طريق عودته إلى دمشق، فاستجاب طغتكين، واجتمع الرجلان في حماة واتفقا على:

- تبادل المساعدة بالمال والرجال والعتاد.
- يخطب طغتكين لرضوان في دمشق.
- يضرب السكة باسمه[١].

ثم حدث أن اضطر طغتكين إلى مغادرة حماة، وعاد فوراً إلى دمشق بسبب مهاجمة الصليبيين في بيت المقدس مدينة صور، مما سبَّب إزعاجاً لرضوان لأنه كان عاجزاً عن فعل أي شيء تجاه استغاثة أهل عزاز الذين قاوموا الحصار الصليبي ببسالة، إلا أنهم يئسوا من وصول النجدة إليهم، فطلبوا الأمان من الصليبيين وغادروا المدينة التي احتلها الصليبيون وانتزعوها من ممتلكات رضوان[٢].

وكثرت، آنذاك، تعديات صليبيي بيت المقدس على القرى المحيطة بدمشق، ونفذ الصليبيون من وادي التيم إلى البقاع ووصلوا إلى بعلبك، فأرسل طغتكين رسالة عاجلة إلى مودود يعلمه فيها بهذه التعديات ويطلب منه المساعدة. وإذ ظل أتابك الموصل متمسكاً بفكرة جهاد الصليبيين، وهي المهمة التي عهد إليه بها السلطان محمد، بوصفه ممثله في إقليم الجزيرة وبلاد الشام؛ فتحرك في (مطلع عام ٥٠٧هـ/ حزيران عام ١١١٣م) على رأس تحالف إسلامي جديد ضمَّ تميرك صاحب سنجار وأياز بن إيلغازي أمير ماردين، متوجهاً إلى بلاد الشام، فاستقبله طغتكين عند السلمية، وطلب طغتكين النجدة من رضوان بناء على الاتفاق الذي تمَّ بينهما[٣].

كان هدف المسلمين منطقة فلسطين، فنجحوا في استدراج الملك بلدوين إلى أراضي دمشق حتى جسر الصنبرة[٤] الواقع في المجرى الأعلى لنهر الأردن. وفي (١٣ محرم/ أول تموز) جرى اللقاء الذي انتهى بانتصار المسلمين، وارتد الملك بلدوين إلى طبرية، وتلقى مساعدة من روجر أمير أنطاكية وبونز صاحب طرابلس،

---

(١) ابن العديم: المصدر نفسه ص ٣٧٢. (٢) ضامن: ص ٢٠١ ـ ٢٠٢.

(٣) ابن القلانسي: ص ٢٩٤ ـ ٢٩٥. ابن العديم: جـ ١ ص ٣٧٣.

(٤) الصنبرة: موضع بالأردن مقابل عقبة أفيق، بينه وبين طبرية ثلاثة أميال. الحموي: جـ ٣ ص ٤٢٥.

في حين لم يستطع أمير الرها الحضور لأن إمارته كانت بحاجة إلى حماية دائمة[١].
ومضى المسلمون في زحفهم بعد المعركة حتى بلغوا طبرية، غير أنهم لم يغامروا بمواجهة التحالف الصليبي، وبخاصة أنه دخل فصل الشتاء، فقرروا الانسحاب إلى دمشق[٢]. أما النجدة التي أرسلها رضوان وتبلغ مائة مقاتل فقد وصلت متأخرة[٣]، وقد خالف صاحب حلب بذلك ما كان قد وعد به، وأخلَّ بالاتفاق المعقود بينه وبين طغتكين. ويشير ابن القلانسي إلى رد فعل طغتكين ومودود تجاه تأخر رضوان بإرسال النجدة إليهم بقوله: «فأنكر ظهير الدين أتابك وشرف الدين مودود ذلك منه، وأبطلا العمل بما كانا قد عزما عليه من الميل إليه وإقامة الخطبة له»، وذلك في (أول شهر ربيع الأول عام ٥٠٧هـ/ ١٦ آب عام ١١١٣م)[٤].

أما ابن العديم فيقول: «فأنكر طغتكين ذلك وتقدم بإبطال الدعوة والسكة باسم رضوان في دمشق»[٥].

ويبدو أنها كانت الفرصة الأخيرة التي أُتيحت لرضوان ليفرض زعامته على بلاد الشام دون منازع من خلال اعتراف حاكم دمشق به، وإقامة الخطبة له وضرب السكة باسمه، ولعل السبب الذي دفع طغتكين لعرض ذلك على رضوان هو حال الفراغ السياسي الذي كانت تعيشه دمشق منذ أن توفي دقاق وأصبح الحكم فيها لأبنائه، وكانوا صغاراً، وبذلك يبقى طغتكين الحاكم الفعلي لدمشق باسم رضوان، إلا أن رضوان لم يتمكَّن من استثمار هذه الفرصة لصالحه بسبب حال الوهن والضعف الذي وصلت إليه الأوضاع في إمارته والتي لم تمكِّنه من إرسال نجدة إلى طغتكين ومودود تعبيراً عن حسن النية، ويدل ذلك على أن الأمور في حلب قد أفلتت من يده وأصبحت في أيدي قوى أخرى سوف تخلفه بعد وفاته[٦].

---

(١) ابن القلانسي: ص ٢٩٤ ـ ٢٩٧. وليم الصوري: جـ ١ ص ٥٤٧ ـ ٥٤٩.
(٢) ابن القلانسي: ص ٢٩٧.
(٣) المصدر نفسه: ص ٢٩٦. ابن العديم: جـ ١ ص ٣٧٣.
(٤) ذيل تاريخ دمشق: ص ٢٩٦.
(٥) زبدة الحلب: جـ ١ ص ٣٧٣.
(٦) ضامن: ٢٠٢ ـ ٢٠٣.

الفصل العاشر

سلاجقة الشام

في مواجهة الخطر الصليبي

المواجهات العسكرية في جنوبي بلاد الشام

موقف الأمراء العرب في أواسط بلاد الشام من الزحف الصليبي

كان للخلافات بين الأمراء المسلمين آنذاك أثر كبير في نجاح الصليبيين الذين اغتبطوا لهذا الانقسام الواضح في صفوفهم، وأملوا في مزيد من النجاح في المستقبل طالما لا يواجهون قوى متحدة.

تقدم ريموند الصنجيلي من معرة النعمان إلى كفرطاب، التي تقع على مسافة عشرين كيلومتراً إلى الجنوب منها، وانتظر فيها حتى (٢٠ صفر ٤٩٢هـ/ ١٦ كانون الثاني ١٠٩٩م) حتى لحق به كل من تانكرِد وروبرت النورماني[١].

وبوصول الصليبيين إلى تلك المنطقة يكونوا قد شارفوا على أراضي الإمارات العربية القائمة في أواسط بلاد الشام، مثل بني منقذ في شيزر وبني عمار في طرابلس. ويبدو أن هؤلاء الأمراء ابتهجوا لما حدث من تداعي قوة الأتراك ليؤكدوا استقلالهم غير مكترثين بالقضية الإسلامية العامة التي كانت تتعرض للامتهان على أيدي الصليبيين، فتخلوا عن كل فكرة ترمي إلى المقاومة، وبخاصة بعد أن أدركوا خطورة الموقف وعدم وجود قوة إسلامية كبرى قربهم تحميهم وتدافع عنهم، وآثروا اتباع سياسة مرنة، وأبدوا الاستعداد لعقد اتفاقيات مع الصليبيين على أساس ما تقدموا به من عروض[٢]، حتى أن أمير حماة، وهو صهر رضوان، وجناح الدولة حسين، أمير حمص، اللذين قاتلا إلى جانب كربوغا، تخليا عن المقاومة.

---

(١) المؤرخ المجهول: ص ٢٧٤. فوشيه الشارتري: ص ٦٨. وليم الصوري: جـ ١ ص ٣٨٤ ـ ٣٨٥.

(٢) عاشور: جـ ١ ص ٢٧٧. رنسيمان: جـ ١ ص ٣٩٩.

ولعل ما هو أكثر أهمية عند الصليبيين ما كان من انتهاج أشهر أسرتين عربيتين آنذاك، وهما بني منقذ في شيزر وبني عمار في طرابلس، سياسة التفاهم معهم، إذ تسيطر الأسرة الأولى على البلاد الواقعة مباشرة أمام الصليبيين والتي تمتد من نهر العاصي حتى ساحل البحر، في حين تسيطر الأسرة الثانية على الشريط الساحلي الممتد من أواسط لبنان إلى الطرف الفاطمي، وتعدُّ صداقة هاتين الأسرتين أو على الأقل وقوفهما على الحياد أمراً حيوياً، إذ كان لابد للصليبيين أثناء الزحف جنوباً من المرور بأراضيهما(١).

وبناء على التوجه السلمي للأمراء العرب، أجرى عز الدين أبو العساكر سلطان بن منقذ صاحب شيزر اتصالاً مع ريموند الصنجيلي عندما كان هذا الأخير في كفرطاب، وعرض عليه تقديم الأدلاء ليرشدوا الصليبيين أثناء عبورهم إقليم العاصي، بالإضافة إلى ما يحتاجونه من مؤن بأسعار متدنية، إذا اجتاز هؤلاء أراضيه بهدوء وسلام. وقبِل ريموند الصنجيلي هذا العرض(٢)، وفي (٢١ صفر/ ١٧ كانون الثاني) قام دليلان من شيزر بإرشاد الجيش الصليبي عبر وادي نهر العاصي بين شيزر وحماة(٣).

استولى الصليبيون أثناء عبورهم على عدد كبير من قطعان الماشية وصل إلى خمسة آلاف رأس غنم، وكمية لا بأس بها من القمح، وغير ذلك من الحاجات الضرورية المفيدة؛ ما جعل الفرسان يبيعون ما فاض عن حاجتهم في شيزر وحماة مقابل الحصول على خيول، فاشتروا نحو ألف حصان، كما سمحت لهم السلطات العربية أن يدخلوا إلى مدنهم ويشتروا منها ما يحتاجون من مؤن(٤)، مما أنعشهم وقوَّى من عزائمهم.

وقرَّر الصليبيون عند شيزر، نزولاً على رأي تانكرِد، أن يسلكوا الطريق الداخلي إلى بيت المقدس بدلاً من الطريق الساحلي الذي كان من رأي ريموند الصنجيلي أنه يمكِّن الحملة من الاتصال مع أنطاكية، والحصول على الإمدادات والمؤن من السلطات البيزنطية في قبرص، نظراً لما يربطه بها من علاقات ودية، وذلك بفضل مساعدة الأساطيل الغربية التي اتخذت السويدية واللاذقية قواعد لها. ورأى تانكرِد أنه إذا سلك الصليبيون طريق الساحل، وهو طويل ومتعرج، فهم

---

(١) رنسيمان: جـ ١ ص ٣٩٩.

(٢) المؤرخ المجهول: ص ٢٧٢. وليم الصوري: جـ ١ ص ٣٨٥. ابن الأثير: جـ ٨ ص ٤٢٠.

(٣) المؤرخ المجهول: ص ٢٧٣.

(٤) المصدر نفسه، وليم الصوري: جـ ١ ص ٣٨٥.

مضطرون إلى الاستيلاء على المدن الساحلية مثل جبلة وأنطرطوس وطرابلس وبيروت وصيدا وعكا، مما يشكل عامل تأخير لهم، وبخاصة أنهم يمكن أن يصادفوا مقاومة من قِبَل السكان، وهم مضطرون لادخار قوتهم حتى الوصول إلى بيت المقدس التي لم تكن تتجاوز آنذاك ألف فارس وخمسة آلاف راجل[1].

وفعلاً استأنف الصليبيون زحفهم وفقاً للخطة التي رسمها تانكرِد، ومروا بمصياف[2]، فخرج إليهم أميرها العربي وعقد معهم اتفاقية، ثم زحفوا إلى بارين[3]، فرفنية التي مكثوا فيها ثلاثة أيام قبل أن يهبطوا إلى سهل البقيعة الذي يتحكم بحصن الأكراد، المشهور بضخامته، وقد احتمى سكان تلك المنطقة بالحصن فحاصرهم الصليبيون حتى سقط الحصن في أيديهم في (٣ ربيع الأول/ ٢٩ كانون الثاني)[4].

وفي الوقت الذي كان فيه ريموند الصنجيلي في حصن الأكراد، قدمت إليه رسل من قِبل جناح الدولة حسين أمير حمص محملين بالهدايا، ومعلنين ولاء الأمير العربي، وذلك حتى لا يتعرَّض لإمارته[5]، ثم تلاهم رسل من قِبَل أمير طرابلس فخر الملك أبي علي عمار بن محمد الذي استبق الأمور لدفع الخطر عن إمارته وتفادي القتال. وأبدى فخر الملك استعداده للتشاور مع ريموند في التدابير اللازمة لمرور الحملة عبر إمارته، وطلب منه أن يبعث بمندوبين من قِبله من أجل هذه الغاية؛ على أن يحملوا معهم أعلام تولوز ليرفعها على أسوار المدينة[6]، كدليل على حسن النية.

وافق ريموند الصنجيلي على الطلب ليختصر الوقت وهو في طريقه إلى بيت المقدس، فأرسل سفارة إلى طرابلس للتفاوض في شروط الصلح، وشاهد أعضاؤها، عندما دخلوا إلى المدينة، مدى عِظَم ثروتها، فتملكتهم الدهشة، فلما عادوا إلى معسكرهم أخبروا ريموند الصنجيلي بما رأوا، وأشاروا عليه بالتشدد مع أميرها لأنه لن يتردَّد في عقد اتفاق بأي ثمن ليضمن السلام لعاصمة إمارته[7]، كما نصحوه بمهاجمة أحد حصون الإمارة للضغط عليه.

---

(١) رنسيمان: جـ ١ ص ٤٠٠.

(٢) مصياف: قلعة مشهورة بالساحل الشامي قرب طرابلس. الحموي: جـ ٥ ص ١٤٤.

(٣) بارين: مدينة حسنة بين حلب وحماة من جهة الغرب، وتلفظ أحياناً باسم بعرين. المصدر نفسه: جـ ١ ص ٣٢٠ ـ ٣٢١.

(٤) توديبو: ص ٢٨٩ ـ ٢٩٣. فوشيه الشارتري: ص ٦٧ ـ ٦٨. المؤرخ المجهول: ص ٢٧٣ ـ ٢٧٤.

(٥) المؤرخ المجهول: المصدر نفسه ص ٢٧٤.

(٦) المصدر نفسه. وليم الصوري: جـ ١ ص ٣٩٧. توديبو: ص ٢٩٣.

(٧) تدمري: ص ١٩٠. Raymond d'Aguilers: p 275.

استجاب ريموند الصنجيلي لرأي رجاله، فتوجه نحو عِرقة لمهاجمتها، في الوقت الذي توجه فيه جماعة من الصليبيين بقيادة جودفري دي بوايون وروبرت فلاندر، نحو أنطرطوس الواقعة داخل حدود إمارة بني عمار، فهاجموها واستولوا عليها، ثم تابعوا هجماتهم فحاصروا جبلة.

وحاصر ريموند الصنجيلي عرقة، غير أن المدينة كانت في غاية الحصانة، كما استبسل أهلها في الدفاع عنها، ولما لم يكن معه قوات كافية لتطويقها وتشديد الحصار عليها، استدعى القوة العسكرية التي كانت تحاصر جبلة. وقامت قوة صليبية بغارة على ربض طرابلس[1]، ونجح الصليبيون في نقب سورها، إلا أنهم لم يتمكّنوا من اقتحامها. وحاول تانكرِد ثني ريموند الصنجيلي عن عزمه في مواصلة الحصار الذي طال أمده، والتوقف عند الحصون الأخرى، لأن في ذلك مضيعة للوقت، غير أن ريموند الصنجلي لم يكن ليتخلّى عن الحصار حتى لا يثير عداء أمير طرابلس بعد أن يكتشف ضعفه[2].

وعلى الرغم من أن ريموند الصنجيلي نجح في إقناع الصليبيين بالبقاء مدة طويلة أمام عِرقة، إلا أنه لم ينجح باقتحامها، وكلفه القتال أمامها الكثير من الجند[3]. وأمام إلحاح قائده، رفع الحصار عن عِرقة بعد أن قاومته مدة ثلاثة أشهر[4]، وسار بقواته إلى طرابلس، ونزلوا جميعاً عند أسوارها، وذلك يوم الجمعة (١٩ جمادى الآخرة ٤٩٢هـ/ ١٣ أيار ١٠٩٩م)، ولبثوا في ربضها مدة ثلاثة أيام قام فخر الملك خلالها بإطلاق سراح أكثر من ثلاثمائة حاج من النصارى كانوا أسرى لديه، وأعطى ريموند الصنجيلي خمسة عشر ألف قطعة ذهبية وخمسة عشر هدية غالية القيمة، وقدَّم للجيش عدداً من الجياد والحمير وشتى أنواع المحاصيل[5].

والواقع أن صاحب طرابلس أراد أن يُبعد الصليبيين عن مدينته بأي ثمن، طالما أن ذلك يجنِّبها الخراب والدمار، وبخاصة بعد أن رأى أمراء بلاد الشام قد هادنوهم مثل أمير شيزر وصاحب حمص، وأن الدولة السلجوقية عجزت عن صدِّهم، وانتزعوا منها بلاداً كثيرة، وأن الدولة الفاطمية لا تُعير الخطر الصليبي أيَّ

---

(١) توديبو: ص ٢٩٢. فوشيه الشارتري: ص ٦٨. المؤرخ المجهول: ص ٢٧٦. وليم الصوري: جـ١ ص ٣٩٦.
(٢) رنسيمان: جـ١ ص ٤٠٤. (٣) المؤرخ المجهول: ص ٢٧٦.
(٤) المؤرخ المجهول: ص ٢٧٦. يذكر بعض المؤرخين الشرقيين أن الحصار استمر مدة أربعة أشهر. انظر: ابن الأثير: جـ٨ ص ٤٢٠. ابن العبري ص ١٢٤.
(٥) المؤرخ المجهول: المصدر نفسه ص ٢٧٧. توديبو: ص ٢٩٣.

اهتمام جدِّي، بل إنها كانت ترى في دخول الصليبيين إلى بلاد الشام عاملاً للقضاء على خصومها السلاجقة[1].

استسلام المدن الساحلية

عندما بسط الفاطميون سيادتهم على فلسطين وساحل بلاد الشام جنوبي نهر الكلب، لم يتركوا قوات كافية لتدعيم نفوذهم في تلك الجهات والدفاع عنها، باستثناء حامية بيت المقدس من ناحية وبعض المراكز الساحلية التي ظل الأسطول الفاطمي قادراً على إمدادها بالرجال والمؤن من ناحية أخرى[2]. وكانت هذه المراكز الأخيرة أول ما تعرض لهجوم الصليبيين بحكم مرورهم بها بعد أن غادروا طرابلس يوم الاثنين (٢٢ جمادى الآخرة/ ١٦ أيار) في طريقهم إلى بيت المقدس. فقد اتخذوا الطريق الساحلي عبر القلمون وأنف الحجر[3] والبترون[4] وجبيل، وقد ساعدهم أدلاء نصارى من لبنان، ثم اجتازوا نهر إبراهيم ووصلوا في (٢٥ جمادى الآخرة/ ١٩ أيار) إلى الحدود الفاطمية عند نهر الكلب، ولما اقتربوا من بيروت بادر سكانها الذين خشوا أن يتعرضوا للدمار، فبذلوا لهم الهدايا وسمحوا لهم باجتياز بلادهم بشرط ألا ينزلوا الضرر بالأشجار المثمرة والكروم والمحصولات الزراعية، وقَبِل الأمراء الصليبيون هذه الشروط[5].

وبعد استراحة ليلة واحدة، انطلقوا إلى صيدا، فوصلوا إليها في (٢٦ جمادى الآخرة/ ٢٠ أيار) وأقاموا معسكرهم عند شاطئ نهر الأولي شمالي المدينة، فتعرضوا لمقاومة رجال الحامية، إلا أنهم ردوا الهجوم، ثم نهبوا الحدائق في ربض صيدا قبل أن يتحركوا بسرعة نحو صور، فعسكروا في ضواحيها مدة يومين بانتظار وصول جماعة من فرسان أنطاكية والرها. ولم تجر محاولة للتصدي لهم، وتحصَّنت حامية المدينة وراء الأسوار، ثم اجتازوها في (٢٩ جمادى الآخرة/ ٢٣ أيار) وعبروا مرتفع رأس الناقورة في طريقهم إلى عكا، فبلغوا ظاهرها في (١ رجب/ ٢٤ أيار)، فصالحهم أميرها وقدَّم لهم الهدايا والمؤن، كما تعهد بالدخول في طاعتهم إذا استولوا على بيت المقدس[6].

---

(١) عاشور: جـ ١ ص ٢٣٥. تدمري: ص ١٩٤.

(٢) عاشور: المصدر نفسه ص ٢٣٨. رنسيمان: جـ ١ ص ٣٩٨.

(٣) أنف الحجر: هو رأس الشقعة بين شكا والبترون على ساحل لبنان الشمالي.

(٤) البترون: بلدة على الساحل اللبناني.

(٥) توديبو: ص ٢٩٤. وليم الصوري: جـ ١ ص ٣٥٨. المؤرخ المجهول: ص ٢٧٧.

(٦) المصادر نفسها: ص ٢٩٤. ص ٣٩٨ ـ ٣٩٩. ص ٢٧٧.

ومضى الصليبيون في تقدمهم، فمروا بقيسارية ثم بأرسوف[١]، ولم يحاولوا بعد ذلك التوجه إلى يافا، وإنما اختاروا أن يتركوا الطريق الساحلي ويشقوا سبيلهم إلى داخل البلاد، مباشرة إلى بيت المقدس، ومع ذلك فإنهم حرصوا على ألا ينقطع الطريق بينهم وبين البحر، فاحتلوا الرملة بعد أن أخلاها المسلمون خوفاً على حياتهم، وتركوا فيها حامية عسكرية[٢]، وعقدوا فيها مجلساً للحرب في المدة بين (١١ ـ ١٤ رجب/ ٣ ـ ٦ حزيران) ناقشوا فيه عدة مسائل، منها اقتراح بأن يبدأ الصليبيون بمهاجمة الفاطميين في مصر، إذ من الحماقة مهاجمة بيت المقدس في ذروة الصيف، وأن من الأفضل أن يتقدموا لمهاجمة العدو الحقيقي وهو مصر، وأن مفاتيح بيت المقدس موجودة فعلاً في القاهرة، وأنه إذا اراد الصليبيون أن ينعموا بحياة آمنة مستقرة في بيت المقدس، فعليهم أن يؤمِّنوا على أنفسهم بالاستيلاء على الدلتا، غير أن هذا الاقتراح لقي الرفض من معظم الأمراء، وتقرَّر الزحف مباشرة إلى بيت المقدس[٣].

سقوط بيت المقدس

وصل الصليبيون إلى بيت المقدس يوم الثلاثاء في (١٥ رجب ٤٩٢هـ/ ٧ حزيران ١٠٩٩م)، وحاصروها. تولى الدفاع عن المدينة الحاكم الفاطمي افتخار الدولة، وحامية قوية تألفت من عساكر عربية وسودانية، فلما ترامى إليه نبأ اقترابهم، اتخذ عدة إجراءات احتياطية لمواجهة الموقف منها:

- طمر ما يقع خارج المدينة من آبار أو سمَّها.
- ساق قطعان الماشية إلى مواضع آمنة.
- ملأ مخازنه بالمؤن، وصهاريجه بالماء، بما يكفيه مدة طويلة.
- طرد كافة النصارى من المدينة، ويُعدُّ هذا إجراء سديداً، إذ لا يُرتجى منهم فائدة في القتال، نظراً لما تقرر من منعهم من حمل السلاح، كما لا يصح الركون إليهم والوثوق بهم إذا نشبت المعركة ضد إخوانهم النصارى، يضاف إلى ذلك، أن إخراجهم من المدينة يوفر المؤن لمن تبقَّى من السكان.
- اهتم بتقوية التحصينات والتأكد من سلامة الأسوار، ودعَّمها بأكياس مملوءة بالقطن، وشحن الأبراج بالمقاتلة والسلاح.

---

(١) أرسوف: مدينة على ساحل بحر الشام بين قيسارية ويافا. الحموي: جـ ١ ص ١٥١.

(٢) المؤرخ المجهول: ص ٢٧٧. فوشيه الشارتري: ص ٧٠. وليم الصوري: جـ ١ ص ٤٠٠.

(٣) عاشور: جـ ١ ص ٢٤٠. . Chalandon: p 267. Raymond d'Aguilers: p:299, Grousset: I pp 150-151.

ـ أرسل سفارة إلى مصر يطلب النجدة[1].

ولم يكد الصليبيون يشرعون في حصار بيت المقدس حتى أخذوا يهاجمونها معتمدين على عدد كبير من آلات الحصار والهدم. ويبدو أنهم افتقروا إلى القوات الكافية لتطويقها، لذلك ركَّزوا كل قواتهم أمام الأماكن التي تقرِّبهم من الأسوار. فتمركز روبرت النورماني على امتداد السور الشمالي تجاه باب الزهور، واتخذ روبرت فلاندر موقعه إلى يمينه تجاه باب الأعمدة أو باب دمشق، أما جودفري دي بوايون فعسكر في البقعة التي تواجه الركن الشمالي الغربي للمدينة حتى باب يافا، وانضم إليه تانكرِد عندما قدم من بيت لحم، واستقر ريموند الصنجيلي إلى الجنوب منهما قبل أن ينتقل إلى جبل صهيون بعد أن اكتشف أن الوادي يجعله بعيداً عن الأسوار، أما القطاعان الشرقي والجنوبي الشرقي فكانا مكشوفين لم يحرسهما أحد[2].

واجهت المحاصِرين، في بادئ الأمر، عدة مشكلات حالت بينهم وبين الاستيلاء على المدينة فوراً لعل أهمها:

ـ مقاومة الحامية الفاطمية، إذ توافر لافتخار الدولة المؤن والماء والأسلحة التي تفوَّقت على أسلحة الصليبيين، وأمل أن يصمد في وجه الحصار المدة الكافية حتى تصل النجدة التي طلبها من القاهرة.

ـ تأمين الماء، نتيجة ما اتخذه افتخار الدولة من تدابير كانت ناجعة وقوية الأثر. وللحصول على الماء كان لا بد للصليبيين أن يسيروا ستة أميال أو أكثر، مما يعرِّضهم لهجمات المسلمين، كما أخذت مؤنهم في النفاد.

ـ تجدَّد النزاع بينهم حول مصير بيت المقدس، وملكية بعض الأماكن الهامة الأخرى مثل بيت لحم، وقد تمسك تانكرِد بحقه في ملكِيتها بعد أن كان قد استولى عليها.

ـ انتشرت إشاعة بينهم أن جيشاً فاطمياً كبيراً قد خرج من القاهرة وهو في طريقه لإنقاذ المدينة[3].

وأدرك الصليبيون، بعد ذلك، أنهم لن يستطيعوا الصمود لحصار طويل ،

---

(١) المؤرخ المجهول: ص ٢٨٠. Raymond d'Aguilers: pp 293-294, Grousset: I p 152. رنسيمان: جـ ١ ص ٤١٦ ـ ٤١٧.

(٢) المؤرخ المجهول: ص ٢٧٨. توديبو: ص ٣١٣. وليم الصوري: جـ ١ ص ٤١٦ ـ ٤١٧. Raymond d'Aguilers: p 293. Albirt of Aix: pp 463-464

(٣) رنسيمان: جـ ١ ص ٤١٨.

وينبغي عليهم القيام بهجوم فوري على المدينة والاستيلاء عليها. وفعلاً شنوا هجوماً في (٢٠ رجب/ ١٢ حزيران) على أسوار المدينة، ونجحوا في التغلب على الأسوار الشمالية الخارجية، غير أنه لم يتوافر لديهم من السلالم ما يتيح لهم تسلُّق الأسوار في جهات عديدة، في آن واحد، ولما تبين لهم أن محاولتهم ليست مجدية قرروا الإنسحاب[١]، وعدم القيام بهجوم آخر ما لم يتوفر لهم المنجنيقات والسلالم، لكنهم افتقروا إلى المواد التي يصنعون منها هذه الآلات، على أنه حدث أن جاءتهم مساعدة من البحر. ففي (٢٥ رجب/ ١٧ حزيران) رست في مرفأ يافا الفاطمي المهجور سفينتان جنويتان محملتان بالزاد والعتاد والحبال والمسامير والأخشاب وغيرها، مما يتطلبه العمل لصناعة أدوات الحصار، وكانتا بقيادة أمير البحر الجنوي وليم أمبرياكو وشقيقه بريموس، فأفرغ الصليبيون حمولتهما إلى البر وسط مناوشات مع قوة فاطمية قدمت من عسقلان، ونقلوها إلى المعسكر الصليبي عند بيت المقدس الذي تحول إلى خلية عمل لبناء الأبراج والسلالم اللازمة لتسلُّق الأسوار، وشرع ريموند الصنجيلي وجودفري دي بوايون في تشييد أبراج من الخشب تسير على عجلات، ثبِّتت بها المقاليع، وبعد الانتهاء من العمل، نصبوا الأبراج وأسندوها إلى أسوار المدينة[٢].

ولا شك بأن هذه المساعدة البحرية كان لها أثر فعال في تدعيم مركز الصليبيين، وفي إمدادهم بما يحتاجون إليه، مما مكَّنهم من مواصلة الحصار والهجوم في الوقت الذي كانت فيه الحامية الفاطمية محصورة داخل أسوار بيت المقدس ومقطوعة عن العالم الخارجي، وعدم وصول النجدة من القاهرة[٣].

وفي الوقت الذي كان فيه الصليبيون يحاصرون بيت المقدس بلغهم خبر خروج الأفضل من مصر على رأس جيش فاطمي كبير لنجدة المدينة. وإذ أدركوا أنه ليس ثمة ما يدعو بعدئذ إلى التمهل والإرجاء، جدُّوا في حصارها وواصلوا الحرب، فأنشأوا ثلاثة أبراج ضخمة تطل على أسوارها، ونصبوها عند السور الشمالي وجبل صهيون والطرف الشمالي الغربي من الأسوار، «فحكموا البلد وكشفوا من كان عليه

---

(١) رنسيمان: جـ ١ ص ٤١٩. المؤرخ المجهول: ص ٢٧٨ ـ ٢٧٩. توديبو: ص ٣١٣.
Raymond d'Aguilers: p 293

(٢) المؤرخ المجهول: ص ٢٧٨ ـ ٢٧٩. وليم الصوري: جـ ١ ص ٤٢١ ـ ٤٢٤.
Raymond d'Aguilers: pp 294-297

(٣) عاشور: جـ ١ ص ٢٤٢. Chalandon: pp 269-270.

من المسلمين، ثم رموا بالمجانيق والسهام رمية رجل واحد، فانهزم المسلمون...».

حدث الهجوم الصليبي الشامل ليلة (٢١ شعبان/ ١٤ تموز)، ثم اشتد القتال واتخذ طابعاً عنيفاً في صباح اليوم التالي، وهو اليوم الذي نجحوا فيه باقتحام المدينة بعد حصار استمر نيفاً وأربعين يوماً[١] . وارتكب الصليبيون مذبحة مروعة خاضوا فيها حتى أكعابهم في دماء القتلى، وعندما التجأ المسلمون إلى المسجد الأقصى، تبعوهم دون أن يراعوا حرمته، وأجهزوا على كل من احتمى به حتى لقد فاض المسجد كله بدمائهم، وبلغ عدد القتلى في هذا المسجد وحده ما يزيد على سبعين ألفاً منهم جماعة من أئمة المسلمين وعلمائهم وعبَّادهم وزهَّادهم. وكان المسلمون يُذبَحون في الشوارع وفي البيوت بوحشية بالغة، ولم يجدوا في المدينة مكاناً آمناً يعتصمون فيه، فألقى بعضهم بأنفسهم من فوق الأسوار، وازدحم آخرون في القصور والأبراج وفي المساجد، ولم يكن يُسمع في تلك الساعة غير أنين الجرحى وحشرجات الموتى، كما وطئ الفرسان أكداس الجثث وهم يطاردون أولئك الذين حاولوا الهرب عبثاً[٢] .

استمرت المطاردات مدة أسبوع كامل، والصليبيون يتعقبون أهل المدينة من الرجال والنساء والأطفال، وجُمعت بعد ذلك جثث القتلى، وطُرحت خارج أبواب المدينة، فتعالت أكوامهم «حتى حاذت البيوت ارتفاعاً، وما تأتَّى لأحد قط أن سمع أو رأى مذبحة كهذه المذبحة»[٣] .

اعترف المؤرخون الصليبيون بهذه الحقيقة، فذكر ريموند دي جيل، وهو شاهد عيان، أن الدماء قد وصلت في رواق المسجد إلى الركب «حتى أن جنودنا كانوا يخوضون حتى سيقانهم في دماء المسلمين»[٤]، وبلغت الدماء من شدة التدفق في الشوارع، أن فاض الناس بخيولهم فيها، وعندما زار الحرم الشريف غداة المذبحة لم يستطع أن يشق طريقه وسط أشلاء المسلمين إلا في صعوبة بالغة، وأن دماء القتلى بلغت ركبتيه[٥] .

---

(١) المؤرخ المجهول: ص ٢٨١ ـ ٢٨٢. وليم الصوري: جـ ١ ص ٤٢٧ ـ ٤٣٧، حيث تفاصيل وافية لسير العمليات العسكرية والمذابح المرعبة. فوشيه الشارتري: ص ٧٣ ـ ٧٥. ابن القلانسي: ص ٢٢٢. ابن الأثير: جـ ٨ ص ٤٢٤ ـ ٤٢٥. ابن العبري: ص ١٢٤ ـ ١٢٥.
Michaud: I pp 414-425. Raymond d'Aguilers: p300.

(٢) المصادر نفسها.

(٣) ابن الأثير: المصدر نفسه.

(٤) Raymond d'Aguilers: p 306.

(٥) Ibid.

وروى المؤرخ المجهول، وهو شاهد عيان أيضاً، أن المقاتلين الصليبيين تعرضوا للمسلمين «وأعملوا فيهم أبشع القتل وأفظعه طوال اليوم بأكمله حتى فاض المعبد كله بدمائهم»[1]. وروى فوشيه الشارتري: «ولو كنت هناك لتلطخت قدماك حتى الكواحل بدماء القتلى، ماذا أقول؟ لم يبق منهم أحد، ولم يرحموا امرأة ولا طفلاً»[2].

وذكر وليم الصوري أن بيت المقدس شهدت عند دخول الصليبيين مذبحة رهيبة حتى أصبح البلد مخاضة واسعة من دماء المسلمين أثارت خوف الغزاة واشمئزازهم[3].

ولعل هذا ما دفع بعض المؤرخين الأوروبيين في العصر الحديث إلى الاعتراف بأن مذبحة تموز ١٠٩٩م، كانت لطخة عار في تاريخ الحملة الصليبية الأولى[4]، وأنها تركت أثراً عميقاً في جميع العالم، وأدَّت إلى خلو المدينة من سكانها المسلمين واليهود، بل إن كثيراً من النصارى اشتد جزعهم لما حدث في ظل التعصب النصراني الذي دل عليه ما لجأ إليه الصليبيون من سفك الدماء. أما المسلمون الذين كانوا آنذاك مستعدين لأن يقبلوا الصليبيين، على أنهم عامل جديد فيما ساد ذلك العصر من سياسات معقدة، فإنهم عزموا على طرد الصليبيين. ولما سعى بعض العقلاء الصليبيين، بعد ذلك، للتقارب مع المسلمين والتعاون معهم، كانت ذكرى هذه المذبحة تعترض دائماً الوصول إلى اتفاق[5].

ولما جنَّ الليل دخل الصليبيون إلى كنيسة القيامة لرفع صلاة الشكر، وقد بكوا من شدة الفرح، فرفعوا أيديهم الملطخة بالدماء وصاروا يجهرون بصلاتهم[6].

على أن استيلاء الصليبيين على بيت المقدس لم يتم دون مقاومة، وبخاصة في الجهة الجنوبية. أما افتخار الدولة، فقد قاوم ريموند الصنجيلي بعنف، غير أنه أدرك عند العصر أن كل شيء قد ضاع، وأنه لا أمل في المقاومة، فانسحب إلى برج داوود واحتمى بمحرابه مع طائفة من جنده حيث «اعتصموا به وقاتلوا فيه ثلاثة أيام»، ولكنهم لم يلبثوا أن ألقوا السلاح بعد أن بذل لهم الصليبيون الأمان مقابل أن يسلم البرج إلى ريموند الصنجيلي مع مبلغ كبير من المال، وسمحوا لهم بالخروج

---

(١) يوميات صاحب أعمال الفرنجة: ص ٢٨٢. (٢) تاريخ الحملة إلى القدس: ص ٧٥.

(٣) تاريخ الأعمال المنجزة فيما وراء البحار: جـ ١ ص ٤٣٦ ـ ٤٣٧.

(٤) Grousset: I p161 (٥) رنسيمان: جـ ١ ص ٤٢٧.

(٦) المؤرخ المجهول: ص ٢٨٢. فوشيه الشارتري: ص ٧٦ .Raymond d'Aguilers: p 306.

إلى عسقلان، فكانوا الفئة الوحيدة من مسلمي بيت المقدس التي نجت من وحشية الصليبيين[1]، ومع ذلك فإن إطلاق سراح حاكم بيت المقدس لم يكف لمحو أثر الجريمة البشعة التي اقترفوها، وقتلهم آلاف الأبرياء من المسلمين بغير ذنب[2].

ولم يكن اليهود بأحسن حالاً من المسلمين. ففي غمرة ارتكاب المذابح التي تعرَّض لها السكان، فرَّ يهود بيت المقدس، وكانوا مستهدفين كالمسلمين، إلى معبدهم، غير أنه تقرر إلقاء القبض عليهم بحجة أنهم ساعدوا المسلمين، فلم تأخذهم بهم الرحمة والرأفة، فأشعلوا النار في المعبد، ولقي اليهود بداخله مصرعهم محترقين[3].

تلقَّت الدولة الفاطمية أخبار سقوط بيت المقدس ببرود ظاهر، على الرغم من أن الأفضل أُصيب بخيبة أمل كبيرة بعد أن كان يعتقد، في وقت ما، بأن الصليبيين سيقنعون بالاستيلاء على شمالي بلاد الشام، ويحرصون على صداقة الفاطميين بوصفهم حلفائهم الطبيعيين ضد الأتراك السلاجقة، ولم يسعه عندما وصل إلى عسقلان سوى أن يرسل إليهم يوبخهم على ما فعلوه.

أما بغداد فلم تحرك ساكناً، فتوجه إليها قاضي دمشق زين الدين أبو سعد الهروي ليخبر الخليفة العباسي المستظهر (٤٨٧ ـ ٥١٢هـ/ ١٠٩٤ ـ ١١١٨م) بالكارثة التي حلَّت بالمسلمين في بلاد الشام. واجتمع المستنفرون من دمشق وحضروا ديوان الخليفة، فقطعوا شعورهم واستغاثوا وبكوا، وألقى القاضي خطبة مؤثرة أبكت الحاضرين، ومع ذلك لم يتخذ الخليفة أي تدبير بشأن هذه القضية، وكذلك كان موقف السلطان السلجوقي. والواقع أنه إذا كان ثمة خطر سيهدد الصليبيين فيما بعد، فإن السحب التي أنذرت بذلك الخطر لم تتجمع إلا بعد أن نجح الصليبيون في تثبيت أقدامهم في بلاد الشام[4].

تأسيس إمارة بيت المقدس

أثار نجاح الحملة الصليبية الأولى في تحقيق أهدافها العسكرية والروحية مشكلة تنظيم وضع مدينة بيت المقدس، وكيفية تأسيس دولة غربية على أرض

---

(١) المؤرخ المجهول: المصدر نفسه ص ٢٨١ ـ ٢٨٣. وليم الصوري: جـ ١ ص ٤٤٢. ابن الأثير: جـ ٨ ص ٤٢٥. فوشيه الشارتري: المصدر نفسه ص ٧٧.

(٢) عاشور: جـ ١ ص ٢٤٤.

(٣) ابن القلانسي: ص ٢٢٢. Michaud: I pp 424-425.

(٤) عاشور: جـ ١ ص ٢٤٥ ـ ٢٤٦.

شرقية، تتألف من تلك العناصر المشتتة والمتباينة التي جرفها تيار الدعوة الصليبية من أوروبا الغربية في صعيد واحد(١).

وكانت المشكلة الداخلية الكبرى التي واجهت الصليبيين، بعد أن انتهوا من ذبح جميع من في بيت المقدس من المسلمين واستولوا على المدينة، هي تقرير أمر الحكومة المقبلة، وظهرت، في هذه الاثناء، المشكلة المزمنة بين الكنيسة والدولة. إذ يبدو طبيعياً أن المدينة المقدسة التي سقطت في حرب مقدسة على يد جيش عيَّن البابا أحد رجال الكنيسة قائداً له، ينبغي أن يتولى حكمها رجل كنسي، لكن الصليبيين افتقروا آنذاك إلى وجود قائد روحي يعترفون جميعاً بزعامته ويعهدون إليه بتنظيم جهودهم، وهنا شعروا بعظم الخسارة التي أصابتهم بوفاة المندوب البابوي أدهيمر في أنطاكية في (رمضان ٤٩١هـ/ آب ١٠٩٨م) الذي عُرف باتزانه، ولم يكن ثمة من رجال الكنيسة بعده من توافر فيه من الهيبة والمكانة ما يكفل انتصار الاتجاه الكنسي(٢).

ومن جهة أخرى، برزت أطماع الأمراء الشخصية واضحة، فتخلَّى بعضهم عن الحملة، وتوقف في الطريق لتحقيق مكسب خاص مثلما فعل بلدوين في الرها وبوهيموند في أنطاكية، ولم يبق مع الحملة عند سقوط بيت المقدس من الأمراء الكبار سوى أربعة هم: جو دفري دي بوايون وريموند الصنجيلي، كونت تولوز، وروبرت فلاندر وروبرت النورماني.

واجتمع زعماء الحملة الصليبية الأولى الدينيون والعلمانيون في (٢٥ شعبان/ ١٧ تموز) لتنظيم وضع المدينة وانتخاب حاكم عليها؛ وقد تنازعهم تياران أحدهما ديني والآخر علماني. وكانت النية متجهة نحو تنصيب بطريرك لاتيني رئيساً لها وأن يُعهد إليه بولايتها، لكن تغلَّبت النزعة العلمانية بفعل طبيعة الظروف التي أحاطت بهم، إذ أن قيام حكومة لاتينية أمر يحتاج إلى قيادة عسكرية زمنية للدفاع عن هذه الدولة ضد المسلمين المحيطين بها، ورأى مجلس الأمراء الذي كان يدير الحملة الصليبية، أنه لا غنى عن اختيار زعيم عسكري، لذلك اتفقت الآراء على اختيار أحد الأمراء العلمانيين، في ظل تنازع هؤلاء على المنصب(٣).

ويُعد ريموند الصنجيلي أهم هؤلاء الأمراء وأخطر مرشح للعرش، بسبب قوة

---

(١) عاشور: جـ ١ ص ٢٤٧. Richard: Le Royaume Latin de Jerusalem: pp 28-29.

(٢) المرجع نفسه: ص ٢٤٨ ـ ٢٤٩.

(٣) وليم الصوري: جـ ١ ص ٤٤٤ ـ ٤٤٦. عاشور: جـ ١ ص ٢٤٨ ـ ٢٤٩. Chalandon: pp 278-279. Grousset: I p 165-168.

شخصيته وغناه وتجربته وارتباطه الطويل بأدهيمر، وبُعد نظره السياسي، على الرغم من استياء كثير من الصليبيين من سياسة التقارب مع البيزنطيين التي انتهجها. ومع ذلك، فقد عُرض عليه تاج بيت المقدس، ولكنه رفضه مستنداً في ذلك، من الناحية الشكلية، إلى سبب ديني، وهو أنه لم يرغب في أن يحكم في المكان الذي عانى فيه المسيح من العذاب عند صلبه، على الرغم من أنه ثمة من دواعي الشك ما يدل على أن إقامة إمارة في طرابلس، وما حدث من توقف إجراء ذلك بسبب ضغط الحجاج، لا زال الهدف الأول لطموحه[1]. والراجح أنه شعر بحرج موقف الأمراء وأنهم لن يخضعوا فعلاً لسلطانه، فلم يشأ أن يفرض نفسه عليهم مما قد يثير مشكلات في وجهه، في وقت تحتاج فيه القضية الصليبية إلى التضامن، كما لم يحظ بتأييد غالبية الصليبيين، بل إن عساكره أعلنوا معارضتهم لقبوله العرش، فأعلن عندئذ أنه لا يجب أن يكون ملكاً.

ويبدو أن الناخبين ارتاحوا لهذا الرفض، فعرضوا التاج على جودفري دي بوايون، فقبله بعد تردد، غير أنه طلب إعفاءه من أن يتخذ لقب ملك بيت المقدس، ورفض أن يرتدي تاجاً من الذهب في المكان الذي ارتدى فيه المسيح تاجاً من الشكوك، لذلك اكتفى باتخاذ لقب حامي القبر المقدس[2]، ثم جرى اختيار أرنولف، قسيس روبرت النورماني، ليشغل نائباً لكرسي البطريركية[3].

الانتشار الصليبي في جنوبي بلاد الشام

تطلع الصليبيون، بعد استقرارهم في بيت المقدس، إلى استكمال مخططهم التوسعي بالاستيلاء على بقية مدن فلسطين، والمعروف أنهم لم يسيطروا حتى ذلك الوقت إلا على بيت المقدس وبيت لحم واللد والرملة ويافا، ويبدو أنهم لم يصادفوا صعوبة كبيرة في تلك المهمة لأن سقوط بيت المقدس أحدث موجة من الذعر والهلع في نفوس سكان المدن والقرى المجاورة، فضلاً عن خلوها من وسائل الدفاع. وهكذا أسرع سكان نابلس إلى الخضوع وسلموا مدينتهم إلى تانكرِد[4].

وكان أول عمل قام به جودفري دي بوايون أنه ردَّ هجوماً فاطمياً بقيادة الوزير الأفضل كان في طريقه لاسترداد بيت المقدس وذلك عند عسقلان في (٢٢ رمضان/

---

(١) باركر، أرنست: الحروب الصليبية: ص ٣٧. Grousset: Ibid pp 168-169.

(٢) المؤرخ المجهول: ص ٢٨٣. فوشيه الشارتري: ص ٧٧، توديبو: ص ٣١٩.

(٣) المصادر نفسها.

(٤) المؤرخ المجهول: المصدر نفسه.

١٢ آب)، غير أنه فشل في اقتحام عسقلان نفسها[١]. والواقع أن الخلافات التي نشبت بينه وبين ريموند الصنجيلي بشأن ملكيتها هو السبب في ذلك، فبقيت بأيدي الفاطميين، كما أن هذه الخلافات حالت دون استكمال سيطرة الصليبيين على سائر موانئ بلاد الشام إذ ظلت عكا وصور وصيدا وبيروت وطرابلس بأيدي المسلمين.

قضى انتصار الصليبيين في عسقلان على هيبة الفاطميين في بلاد الشام، وأن ما أصاب الفاطميين من هزيمة دلَّ على أنه على الرغم من أن المدن الساحلية باستثناء يافا لا زالت بحوزة هؤلاء يحميها الأسطول الفاطمي القوي، إلا أن السلطات الحاكمة فيها لم تتردَّد في تقديم التسهيلات للصليبيين ليحصلوا على ما يلزمهم من مؤن، وذلك قبل أن يستولي الصليبيون على جبلة واللاذقية[٢].

وغادر ريموند الصنجيلي، في تلك الأثناء، فلسطين بعد فشله في الاستيلاء على أرسوف الواقعة شمال يافا، حيث أن جودفري دي بوايون رفض أن يعترف بالاتفاق الذي جرى بينه وبين حاميتها بشأن الاستسلام؛ وتوجَّه مع روبرت النورماني وروبرت فلاندر إلى الشمال، واختار بعد أن وصل إلى اللاذقية أن يبقى في شمالي بلاد الشام ليعمل على مساعدة حلفائه البيزنطيين على الحد من قوة بوهيموند أمير أنطاكية[٣].

لم يجد الصليبيون صعوبة في الاستيلاء على إقليم الجليل على الرغم من قلة المقاتلين وحاجة تانكرِد إلى الرجال، وذلك لعدم وجود مقاومة إسلامية قوية فيه، فتوغل تانكرِد في ربوعه بهدف الاستيلاء عليه وحكمه تحت إشراف جودفري دي بوايون[٤]. والمعروف أن هذا الإقليم كان مثار نزاع بين دقاق والفاطميين، ولكن دقاق لم يتمكَّن من ضمِّه إلى أملاكه عقب الهزيمة التي لحقت بالفاطميين في عسقلان، لأنه لم يتسع له الوقت لذلك من جهة، ومن جهة أخرى تعرَّض لنزاعات داخلية حادة منعته من القيام بحرب هجومية وكان ذلك لصالح جودفري دي بوايون الذي لم يكن بوسعه أن يقاوم هجوماً مضاداً واسعاً لأن ما كان لديه من قوة لم تزد على ثلاثمائة فارس وألفين من الرجالة[٥]، والواقع أن ما حدث بين المسلمين من

---

(١) المؤرخ المجهول: ص ٢٨٤ ـ ٢٨٧. فوشيه الشارتري: ص ٧٧ ـ ٧٩. توديبو: ص ٣٣٧ ـ ٣٤٢. وليم الصوري: جـ ١ ص ٤٥٧ ـ ٤٦١. ابن القلانسي: ص ٢١٣. ابن الأثير: جـ ٨ ص ٤٢٧ ـ ٤٢٨.

(٢) رنسيمان: جـ ١ ص ٤٤٣. Albirt of Aix: pp 449-450.

(٣) فوشيه الشارتري: ص ٧٩. وليم الصوري: جـ ١ ص ٤٦١ ـ ٤٦٢.

(٤) Grousset: I p 186.

(٥) وليم الصوري: جـ ١ ص ٤٧١.

نزاعات هي التي هيأت لهذه الإمارة الصغيرة الدخيلة أن تستقر[١].

وعندما اقترب تانكرِد من طبرية عاصمة الإقليم، هرب المسلمون إلى دمشق، واستقبله النصارى في المدينة، في حين أظهر اليهود الجفاء والسخط بفعل ما أصاب إخوانهم في بيت المقدس من السوء.

وحصَّن تانكرِد طبرية قبل أن يتوجَّه إلى الناصرة ثم إلى جبل الطور، واستولى على بيسان المشرفة على الضفة الشرقية لنهر الأردن والتي تتحكَّم في الطريق الذي يصل سهل زرعين بنهر الأردن. وبادر المسلمون في إقليم الجليل إلى مغادرته، فاستغل الأمير الصليبي ذلك وأغار على الأراضي الإسلامية المجاورة، ووصل في غاراته إلى الأراضي التابعة لإمارة دمشق، أما الأراضي والقرى والمزارع المحيطة بتلك المدن فقد ظلت في أيدي أصحابها من المسلمين[٢].

وشهدت المدن الساحلية وضعاً مغايراً حيث حصلت اشتباكات عنيفة. وبفضل ما انضم إلى قوة جودفري دي بوايون العسكرية من إمدادات، استطاع أن يبسط سلطانه على سهول فلسطين الساحلية. والمعروف أن إمارة بيت المقدس كانت محاطة بالمسلمين من كل جانب، واتصالها مع الخارج محصور في ممر يؤدي إلى ميناء يافا، فقرَّر جودفري دي بوايون أن يقوِّي صلته مع العالم الخارجي عن طريق البحر من واقع احتلال بعض الموانئ وبدأ بأرسوف، فضرب الحصار عليه، وقاومت حاميته وأجبرته على رفع الحصار، غير أنه أبقى نصف جيشه في الرملة القريبة من ميناء أرسوف، وأمرهم بأن يغيروا على الأراضي المجاورة لأرسوف لإجبار حاميتها على الاستسلام، في حين أغار هو على المدن الفاطمية الساحلية أمثال عسقلان وقيسارية وعكا، ومنع وصول المؤن إليها من الريف، وحصَّن يافا بمساعدة البيازنة، وأصلح ميناءها، فازدادت المشقة أمام السفن الفاطمية لجلب المؤن بحراً من الموانئ الإسلامية، واشتدت معاناة سكانها[٣].

كانت أرسوف تابعة للدولة الفاطمية، لذلك أرسل سكانها سفارة عاجلة إلى القاهرة لطلب المساعدة، فاكتفى الأفضل بأن أرسل إليهم قوة عسكرية قليلة العدد مؤلفة من ثلاثمائة جندي، فتصدى لهم الصليبيون وأوقعوهم في كمين، وقتلوا عدداً

---

(١) رنسيمان: جـ ١ ص ٤٥٢.

(٢) وليم الصوري: جـ ١ ص ٤٦٣. Grousset: I p 179

(٣) رنسيمان: جـ ١ ص ٤٥٧. Albirt of Aix: pp 515-516

منهم، ومع ذلك، فقد طارد المسلمون الصليبيين إلى يافا. ووصلت في غضون ذلك، إمدادات صليبية، فاستبدَّ اليأس بسكان أرسوف، وأدركوا عدم جدوى المقاومة، واضطروا إلى الدخول في تبعية الصليبيين في شهر (جمادى الأولى ٤٩٣هـ/ آذار ١١٠٠م)، وتعهدوا بدفع جزية سنوية رمزاً لهذه التبعية[١].

ولم يلبث أن اقتدى بسكان أرسوف أهل عسقلان وقيسارية وعكا بعد أن تأكد لهم عجز الدولة الفاطمية عن حمايتهم، فأرسلوا سفارات إلى جودفري دي بوايون تحمل الهدايا من القمح والزيت والفواكه والجياد العربية، وعرضوا عليه أن يؤدوا جزية قدرها خمسة آلاف دينار رمزاً للتبعية مقابل السماح لهم بزراعة أراضيهم بسلام. وقَبِل جودفري دي بوايون هذا العرض، فاستقرت بذلك العلاقات بين المدن الإسلامية والصليبيين[٢]. وحذا كثير من شيوخ القبائل العرب الضاربين في سفوح التلال الداخلية، حذو سكان المدن الساحلية، وعقدوا اتفاقيات ودية مع جودفري دي بوايون.

والواضح أن هذه الاتفاقيات تضمنت منفعة متبادلة، إذ تعمَّد جودفري دي بوايون أن يحوِّل أكبر قدر من التجارة مع شيوخ القبائل إلى ميناء يافا، وأن يمنع التجارة بين المدن الإسلامية الساحلية ومصر، وأن يجعل هذه المدن تعتمد في تجارتها على النصارى. وفي المقابل، اعتاد شيوخ القبائل أن يرسلوا ما يفيض من محاصيلهم إلى المدن الساحلية، غير أن الإمارات الصليبية اعترضت طريقهم، فطلبوا من جودفري دي بوايون أن تمر قوافلهم عبر أراضيه، وتدفقت، نتيجة ذلك، البضائع المختلفة من توابل وغلال وبيض وطيور ومنسوجات ومواشي، على بيت المقدس ويافا مما جعل حياة الصليبيين أكثر استقراراً وثباتاً[٣].

دقاق يهاجم قوة صليبية عند بعلبك

قدم بوهيموند صاحب أنطاكية في شهر (ذي القعدة ٤٩٢هـ/ أيلول ١٠٩٩م) إلى بيت المقدس بهدف الحج، وصحبه بلدوين صاحب الرها، وانحاز إليه دايمبرت رئيس أساقفة بيزا الذي كان البابا أوربان الثاني قد عيَّنه مندوباً عنه في فلسطين بعد وفاة أدهيمر، بالإضافة إلى مجموعة من الحجاج الإيطاليين[٤].

---

(١) وليم الصوري: جـ ١ ص ٤٧١ ـ ٤٧٢. .Albirt of Aix: pp 513-515

(٢) رنسيمان: جـ ١ ص ٤٥١.

(٣) رنسيمان: جـ ١ ص ٤٥٨ ـ ٤٥٩. عاشور: جـ ١ ص ٢٦٤. Albirt of Aix: p 516, Grousset: I pp 187-189

(٤) وليم الصوري: جـ ١ ص ٤٦٣ ـ ٤٦٥. فوشيه الشارتري: ص ٨٠.

ابتهج جودفري دي بوايون بقدوم الصليبيين من الشمال، إذ كان بحاجة ماسة إلى قوة بشرية، ونجح في إقناع كثير من الفرسان بالبقاء في فلسطين مقابل ما بذله لهم من إقطاعات[١].

وعند عودة بوهيموند وصحبه إلى أنطاكية بعد انتهاء الزيارة في (١٦ صفر ٤٩٣ هـ/ ١ كانون الثاني ١١٠٠م)، قرَّر سلوك الطريق الداخلي الذي يجتاز بانياس ووادي البقاع، وعندما وصل إلى بعلبك تعرَّض للهجوم من قِبل قوات دمشق. والمعروف أن هذه المنطقة تخضع لدقاق الذي نظَّم أمر اعتراض طريقه، غير أن صاحب دمشق وجَّه كل اهتمامه إلى طردهم من بلاده لا إلى تدميرهم، فلم يكن هجومه بالغ العنف، وتيسَّر للصليبيين ردَّ الهجوم، ثم واصلوا السير حتى بلغوا البحر عند البقيعة، ومنها اتخذوا طريق الساحل[٢].

التوسع الصليبي باتجاه السواد

غدا جودفري دي بوايون على درجة عالية من القوة، ما جعله يقدم على التوسع باتجاه الداخل وبسط سلطانه على إقليم السواد، أي على الأراضي الواقعة وراء الأردن شرقي بحيرة طبرية، وهو الإقليم الذي اشتهر بخصوبته، وكان تابعاً لدقاق، وساعده تانكرِد في ذلك[٣].

وخرج تانكرِد في (شهر رجب عام ٤٩٣هـ/ شهر أيار عام ١١٠٠م) على رأس مائتين من الفرسان وألف من المشاة، للقيام بغارات ضد إقليم السواد وإجبار حاكمه على أن يعترف بسيادة الصليبيين، غير أن هذا الحاكم، الذي أطلقت عليه المصادر الصليبية اسم المزارع السمين، التمس المساعدة من دقاق، وإذ أدرك هذا الأخير أنه إذا استطاع الصليبيون تأمين وجود لهم في هذه الجهات، فسيحوِّلوا التجارة من الجولان وحوران إلى موانئ فلسطين، لذلك أمدَّه بنحو خمسمائة فارس[٤].

ويبدو أن تانكرِد تهيَّب الاصطدام بالقوة الدمشقية منفرداً، فاستنجد بجودفري دي بوايون الذي حرص على أن يشترك في الاستيلاء على هذا الاقليم. وفعلاً اشترك

---

(١) رنسيمان: جـ ١ ص ٤٥٥.

(٢) فوشيه الشارتري: ص ٨٤. وليم الصوري: جـ ١ ص ٤٦٦ ـ ٤٦٧. رنسيمان: جـ ١ ص ٤٥٥ ـ ٤٥٦. Grousset: I p 196.

(٣) Ibid: p 186.

(٤) رنسيمان: جـ ١ ص ٤٥٩. Ibid. Albirt of Aix: pp 517-518.

الرجلان في تنفيذ غارة أوغلت في عمق الجولان[١]، دون التبصر بنتائج ما قد يحصل من توغل كهذا في عمق الأراضي الإسلامية، ويبدو أنهما كانا واثقين بالتغلب على القوة الإسلامية إذا اعترضت طريقهما.

كان دقاق يراقب تحركات القوة الصليبية المغيرة، متربصاً بها، ولدى عودتها في (٨ شعبان/ ١٨ حزيران) محملة بالغنائم انقض على مؤخرتها التي تولى تانكرِد حمايتها، ولم يعلم جودفري دي بوايون بما حدث، ومضى في سيره، ولم يستطع تانكرِد أن ينجو بنفسه إلا بعد أن فَقَدَ عدداً كبيراً من رجاله، وأضاع نصيبه من الغنيمة بما فيهم الأسرى الذين حرَّرهم دقاق، غير أن صاحب دمشق لم يكن من القوة ما يجعله يواصل هجومه ويستثمر انتصاره ويطارد الصليبيين، فانسحب عائداً إلى دمشق بعد أن اطمأن إلى أنهم غادروا أراضيه[٢].

وقرَّر تانكرِد الانتقام لما حلَّ به على أيدي دقاق، فبعد أن استراح بضعة أيام في طبرية، قام بغارة جديدة على أراضي دمشق، فخرَّب إقليم السواد، وتوغل حتى أضحى قريباً من دمشق، وأرسل سفارة من ستة أشخاص إلى دقاق تحمل إنذاراً إليه بوجوب اعتناقه النصرانية أو ترك دمشق فوراً، فاستاء دقاق من تلك الجرأة وعدَّها إهانة لا يجب السكوت عنها، فردَّ على الرسل بأنه ينبغي عليهم اعتناق الإسلام وإلا لقوا مصرعهم، فقبل أحدهم ذلك وأُعدِم الباقون. أثار هذا العمل تانكرِد، فطلب من جودفري دي بوايون أن ينضم إليه للقيام بغارة على أملاك دقاق. واستمر الرجلان يعيشان فساداً وتخريباً في الجهات والضياع والمزارع المحيطة بدمشق، قرابة أسبوعين، بينما لزم المسلمون أماكنهم خلف أسوار مدنهم، وعلى الرغم من شدة حرص دقاق على أن يقوم بهجوم مضاد، فإنه لم يحاول المقاومة[٣]

أدرك حاكم السواد، بعد الذي حدث، أن سيده تخلَّى عنه، وعجز عن حمايته، وأن الصليبيين خرَّبوا بلاده، واستباحوها، فاعترف بالتبعية لتانكرِد، ووافق على دفع الجزية له[٤]، وهكذا سيطر الصليبيون على إقليم السواد.

دقاق يصطدم ببلدوين صاحب الرها

عندما عاد جودفري دي بوايون من غاراته في الجولان، علم بأن أسطولاً

---

(١) Grousset: I. pp 186-187.

(٢) رنسيمان: جـ ١ ص ٤٦٠. Albirt of Aix: pp 517-518. Grousset: I p 187.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) Albirt of Aix: pp 518-519.

بندقياً ضخماً رسا في ميناء يافا، فأسرع إلى الساحل للاجتماع ببحارته وإقناعهم بمساعدته في الاستيلاء على المدن الساحلية، لكنه خرَّ مريضاً، فانتدب ابن عمه كونت برجنديا، ويدعى وارنر جراي، لينوب عنه في المفاوضات، وفوَّضه القبول يما يعرضه البنادقة من شروط. وبعد الاتفاق تقرَّر أن تكون عكا الهدف الأول ثم حيفا. وحاصر البنادقة عكا في الوقت الذي اشتد فيه مرض جودفري دي بوايون، ولم تلبث الأخبار أن حملت نبأ وفاته في (٩ رمضان/ ١٨ تموز)[١]، فرفع الصليبيون الحصار عن عكا وركزوا جهودهم للاستيلاء على حيفا، نظراً لقربها من بيت المقدس، وهي أكثر نفعاً للقضية الصليبية في الوقت الراهن، وما لبثت المدينة أن سقطت في أيديهم في (شهر شوال/ شهر آب)[٢]، وعاد الصليبيون إلى بيت المقدس ليتشاوروا في اختيار خلف لجودفري دي بوايون.

وأرسل أنصار بلدوين في بيت المقدس رسالة إليه، يخبرونه بموت أخيه جودفري دي بوايون، ويحثونه على الحضور لتسلم مقاليد الحكم. وإذ أظهر صاحب الرها اغتباطه للاستيلاء على إرث أخيه، لم يشأ أن يضيع الفرصة، فغادر الرها متوجهاً إلى بيت المقدس في (٢٦ ذي القعدة/ ٢ تشرين الأول)، بعد أن عهد بشؤون الرها إلى قريبه بلدوين دي بورج، ووصل إلى أنطاكية، وسار منها إلى اللاذقية حيث انضم إليه عدد كبير من العساكر، ولكن هذا العدد ما لبث أن تناقص عندما اقترب الجيش من جبلة، إذ تناهت الأخبار باستعداد دقاق لقطع الطريق عليه، فوصل إلى طرابلس مع مائة وستين فارساً وخمسمائة من المشاة. ورحَّب به فخر الملك ابن عمار، وقدَّم له ما كان بحاجة ماسة إليه من عِدة ومؤن، وتعهد له بأن يحيطه علماً بتحركات دقاق، العدو المشترك لكليهما. والمعروف أن العلاقات بين دمشق وطرابلس كانت فاترة بل عدائية بسبب محاولة دقاق مدَّ نفوذه حتى الساحل، واستولى على جبلة وعيَّن عليها بوري بن طغتكين. ومن أجل ذلك أعلن فخر الملك عن ابتهاجه وارتياحه لاستقبال بلدوين وسعى إلى محالفته للوقوف في وجه سلاجقة الشام[٣].

تابع بلدوين سيره بطريق الساحل حتى وصل إلى نهر الكلب، وهو يسير في ممر

---

(١) فوشيه الشارتري: ص ٨٥. وليم الصوري: جـ ١ ص ٤٧٦. تذكر المصادر الإسلامية أن جودفري دي بوايون أُصيب بسهم أثناء حصار عكا أدى إلى وفاته. ابن القلانسي: ص ٢٢٤. ابن الأثير: جـ ٨ ص ٤٥٧.

(٢) Albirt of Aix: p 521. Grousset: I pp 199-200.

(٣) فوشيه الشارتري: ص ١٠٣ ـ ١٠٤. وليم الصوري: جـ ١ ص ٤٨٢ ـ ٤٨٣. رنسيمان: جـ ١ ص ٤٧٨. عاشور: جـ ١ ص ٢٨٤.

ضيق بين البحر والجبل، وهناك انتظره دقاق للاصطدام به والقضاء عليه. وإذ أنذره فخر الملك بن عمار، تقدم ببطء وحذر، فألفى نفسه يواجه قوات سلجوقية مشتركة بقيادة دقاق وجناح الدولة حسين صاحب حمص، ومعهما الأمير التنوخي عضد الدولة[1]. ولما حاول عبور النهر، فشل بسبب ضخامة القوات التي اعترضت طريقه، بل إن قوات حمص ألحقت الخسائر بقواته وضيَّقت عليها الخناق. ووصف فوشيه الشارتري، وكان يرافق الحملة، حالة الضيق التي باتت عليها القوات الصليبية، فقال: «...حاصَرَنا العدو من جميع النواحي، فمن ناحية كان أولئك الذين أتوا في القوارب من البحر، ومن ناحية أخرى كان آخرون يشنون الهجمات المتتابعة علينا من جروف التلال، فكان ذاك يوماً بائساً علينا، ولم نقدر أن نستريح ولا أن نسقي دوابنا التي هدها العطش. والحق أقول إنني تمنيت من كل قلبي لو كنت في شارتر أو أوريلنز، وكذلك تمنى الآخرون...»[2]. واضطرت القوات الصليبية إلى الانسحاب خلال الليل. وحثَّ جناح الدولة حسين، دقاق على مطاردتهم، غير أنه رفض ذلك، وآثر انتظار طلوع الفجر كي يستفيد من مساندة الأسطول له الذي كان راسياً قبالة بيروت. واكتفى المسلمون برشق خطوط الصليبيين بالسهام، غير أن بلدوين تمالك نفسه واستطاع أن يعيد تنظيم صفوف قواته، وأوهم المسلمين بأنه ينسحب عندما ترك المنطقة متوجهاً نحو الشمال إلى جونية، فطاردته القوات الإسلامية، ثم ما لبث أن استدار فجأة وانقض على المسلمين وهزمهم. وعجزت السفن البحرية أن تمد يد المساعدة للقوات البرية، إذ خشيت الاقتراب من الشاطئ. وعند حلول الظلام انسحبت بعض القوات الإسلامية إلى الجبال، واحتمى بعضها داخل أسوار بيروت، وعسكر بلدوين في تلك الليلة في جونية. وفي صبيحة اليوم التالي، عبر جيشه نهر الكلب دون أن يصادف مقاومة، وتابع طريقه فاجتاز صيدا وصور، ووصل إلى بيت المقدس في (٥ محرم ٤٩٤هـ/ ١٠ تشرين الثاني ١١٠٠م)[3].

قيام مملكة بيت المقدس

ظهر الخلاف مرة أخرى بين القادة الصليبيين، وتنافسوا على حكم بيت المقدس. وكان جودفري دي بوايون قد كتب وصية أثناء مرضه عيَّن بموجبها البطريرك دايمبرت

---

(١) ابن القلانسي: ص ١٣٨. الشدياق، طنوس: أخبار الأعيان جـ ٢ ص ٥٠٦.

(٢) تاريخ الحملة إلى القدس: ص ١٠٤.

(٣) فوشيه الشارتري: ص ١٠٤ ـ ١٠٦. وليم الصوري: جـ ١ ص ٤٨٤ ـ ٤٨٦.

حاكماً على بيت المقدس. والواقع أن حادثة الوفاة شكَّلت صدمة لتانكرِد والبطريرك الذي أظهر التردد، إذ كان قلقاً على إرثه، غير أنه كان واثقاً فيما ورد في وصية جودفري دي بوايون، وأن عساكر اللورين أضحوا بلا قائد، فأرسل ممثلاً عنه إلى بيت المقدس ليتسلم باسمه برج داوود[1]. ثم اجتمع الرجلان للتباحث في مستقبل حكومة بيت المقدس، وبخاصة أن دايمبرت علم بأن وارنر جراي تحصَّن في برج داوود ورفض أن يسلمه إلى ممثله، بالإضافة إلى تناهي الأخبار إليهما بأنه تقرر استدعاء بلدوين للقدوم إلى بيت المقدس لتسلم الحكم. والمعروف أن تانكرِد كان يكنُّ الكراهية لبلدوين منذ أن نشبت النزاعات بينهما في قيليقية منذ ثلاثة أعوام، وأن دايمبرت كان مجبراً على التحالف معه لأن إمارته كانت تمتد من شرق الجليل إلى البحر المتوسط، وبحكم موقعها هذا كانت تقطع الطريق بين بيت المقدس والشمال، واتفقا على اختيار بوهيموند صاحب أنطاكية حاكماً على بيت المقدس، فأرسلا إليه رسالة بهذا المعنى، غير أن الرسالة لم تصل إليه. إذ عندما وصل حامل الرسالة إلى اللاذقية احتجزته السلطات فيها وصادرت الرسالة، ثم إن بوهيموند وقع آنذاك في أسر كمشتكين غازي الدانشمندي أثناء زحفه لمساعدة جبريل صاحب ملطية الذي تعرَّض لهجوم الدانشمنديين، وبذلك انقطع أمل دايمبرت[2].

وعندما اقترب بلدوين من بيت المقدس، خرج السكان للترحيب به بوصفه أخي جودفري دي بوايون ووريثه، والتقوا به خارج أسوار المدينة، وصحبوه معززاً مكرماً إلى كنيسة القيامة ونادوا به ملكاً وسيداً، وذلك في (٦ محرم ٤٩٤هـ/ ١١ تشرين الثاني ١١٠٠م). وأعلن القادة الصليبيون ولاءهم له باستثناء دايمبرت الذي ترك دار البطريركية ولجأ إلى دير على جبل صهيون، وتانكرِد الذي انسحب باتجاه الشمال إلى بلاده في الجليل. وبذلك تحولت إمارة بيت المقدس إلى مملكة صليبية لاتينية[3].

خطة بلدوين التوسعية على حساب المسلمين

الواقع أن أعظم ما حقَّقه الصليبيون في الحملة الصليبية الأولى من إنجاز إنما حصل نتيجة تصدع وحدة المسلمين، فلم يتحقق هدف الحملة إلا بسبب ما وقع من انشقاقات بين المسلمين وامتناعهم عن العمل سوياً. فالفاطميون الشيعة في مصر

---

(١) وليم الصوري: جـ١ ص ٤٨٥ ـ ٤٨٦.

(٢) وليم الصوري: المصدر نفسه: ص ٤٨٠ ـ ٤٨٢. (٣) المصدر نفسه: ص ٤٨٦.

يكنُّون العداء للعباسيين السنة في بغداد بالإضافة إلى الأتراك السنة، كما وقع التنافس المستمر بين سلاجقة الروم والدانشمنديين في آسيا الصغرى، وبين الأراتقة وسلاجقة الشام، ثم بين ولدي تُتُش رضوان ودقاق. وزاد الأتابكة المستقلون، من أمثال كربوغا، الفوضى من خلال مطامعهم الشخصية، في حين أن الأسرات العربية الصغيرة الحاكمة في أواسط بلاد الشام، أمثال بني عمار في طرابلس وبني منقذ في شيزر، حافظت على استقلالها القلق بالاستفادة من الاضطرابات الداخلية بين المسلمين، وما حقَّقته الحملة الصليبية الأولى من انتصار زاد من الفوضى السائدة وجعل التعاون بين المسلمين أكثر صعوبة(١).

ومهما يكن من أمر، فإن الانتصارات السريعة والخاطفة التي حققها الصليبيون في بلاد الشام، في أيام جودفري دي بوايون، وانتصار بلدوين على دقاق عند نهر الكلب، حقَّقت للصليبيين نوعاً من المهابة في نظر القوى الإسلامية المجاورة.

وضع بلدوين، بعد تتويجه، خطة عسكرية استهدفت الدفاع عن مملكته وتوفير القوة لها وذلك من خلال:

ـ الاستيلاء على الشاطئ الفلسطيني المواجه لمملكته وبخاصة أرسوف وقيسارية بالإضافة إلى عسقلان.

ـ رد الحدود المصرية إلى الجنوب حتى يتوافر الأمن في الطريق من بيت المقدس إلى الساحل.

ـ تشييد معاقل أمامية فيما وراء الأردن وإلى الجنوب من البحر الميت تتلقَّى صدمات المسلمين وتكون قواعد انطلاق لمهاجمة الأراضي الإسلامية.

ـ ربط مملكة بيت المقدس بالإمارات الصليبية في الشمال، في أنطاكية والرها، حتى يتيسر فتح الطريق للحجاج والمهاجرين القادمين من الغرب.

ـ تشجيع قيام إمارات صليبية أخرى في بلاد الشام(٢).

والواقع أن الملك بلدوين افتقر إلى الرجال والمال لإقامة مملكة قوية تواجه المسلمين المجاورين لها، وأنه لن يستطيع الحصول على القوة البشرية إلا بتشجيع الهجرة وإقناع النصارى الوطنيين بالتعاون معه، أما المال فيستطيع الحصول عليه بتشجيع التجارة مع البلاد المجاورة بالإضافة لما يبذله الأوروبيون الغربيون(٣).

---

(١) رنسيمان: ج ٢ ص ٢٢.

(٢) المرجع نفسه: ص ٢١.

(٣) المرجع نفسه: ص ٢١ ـ ٢٢.

ولم يكد يتم تتويج بلدوين ملكاً على بيت المقدس حتى قام بمهاجمه قبيلة عربية كانت تعبر الأردن في (أواسط عام ٤٩٤هـ/ ربيع عام ١١٠١م)، ولم ينج من أفرادها غير عدد ضئيل ووقع الأطفال والنساء في الأسر[١]، فازدادت شهرته في نظر جيرانه المسلمين.

ولم تلبث الموانئ الساحلية في جنوبي بلاد الشام، وهي عسقلان وأرسوف وقيسارية وعكا وصور، أن أرسلت سفارات إلى بيت المقدس تحمل الهدايا الثمينة والجزية رمزاً للتبعية، وتطلب الهدنة لتتمكن من مباشرة نشاطها الاقتصادي والتعامل التجاري مع الصليبيين، وأرسل دقاق من جانبه يعرض على الملك الصليبي خمسين ألف قطعة ذهبية فدية للأسرى الذين وقعوا في يده في معركة نهر الكلب[٢].

على أنه حدث بعد ذلك أن الملك بلدوين لم يكتف بأخذ الجزية من الثغور البحرية الإسلامية بل عمل على الاستيلاء عليها وضمِّها إلى أراضي المملكة، ونجح في الاستيلاء على بعضها تباعاً مما لا يدخل في مجال هذه الدراسة، إنما من المفيد أن نذكر أنه عندما توفي دقاق في عام (٤٩٧هـ/ ١١٠٤م) كان الملك الصليبي يسيطر على يافا وأرسوف وقيسارية وعكا[٣].

---

(١) وليم الصوري: جـ ١ ص ٤٨٩ ـ ٤٩٠.

(٢) Albirt of Aix: pp 541-542.

(٣) ابن الأثير: جـ ٨ ص ٤٩٠ ـ ٤٩٥.



الخاتمة

نتج عن التمزق السياسي والصراع العسكري في الشرق الأدنى، بين القوى الإسلامية المختلفة، ثم بينها وبين الصليبيين؛ مناخ مناسب للأمراء المحليين، فاستقل كلٌّ بما تحت يده، يعالج مشكلاته وشؤونه الخاصة، وخضع للجانب الذي ارتبطت به مصلحته، وراح يعمل على توسيع أملاكه إلى ما وراء حدود إمارته على حساب جيرانه الأمراء الآخرين؛ في ظل ضعف الرابطة السياسية بين هذه الكيانات. فتوزعت السلطة، نتيجة ذلك، بين عدد من الأمراء الطامحين، وتركَّزت إماراتهم في الموصل وحلب ودمشق وغيرها، فأضحى لكل وحدة من هذه الوحدات السياسية - الاجتماعية، كيانها الخاص وذاتيتها المتميزة إلى حد كبير.

ولم يدرك الأمراء المسلمون، الذين أصابهم الذهول لأول وهلة، عِظَم هذه النكبة التي حلَّت بهم على يد الصليبيين، فتحرك العامة في الجزيرة وبلاد الشام، وفي غيرها من البلاد الإسلامية للبحث عن قيادة قوية ومخلصة توحد صفوفهم وتقودهم إلى الجهاد لدفع الخطر الصليبي.

وتهيأت الظروف لظهور هذه القيادة انطلاقاً من إمارة الموصل، وذلك بفعل موقعها الجغرافي المجاور لإمارة الرها الصليبية. فكان عماد الدين زنكي، القائد الصلب الذي أدرك ما آلت إليه أوضاع العالم الإسلامي في الشرق الأدنى من تشتُّت وتدهور، فأخذ على عاتقه القيام بهذه المهمة، فأسس دولة في الموصل ثم ضمَّ حلب في ظروف شهدت ظهور عدد كبير من الإمارات المحلية في الجزيرة وبلاد الشام، ثم رفع راية الجهاد ضد الصليبيين، لكنه اصطدم بحالة التمزق السياسي التي كانت سائدة في المنطقة، فرأى ضرورة تجميع القوى الإسلامية، وحشد طاقاتها قبل القيام بأي خطوة إيجابية لمواجهة العدوان الصليبي، فنهض يعمل على ضمِّ هذه القوى المشتتة.

وبعد أن خطا خطوات واسعة في هذا السبيل، ونجح في ضمِّ شمالي بلاد

الشام إلى إمارة الموصل، نهض ليتصدى للصليبيين، ونجح في تحقيق أهم إنجازاته التي بدأ فيها صفحة جديدة في ميزان القوى بين المسلمين والصليبيين في المنطقة، وهي استعادته إمارة الرها من أيديهم. وكان لهذا النصر أهميته، حيث أثبت قدرة المسلمين على مجابهة الخطر الصليبي، بالإضافة إلى أنه أمَّن حرية الاتصال بين الموصل وحلب.

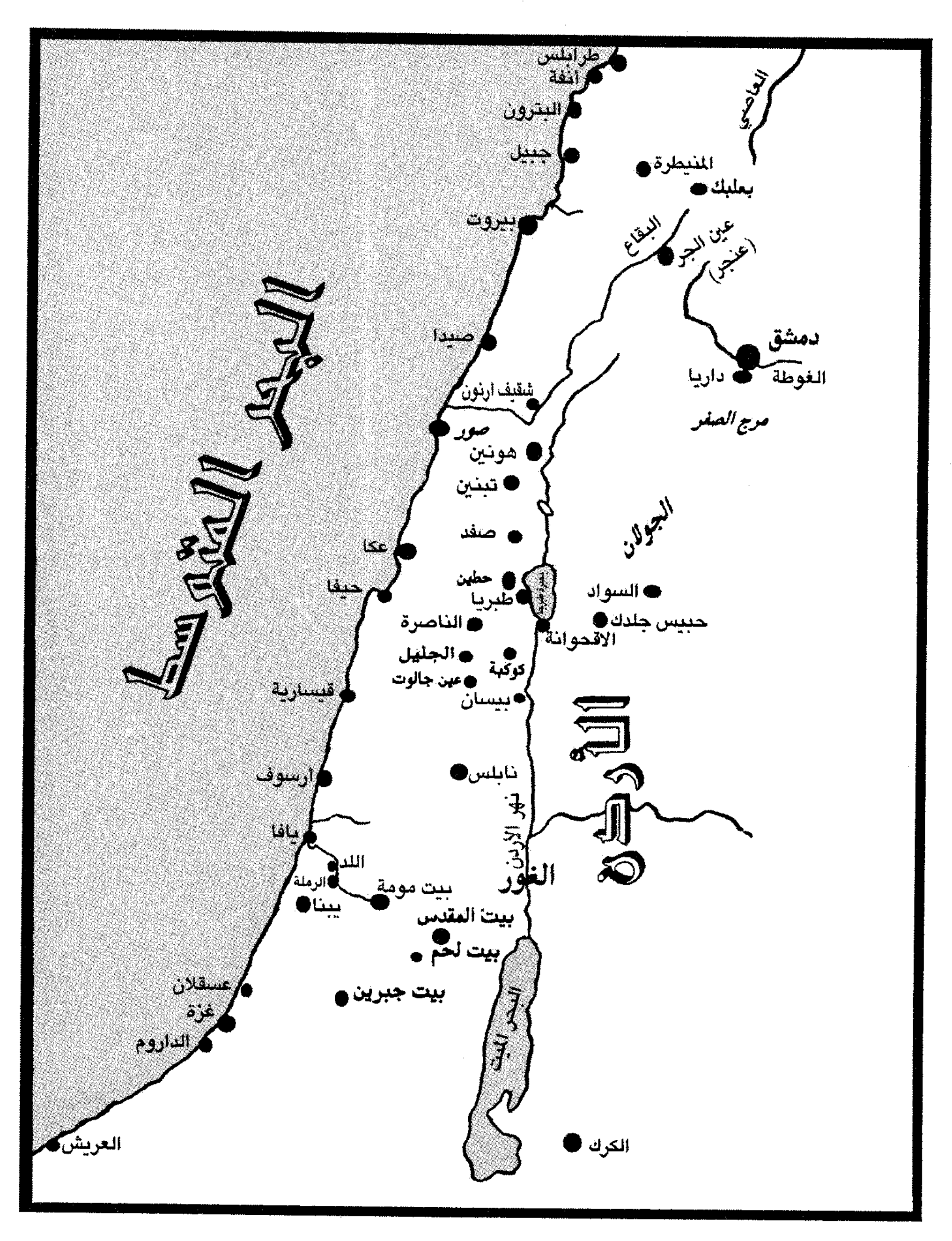
وهنا يبرز الدور الهام الذي أدَّته الدولة الزنكية في هذه المرحلة الحرجة من مراحل التاريخ الإسلامي كرائدة في إرساء دعائم الوحدة الإسلامية، وتضافر الجهود لمناهضة القوى الصليبية واسترداد الأماكن التي سيطرت عليها.

وتوفي عماد الدين زنكي في عام (٥٤١هـ/١١٤٦م)، وهو مرابط أمام قلعة جعبر، ولا شك بأن هذا الرجل قد مهَّد الطريق لمن أتى بعده للسير على نهجه وتتبُّع خطاه.

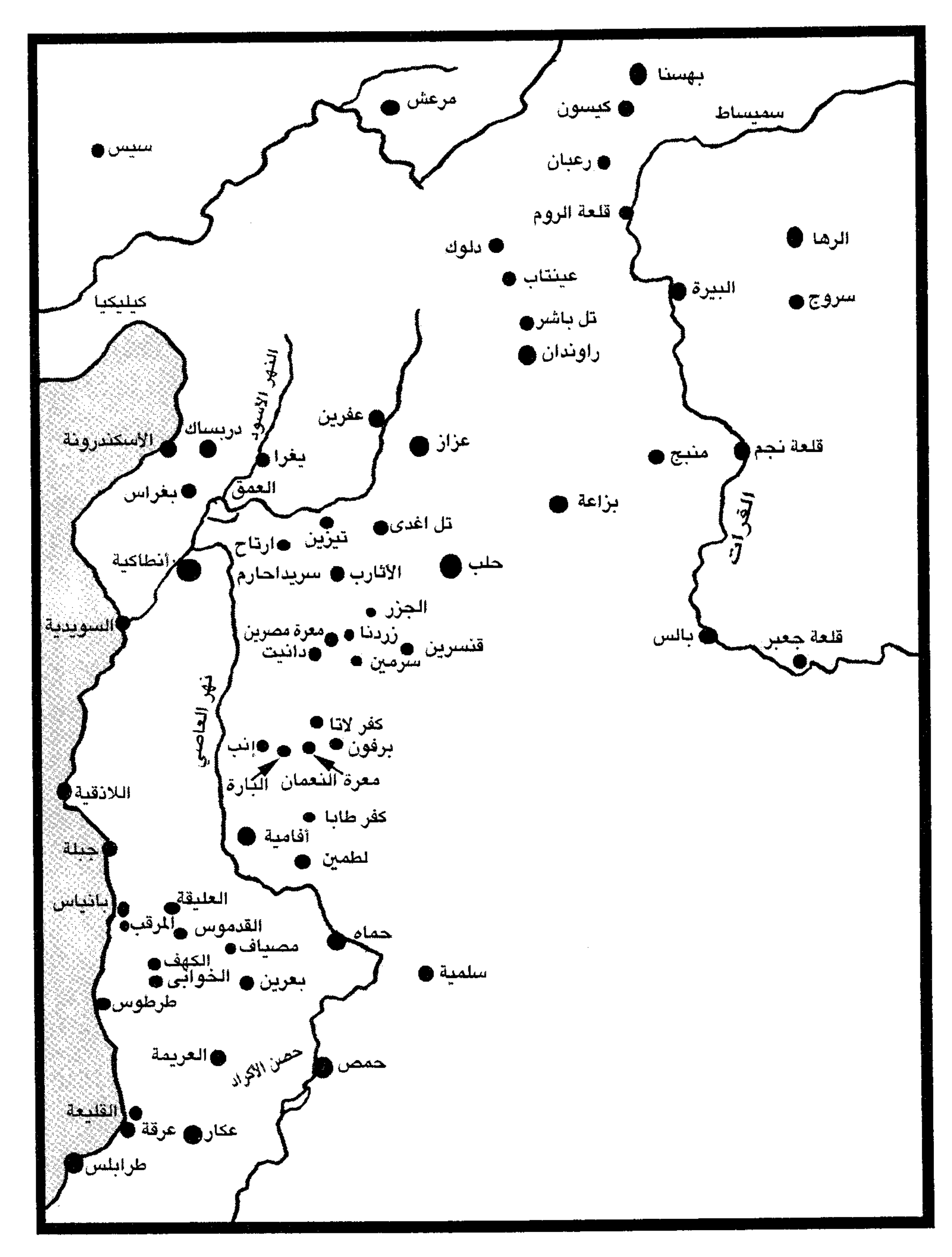
انقسمت الأتابكية الزنكية بعد وفاته إلى قسمين، شكل كل قسم منها دولة منفصلة عن الأخرى في الموصل وبلاد الشام. ففي الموصل خلف سيف الدين غازي الأول أباه في الحكم، ثم تعاقب على السلطة أمراء من سلالته كان آخرهم ناصر الدين محمود الذي توفي عام ٦٣٠ هـ/ ١٢٣٣م)، وقد أدَّى الوضع الجغرافي لهذا القسم أن يرث هؤلاء المشكلات الداخلية مع كل من الخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية في فارس والعراق.

وبرز نور الدين محمود، ابن عماد الدين زنكي، كشخصية فذة. فقد بدأ من حيث انتهى والده، وبذل جهداً مضنياً في سبيل إثارة الأمة وبعث روح الجهاد والتضحية بين جميع أفرادها في مناطق الشرق الأدنى الإسلامي، وقد ورث القسم الغربي من الدولة الزنكية مع المشكلتين الكبيرتين اللتين واجهتهما والمتمثلتين في أتابكة دمشق الذين وقفوا حجر عثرة في وجه عماد الدين زنكي من قبل لتحقيق وحدة بلاد الشام، والصليبيين.

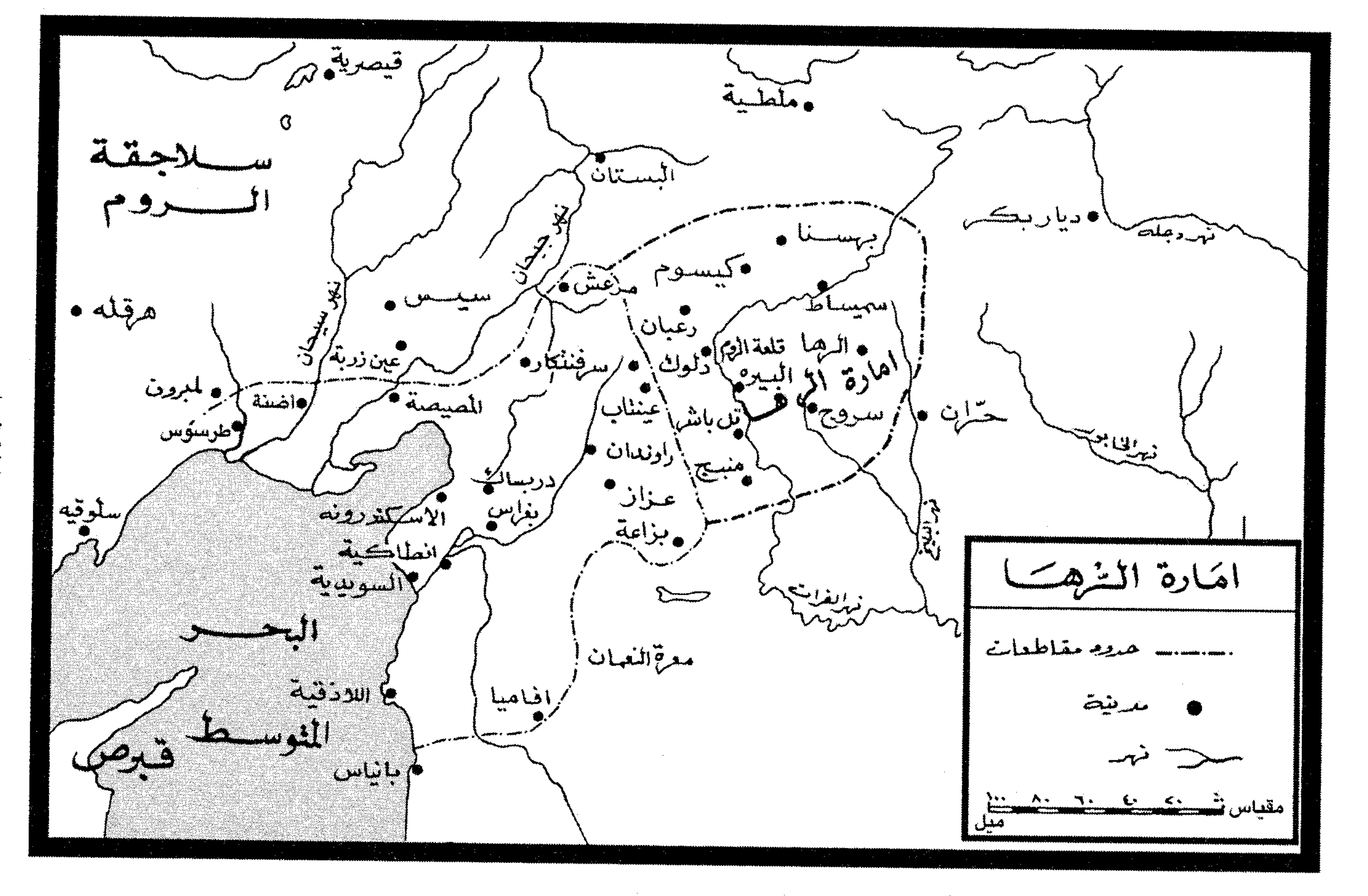
ونجح نور الدين محمود في اكتساب ثقة العامة وجمع كلمتهم. وبعد أن وحَّد قسمي بلاد الشام، الشمالي المتمثل بحلب، والجنوبي المتمثل بدمشق، وبسط هيمنة فعلية على الموصل؛ انطلق يجاهد الصليبيين، ويتصدَّى لتوسعهم على حساب المسلمين. ولعل أهم إنجازاته إلى جانب تحقيق الوحدة الإسلامية وجهاد الصليبيين، إسقاطه الدولة الفاطمية في مصر، وإعادة هذا البلد إلى حظيرة الخلافة العباسية والمذهب السني.



القسم الجنوبي من بلاد الشام

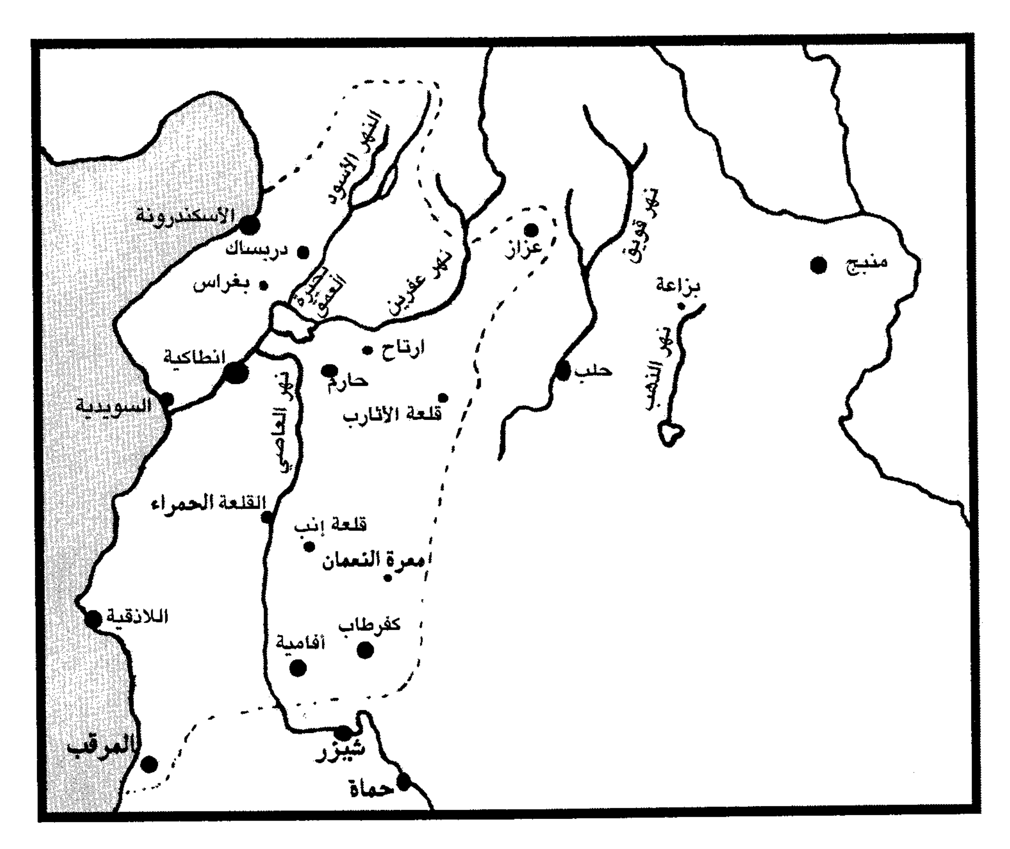


القسم الشمالي من بلاد الشام



امارة الرها
حدود مقاطعات
مدينة
نهر
مقياس
ميل
قيصرية
ملطية
سلاجقة الروم
البستان
ديار بكر
نهر دجلة
بهسنا
كيسوم
مرعش
نهر جيحان
نهر سيحان
سيس
هرقله
عين زربة
سرفندكار
رعبان
دلوك
سميساط
الرها
قلعة الروم
البيره
امارة الرها
سروج
حران
نهر الخابور
لمبرون
اضنة
طرسوس
المصيصة
عينتاب
تل باشر
راوندان
منبج
دربساك
بغراس
عزاز
بزاعة
سلوقيه
الاسكندرونه
انطاكية
السويدية
نهر الفرات
البحر
المتوسط
معرة النعمان
اللاذقية
افاميا
قبرص
بانياس

إمارة الرها



إمارة أنطاكية

المصادر والمراجع

أولاً: المصادر والمراجع باللغة العربية

أ ـ المصادر:

- ابن الأثير، أبو الحسن علي . . . ابن عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير الجزري:
  - **الكامل في التاريخ**: تحقيق عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت ط ١، ١٩٩٧م.
  - **التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل**: تحقيق عبد القادر طليمات، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ومكتبة المثنى، بغداد.
- الأنطاكي، يحيى بن سعيد:
  - **تاريخ الأنطاكي، المعروف بصلة تاريخ أوتيخا**: تحقيق عمر عبد السلام تدمري، جروس برس، لبنان ـ طرابلس، ١٩٩٠ م.
- البلاذري، الإمام أبو الحسن:
  - **فتوح البلدان**: تحقيق رضوان محمد رضوان، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩١م.
- البلخي، أبو زيد أحمد بن سهل:
  - **كتاب البدء والتاريخ**: تحقيق خليل عمران المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٩٧م.
- البلوي، أبو محمد عبد الله بن محمد. . المديني:
  - **سيرة أحمد بن طولون**: تحقيق محمد كرد علي، دمشق، ١٣٥٨هـ.
- البنداري، الفتح بن علي بن محمد الأصفهاني:
  - **تاريخ دولة آل سلجوق**: دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط ٣، ١٩٨٠م.

- البيهقي، أبو الفضل:
- **تاريخ البيهقي**: ترجمة يحيى الخشاب وصادق نشأت، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٤م.
- ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف:
- **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**: دار الكتب العربية، القاهرة.
- توديبو، بطرس:
- **تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس**: ترجمة حسين محمد عطية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ط ١، ١٩٩٨م.
- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر:
- **رسائل الجاحظ**: تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٦٤م.
- الجهشياري، محمد بن عبدوس:
- **كتاب الوزراء والكتاب**: تحقيق مصطفى السقا وآخرون، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ط ١، ١٩٣٨م.
- ابن الجوزي، شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قزأوغلي التركي المعروف بالسبط:
- **مرآة الزمان**: الحوادث الخاصة بتاريخ السلاجقة بين أعوام ١٠٥٦ ـ ١٠٨٦م، حيدر آباد، ١٩٥١م.
- **مرآة الزمان**: تحقيق علي سويم، أنقرة، ١٩٦٨م.
- **مرآة الزمان**: الجزء الثامن الذي يبدأ بأحداث عام ٤٩٥هـ، دائرة المعارف، حيدر آباد.
- الحسيني، صدر الدين بن علي:
- **أخبار الدولة السلجوقية**: باعتناء عباس إقبال، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط ١، ١٩٨٤م.
- الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت:
- **معجم البلدان**: دار صادر، بيروت، ١٩٧٩م.
- ابن حوقل، أبو القاسم ابن حوقل النصيبي:
- **كتاب صورة الأرض**: مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٩٢م.
- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد:

- **العبر وديوان المبتدأ والخبر... المعروف بتاريخ ابن خلدون**: مؤسسة جمَّال للطباعة والنشر، بيروت.
- ابن خلكان، أبو العباس أحمد:
- **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**: تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت.
- الدواداري، أبو بكر عبد الله بن أيبك:
- **الدرة المضية في أخبار الدولة الفاطمية**: وهو الجزء السادس من كتاب **كنز الدرر وجامع الغرر**: تحقيق صلاح المنجد، القاهرة، ١٩٦١م.
- الراوندي، أبو بكر محمد بن علي:
- **راحة الصدور وآية السرور في تاريخ الدولة السلجوقية**: تعريب: الشواربي، الصياد وحسنين، دار القلم، القاهرة، ١٩٦٠م.
- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر:
- **تاريخ الخلفاء**: تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، ط ١، ١٩٥٢م.
- الشدياق، طنوس:
- **أخبار الأعيان في جبل لبنان**: بيروت، ١٩٥٤م.
- الصوري، وليم:
- **تاريخ الأعمال المنجزة فيما وراء البحار**: ترجمة سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، ط ١، ١٩٩٠م.
- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير:
- **تاريخ الرسل والملوك**: تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر، ١٩٦٠م.
- ابن العبري، غريغوريوس الملطي:
- **تاريخ الزمان**: دار المشرق، بيروت، ١٩٨٦م.
- ابن العديم، الصاحب كمال الدين عمر بن أحمد بن أبي جرادة:
- **زبدة الحلب من تاريخ حلب**: تحقيق سهيل زكار، دار الكتاب العربي، دمشق، ط ١، ١٩٩٧م.
- **بغية الطلب**: ملحق بكتاب **مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية** لسهيل زكار، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١، ١٩٧٢.
- ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن. . . الشافعي:
- **تاريخ مدينة دمشق**: دار الفكر، بيروت، ١٩٩٥م.

- العصفري، أبو عمرو خليفة بن خياط:
- **تاريخ خليفة بن خياط**: دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٩٥م.
- العظيمي، محمد بن علي:
- **تاريخ العظيمي**: تحقيق إبراهيم زعرور، دمشق، ١٩٨٥م.
- الفارقي، أحمد بن يوسف بن علي الأزرق:
- **تاريخ ميافارقين**: تحقيق بدوي عبد اللطيف، دار الكتاب اللبناني.
- الفردوسي أبو القاسم:
- **الشاهنامة**: ترجمة عبد الوهاب عزام، طهران، ١٩٧٠م.
- ابن فضل الله العمري:
- **مسالك الأبصار وممالك الأمصار**: تحقيق كلاس لشي ڤيسبادن، ١٩٦٨م.
- ابن الفقيه، أبو بكر أحمد بن محمد الهمذاني:
- **كتاب البلدان**: ليدن، ١٩٦٧م.
- فولشر الشارتري:
- **تاريخ الحملة إلى القدس**: ترجمة زياد العسلي، دار الشروق، عمان ـ الأردن، ط ١، ١٩٩٠م.
- ابن القلانسي، حمزة بن أسد... التميمي:
- **تاريخ دمشق**: تحقيق سهيل زكار، دار حسان، دمشق، ط ١، ١٩٨٣م.
- القلقشندي، أحمد بن علي:
- **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**: تحقيق نبيل خالد الخطيب، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٨٧م.
- ابن كثير، الحافظ:
- **البداية والنهاية**: مكتبة المعارف، بيروت، ط ٢، ١٩٧٧م.
- الكندي، أبو عمر محمد بن يوسف:
- **كتاب الولاة والقضاة**: مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ط ١، ١٩٨٧م.
- المسبحي، محمد بن عبيد الله بن أحمد:
- **أخبار مصر**: تحقيق أيمن فؤاد سيد ونياري بيانكي، القاهرة، ١٩٨٧م.
- المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين:
- **أخبار الزمان ومن أباده الحدثان**: دار الأندلس، بيروت، ط ٢.
- مسكويه، أبو علي أحمد بن محمد:

- **تجارب الأمم**: طبعة آمدروز، القاهرة، ١٩١٤ ـ ١٩١٩م.
- المقدسي، المعروف بالبشاري:
- **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**: تحقيق محمد مخزوم، دار إحياء التراث، بيروت، ١٩٨٧م.
- المقريزي، أحمد بن علي تقي الدين:
- **اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء**: تحقيق محمد حلمي محمد أحمد، القاهرة، ١٩٧٣م.
- المؤرخ المجهول:
- **أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس**: تحقيق سهيل زكار في كتابه الحروب الصليبية، دار حسان، دمشق.
- المؤيد في الدين، هبة الله بن موسى:
- **مذكرات داعي دعاة الدولة الفاطمية**: بيروت ١٩٨٣م.
- اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن واضح:
- **تاريخ اليعقوبي**: تحقيق عبد الأمير مهنا، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ١٩٩٣م.

ب ـ المراجع:

- إقبال، عباس:
- **تاريخ إيران بعد الإسلام**: تعريب محمد علاء الدين منصور، دار الثقافة والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٠م.
- بارتولد، فاسيلي فلاديميروفتش:
- **تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي**: تعريب صلاح الدين عثمان هاشم، الكويت، ١٩٨١م
- **تاريخ الترك في آسيا الوسطى**: ترجمة أحمد السيد سليمان، القاهرة، ١٩٥٨م.
- بيطار، أمينة:
- **موقف أمراء العرب بالشام والعراق من الفاطميين**: دمشق، ١٩٨٠م.
- تدمري، عمر عبد السلام:
- **لبنان من السيادة الفاطمية حتى السقوط بيد الصليبيين**: دار الإيمان، طرابلس ـ لبنان، ١٩٩٤م.
- حسنين، عبد النعيم محمد:

- **إيران والعراق في العصر السلجوقي**: دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٢م.
- خليل، عماد الدين:
- **الإمارات الأرتقية في الجزيرة والشام**: مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٠م.
- الدوري، عبد العزيز:
- **العصر العباسي الأول**: دار الطليعة، بيروت، ط ٢، ١٩٨٨م.
- رنسيمان: ستيفن:
- **تاريخ الحروب الصليبية**: ترجمة السيد الباز العريني، دار الثقافة، بيروت، ط ٢، ١٩٨١م.
- زكار، سهيل:
- **مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية**: مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١، ١٩٧٢م.
- زيود، محمد أحمد:
- **العلاقات بين الشام ومصر في العهدين الطولوني والأخشيدي**: دار حسان، دمشق، ط ١، ١٩٨٩م.
- شيشن، رمضان:
- **دور الأتراك في الشام قبل السلاجقة، بلاد الشام في العصر العباسي**: المؤتمر الدولي الخامس لتاريخ بلاد الشام، عمان، ١٩٩٢م.
- ضامن، محمد:
- **إمارة حلب في عهد السلاجقة**: دار أسامة، دمشق ـ بيروت، ١٩٩٠م.
- طقوش، محمد سهيل:
- **تاريخ الدولة العباسية**: دار النفائس، بيروت، ط ١، ١٩٩٦م.
- عاشور، سعيد عبد الفتاح:
- **الحركة الصليبية**: مكتبة الأنجلومصرية، القاهرة، ط ٢، ١٩٦٣م.
- **شخصية الدولة الفاطمية**.
- العريني، السيد الباز:
- **الدولة البيزنطية**: دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٢م.
- **المغول**: دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨١م.
- قاسم، عبده قاسم:
- **الخلفية الإيديولوجية للحروب الصليبية**: دار المعارف، مصر، ط ١، ١٩٨٣.
- كتابجي، زكريا:

- **الترك في مؤلفات الجاحظ**: دار الثقافة، بيروت.
- لسترينج، كي:
- **بلدان الخلافة الشرقية**: ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٢، ١٩٨٥م.
- اللميلم، عبد العزيز محمد:
- **نفوذ الأتراك في الخلافة العباسية وأثره في قيام مدينة سامراء**: مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩١م.
- محمود، حسن أحمد:
- **حضارة مصر في العصر الطولوني**: مكتبة الأنجلومصرية، القاهرة.
- محمود، حسن أحمد ـ والشريف، أحمد إبراهيم:
- **العالم الإسلامي في العصر العباسي**: دار الفكر العربي، القاهرة، ط ٥.
- المصري، حسين نجيب:
- **صِلات العرب والفرس والترك.**
- مصطفى، شاكر:
- **في التاريخ الشامي**: دار طلاس، دمشق، ١٩٩٨م.
- **المؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام الأول**: عمان ١٩٧٥.

ثانياً: المصادر والمراجع باللغات الإسلامية:

- أمير خواند، غياث الدين بن همام الدين:
- **تاريخ حبيب السير في أخبار أفراد البشر**: تحقيق محمود دبير، سياقي طهران، ط ٢، ١٣٥٣هـ. بالفارسية.
- صفا، ذبيح الله:
- **تاريخ أدبيات در إسلام**: طهران، ١٣٣٩هـ. بالفارسية.
- الكرديزي، أبو سعيد عبد الحي بن الضحاك بن محمد:
- **زين الأخبار**: نشر محمد ناظم، برلين ١٩٢٨م. بالفارسية.
- المستوفي، حمد الله بن أبي بكر أحمد بن نصر المستوفي القزويني:
- **تاريخ گزيدة**: نشر بروان، بومباي، ١٩٢٣هـ. بالفارسية.
- باشي، منجم:
- **صحائف الأخبار**: طبع إستانبول، ١٢٨٥هـ. بالتركية.

ثالثاً: المصادر والمراجع باللغات الأوروبية:

- Albirt of Aix
  - **Liber Christianne Expedition pro Eroptione, Emuntione et Restion Sameta Hierosol Uritanae Ecclesia**. in: Recueil des Historiens des Croisades. R.H.C. paris, 1841-1966. occ, vol IV.
- Brown, Edward Gran ville:
  - **Literary History of persia.** Camb University. 1955.
  - **Cambridge History of Iran,** vol V.
  - **Cambridge Medieval History,** vols: IV, V.
  - **Chalandon, Ferdinande:**
  - **Histoire de la Première Croisade.** Paris, 1925.
- Chamichian, Michael:
  - **History of Armenia:** Trans. by Johannes Avadalle. Calcutta, 1827.
- Elissée ff, N:
  - **Nur Ad-Din, Un Grand Prince Musulman de Syrie Au Temps des Croisades.** Damas, 1967.
- Finlay, George:
  - **History of the Byzantine Empire.** London, 1850.
- Grousset, René:
  - **Histoire des Croisades et du Royaume.** Paris, 1934-1936.
  - **Histoire de Larménie des Origines** jusqu'a 1071. Paris, 1947.
- Mathew of Edessa:
  - **Chronique, in R.H.C. Arm Doc** vol, I.
- Michaud:
  - **Histoire des Croisades.** Paris, 1822.
- Raymond d'Aguilers:
  - **Historia Francorum qui ceperunt Jerusalem.** in R.H.C. occ vol, III.
- Richard:
  - **Le Royaume Latin de Jerusalem.** Paris, 1963.
- Robert the Monk:
  - **Historia Hicroso lymitana.** in R.H.C. occ vol, III.
- Setton, Kenneth Meyer:
  - **A History of the Crusades.** Wisconsin, 1969.
- Stevenson, william Barron:
  - **The Crusaders in the East.** Cambridge, 1967.

الفهرس

الموضوع	الصفحة

الفصل الثالث
ظهور السلاجقة

الفصل الرابع
الغزو التركي لبلاد الشام

الموضوع | الصفحة

الفصل الخامس

الاستقرار السلجوقي في بلاد الشام

الفصل السادس

بلاد الشام تحت الحكم السلجوقي

الموضوع | الصفحة

الفصل السابع
الأوضاع الداخلية في بلاد الشام
في عهد ابني تُتُش

الفصل الثامن
الأوضاع السياسية في حلب بعد وفاة رضوان

الفصل التاسع
سلاجقة الشام في مواجهة الخطر الصليبي

الموضوع	الصفحة

الفصل العاشر

سلاجقة الشام في مواجهة الخطر الصليبي

الموضوع	الصفحة

● من منشورات دار النفائس للمؤلف:

- تاريخ الدولة الأموية.
- تاريخ الدولة العباسية.
- تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام.
- تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام.
- تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام.
- تاريخ الفاطميين في شمالي إفريقية ومصر وبلاد الشام.
- تاريخ الإسلام الوجيز (من عصر الرسالة إلى الانقلاب على الخلافة).
- تاريخ سلاجقة الروم في آسيا الصغرى.
- تاريخ السلاجقة في بلاد الشام.

● من منشورات دار النفائس التاريخية:

- تاريخ الدولة العلية العثمانية ـ محمد فريد، تحقيق: د. إحسان حقي.
- مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة ـ د. محمد حميد الله.
- المدخل إلى التاريخ الإسلامي ـ د. محمد فتحي عثمان.
- محاسن الوسائل في معرفة الأوائل ـ محمد عبد الله الشلبي، تحقيق: د. محمد التونجي.
- الأيام الحاسمة في الحروب الصليبية ـ بسام العسلي.
- سلسلة شعب الجزائر ١/ ١٥ ـ بسام العسلي.
- سلسلة مشاهير الخلفاء والأمراء ١/ ١٠ ـ بسام العسلي.
- سلسلة مشاهير قادة الإسلام ١/ ١٥ ـ بسام العسلي.
- القادسية ـ أحمد عادل كمال.
- حدائق الياسمين في ذكر قوانين الخلفاء والسلاطين ـ محمد بن عيسى بن كنان، ت: عباس صباغ.
- الحضارة الإسلامية في بغداد في النصف الثاني من القرن الخامس هـ ـ د. محمد حسين شندب.
- قضية البوسنة والهرسك ـ الأرقم الزعبي.
- السلطة في بلاد الشام (في القرن الثامن عشر) ـ د. عبد الغني عماد.
- من أوراق الانتداب ـ زهير الشلق.
- الفتنة ووقعة الجمل (رواية سيف بن عمر الضبي الأسدي) ـ تصنيف: أحمد راتب عرموش.
- تاريخ فلسطين القديم ـ ظفر الإسلام خان.


ISBN 978-9953-18-044-1

رقم: 405 ـ 02